

كتاب
خِطِّ الشَّيْخِ



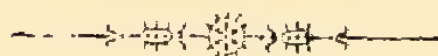
الجزء الثاني



تأليف

محمد عبد الله

رئيس الجمع العلمي العربي



حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

كتاب
خِطِّ الشَّيْخِ



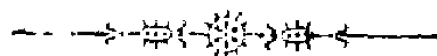
الجزء الثاني



تأليف

محمد عبد الله

رئيس الجمع العلمي العربي



حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الدولة النورية

« من سنة ٥٢٢ الى سنة ٥٦٩ »



فئنة الاسماعيلية (لم يكف الشام تفرق كلمة امرائه واستصفاء الفرنج لسوا حله ووقعة دمشق) في الربع الاول من القرن السادس ، حتى مني بعدو داخلي بقاتل اهله في عقردارهم ويستنجد بالفرنج على ارهاقه ، ويغتال امراءه اخيارهم واشرارهم ، ونعني بهم الباطنية الذين كانوا يسمون القرامطة قديماً ويسمون في هذا الدور بالباطنية او الاسماعيلية . فقد انتشر مذهبهم في كل بلد وكثر الدعاة اليه ، وكانت دار الدعوة في حلب ولكن دمشق كانت موطن التنفيذ والعمل . فأتى ابناء هذا المذهب ودوا لو يؤسسون دولة في العراق او الشام ولكنهم أخفقوا غير مرة ، ولما شعروا بضعف امراء الشام وتشتتهم ، واشتغال قلوب معظمهم بقتال الصليبيين ، ايقنوا ان الفرصة قد سنحت فسار داعيتهم بهرام من العراق الى الشام ودعا بدمشق الى مذهبه فتبعه خلق كثير من العوام وسفهاء الجبال والفلاحين ، وواثق الوزير ابو يعلى طاهر بن سعد المزدقاني فأظهر دعوته علناً ، بعد ان كان يخفي ويطوف البلاد والمعاقل ولا يعلم به احد ، فعظمت به وبشيعته المصيبة . وسكت عن هؤلاء الباطنية العلماء وحملوا الشريعة خوفاً من بطشهم ، ولما استفحل امرهم في حلب ودمشق اضطرر ائحاب دمشق ظهير الدين طغتكين ان يسلمهم قلعة بانياس دفعاً لشرهم ليسلطهم على الفرنج ويقطع تسلطهم على مسلمين ، فعدّ الناس ذلك من غلطاته .

عظم امر بهرام بالشام ومالك عدة حصون بالجمال وقاتل اهل وادي التيم وكان سكانه من النصرية والدروز والمجوس وغيرهم واسم أميرهم الضحالك بن جندل ، ثم قتل بهرام وقام مقامه في قلعة بانياس رجل منهم اسمه اسماعيل ، وأقام الوزير المزدقاني عوض بهرام بدمشق رجلاً اسمه ابوالوفا ، وعظم ابوالوفا حتى صار الحكم له بدمشق ، فكتب الفرنج ليسلم اليهم دمشق ويعوضوه بصور وجعلوا موعدهم يوم الجمعة ليجمع أصحابه على باب الجامع وعلم صاحب دمشق بالامر فقتل الوزير المزدقاني وأمر الناس نثاروا بالاسماعيلية فقتل بدمشق ستة آلاف اسماعيلي (٥٢٣) وقال سبط ابن الجوزي : وكان عدة من قتل من الاسماعيلية عشرة آلاف على ما قيل ولم يتعرضوا لحرّهم ولا لاموالهم ، ووصل الفرنج في الميعاد وحصروا دمشق فلم يظفروا بشيء ، واشتد الشتاء فرحلوا كالمهزمين وتبعهم صاحب دمشق بالعسكر فقتلوا عدة كثيرة منهم ، وسلم اسماعيل الباطني قلعة بانياس الى الفرنج وصار معهم .

قال ابن الاثير : ولما بلغ الفرنج قتل المزدقاني والاسماعيلية بدمشق عظم عليهم ذلك وتأسفوا على دمشق اذ لم يتم لهم ملكها فاجتمعوا كلهم صاحب القدس وصاحب انطاكية وصاحب طرابلس وغيرهم من الفرنج وقمامصتهم ، ومن وصل اليهم من البحر للتجارة والزيارة في خاتى عظيم نحو الف فارس ، واما الراجل فلا يحصى . وروى ابن القلانسي : انهم يزيدون على ستين ألفاً فارساً وراجلاً وساروا الى دمشق ليحصروها ولما سمع تاج الملوك بذلك جمع العرب والترك فاجتمع معهم ثمانية آلاف فارس ووصل الفرنج فنزلوا البلد وارسلوا الى اعمال دمشق بلج الميرة والاغارة على البلاد فلما سمع تاج الملوك ان جمعاً كثيراً قد ساروا الى حوران لنهبه واحضار الميرة كما نهب صاحب القدس (٥٢١) وادي موسى وسبي اهله وشردهم ، سير اليهم اميراً من امرائه يعرف بشمس الخواص في جمع من المسلمين فلقوا الفرنج فواقعوهم واقتتلوا وصبر بعضهم لبعض فظفر بهم المسلمون وقتلوهم فلم يفلت منهم غير مقدمهم ومعه اربعون رجلاً ، واخذوا ما معهم وعادوا الى دمشق لم يمسهم قرح ، فلما علم من عليها من الفرنج ذلك داخلهم الرعب فرحلوا عنها شبه المهزمين ، فتبعهم المسلمون يقتلون كل من تخلف منهم .

ولما استولى الفرنج على قلعة بانياس بنزل صاحبها الباطني عنها وانضمامه اليهم سقطت بأيديهم ايضاً قلعة القدموس وكانت للباطنية . و باحراز هاتين القلعتين قوي امر الفرنج وان عظمت خسائرهم المادية وعاد الناس فأمنوا وخرجوا بعد فشل الصليبيين افي فتح دمشق وايقنوا : « ان الفرنج لا يكاد يجتمع لهم بعد هذه الكائنة شمل لفناء بظالمهم واجتياح رجالهم وذهاب اثقالهم » .

دخول آل (كانت مملكة حلب للبرسقي وبها ولده مسعود فلما قتل البرسقي
زنكي الشام) استخلف مسعود الامير قياز بحلب وسار الى الموصل ثم استخلف
على حلب قتلع ابنه السلطاني فاساء السيرة ومد يده الى اموال الناس لاسيما التركات
فانه اخذها ونقرب اليه الاشهر فنفرت قلوب الناس منه . وكان سليمان بن عبد الجبار
ابن أرتق الذي كان صاحبها اولاً مقيماً بحلب فاجتمع اليه احداؤها وملكوه المدينة
وقتلغ في القلعة وسمع الفرنج اختلافهم فجاءهم جوسلين صاحب انطاكية فصافوه بمال
فرحل بعد ان خندق الحلبيون حول القلعة فمنع الداخل والخارج اليها من ظاهر
البلد واشرف الناس على الخطر العظيم ، وارسل عماد الدين زنكي صاحب الموصل
عسكراً مع القائد قراقوش الى حلب ومعه توقيع السلطان محمود بالشام فاجاب اهل
حلب اليه وتقدم عسكر زنكي الى سلايوز وقتلغ بالمسير الى زنكي فاجابا فلما وصل
اصلح زنكي بين سليمان وقتلغ ولم يرد واحداً منها الى حلب ، وسار زنكي الى حلب
وملك في طريقه منبج وبزاعة وتلقاه اهل حلب ودخل ورتب الامور وملكها وقلعتها
(٥٢٢) . قال ابن الاثير : ولولا ان الله تعالى قد منّ على المسلمين بملك اتابك لبلاد
الشام لملكها الفرنج لانهم كانوا يحصرون بعض البلاد الشامية .

ثم عزم عماد الدين زنكي على الجهاد وارسل صاحب دهشق يلتبس منه المعونة على
حرب الفرنج وبادر الى تحرير وجهه عسكره ، وكتب الى واده بهاء الدين سونج
بجدة بأمره بالخروج في عسكره والاختلاط بالعسكر الدمشقي ، فخرج من حماه الى
مخيم عماد الدين اتابك فاحسن لقاءه ثم غدر به وقبض عماد الدين على سونج وعلى جماعة
المقدمين واعنقلهم في حلب ، وزحف من يومه على حماة وهي خالية من حماة فملكها ،

ورحل الى حمص وكان صاحبها قيرخان بن قراجة معه ، وطلب منه تسليم حمص
فراسل نوابه وولده فيها فلم يلقوها الى مقالته ، فاقام عماد الدين عليها مدة طويلة يبلغ
في محاربة اهلها فلم يتهيا له ما اراد فرحل عنها الى الموصل .

وطلب صاحب دمشق الى صاحب الموصل ان يطلق ولده ومن اعتقلهم من
الامراء والمقدمين فطلب عنهم خمسين الف دينار ، فأجاب تاج الملوك الى تحصيلها ،
ولم يطلق عماد الدين ابن تاج الملوك سونج ومن معه من الامراء الا في سنة ٥٢٥ .
ومات الخصي صاحب صرخد فاستولت سرينه على قلعته ، وارسلت الى ديبس بن صدقة
صاحب الحلة تستدعيه من العراق للزوج به ، وتسليم صرخد بما فيها من مال وغيره
اليه ، فسار ديبس الى الشام فضل به الادلاء بنواحي دمشق فنزل بناس من كلب
كانوا شرقي الغوطة فحملوه الى صاحب دمشق تاج الملوك ، ولما سمع عماد الدين زندي
بأمر ديبس ارسل الى تاج الملوك يطلبه و يبذل له اطلاق ولده سونج ومن معه من
الامراء فأجاب تاج الملوك الى ذلك واطلق عماد الدين سونج ورفاقه .

وفي سنة ٥٢٤ جمع عماد الدين عساكره وسار من الموصل الى الشام وقصد
حصن الاثارب ، وكان اهل على اتصال بالفرنج يقاسمون الحلبين على جميع اعمال
حلب الغربية ، فالتقوا وعسكر عماد الدين واشتد القتال وانصر المسلمون وانهمز
الفرنج ووقع كثير من فرسانهم في الاسر وكثر القتل فيهم ، واخذ المسلمون الاثارب
عنوة وقتلوا واسروا كل من فيها ثم خربها عماد الدين .

بينما كانت دمشق مفتحة بتاج الملوك بوري	} استنجد بعض الصليبيين بالمسلمين واستنقار حال دمشق
اشجاعته ، وقد سد مسد ابه في كفايته وكفاحه ،	
ناداه الاجل سنة ٥٢٦ عقيب جرح كان به من	

الباطنية ووصى بالملك بعده لولده شمس الملوك اسماعيل ووصى بعلبك واعمالها لولده
شمس الدولة محمد . ولما استنقر اسماعيل بن بوري في ملك دمشق واستنقر اخوه في
بعلبك استولى محمد على حصن الرأس وحصن اللبوة فكاتب اسماعيل اخاه في اعادتهما
فلم يقبل ، فسار صاحب دمشق وفتح حصن اللبوة ثم فتح حصن الرأس وقرر امرهما ،

ثم حصر اخاه في بعلبك فسأله الصلح فأجابه اليه ، واعاد عليه بعلبك واعمالها واستقرت امورهما .

ودخلت سنة ٥٢٧ فصار شمس الملوك اسماعيل صاحب دمشق على غفلة من الفرنج الى حصن بانياس وفتح ذلك لما بلغه من عزيمتهم على نقض المودعة المستقرة ، وهال الفرنج ما وقع لقلعة بانياس واكثرها التعجب من تسهل الامر في فتحها مع حصانتها وكثرة الرجال فيها في اقرب مدة . وفتح شمس الملوك حماة وقلعتها وقتل من كان بها ، وحصر قلعة شيزر فصانعه صاحبها بمال حملة اليه . وفي هذه السنة اجتمعت التركمان وقصدوا طرابلس فخرج من بها من الفرنج اليهم واقتتلوا فانهمز الفرنج وسار القومص صاحب طرابلس ومن في صحبته فانحصروا في قلعة بعين حصرهم التركمان بها ، ثم هرب القومص من القلعة وخلي قلعة بعين . ثم جمع الفرنج جمعهم وقصدوا التركمان ليرحلوهم عن بعين فاقتتلوا وانحاز الفرنج الى نحو ريفية وعاد التركمان عنهم .

وقع الخلاف بين الفرنج من غير عادة جارية لهم بذلك ونشبت الحرب بينهم وقتل منهم جماعة والسبب في ذلك اختلاف طفيف نشأ بين امرائهم حدا بصاحب يافا ان يستنجد بالمسلمين في عسقلان فساعدوه حتى خربت البلاد الى حدود مدينة ارسوف ، وعقد صاحب يافا معاهدة مع المسلمين فجاء صاحب القدس وحاصره ، ولكن المسلمين اهتموا الغرة فحاسوا خلال ديار الفرنج واخذوا يناوشونهم القتال ، فخاف صاحب بيت المقدس العاقبة واراد مشاغلة المسلمين فأغار على اطراف حلب ، فنهض اليه الامير سوار النائب في عسكر حلب ومن انضاف اليه من التركمان وتجاربوا اياماً وتطاردوا الى ان وصلوا الى ارض قنسرين فحمل الفرنج عليهم فكسروهم كسرة عظيمة ، فعاود سوار النهوض اليهم في من بقي من عسكره والأتراك فلقوا فريقاً من الفرنج فأوقعوا به وكسروه ، فانكفأت الفرنج الى بلادها مهزومة ، وانتهى الى سوار خبر خيل الرها فنهض وحسان البعلبيكي فأوقعوا بهم وقتلوه عن آخرهم وأغار سوار على الفرنج في تل باشر فقتل منهم الف فارس وراجل وقاتلهم ايضاً في موضع يعرف بنوار في عسكر حلب وما انضاف اليه من التركمان وكانت

الحرب بين الفريقين سجالاً . واشترى الاسماعيلية قلعة القدموس من صاحبها ابن عمرون وصعدوا اليها وقاموا بحرب من يجاورهم من المسلمين والفرنج وكانوا كلهم يكرهون مجاورتهم .

وفي سنة ٥٢٨ سار شمس الملوك الى شقيف تيرون وانتزعه من ابن ضحاك بن جندل التيمي المتغلب عليه . وانتهى الى شمس الملوك ان الفرنج اعتزموا على نقض المنقر من الهدنة وقصد اعمال دمشق ، وشرعوا باخرا بامهات الضياع في جوران ، فوقع التطارد بين الفريقين عدة ايام ثم اغفلهم شمس الملوك وقصد بلادهم عكا والناصرية وطبرية وما جاورها فظفر وغنم وسبي ورجع سالماً على طريق الشعراء في نفسه وجملته ، فذل الفرنج وطلبوا نقرير الصلح بينهم . وفي هذه السنة أوقع صاحب ملطية بالفرنج الذين بالشام فقتل كثيراً منهم .

خيانة صاحب دمشق } ومما خدم عماد الدين زنكي ان شمس الملوك
وقتل امه له } اسمعيل صاحب دمشق كان لاول جلوسه على عرش
ابيه اقر الولاية على حاله وسار بسيرته مدة فنفس من خناق البلاد وساعده اختلاف
الصلبيين ثم تغيرت نيته وكثرت قبائحه ومصادرة المتصرفين والاخيصار المستورين
بفنون قبيحة في العقوبات ، واضمر السوء لاصحاب ابيه وقبض على خواصهم واركان
دولته فنفرت القلوب منه . وكان (٥٢٧) وثب عليه احد مماليك جده طغتكين وهو
في الصيد بناحية صيدنايا وجبة عسال من عمل جبل سنير فاخطأه ، وقرره شمس
الملوك فقال : ما اردت الا راحة المسلمين من شرك وظلمك ثم اقر على جماعة من شدة
الضرب فضرب شمس الملوك اعناقهم من غير تحقيق وقتل اخاه الاكبر سونج صاحب
حماة الذي كان في اسر عماد الدين قتله بالجوع في بيت فعظم ذلك على الناس ونفر
من ظلمه المساكين والضعفاء والصناع والمتعيشون والفلاحون وامتهن العسكرية والرعية .
واهم ما قضى عليه على ما يظهر اضطهاده رجال الدولة فتآمروا عليه ورأوا السبيل
الى النيل منه خصوصاً لما بعث الى عماد الدين زنكي حين عرف اعتزاه على قصد
دمشق لمنازلتها ببعثه على سرعة الوصول اليها ويمكنه من الانتقام من كل من يكرهه

من المتقدمين والامراء والاعيان باهلا كههم واخذ اموالهم واخراجهم من منازلهم وكتب اليه انه اذا تأخر استدعى الفرنج من بلادهم وسلم اليهم دمشق بما فيها ، واسر ذلك في نفسه ولم يبد له احد من وجوه دولته واهل بطائنه ، وشرع في نقل المال والمتاع الى حصن ضرخند . فاجتمع اعيان الدولة وانهوا الحال الى والدته الخاتون صفوة الملك ، فدبرت عليه من قتله من غلمانها ، غير راحمة له ولا متألمة لفقده ، لما عرفت من قبيح فعله وفساد عقله وسوء سيرته . ونودي بشعار اخيه شهاب الدين محمود بن تاج الملوك . وجاء عماد الدين زنكي وخيم بارض عذراء فلما طال الامر راسل عماد الدين في طلب الصلح على ان يخرج الامير شهاب الدين محمود اليه لوطء بساط ولد السلطان الواصل معه ويخلع عليه وبعيده الى بلده فلم يجب الى ذلك ، وتقررت الحال على خروج اخيه تاج الملوك بهرام شاه .

قتل شمس الملوك باثناقي رأي والدته مع ارباب الدولة في دمشق لما بدا من ظلمه واستصراخه الافرنج بعد يأسه من معونة عماد الدين زنكي ، وكان جده طغتكين مثلاً سائراً في غزوه لهم المرة بعد المرة ، ومداراتهم احياناً بالحيلة ، وجمع شمل امراء الشام على قصدهم ابداً ، ومصانعة خلاء بغداد وخلصاء مصر حتى بنجدوا البلاد المحتلة ولو بالقليل من قوتهم المادية والمعنوية ، ولكن ابن ابنه سلك غير طريقته فقتلته امة ورجال دولته . وقد قيل لولا اربع صلح امر الناس « جهل غالب ، وامل كذب ، وحرص دائب ، وهوى جاذب » . وكانت هذه الاعمال المنكرة من بعض صغار الملوك الذين لا يحرصون الا على مصلحتهم الخاصة واذا تأثرت اقل تأثر عمدوا الى وضع ايديهم في ايدي اعدائهم — من موجبات بقاء الافرنج في ثغور الشام وانطاكية والرها وطبرية والناصرية والقدس واستيلائهم على كثير من معاقل البلاد . ولولم يكن شجر الخلاف بين ملوك الفرنج في هذا الدور لسهل عليهم ملك المدن الاربع دمشق وحماة وحمص وحلب بالنظر لخلل الدول المستولية عليها ، واضطرارها الى قتال اعدائها من المسلمين واعدائها من الصليبيين بل واعدائها الداخلين امثال شمس الملوك . وللناقد البصير بعد هذا ان يقول ان دولة اتابك طغتكين كانت عزيزة الجانب في اولها فاصبحت ذليلة وعبئاً ثقيلاً على الشام بعد بطنين من مؤسسيها .

توحيد الحكم على يد زنكي } بعد ثقل امر آل طغتكين اخذت روح آل
وقضاؤه على اماره صليبية } زنكي تسري في البلاد ، فنهض الامير مسعود
سوار نائب زنكي في حلب سنة ٥٣٠ هـ فمضى انضم اليه من التركمان ، وجرد جيشه
على الاعمال الفرنجية فاستولى على اكثرها ، وغزا اللاذقية واعمالها بغتة وعاد من هذه
الغزاة الى شيزر ومعه زيادة عن سبعة آلاف اسير بين رجل وامرأة وصبي وصبيبة
ومائة الف دابة ، وحاز او اجتاح اكثر من مائة قرية كبيرة وصغيرة فامتلات
الشام من الاسارى ورجعوا بهم الى حلب وديار بكر والجزيرة .

هذا ما وقع من الاحداث في العقد الثالث من القرن السادس ، واهم ما حدث
ظهور دولة عماد الدين زنكي صاحب الموصل في حلب وايقانه انه لا سبيل الى دفع
الصليبيين عن الشام الا اذا كان امر المسلمين يرجع الى ملك واحد ، وانه اذا تقدم
بجيشه قليلاً بعد اخذه حلب استولى على دمشق ، وانقذ البلاد من فوضى آل اتابك
طغتكين وضعفهم ، فقد كثر هجوم عماد الدين زنكي على حمص (٥٣٠) فتسلمها
صاحب دمشق من اولاد قيرخان بن قراجة وعوضهم عنها تدمر ، فتابع عسكر زنكي
بحلب وحماة الغارة على حمص لما رأوا خروجها الى صاحب دمشق ، فأرسل هذا الى
عماد الدين في الصلح فاستقر بينهما . وكف عسكر عماد الدين عن حمص وحدثت
فتنة بدمشق بين صاحبها والجند وعاد عماد الدين فنازل حمص (٥٣١) وبها صاحبها
معين الدين اتسز فلم يظفر بها ، فرحل عنها الى بعين وحصر قلعتها وهي للفرنج
وضيق عليها ، فجمع الفرنج ملوكهم ورجالهم وساروا الى زنكي ليرحلوه عن بعين
فلما وصلوا اليه جرى بينهم قتال شديد فانهمزمت الفرنج ، وعاود عماد الدين حصار الحصن
فطلب الفرنج الامان ، فقرر عليهم تسليم الحصن وخمسين الف دينار فأجابوا الى
ذلك ، وكانت زنكي في مدة مقامه على حصار بعين قد فتح من الفرنج المعرة
وكفر طاب ومنع اتابك زنكي في هذه الواقعة عن الفرنج كل شيء حتى الاخبار
فكان من بخصن بعين منهم لا يعلم شيئاً من اخبار بلادهم لشدة ضبط الطرق
وهيبته على جنوده . وملك عماد الدين (٥٣٢) زنكي حصن المجدل وكان لصاحب
دمشق ، ودخل مستحفظ بانياس ابراهيم بن طرغتمش طاعته ، وسار الى حمص

وحصرها ثم رحل عنها الى سلمية بسبب نزول ملك الروم على حلب ، ثم عاد الى حمص فسلمت اليه المدينة وقلعتها وكان شرع اهل حلب في تحصينها وحفر خنادقها والتحصن من الروم بها ، واغارت خيل الصليبيين على اطراف حلب ، وتملكوا حصن بزاعة ثم نصبوا خيامهم على نهر قويق فخرجت اليهم فرقة وافرة من احدث حلب فقالتهم وظفرت بهم ، ونهض الامير سوار في عسكر حلب وادرك الصليبيين في الاثارب فوقع بهم وقهرهم ونزل ملك الروم هذه السنة (٥٣٢) على بزاعة وحاصرهما حتى ملكها بالامان واسر من فيها ثم عذر بهم ونادى مناديه من تنصر فهو آمن ومن ابى فهو مقتول او مأسور فلتنصر منهم نحو اربعمائة انسان منهم القاضي والشهود ثم رحل عنها الى شيزر وترك فيها والياً يحفظها مع جماعة واقام عشرة ايام يدخن على مغارات اخفى فيها جماعة فهلكوا بالابحان وكان سكان بزاعة خمسة آلاف وثمانمائة نسمة ، وعاد عماد الدين وحاصرهما حتى ملكها في المحرم سنة ٥٣٣ وخرب الحصن والبلد عامر . وفي سنة ٥٣٣ سار من مصر عسكر الى وادي موسى فحاصر حصن الوعيرة ثمانية ايام وعاد بعد ما توجه الى الشوبك واغار عليها وترك هناك اميرين على الحصار . وتزوج عماد الدين ام شهاب الدين محمود صاحب دمشق زمرد خاتون بنت جاولي وهي التي قتلت ابنها شمس الملوك اسمعيل وذلك طمعاً من عماد الدين في الاستيلاء على دمشق لما رأى من نفوذ هذه المرأة في الدولة . وكثيراً ما حدث ان كان في بعض الدول كلمة نافذة للنساء من آل بيت الدولة وغيره صادقة في كف خصائها عنها ووقايتها من السقوط .

وكان مملك الروم خرج في السنة الفائتة واشتغل بقتال الارمن وصاحب انطاكية وغيره من الفرنج وعمر ميناء الاسكندرونة ثم سار الى بزاعة وملكها وغدر باهلها ثم رحل عنها الى حلب فجرى بينه وبين اهلها قتال كثير فعاد عنها الى الاثارب وملكها وسار نحو شيزر وحاصرهما اربعة وعشرين يوماً فانجدها عماد الدين حتى اضطر مملك الروم الى الرحيل فظفر عماد الدين بكثير ممن تخلف منهم . وكان زكي يرسل الى ملك الروم يومه بان فرنج الشام خائفون منه فلو فارق مكانه تخلفوا عنه ، ويرسل الى فرنج الشام يخوفهم من ملك الروم ويقول لهم ان ملك بالشام حصناً واحداً ملك بلادكم جميعاً ، فاستشعر كل من صاحبه فرحل ملك الروم عنها . ونهض هذه السنة الامير

بزواج في فريق وافر من العسكر الدمشقي والتركان الى ناحية طرابلس فظهر اليه قومصها والنقيصا فكسره بزواج وقتل منهم جماعة وافرة وملك حصن وادي ابن الاحمر وغيره . ونهض ابن صلاح والي حماة في رجاله الى حصن الخربة فملكه .

قويت دولة عماد الدين زنكي بعد استيلائه على حلب وحماة وحمص والمرة وكفرطاب وبعليك وغيرها ، والحاشه القتل في الفرنج واستيلائه على بعض معاقلهم ، فلم يسع شهاب الدين محموداً صاحب دمشق الا مهادنته على قاعدة احكت بينهما ، واصبح القول الفصل لعماد الدين دون شهاب الدين في شؤون الشام . اما الفرنج في انطاكية فلما ارتاح بالهم من جهة ملك الروم وصالحوه على ما اشترط ، عادوا هذه السنة فنقضوا الهدنة المستقرة بين عماد الدين وبينهم وقبضوا في انطاكية خمسمائة رجل من تجار المسلمين واهل حلب والسفار .

وبينا كان عماد الدين يدبر ويفكر ويهتم لاختد دمشق نعي النسايعي (٥٣٣) شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري بن ظهير الدين اتابك ، قتله غلمان في فراشه فتولى بعده اخوه الامير جمال الدين محمد بن تاج الملوك صاحب بعليك فبعثت والدته الخاتون صفوة الملك والددة الامير شهاب الدين الى زوجها عماد الدين زنكي ، وهو على الموصل ، تبعت همته على النهوض لطلب الثأر ، فجاء وفتح الاثارب وبعليك . وقال بعض المؤرخين : ان زنكي آمن قلعة بعليك وتسلمها ثم غدر باهلها فأمر ببعضهم فصلبوا فاستقبح الناس ذلك منه .

ولما رأى جمال الدين صاحب دمشق ان دولة عماد الدين زنكي ستكون لها الغلبة على دولته اعتضد بالفرنج على مال يحمل اليهم ليدفعوا عن دمشق عادية عماد الدين ، فسار هذا طالباً للقضاء بالفرنج ان قربوا منه ثم عاد الى الغوطة ونزل بعذراء فأحرق عدة ضياع من المرج والغوطة الى حرستا التين ورحل متثاقلاً . وكان الشرط بين الفرنج وصاحب دمشق ان يكون في جملة المبدول لهم انتزاع ثغر بانياس من يد ابراهيم بن طرغت ، فانفق ابن نهض هذا الى ناحية صور للاغارة عليها ، فصادفه ريمند صاحب انطاكية واصلاً في الفرنج على انجاء اهل دمشق ، فالنقيصا فكسره وقتل في الواقعة ومعه نفر يسير من اصحابه ، وعاد من بقي منهم الى بانياس

فتحصنوا بها وجمعوا اليها رجال وادي التيم فنهض اليها الامير معين الدين اتسر في
عسكر دمشق وحارب بانياس بالمجنقيات ومعه فريق وافر من عسكر الفرنج ففتحها
وسلمها اليهم .

وجاء عماد الدين بعسكره هذه السنة ايضاً الى دمشق وقرب من السور ، وكان
قد فرق عسكره في حوران والغوطة والمرج وسائر الاطراف للغارة ، ونشبت الحرب
بينه وبين عسكر دمشق ، ثم سار عائداً على الطريق الشمالية بالغنائم الدثرة . وسار اتابك
الشهيد الى بلاد الفرنج فأغار عليها واجتمع ملوك الفرنج وساروا اليه . وفي الروضتين
ان الشهيد اقيهم بالقرب من حصن بارين وهو للفرنج ، فصر الفريقان صبراً لم يسمع
بمثله ، فحاصره حصراً شديداً فراسلوه في طلب الامان ، وكان حصن بارين من
اضر بلاد الفرنج على المسلمين ، فان اهله كانوا قد خربوا ما بين حماة وحلب من
البلاد ونهبوها ونقطعت السبل ، كان اتابك استولى على هذا الحصن سنة ٥٣١
واعطى الامان لمن فيه وقرر عليهم تسليمه ومن المال خمسين الف دينار يحملونها اليه .
وظهرت عسكرية عسقلان على خيل الفرنج (٥٣٥) الفائزين عليها فعادوا مفلولين .
وملك الباطنية حصن مصياف وكان واليه مملوكاً لبني منقذ اصحاب شيزر فاحتال عليه
الاسماعيلية ومكروا به حتى صعدوا اليه وقتلوه . واغار الامير لجه التركي (٥٣٦)
النازح عن دمشق الى خدمة عماد الدين اتابك على بلاد الفرنج وظفر بخيلهم وقتل بهم فقتل
منهم سبعمائة رجل . وظهر (٥٣٧) صاحب انطاكية في ناحية بزاعة فشناء عنها النائب
في حفظ حلب وحال بينه وبينها . وظهر متملك الزوم في الثغور دفعة ثانية وبرز اليه
صاحب انطاكية واصلى امره معه . وفي سنة ٥٣٧ خرجت فرقة وافرة من الفرنج الى
ناحية بعلبك للعيث فيها فقتل المسلمون اكثرهم وعادوا الى بعلبك سالمين . وظفر
عسكر حلب بفرقة كبيرة من التجار والاجناد خارجين من انطاكية تريد بلاد الفرنج
فاوقعوا بها وقتلوا من كان معها من خيالة الفرنج .

وفي سنة ٥٣٩ فتح عماد الدين زنكي الرها من الفرنج بالسيف بعد حصار ثمانية
وعشرين يوماً ثم تسلم مدينة سروج وسائر الاماكن التي كانت بيد الفرنج شرقي الفرات .
وكان لا يمر بعمل من اعمالها ولا معقل من معاقلها فينزل عليه الاسلام اليه في الحال ، وهزم

التركان الفرنج الذين انحدبوا من انطاكية لانجاد اهل الرها شرهزيمة ، وتمكن السيف في اكثر الراجل وتفرقوا في اعمالهم ومعاقلم مفلولين . اي ان عماد الدين اتي ببأسه على اماره الشمال الصليبية برمتها وهي احدى الامارات الاربع التي اقامها الصليبيون في الشام فلم يبق لهم الا اماره انطاكية وهي تمتد الى قيليقية وامارة طرابلس وامارة القدس .

الحال بعد نصف قرن { نصف قرن مضى على دخول الصليبيين الشام وهي اذا
من نزول الصليبيين } ماخلا فيها سيد قام سيد ، يشتد في دفعهم عن البلاد او يحافظ على الحالة الحاضرة على الاقل ، وكما رأى من يعتد بعقلهم وغيرتهم من امراء المسلمين عدم وفاء الصليبيين للعهود زادوا في قتالهم وغزؤهم والتخريب في حصونهم وارضهم ، وهذه الاراضي اي القرى والمزارع كانت ملك الفلاحين من المسلمين والمسيحيين ، والويل لمن كان صقعهم في طريق المهاجمين والمدافعين فان مزرعته وداره الى بوار ، ولا سيما اعمال حلب وطرابلس لقربهما من امارتين افرنجيتين قويتين واعمال حوران والسواد والبلقاء وجبل عوف وجبل الشراة فان المتكفل بغزوها صاحب القدس وهو اقوى ملوك الفرنج في الشام ، واليه يرجع في المهمات والقضايا العظيمة ، وهو ينجد اصحاب الرها وانطاكية وطرابلس يوم الشدائد .

وكان آل انوخ وآل معن حجازاً في اعالي سواحل لبنان او جبال فينيقية بين املاك الصليبيين واملاك صاحب دمشق ولهم الاثر المذكور في ذلك ، ولذلك كان يتنازعهم المستولي على دمشق والمتولون للساحل ولكن خدمتهم للمسلمين اكثر بالطبع وهواهم مع ابناء دينهم وعلى نحو ذلك كان الدروز وقد قاتلوا في صفوف المسلمين فاضهروا من الشجاعة والنجدة ما نقر به العيون . ومن الغريب ان شيعة جبل عامل كانوا من حزب الصليبيين على المسلمين الا قليلا وكانهم اضطروا الى ذلك اضطراباً لان بلادهم في قبضة الصليبيين كما كان هوى الموارنة لمكان الدين مع الصليبيين ومن الموارنة ادلاء لهؤلاء وعمال وتراجمة عندهم ، وكان بطاركة الفرنج يتنقلون في قرى لبنان الساحلية ولهم السلطان الاكبر على امراء تلك البلاد من الفرنج .

وكانت قوى فريق المسلمين وفريق الدخلاء على بلادهم متعادلة في الغالب ، ينال كل منها من جاره ويغزوه في عقر داره ، ويعود وقد ملئت ايدي المتحاربين بالغنائم والاسرى . والفرنج يأتهم المدد كل سنة على طريق البحر على الاغلب ، والبحر لا يحمل الناس كالبر ، والمسلمون تأتيمهم النجديات من مصر في الجنوب ومن العراق في الشرق ومن ديار بكر وديار مصر وآسيا الصغرى . والفرنج مؤلفون بحسب عناصرهم من طليان وفرنسيس والمان ، وجيوش المسلمين مؤلفة من تركمان واكراد وعرب .

وما غفل فريق عن فريق سنة واحدة خلال هذه المدة . ولم يكتب لاحد عظماء الامراء في الاسلام ان يطول عهده وترسخ قدمه في الملك والسلطان حتى يحمل حملة رجل واحد على الفرنج ، فان دمشق وحلب وعليهما في الجنوب والشمال المعول في الحرب لانهما المعسكران العظيمان في داخلية البلاد كثيراً ما شغلا بانفسهما ورد دسائس الذين يترصدون الدوائر بملوكهما ، والفرقة الباطنية التي كان المقصد من الاغضاء عنها ان تقف سداً في وجه الاعداء لما عرف به اربابها من الشدة والمضاء ، اصبحت آلة شر على المسلمين لا لهم في اكثر الاحيان ، ولم يخلصوا لمن انشقوا عنهم مذهباً وان لم ينشقوا عنهم قومية .

فاقتضت الحال ان يتولى امر الامة بعد نقش واق سنقر وبزان وابن عمار وابن منقذ ومسعود وطغتكين وبوري وزنكي امراء من عيار ارقى وبسلطة اعظم ، تكون اجزاء حكومتهم اكثر تجانساً من ذي قبل ، اذ ليس الزمن زمن ملك وامارة ، ولا عهد سكة مضروبة ، وخطبة مخطوبة ، بل العهد عهد عمل بالقرائح والعقول ، وعمل بالسلاح والكراع ، وعمل بالخطط العسكرية والخدم الحربية ، وقت كله جد في جد ، والا فالعدو يتقدم ، والاسلام يهلك وبعدم ، وعمل عظيم كهذا متوقف على قيام زعيم كبير يلتف الناس حوله عن رضى ، ويجذب قلوبهم بصالح اعماله لا بهرج مقامه ولطف مقاله ، ويهبرهم بلامع اخلاصه ، لا ببريق الذهب على كرسيه وتاجه .

صفات عماد الدين زنكي } بدأ العقد الرابع من القرن السادس وفيه قتل
وتولي ابنه نور الدين } عماد الدين زنكي على قلعة جعبر بيد جماعة من
مماليكه . وكانت صفاته صفات حربية راقية اشتهر بشجاعته ونجدته ، اشتهاره ببطشه
وشدته ، وكان يحب التوسع في الملك والدب عن حوزة الاسلام ، ويدرك بثاقب نظره
ان الاعداء محيطة بمملكته لا ينجيها منهم الا القضاء على احدى اماراتهم في الرها
وما اليها ، ولا يثق بأسهم بمناوشات وحروب تستصفي معها بعض القلاع والحصون
ثم يستعيدونها وبالعكس ، وما دامت دمشق لم تدخل في سلطانه لا يقوى ملكه
بالشام الاسلامية مع ملكه الموصل على ردة عوادي الدهر ودفع غوائل العدو .
توفرت في شخصه شروط التوسع في الملك ، وعرف ادارة الممالك بالعمل ورثها من
ابيه آق سنقر وبذته فيها ، فكان مريباً فاضلاً شهماً مشهوداً له بذلك ، دفع اليه السلطان
محمود لما تولى الموصل واديه آلب أرسلان وفروخ شاه المعروف بالخفاجي ليربهما
فلذا قيل له اتابك .

فن صفات عماد الدين انه كان ينهي أصحابه عن شراء الملك ويقول ان الاقطاع تغني
عنها ، ومتى كانت البلاد لنا فلا حاجة اليها ، ومتى ذهبت البلاد منا ذهبت الاملاك
معه ، ومتى كان لاصحاب السلطان ملك تعدوا على الرعية وظلمهم ، على حين كانت
الاقطاعات في عهده للامراء والقواد وارباب الدولة شائعة غير منكورة عند المسلمين
وعند الصليبيين في هذه الديار . قيل للشهيد اتابك زنكي ان هذا كمال الدين بن
الشهرزوري يحصل له في كل سنة منك ما يزيد على عشرة آلاف دينار اميرة وغيره
يقنع منك بخمسمائة دينار . فقال لهم : بهذا العقل والرأي تدبرون دولتي ؟ ! ان
كمال الدين يقل له هذا القدر وغيره يكثر له خمسمائة دينار . فان شغلاً واحداً
يقوم به كمال الدين خير من مائة الف دينار . وكان كما قال . وهذا اكبر دليل على
حرصه على رجاله ولا تقوم دولة الا بامثال الوزير الشهرزوري .

وكانت له عناية باخبار البلاد وتنشدها ويغرم عليها الاموال الطائلة ، فيقف
على اخبار الملوك ساعة بساعة ، واذا جاءه رسول لا يمكنه من الحديث مع احد الرعية
لئلا ينشر الخبر في البلد . وكان يفرق الاموال في القلاع والبلاد فلا يجعلها في

مكان واحد ويقول : اذا كانت الاموال في موضع واحد وحدث حادث وانا في موضع آخر لم انتفع بها وذهبت ، واذا كانت متفرقة لم يحل بيني وبينها رجعت الى بعضها . وكانت البلاد قبل ان يملكها خراباً من الظلم ونقل الولاة ومجاورة الفرنج فعمرها وامتلات اهلاً وسكاناً وقبل ان يجيئ زنكي الى الشام اشتدت صولة الصليبيين واتسعت مملكاتهم من ناحية ماردين وشيخان الى عريش مصر وانقطعت الطرق الى دمشق الا على الرحبة والبر ، وجعلوا على كل بلد جاورهم خراجاً واثابة يأخذونها منهم ليكفوا اذيتهم عنهم . وكان مهيباً شديد الوطأة على من يعشون بحياة الامة . بلغه ان بعض الولاة تعرض لامرأة فقلع عينيه وجب مذاكيره فخاف الولاة وانزجروا وكان شديد الغيرة ولا سيما على نساء الاجناد . وكان يقول : ان لم تحفظ نساء الاجناد والافسدت لكثرة غيبة ازواجهن في الاسفار . ترجمه العماد الكاتب بقوله : كان زنكي ابن آق سنقر جباراً عسوقاً ، بنكباء النكبات عسوقاً ، غري الخلق ، اسدي الخلق ، لا ينكر العنف ، ولا يعرف العرف ، قد استولى على الشام من سنة ٥٢٢ الى ان قتل في سنة ٥٤١ وهو مرهوب لسطوه اهـ . وبعض هذه الصفات نازعت منها نفس ابنه نور الدين محمود وهذا الرجل الذي كان ينظر لانقاذ الشام مما حل به من الويلات ، فانه جمع الصفات الحسنة في ابيه وتجرد عن الصفات الرديئة فيه .

كان نور الدين في قلعة جعبر يوم مقتل ابيه عماد الدين بيد المالك فسمي الشهيد فاخذ في الحال خاتمه وهو ميت من اصبعه وسار الى حلب فملكها ، وارسل كبراء دولة زنكي الى ولده سيف الدين غازي بن زنكي يعلمونه الحال وهو بشير زور ، فسار الى الموصل واستقر في ملكها . قال ابن عساكر : وسير نور الدين الملك آتب ارسلان بن السلطان محمود بن محمد الى الموصل مع جماعة من اكابر دولة ابيه وقال لهم ان وصل اخي سيف الدين غازي الى الموصل فهي له ، وانتم في خدمته وان تأخر فانا اقرر امور الشام واتوجه اليكم . ولما انتهى نعي عماد الدين الى صاحب دمشق خف في الحال الى حصن بعلبك وحصره وكان متوليّه نجم الدين ايوب بن شادي والد صلاح الدين يوسف ، فخاف ان لا يتمكن اولاد زنكي من انجاده بالعاجل فصالح صاحب دمشق

وسلم القلعة اليه ، واخذ منه اقطاعاً ومالاً وملكه عدة قرى من بلاد دمشق . ولم يكد نور الدين يترجع في دست الحكم بحلب حتى بدت آيات فضله ، وصحة حكمه وعقله وحزمه ، وباستيلائه على الاعمال ظهر نبوغه فدخلت الشام في حياة سياسية جديدة بعد ثقل امر الدولة الاتابكية بدمشق ودخول الوهن على فروعها بعد زوال اصلها الثابت ظهير الدين طُغتكين . وسار نور الدين على قدم ابيه عماد الدين في التقرب من ملوك الاطراف فشطب ابنة معين الدين اتسر الملك الحقيقي لدمشق ، والحاكم المتخكم في سياستها ليتم له بالصهر والقرابة ما كان ابوه يرمي اليه بزواجه بام شهاب الدين محمود فلم يتم له ، وتزوج نور الدين بعد ذلك بابنة صاحب قونية واقصرا فأمن بهذا الزواج من غارة غيرها صاحب آسيا الصغرى على الشام ، ومن تسرب عسكر الصليبيين عن طريق الروم الى بلاده

بعد ان أصيب جوسلين صاحب الرها بتمزيق شمل امارته قبل سنين على يد عماد الدين زنكي ، جمع الفرنج من كل ناحية وقصد مدينة الرها على غفلة بموافقة النصارى المقيمين بها فاستولى عليها وقتل من بها من المسلمين فنهض نور الدين (٥٤١) فممن انضاف اليه من التركمان فاستعاد البلد وقتل كثيراً من ارمها ، ومحق السيف كل من ظفر به من نصاراها . واستنجد صاحب دمشق بنور الدين على قتال والي صرخد الذي كان خرج الى ناحية الفرنج للاستنصار بهم ، فجاء نور الدين في عسكر حسن من حلب فاجتمع الجيشان على حلب ، وبلغ صاحبي حلب ودمشق ان الفرنج احتشدوا قاصدين بـ بصرى فحال عسكر المسلمين بينهم وبين الوصول اليها ، واستظهر عسكر المسلمين على الفرنج فولوا الادبار فتسلم صاحب دمشق حصني بصرى وصرخد .

الحملة الصليبية الثانية . () وفتح نور الدين في السنة التالية (٥٤٢) مدينة ارتاج وغزوتها دمشق (ا) بالسيف وحصر ثامولة (؟) وبسرفوث وكفر لاما من اعمال الفرنج . قال صاحب الكامل : كان الفرنج بعد قتل والد نور الدين قد طمعوا وظنوا انهم بعده يستردون ما اخذه ، فلما رأوا من نور الدين هذا الجد في اول امره علموا ان ما املوه بعيد وخاب ظنهم واملمهم وبيننا كان نور الدين يجمع شمله

لضرب الفرنج في مثل من مقاتلهم للقضاء على قوتهم التي ظهر له ضعفها يوم استرد أبوه منهم الرها ، وردت الاخبار من قسطنطينية ان حملة عظيمة قادمة من بلاد الفرنج وهي المعروفة بالحملة الصليبية الثانية مؤلفة من فرنسيس بقيادة لوي السابع والمان بزعامه كونراد الثالث وفي الجيش انكليز وفلانديون وطيلىان ومن هؤلاء البنادقة والجنوية والبياسنة (البيزيون) وذلك لانجناد الصليبيين في الشام ، اذ ساءت حالهم بعد سقوط الرها وقل فارسيهم وراجلهم لان سيوف التركمان والاكراد والعرب قد حصدهم ، وعلى كثرة نناسلم مدة نصف قرن اصبحوا في قلة واصبح اعداؤهم في كثرة .

تجمعت هذه الحملة بتحميس القديس برناردوس في الغرب وكان له كما لرؤساء الدين السلطان الاكبر على النفوس يصرفها كما يشاء . وذكر المؤرخون ان عدد هذا الجيش كان الف الف عنان من الرجال والفرسان وقيل اكثر من ذلك وفي التاريخ العام ان كلا من الجيش الالماني والجيش الافرنسي كان مؤلفاً من سبعين الف فارس ماعدا الرجال الذين لا يحصى عددهم وان الروم قدروا مجموعه سبعمائة الف رجل . قال وهو تقدير ظاهر المبالغة . واختار هذا الجيش طريق البر وعرض عليه روجر صاحب بوليسه وصقلية ان يسافر بحراً لانه كان ينوي الاستعانة بجيش الصليبيين ليدفع المسلمين عن بلاده ، وكانوا احتلوا سر كوزة ، فلقى جيش الصليبيين من صاحب القسطنطينية وامراء بني سلجوق في آسيا الصغرى خسروب القهر والموت . قال مؤرخونا واستمر القتل فيهم اي في الصليبيين الى ان هلك العدد الدثر منهم ، وحل بهم من عدم القوت والعلوفات والمير وغلاء السعر ما افنى الكثير منهم .

وصلت مراكب الفرنج (٥٤٣) الى ساحل البحر كصور وعكا واجمع من كان بها من الفرنج بعدما فني منهم اي من القادمين من طريق البر بالقتل والمرض والجوع نحو مائة الف انسان ان يقصدوا بيت المقدس . ولما قضوا مفروض حجهم عاد من عاد بعد ذلك الى بلادهم في البحر ، وبقي ملك الالمان اكبر ملوكهم ومن هو دونه وصلى الصليبيون في القدس صلاة الموت ، وعادوا الى عكا وفرقوا المال في العسكر وكان مقدار ما فرقوه سبعمائة الف دينار ولم يعينوا لهم وجبة وما كانت وجهتهم الا فتح دمشق فوراً وبغيرها وهربوا المسلمين بين ايديهم . ولم يشعر اهل دمشق الا وملك

الامان قد ضرب خيمته على باب مدينتهم في الميدان الاخضر . وكان الفرنج في نحو خمسين الفا من الخيل والرجل وقيل اكثر من ذلك . ويقول ابن منقذ ان ملك الامان لما وصل الى الشام اجتمع اليه كل من في ارجاء الساحل من الفرنج ، فقصدوا اولاً المنزل المعروف بمنازل العسكر فصادفوا الماء مقطوعاً عنه ، فقصدوا ناحية المزة ووصلت طلائعهم الى الميدان الاخضر فنشبت الحرب بين الفريقين ، واجتمع عليهم من الاجناد والأتراك والتركمان واحداث البلد والمطوعة والغزاة الجمل الغفير ، وكانت المكاتبات قد تقذت الى ولاية الاطراف بالاستصراخ ، واخذت خيل التركمان تتواصل فلما خاف الامر بالفرنج بعد اربعة ايام ورأوا شدة عزيمة المسلمين في قتالهم رحلوا مفلولين .

ويرى مؤرخو الحروب الصليبية من الفرنج ان جيش الحملة الصليبية الثانية كان اكثر نظاماً وقيادة من جيش الحملة الاولى وليس فيه المتشردون والاشقياء بل كان مؤلفاً من فرسان وبارونات وغيرهم أخذوا بالحماسة الدينية وساروا في قيادة ملوك عظمين . وفي التاريخ العام ان هذه الحملة الصليبية الكبرى لم تجد تفعلاً البتة حتى استغربت حالها ام النصرانية فبحث بعضهم عن الخطايا التي استحققت بارتكابها هذه الكارثة ونسبت اخرى هزيمة الحملة لخداع الروم او خيابة نصارى الشرق وذكروا ان الصليبيين في القدس قد ارتشوا من امير دمشق بمبلغ مائتين وخمسين الف دينار وان الامير ارسل المال زيوفاً او نحاساً طلي بالذهب .

انكسر الجيش الذي قاتل دمشق بقيادة كونراد الالماني ولويس السابع الفرنسي وبودوين الثالث ملك القدس في بساين المزة ولحق فاتهم بالساحل ، بعد ان قطعوا اشجار الحدائق للتحصن بها وأحرقوا الزبوة والقبة المهدوية . وقد وصف ابو الحسب الاندلسي جيش الفرنجة على دمشق في مخيمه ومعتبره ومجتلده ومنهزمه وصفاً جميلاً قال :

بشطي نهر داريا امور ما تواتينا
وأقوام رأوا سفك ال دما في جلق دينا
أتانا مائتا الف غديداً او يزيدونا

فبعضهم من اندلس وبعض من فلسطينا
ومن عكا ومن صور ومن صيدا وتبنينا
إذا أبصرتهم أبصر ت أقواما مجانينا
ولكن حرقوا في عا جل الحال البساتينا
وجازوا المارج والتعدي بل أيضا والمياديننا
نملهم وقد ركبوا قطائرها حراذينا
وبين خيامهم ضموا ال يختاروا والقرايينا
ورايات وصلباننا على مسجد خاتونا

ومن توفيق صاحب دمشق بوهند وهو مجير الدين أرئق بن محمد بن بوري بن طغتكين ان الحكم وتدير المملكة كان لمعين الدين اتسر مملوك جده طغتكين ، وكان عاقلا دينيا محسنا لعسكره فاستنجد بصاحب الموصل سيف الدين غازي بن زنكي وصاحب حلب نور الدين محمود بن زنكي ، فجاء الشقيقان في جيش حلب ، وانضم جيشهما بل روحه وروح ابيهما الى روح مملوك طغتكين مؤسس الدولة الأتابكية ، مع خمس الامة ومعرفتها حق المعرفة ان الفرنج اذا أخذوا دمشق سقطت بلاد الشام كلها ، وربما تعدوها الى الحجاز وهناك الطامة العظمى على المسلمين ، وكان اجتماع آل زنكي الاقوياء مع صاحب دمشق الضعيف في سلطانه فاتحة لعمل عظيم يتوقع منهم في الشام ، وان ملكها سيؤول اليهم بحكم الطبيعة . ولم يرض سيف الدين ولا نور الدين ان يناقشا مجير الدين ومعين الدين الحساب عما قدماه وقالاه ، بل مرا بالاحقاد مر الكرام وجعلوا الاقوياء دبر آذانهم وعند الشدائد تذهب الاحقاد .

ذكروا ان معين الدين اتسر كان قد كاتب سيف الدين غازي صاحب الموصل قبل نزول الفرنج على دمشق ، يستصرخ به ويخبره بشدة بأس الفرنج ويقول له : ادركنا فصار سيف الدين في عشرين الف فارس فنزل جيرة حمص وبعث الى معين الدين يقول : « قد حضرت بجند علم ولم أترك ببلادي من يحمل السلاح ، فان انا جئت الفرنج وكانت علينا الهزيمة وليست دمشق لي ولا لي بها نائب لم يسلم منا احد واخذت الفرنج دمشق وغيرها فان احببت ان أقاتلهم فسلم البلد الى من اثنى به ، وانا

احلف لك ان كانت النصره لنا عليهم انني لا ادخل الى دمشق وارجع الى بلادي «
فمطله معين الدين وبعث الى السواحل يقول : « هذا ملك الشرق نازل على حمص
وليس لكم به طاقة ، فان رحلتم والا سلمت دمشق اليه وهو يبيدكم وانا اعطيكم بانياس »
اي ان معين الدين اتسر اثر ان يتخلي عن بانياس مفتاح دمشق الاكبر من جهة
بلاد الفرنج ، ولا يجعل لسيف الدين غازي اصبعاً في بلده ، لعله ان دولة آل
زنكي سيفه عنفوان امرها غضة الالهاب ودولتهم هرمة ، والفى يغلب الهرم ويخلفه
بحكم الطبيعة .

تقدم نور الدين } ولما رحل الفرنج عن دمشق كتب القومص صاحب
في فتوحه } طرابلس الى معين الدين والى نور الدين يستنجدهما على
ولد الفنس صاحب صقلية الذي اخذ منه حصن العرمة ، ويريدهما على اخذه خوفاً
منه على بلده ، وكتب الى سيف الدين يطلبان منه المدد فامدهما ، فحصروا الحصن
وتقبوا السور ، فاذهعن الفرنج واستسلموا والقوا بأيديهم ، فملك المسلمون الحصن
واخربوه واخذوا كل من فيه .

وعاد عسكر سيف الدين الى الموصل وعسكر نور الدين الى حلب واخذ هذا
بجمع اطرافه وتوجه الى ماداني بلاده من بلاد الفرنج وظفر بعدة وافرة
منهم وجمع صاحب انطاكية رجاله فصد نور الدين على حين غفلة منه ، ونال من
عسكره حتى اضطر نور الدين ان يهرب بنفسه وعسكره الى حلب . وفي هذه السنة
(٥٤٣) نادى منادي نور الدين في حلب بابطال الاذان بحمي على خير العمل في اواخر
اذان الغداة ، واعاد اذان اهل السنة ففرح الناس فابطل بذلك اثراً عظيماً من آثار
الدولة العلوية الفاطمية .

لم تثبط هزيمة نور الدين يوم انطاكية من عزيمته ، وقصد الفرنج فكان
بينه وبينهم مصاف بارض بغرى من العمق فانهمزم الفرنج الى حصن حارم وكانوا همزوا
المسلمين اولاً بهذا الموضع ، وقتل منهم وأسر جماعة كثيرة فأرسل منهم جماعة مع
غنائم كثيرة الى اخيه سيف الدين صاحب الموصل . وفي هذه السنة سار نور الدين

الى بصرى وقد اجتمع الفرنج قضمهم وقضيضهم ، فالتقى بهم هنالك واقتتلوا اشد قتال
فهزمهم نور الدين .

وكثر عيث الفرنج في صور وعكا والثغور (٥٤٤) بعد رحيلهم عن دمشق
وفساد شروط الهدنة المستقرة بين صاحب دمشق وبينهم وكانوا يعيشون في عمل
دمشق ، ويفحشون في التخريب ويمعنون في الغارة ، فاغار عليهم العسكر الشامي والتركاني
والعرب الى ان اضطروا الى تجديد الهدنة مع صاحب دمشق سنين . واغار صاحب
انطاكية على الاعمال الحلبية فدفعه نور الدين صاحبها ، وكانت عسكر نور الدين
يناهز الستة آلاف فارس سوى الاتباع والسواد ، والفرنج في زهاء اربعمائة فارس
طعمانة والـ الف راجل مقاتلة سوى الاتباع فلم ينج منهم الا نفر يسير ثم نزل نور الدين
في العسكر على باب انطاكية وقد خلت من حمائها فاستمال اهلها في التسليم فأملأها ،
ثم نهض الى افامية فسلم الفرنج اليه البلد بعد حصارها واجتمع من بالشام من الفرنج
وساروا نحو نور الدين ليرحلوه عنهم ، فلم يصلوا الا وقد ملك حصن افامية وملاؤه
ذخائر وسلاحاً ورجالاً واقتضت الحال بعد ذلك مهادنة من في انطاكية ونقرر ان
يكون ما قرب من الاعمال الحلبية لنور الدين ، وما قرب من انطاكية لهم . وقد
عاون نور الدين في هذه الواقعة الامير بزان في عسكر دمشق وعسكر اخيه سيف الدين
غازي والجزيرة ، وقتل من الفرنج الف وخمسمائة وأسر مثلهم ، وقتل البرنس وحمل
رأسه الى نور الدين . قال العماد : وكانت هذه الكسرة على انب وانب حصن من
اعمال عزاز .

وظهرت الفرنج في الاعمال الدمشقية للعيث فيها واتصل بنور الدين افسادهم في الاعمال
الحورانية بالنهب والسبي فعزم على التأهب لقصدهم فسار وكف ايدي اصحابه عن العيث
والفساد في الضياع ، وامر باحسان الرأي في الفلاحين والتخفيف عنهم . وكتب الى دمشق
يستدعي منهم المعونة على ذلك بالف فارس ، وقد كان رؤساؤها عاهدوا الفرنج ان
يكونوا بدءاً واحدة على من يقصدهم من عساكر المسلمين فاحتج عليه وغولط ، فلما عرف
ذلك رحل ونزل بمرج ببوس وبعض العسكر ببغفور ، ثم رحل بمن منزله بالاعوج
ونزل على جسر الخشب المعروف بمنازل العسكر ، وراسل مجير الدين والرئيس بدمشق

بأنه لم يقصد محاربتهم وإنما دعاه إلى ذلك كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران والعربان وعجز امراء دمشق عن حفظ أعمالها واستصراخهم بالفرنج على محاربتهم ، وبذلهم لهم أهوال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلماً لهم ، فكان الجواب عن هذه الرسالة « ليس بيننا وبينك إلا السيف وسيوافينا من الفرنج ما يعيننا على دفعك إن قصدنا ونزلت علينا » فلما عاد الرسول بهذا الجواب أكثر التعجب منه والانكار له ، وعزم على الزحف إلى دمشق . وما ندري إذا كان ذلك الجواب صدر قبل وفاة معين الدين اتسر وإلى دمشق وصاحب امرها نيابة عن أولاد طغتكين ، وكانت اتسر صالحاً عادلاً محسناً كافياً عن الظلم حنجياً للماثم ، محباً للعلماء والفقراء ، بذل مجهوده في حفظ بيت سيده طغتكين فلما مات أخذ ملك مجير الدين في الانحلال ، وآل إلى الانحلال .

انحلال دولة مجير الدين) أذنت شمس الدولة الاتابكية دولة ابناء طغتكين وتوفيق نور الدين (بالمغيب لهلاك الرجال الفيورين عليها ، ولان اربابها أخذوا ينقوون بالفرنج على ابناء نجاتهم حجباً بأن يبقوا في ملكهم ورفاهيتهم « وصواب الرأي بالدول يبقى ببقائهم ويزدهر بذهابها » . ولكن دولة نور الدين التي أصبح لها المقام الاسنى في الشام بعد ان حالف التوفيق اعلامها أكثر من مرة في سنين قليلة أخذت النفوس تطامع اليها ، وتعلق الآمال الطيبة عليها . وقد كانت دمشق التي أجابت نور الدين بهذا الجواب النظم نشرت فيها هذه السنة فتنة بين الاجناد والمقدمين والرعا والفلاحين وذلك لاستيماش الرئيس في دمشق من مجير الدين صاحبها ولم تزل الفتنة تائرة إلى ان أبعد من التمس ابعاده من خواص مجير الدين وسكنت الفتنة .

ولكن هذه الفوضى في دمشق يعصب دواعيها ، وليست المسألة مسألة نقيب رجل أو رجال من اركان الدولة أو اصطلام تائر وخارج على الجماعة ، وقد سرت روح الغضب حتى إلى اقرب الناس من الآل الملوكي ، وقوة نور الدين تشتد وشائجها ودعوته تزداد انتشاراً اليوم بعد اليوم ، فلم يسع أولي الامر في دمشق سنة ٥٤٠ هـ الا تقرير الصلح بينهم وبينه ، فاقامت الخطبة لنور الدين على منبر دمشق بعد الخليفة

والسلطان ، وضربت السكة باسمه وخلع نور الدين على مجير الدين خلعة السلطنة والطوق والسوارين وخلع على الرئيس ابن الصوفي خلعة الوزارة فبذلا له الطاعة واعادهما الى عملهما وطيب قلوبهما « ورحل الى حلب والقلوب معه لما غمر العالم من خيره » . عمل مجير الدين وابن الصوفي هذا العمل مكرهين امام قوة القاهرة ، عملاء وهما يسران حسوا في ارتغاء على امل ان يقلبا لنور الدين ظهر المجن وينتقامنه باعتصامهما بالصليبيين حتى اضطر في السنة التالية (٥٤٦) ان يسوق عسكره الى دمشق فنزل اوائل جنده على ارض عذراء وقصد فريق واقر منهم ناحية السهم واليرب في سنج قاسيون وكنوا عند الجبل لعسكر دمشق ، ثم وصل نور الدين في عسكره ونزل على عيون فاسريا ما بين عذراء ودومة وامتد عسكره الى ضمير ونزلوا في ارض حجر ا وراوية في الجنوب في خلق كثير ، ثم نزل في ارض مشهد القدم وما والاها من الشرق والغرب ، وكان مبلغ منتهى الخيم الى المسجد الجديد قبلي البلد اي ان العسكر النوري احاط بدمشق من اطرافها الاربعة فنزل كما قال المؤرخ منزلاً ما نزل احد من مقدمي العساكر فيما سلف من السنين ، وارسل نور الدين الى مجير الدين يقول : « كنت اتفقت معكم وحلفت لكم ، والآن قد صح عندي انكم ظاهرتم الفرنج فان اعطيتوني عساكركم لاجاهد في سبيل الله رجعت عنكم » فلم يرد جواباً . وجرى بين اوائل العسكر وبين من ظهر اليه من البلد مناوشات ولم يزل نور الدين مهملًا للزحف على البلد اشفاقاً من قتل النفوس واشتخاف الجراح في مقاتلة الجهتين حتى انطلقت ايدي المتسدين من الفريقين في العيث ، وحصدت زراعات المروج والغوطة وضواحي البلد ، وخربت مساكن القرى ونقلت انقاضها الى البلد ، وزاد الاضرار باربابها من الدماء والفلاحين ، وتزايد طمع الرعاع والاء باش في التناهي والفساد ، ثم رحل العسكر النوري ونزل في اراضي فذايا وحافلتا المصاقبة للبلد ، ونشبت المطاردة وكثرت الجراح في خيالة البلد ورجاله ، ثم رحل نور الدين الى ناحية داريا لتواصل الارجاف بقرب عسكر الفرنج من البلد للانجاد ليكون قريباً من معابهم ، وبعد ذلك رحل الى ناحية الزبداني استجراراً لهم ، وجعل من عسكره اربعة آلاف فارس ليكونوا في اعمال حوران مع العرب لقصد الفرنج ولقسائهم ، ونزل الفرنج على

نهر الاعوج ، وخرج مجير الدين وموأيده في خواصها واجتمعوا بملكهم وما صادفوا عنده شيئاً مما هجس في النفوس من كثرة ولا قوة ، وثقرر بينهم النزول بالعسكرين على حصن بصرى لتمكنه واستغلال اعماله . ثم رحل عسكر الفرنج الى رأس الماء ولم يتبهاً خروج العسكر الدمشقي اليهم لعجزهم واختلافهم ، وقصد من كان بحوران من العسكر النوري ومن انضاف اليهم من العرب ناحية الفرنج للابقاع بهم فالتجأ عسكر الفرنج الى لجاة حوران للاعتصام بها . ثم زحف نور الدين على دمشق وقد رأى خيانة صاحبها ومماشاته للفرنج حرصاً على دمشق من السقوط في يد العسكر النوري الذي عرضه صاحبه فذكر انه بلغ كمال ثلاثين الف مقاتل . وكان العسكر النوري يزداد كل يوم قوة وعسكر دمشق ضعفاً . وتخرج نور الدين من قتال المسلمين وما زال يميل الى حقن الدماء لعله بان خيانة حكومتها لا تكون وان تكون سبباً للعبث بالغرض المقدس الذي يرمي اليه من انتقاذ البلاد واطالما قال : « اني أرفه المسلمين ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة اعدائهم » .

قال في مرآة الزمان : وتواترت الاخبار بمجيء الفرنج لنصرة مجير الدين فضاقت صدور العلماء والزهاد من هذه الحالة ، ولما قرب الفرنج من داريا أشار على نور الدين خواصه وقالوا : نبقى بين الفرنج وبين عسكر دمشق فارتفع الى الزبداني ووصل الفرنج الى داريا في جمع قليل وخرج مجير الدين والمؤيد اليهم واجتمعوا بملكهم فما صادفوا عندهم من القوة ما كانوا يظنون ، فالتقوا على نزول الفرنج على بصرى فانهم اعصت على مجير الدين ، ورحلوا الى رأس الماء ، وضايق الفرنج بصرى فلم يظفروا منها بطائل ، فعادوا الى بلادهم وبعثوا يطلبون من مجير الدين ما قرر لهم من المال ، فعاد الى دمشق فنودي في دمشق بالعسكر الاحداث بالخروج الى قتاله فلم يخرج الا القليل لما وقر في نفوسهم من استنجاد مجير الدين وابن الصوفي بالفرنج . ولما تجلت لمجير الدين غلظته في مفاوضة الصليبيين للخلاص من نور الدين لم يستطع حفظاً لملكه الا قبول الشروط التي وضعها نور الدين عليه ، ودخل مجير الدين على نور الدين في حاب فبالغ هذا في اكرامه وقرر معه تقريرات اقترحتها ، ومن صارع الحق صرعه .

مقاصد نور الدين () كانت همه نور الدين منصرفة في كل أطواره الى توحيد
 وفتح دمشق () القوة الاسلامية في البلاد ، والامارات الاسلامية كما في
 التاريخ العام كانت على عهد الحروب الصليبية ثنائف ونتمزق على الدوام بحسب طوابع
 الحروب والدسائس التي تقوم ثورتها بين الامراء ، وبحسب انتقال الملك ونقسيه ،
 وامتياز الأسر وكان ولا سيما في جبال الشام من الامراء من لم تكن ارضهم تتجاوز
 ربض قلاعهم وضاحيتها كصاحب شيزر ، ولذلك عامل نور الدين مجير الدين صاحب
 دمشق على ما بدر منه من الاغلاط النابية عن حد الوطنية والقواعد الشرعية معاملة
 رفق واغضاء ، لان المقصد جمع شمل البلاد ، والسؤدد مع السواد . ومما أفاد في
 هذا العقد وصول الاسطول المصري الى الساحل في سبعين مركباً حربياً مشحوناً
 بالرجال واقترابه من يافا فقتل وأسر وأحرق واستولى على عدة وافرة من مراكب
 الفرنج والروم ، ثم قصد ثغر عكا وصيدا وبيروت وطرابلس وفعل فيها مثل ذلك .
 قال ابن ميسر : وظفر الاسطول المصري بجماعة من حجاج الفرنج فقتلهم عن
 آخرهم ، وبلغ ذلك نور الدين محمود بن زنكي ملك الشام فهم بقصد الفرنج في البر
 ليكون هو في البر والاسطول المصري في البحر فعاقبه عن ذلك الشغل باصلاح دمشق
 ولو اتفق مسيره مع الاسطول كان يحصل الغرض من الفرنج ، وكان من جملة ما انفق
 العادل بن السلار على هذا الاسطول ثلاثمائة الف دينار .

بيد انه لم تقف همته عند هذه الغاية واهتبل الغرة وشغل المختلين في الساحل
 بما نزل عليهم من بلاء الاسطول المصري ، فغزا بلاد الشمال وأسر جوسلين صاحب
 تل باشر وملك قلاعه وهي تل باشر -- وكان الامير حسبان المنجي قد فتحها باسم
 نور الدين وهو على ابواب دمشق (٥٤٦) -- وعينتاب ودلوك -- وكان القتال على
 هذه شديداً جداً -- وعزاز وتل خالد وقورس والراوندان وبرج الرصاص وحصن
 البارة وكفر سود وحصن بسرفوت بجبل بني عليم وكفر لاثا ومرعش ونهر الجوز وذلك
 في أيام يسيرة . وهذا الفتح والفتح الذي تم على يده في السنة الفائنة (٥٤٥) من تسلم
 قلعة افامية جعل نور الدين صاحب الشام . وكان جوسلين فارس الفرنج غير مدافع
 قد جمع الشجاعة والرأي ، سار في عسكره نحو نور الدين فالتقوا واقتتلوا وانهمزم

المسلمون وقتل منهم وأسرى جمع كثير ، وكان في جملتهم سلاحدار نور الدين فسيده
الى الملك مسعود بن قليج أرسلان صاحب قونية وأقصر وقال له : هذا سلاحدار
زوج ابنك وسيأتيك بعده ما هو أعظم منه .

فلما علم نور الدين الحال عظم ذلك عليه واعمل الحيلة على جوسلين وهجر الراحة
ليأخذ ثأره . وأحضر جماعة من الأمراء التركمان وبذل لهم الرغائب ان هم ظفروا
بجوسلين وسلموه اليه لانه علم عجزه عنه في القتال فيما قيل فجعل التركمان عليه العيون
نخرج متصيداً فظفر به طائفة منهم وحملوه الى نور الدين أسيراً . وقال ابن الاثير :
وعظمت على الفرنج المصيبة بأسر جوسلين ، وخلت بلادهم من حاميتها وثغورهم من
حافظها ، وسهل امرهم على المسلمين بعده وكان جوسلين كثير الغدر والمكر لا يقف على
يمين ولا يفي بعهده ، طالما صالحه نور الدين وهادنه فاذا أمن جانبه بالعهود والمواثيق
نكث وغدر ، فلقية غدره ، وحق به مكره ، ولا يحقيق المكر السيئ الا باهله . فلما
أسر تيسر فتح كثير من بلاد الفرنج وقلاعهم . وعني نور الدين بتجهيز ما فتح . من
الحصون بالميرة والسلاح ، وكان كما فتح حصناً نقل اليه من كل ما تحتاج اليه الحصون
خوفاً من نكشة تلحق المسلمين من الفرنج فتكون بلادهم غير محتاجة الى ما يمنعها من
العدو . وكان نور الدين وابوه اذا فتحوا قلعة جعلوا فيها من المؤنة والذخائر ما يكفيها
عشر سنين .

وأغار هذه السنة فريق واخر من التركمان على ظاهر بيسان فقتلوا من الفرنج
وأسروا ولم يفلت منهم غير الوالي وقرر يسير . وقصد الفرنج ناحية البقاع فاستباحوا
عدة وافرة من الضياع من رجال ونسوان وشيوخ وأطفال فلحقهم صاحب بعلبك
واسترجع منهم بعض ما أخذوا وعادوا على أفتح صفة من الخذلان .

وافتح نور الدين (٥٤٧) حصن انطوطوس وقتل من كان فيه من الفرنج وطلب
الباقيون الامان ، وملك عدة من الحصون بالسيف والسبي والاحراق والخراب والامان
ومنها دلك ويحمر ، بعد ان اقبل مع الفرنج أشد قتال رآه الناس وصبر الفريقان
ثم انزعم الفرنج ، وتوجه بجير الدين في العسكر الى ناحية حصن بصرى ونزل عليه
محاصراً لسرجال واليه المخالفة وجوره ، وما زالت به حتى نزل على حكمه . وأراد

مجير الدين المصير الى حصن صرخد لمشاهدته فاستأذن مجاهد الدين واليه في ذلك ،
 اذ لا سبيل الى استنقرار حالة دمشق اذا كان المستولون على بصرى وصرخد يمتدون
 الى الفرنج بصلة من الصلات للاحتفاظ بمعاقلمهم في أيديهم كما فعل سيف الدين
 الطنطاش نائب امين الدولة صاحب بصرى وصرخد واستعان بالفرنج على المسلمين
 فاضطر معين الدين اتسر الى قتاله ونازل القلعتين فملكها . والولايات مضامير الرجال .
 وقوي عزم نور الدين (٥٤٨) على جمع العساكر والتركان من البلدان للغزو ونصرة
 أهل عسقلان على الفرنج ، وكان هؤلاء شغلوا بامر عسقلان منذ السنة الفائتة
 لامداد صاحب مصر فظفر المسلمون بمن كانوا مجاورين لهم ، ووصل الاسطول المصري
 الى عسقلان فقويت نفوس من بها بالمال والرجال والغلال وظفروا بقوة وافرة من
 مراكب الفرنج ثم هجم الفرنج على عسقلان وداهموها من جوانب سورها فهدموا
 وقتل من الفريقين خلق كثير ، وأجأت الضرورة الى طلب المال فأجهبوا اليه فخرج
 أهلها في البر والبحر الى ناحية مصر فملك الفرنج مدينة عسقلان وكانت خلفاء مصر
 والوزراء يجهزون اليها المؤن والسلاح ، ولو لم تختلف أهواء أهل دولة مصر ويقتل
 العادل بن السار لما جراً الفرنج على حصر عسقلان والظفر بمن فيها والتحكم في
 ضرب غرامة عليها . وملك نور الدين (٥٤٨) حصن أفليس وقتل من كان فيه من
 الفرنج والارمن ونهض عسكره طالباً بانياس . وفي سنة ٥٤٩ وصل نور الدين في
 عسكره لامداد اسدالدين شيركوه وكان أرسله الى دمشق في كتيبة ، وخيم بناحية
 القصب من المرج . ونزل نور الدين بعيون فاسربا عند دومة ورحل في الغد ونزل
 بارض الضيعة المعروفة ببيت الابار من الغوطة وزحف الى البلد من شرقيه ، وخرج
 اليهم من عسكره وأحدثه الخلق الكثير ، ووقع الطراد بينهم ثم عاد كل من الفريقين
 الى مكانه ، ولم يبرح نور الدين يزحف يوماً بعد يوم حتي افتتح دمشق على أيسر
 وجه ، والنفوس فيها متطلعة الى طلعه لما كان يبلغ القاصي والداني من عدله وحسن
 سيرته ، ولما أحس صاحب دمشق مجير الدين ابق (أرنق) بن محمد بن بوري بن
 طغتكين بالغبلة انهزم في خواصه الى القلعة فأنفذ اليه وأمنه على نفسه وماله فخرج
 الى نور الدين فطيب نفسه ، ونادى نور الدين بالامان وخرجت دمشق من أيدي

أحفاد الاتابك طغتكين آخر الدهر بعد ان دانت لسلطانهم اثنتين وخمسين سنة :
وكل حصن وان طالت إقامته على دعائه لا بد مهسوم

الداعي لنور الدين (والسبب في فتح نور الدين دمشق ما قاله المؤرخون
على فتح دمشق) المعاصرون من تغلب الفرنج بناحية دمشق بعد ملكهم
عسقلان حتى استعرضوا كل مملوك وجارية بدمشق من النصاري ، وأطلقوا قبرا
منهم كل من أراد الخلاص ، فحشي نور الدين ان يملكوا دمشق ، فآمال أهلها في
الباطن ثم حاصرها وفتحها . قال في الكامل : وسبب حرصه على ملكها ان الفرنج
لما ملكوا في العام الماضي مدينة عسقلان ولم يكن لنور الدين طريق الى ازعاجهم عنها
لاعتراض دمشق بينه وبين عسقلان ، فلما ملك الفرنج عسقلان طمعوا في دمشق .
وعلى هذا الفتح سبط ابن الجوزي بما ظهر من مجير الدين ، من الظلم ومصادرة
الدمشقيين وسفك دماءهم وأخذ أموالهم ، وقبضه على جماعة من الاعيان ، واستدعى
سيف الدولة بن الصوفي الذي ولاه رئاسة دمشق لما اخرج أخاه وجيه الدولة منها
فقتله في القلعة ونهب داره وأحرق دور بني الصوفي ونهب أموالهم . وتكاثر مكاتبته
الى الفرنج يستنجدهم ويطمعهم في البلاد . وكان مراد نور الدين من أخذ دمشق انه
كان في عزمه خلاص القدس من الفرنج وبلاد الساحل وكانت دمشق في طريقه .
وطمع الفرنج في مجير الدين وكان قد أعطاهم بانياس ، فكانوا يشنون الغارات الى
باب دمشق فيقتلون ويأسرون ويسبون ، وكان مجير الدين قد جعل للفرنج كل سنة
قطيعة يأخذونها منه ، وذل الاسلام وأهله في أيامه ، وساءت سيرته وكثر فسادهم ،
فكانت الامراء والاعيان بدمشق أصحاب نور الدين يقولون : الغياث الغياث وقالوا :
ان شئت حصرناه في القلعة . فرأى نور الدين أخذ مجير الدين باللطف وقال : ان
أخذته بالقوة استغاث بالفرنج وأعطاهم البلاد فيكون وهنا عظيماً على الاسلام .

وكان من أشد الأمور على الفرنج ان يأخذ نور الدين دمشق لانه كان أحرق
قلوبهم وحرق بلادهم ، وكان في كل وقعة يغني غنائاً حسناً ، هذا ودمشق ليست له
فكيف اذا أصبحت في حكمه ، لا جرم أنه يتقوى بها وتقوى كلمته ولذا عدل الى ملاطفة

مجير الدين ومكاتبته وبعث اليه بهدايا فانس به وصار يكاتبه ويستشيره ، فكان نور الدين يكتب اليه ان فلاناً يكاتبني فتارة يقبض مجير الدين عليهم وتارة يقيهم ، نفلت دمشق من الامراء ولم يبق عنده غير عطاء بن حفاظ الخادم السلي وكان صاحب بعلبك قد رد اليه مجير الدين امر دولته وكان ظالماً ، فكتب نور الدين الى مجير الدين بقول : قد نفر عليك عطاء بن حفاظ قلوب الرعية فاقبض عليه العلم نور الدين انه لا يتم له امر في دمشق مع وجود عطاء فقبضه مجير الدين وأمر بقتله فقال له عطاء : لا تقلني فان الحيلة قد تمت عليك وذهب ملكك وستري ، فلم يلتفت اليه وقتله وحينئذ قوي طمع نور الدين في دمشق ، وأرسل الى أحداثها وأعيانها فأجابوه ، فسار اليها ونزل عليها وكتب مجير الدين الى الفرنج يستنجدهم وبذل لهم بعلبك وأموالاً كثيرة ، وبلغ نور الدين فأرسل الى الأحداث ففتحوا له الباب الشرقي فدخلها وحصر مجير الدين في القلعة ، وبلغ ذلك الفرنج فتوقفوا قال : ولما دخل نور الدين صاح أصحابه « نور الدين يا منصور » وامنع الاجناد والرعية من القتال لما هم عليه من بغض مجير الدين وظلمه وعسفه للرعية ومحبتهم لنور الدين لعدله وخيره .

سئمت النفوس في دمشق من سوء ادارة المتغلبين على أحكامها ، امثال الوزير حيدرة ومجاهد الدين بزان وعطاء الخادم وغيرهم ، ممن لم يكونوا يهتمون بغير املاء بطونهم وجيوبهم من دماء الرعية ، ولوا أصبحوا عبيداً أرقاء لاعدائهم . اما مجير الدين آخر ملوك الانابكية في دمشق فان نور الدين لما غلبه بذل له اقطاعاً من جملة مدينة حمص ، فلم مجير الدين القلعة الى نور الدين وسار الى حمص فلم يعطه اياها نور الدين واعطاه عوضها بالس فلم يرضها مجير الدين وسار عنها الى العراق وأقام ببغداد حتى مات بها . وهذا من غريب ما يحكي في باب العدل فان الملوك جرت عادتهم في تلك العصور اذا أخذوا ملكاً ان يقتلوه فلم يفعل ذلك نور الدين تخرجاً من اهراس الدم الحرام واستحكام الطوائل والثارات والاحقاد في امة أشد ما تكون الى التضافر فأعطى نور الدين حمص اقطاعاً لمجير الدين حتى لا يقطع له أمله ثم عوضه عنها ببالس لان حمص على مقربة من بلاد الصليبيين . ومن خان أمته وهو في

عهد عزه أقرب الى خيانتها في دور شقائه وذله ، اما بالس (مسكنة) فبعيدة عن حركة التطاحن بين الشرق والغرب . وماء الفرات أسوغ للعاصي مجير الدين من ماء بردى والعاصي . والمقصد في الحقيقة من الفتح توحيد كلمة الاسلام ، وهذا قد تم لنور الدين بفتح ابواب دمشق لعدله العمري ، وخروج آخر الاتابكيين من أولاد طغتكين منها بسلام .

لم يتبدل شيء بفتح نور الدين دمشق الا إبطال المظالم والمغارم ، ورفع الحيف عن الضعاف ، وجمع القوة الى مقصد واحد لا تنزل بالتردد والدسائس ، ولذلك كانت معظم وقائع نور الدين مخالفة للتوفيق في السنة التي صفت البلاد له أخذ من الفرنج تل باشر وفي سنة ٥٥٠ تقررت المهادنة بين الملك العادل نور الدين صاحب دمشق وبين ملك الفرنج مدة سنة ، وقبض نور الدين على ضحاك والي بعلبك وتسلم القلعة وفي السنة التالية (٥٥١) ظفر عسكر نور الدين بالفرنج الذين عاثوا في أعمال حلب وتقررت المهادنة بينه وبين الفرنج مدة سنة وان المقاطعة المحمولة اليهم من دمشق ثمانية آلاف دينار صورية^(١) ، ثم نقض الفرنج الهدنة لوصول عدة وافرة من الفرنج في البحر وقوة شوكتهم بهم ، ونهضوا الى الشعراء المجاورة لهم ووقع من المندوبين لحفظ أهل القرى من الاتراك تقصير فانهز الفرنج الفرصة واستاقوا جميع ما وجدوه وأفقروا أهله منه مع ما أسروه من تركان وغيرهم . وأغار الفرنج (٥٥٢) على ارجاء حمص وحماة وأطلقوا أيديهم بالنهب ، وأغاروا على بانياس ، فأنصر المسلمون ومحقت السيوف عامة رجالة الفرنج ومسلمي جبل عامله المضافين اليهم ، وملك الفرنج جبلة وكانت في أيدي المسلمين منذ سنة ٤٧٣ وثب عليها قاضيها ابن خليعة النخعي واستعان بابن عمار صاحب طرابلس فأخرج منها الروم وكانت بيدهم منذ سنة ٣٥٧ ، وظفر أسد الدين في جماعة من شجعان التركان بسرية وافرة من الفرنج في ناحية الشمال فانهزمت . وافتتح نور الدين بانياس قهراً وظفر عسكره في ناحية هونين بسرية من أعيان مقدمي الفرنج وأبطالهم فلم يفلت منهم الا اليسير ، وعسكر الفرنج على الملوحة بين طبرية وبانياس فنهض

(١) اي من ضرب الفرنج في صور .

اليهم نور الدين في عسكره من الاتراك والعرب فكتب له النصير عليهم ، وشاغل نور الدين الفرنج هذه السنة للزلازل التي حدثت في الشام ولكنهم شغلوا أيضاً بما أصابهم من أضرارها في الساحل . وملك نور الدين بعلبك وقلعتها ، وكانت بيد انسان يقال له الضحاك البقاعي كان ولاء اباها صاحب دمشق فامتنع بها الضحاك فلم يمكن نور الدين محاصرته لقربه من الفرنج فتلطف معه حتى ملكها . وفيها كان انقراض الهدنة بين الفرنج وملك مصر فبعث بسرية الى غزة ونهبت اطرافها وسارت الى عسقلان فأسرت وغنمت وعادت بالغنائم الى مصر ، ثم سير عسكر آخر فمضى الى الشريعة فابلى بلاءً حسناً ، وندب مراكب في البحر فسارت الى بيروت وغيرها فلوغمت بمراكب الفرنج فأسرت منهم وغنمت ، وسير عسكر الى بلاد الشوبك والطفيلة فماتوا في تلك البلاد ورجعوا بجزء الحقايب يحملون الاسرى ، وسير الاسطول المصري الى عكا فأسر من اهلها نحو سبعماية نفس بعد حروب ، وندب سرية اردفها باخرى فوصلت غاراتهم الى اعمال دمشق فغنموا وعادوا .

وملك الفرنج حصن حارم (٥٥٣) وشنوا الغارة في الاعمال الشامية واطلقوا ايديهم بالنهب والارباب في اعمال حوران والاقليم ، وقصدوا داريا ونزلوا عليها ، واحرقوا منازلها وجامعها وانهوا في اضرارها ، فخرج اليهم من العسكرية والاحداث العدد الكثير فهموا بالرجوع . واغار عسكر نور الدين على اعمال صيدا وما قرب منها ، فغنموا احسن غنيمة وخرج اليهم من كان بها من خيالة الفرنج ورجالتها وقد كمنوا لهم فغنمهم وقتل اكثرهم وامر الباقون . وتجمع الفرنج فنهض نور الدين للقائهم فانهمزم هذه المرة نور الدين لثغرة عسكره في البلاد ، وسار عسكر مصري الى بيت المقدس فمات وخرب وجرت وقعة على طبرية انكسر فيها الفرنج واقلعت خمس شوان من مصر فدوخت ساحل الشام وظفرت بمراكب الفرنج وعادت بالغنائم والاسرى . وفي سنة ٥٥٤ جشد ملك الروم ووصل الى الشام وجمع نور الدين عليه العساكر فعادوا راجعين وغنمهم المسلمون .

مرض نور الدين وابلاله
وأتمه فتوحه وهزيمته في
البقية

نسباً من السلطان المتوفى ، فلقد مرض نور الدين (٥٥٤) مرضاً شديداً ارجف بموته
بقلعة حلب فجمع اخوه امير ميران بن زنكي جمعاً وحصر هذه القلعة وكان شيركوه
بمخصص وهو من اكبر امراء نور الدين فسار الى دمشق ليستولي عليها وبها اخوه نجم
الدين ايوب ، فأتى عليه ايوب ذلك وقال : اهلكنا والمصلحة ان تعود الى حلب
فان كان نور الدين حياً خدمته في هذا الوقت ، وان كان قد مات ، فانا في دمشق
ننفل ما نريد من ملكها ، فعاد شيركوه الى حلب شديداً ، وجلس نور الدين في شباك
يراه الناس ، فلما رأوه حياً تفرقوا عن اخيه امير ميران . ولما ابل نور الدين من
مرضه واستقامت الاحوال اخذ حران من اخيه لظمع هذا في ملك نور الدين عندما
كاد الناس يأسون من سلامته . وقصد صاحب صيدا (٥٥٦) من الفرنج
نور الدين محموداً ملتجئاً اليه فأمنه وسير معه عسكرياً يمنعه من الفرنج ايضاً فظفر عليهم
في الطريق كمين للفرنج فقتلوا من المسلمين جماعة وكان زهر الدولة بن بخت الزنوشي
والياً على ثغر بيروت ومقيماً بمحضر سرحمور فولاه نور الدين القنيطرة وجلبايا بالبتاع
ونظير الاحمر من وادي التيم وبرز صيدا والدامور والمعاضير الفوقانية وشارون
ومجدل بعنا وكفر عمتة ورتب له علائف لمحاربة الفرنج ، وكان ابوه شرف الدولة
قاطناً في عرمون الغرب فربط له طريق الدامور على الفرنج . وآل زنوخ من اكبر
القبائل التي حضرت من معرة النعمان .

نازل نور الدين (٥٥٧) قلعة حارم وهي للفرنج مدة فاجتمع الفرنج وراسلوه
ولاطفوه وكانوا خلقاً عظيماً فرحل ومن اعظم الوقائع التي اصاب بها نور الدين
بالفشل اكثر من كل وقعة له مع الفرنج هزيمته (٥٥٨) يوم البقية بينا كان نازلاً
تحت حصن الاكراد فلم يشعر نور الدين وعسكره الا وقد اظلت عليهم صلبان الفرنج
وقصدوا خيمة نور الدين فركب نور الدين فرسه بسرعة وفي يده الشجعة فزل انسان كردي
فقطعها فنجح نور الدين وقتل الكردي وسار نور الدين الى بحيرة حمص فقتل عليها وتلاحق

به من سلم من جيشه . وقد نقل سبط ابن الجوزي في تعليل هذه الكسرة بأنه لم يكن
تسليماً برك (انقال) ولا طليعة ظناً من نور الدين أنهم لا يبقون عليه قال : وكان ذلك
من قلة الحزم حيث غفلوا عن العدو ولم يستظفروا بالبرك والطلائع قال : وكان من
عزم الفرنج قصد حصن فلما بلغهم نزول نور الدين على البحيرة قالوا : ما فعل هذا الا
عيب قوة وتوقفوا ثم تفرقوا وخاطبوه بالصلح فلم يجيبهم وتركوا عند حصن الاكراد
من يحميه وعادوا الى بلادهم .

ولما أصيب نور الدين يوم البقيعة استنجد أصحاب الموصل وماردين والحصن
وذكر لهم ما تم عليه فأنجده بجيوش ضخمة وكانت سنة ٥٥٩ كلها فتوحاً نافعة كان
فيها مبدأ سعادة نور الدين ، فتح فيها حارم وقتل بالقرب منها عشرة آلاف وأسر
الوفياء ومن جملتهم صاحب انطاكية والقومس صاحب طرابلس والمدوك مقدم الروم
وكثير الاسرى من الفرنج حتى بيع الواحد بدينسار ثم قادهم نور الدين . وكان قد
استغنى الفقهاء فاختلفوا فقال قوم : يقتل الجميع وقال آخرون : يفادي بهم . فقال
نور الدين الى الفداء فأخذ منهم سبعمائة الف دينار مجزئاً وبخيلاً وسلاحاً وغير ذلك .
فكان نور الدين يخلف بالله ان جميع ما بنى من المدارس والربط والمارستانات
وبغيرها من هذه المعاداة وجميع ما وقفه منها وليس فيها من يبت المال درهم واحد .

قال المؤرخون : وكان الصليبيون جاؤا للنجدة حارم « في حدهم وحديدتهم وملوكهم
وفرسانهم وقوسهم ورهبانهم » ووضع نور الدين في حارم سطلين كاتا بوقدات
طول الليل لئلا أسرى المسلمين الهاربين اليها من ارض الصليبيين . وكان الصليبيون
استولوا على حارم سنة ٤٩١ وزادوا سيفه تحصينها وجعلوها ملجأ لهم اذا شنوا الغارات
فحاصرها نور الدين سنة ٥٥١ ثم سنة ٥٥٧ ثم فتحها هذه السنة ، وكانت قلعة حصينة في
نحور المسلمين . وفي هذه السنة (٥٥٩) فتح نور الدين قلعة بانياس بعد عودته من حارم
وكان الفرنج والارمن على حارم ثلاثين الفاً ووقع بينهم في أسره وباعة نفسه بال
عظيم النفقة في الجهاد .

حملة نور الدين { ففتح نور الدين تلك الفتوح ورايته منصوره وسطوته
على مصر { محذورة ، استصفي من ضعاف امراء المسلمين ما اتصل اليهم
بالارث من البلاد فنزلوا له عنها طوعاً او كرهاً ، واقتصد في اهراق دماء المسلمين وأسرف
في ازهاق أرواح الصليبيين واسترجع من الاعداء مدناً وحصوناً مهمة جعلت أماراتهم
الثلاث الباقية تهتز أعصابها وتخاف بأس حملاته وغزواته ولم يخامرهم شك وهم
يستنشئون أخباره انهم ابتلوا برجل وحشد قوى الشام وجمع القلوب ووجهها الى وجهة
معينة : قتال الصليبيين واسترجاع القطر منهم .

ولما تم له هذا وقع خلاف في مصر بين شاور وخرغام من وزرائها (٥٥٩)
وكانت عدت الوزارة في دولة الفاطميين أشبه بالوزارة في دولة العباسيين بتولاها من
يستطيع ان يستجيش له أنصاراً وأعواناً ولما استلب خرمغام من شاور وزارتة وعجز في
مصر عن مقاومتها لحق بنور الدين صاحب الشام ليعينه على خصمه باذلاً له ثلث
أموال مصر بعد رزق نجدها ان هو أعاده الى الوزارة . فرأى نور الدين ان
معاونة الوزير المستجيد به لا تخلو من فائدة عظيمة أقبلها انها تفتح له سبباً الى التدخل
في شؤون مصر ربما أعقب استيلاءه عليها وضمها الى مملكته او نقاضي ما وعد به
شاور من الاموال ينفقها في وجوه المصالح والمرافق في الدولة . فإرسال حملة على
مصر محسوسة الفائدة لنور الدين بل للاسلام من عدة أبواب .

اقتضى رأي نور الدين بعد تدبر امر مصر ان يندب لها رجلاً من أعظم رجاله
دماً وحنكة ، فأرسل أسد الدين شيركوه بن شادي واصحبه بابن اخيه صلاح الدين
يوسف وكانت كفاية هذا أخذت تبدو لرجال الدولة واستنصه نور الدين « والحقه
بخواصه فكان لا يفارقه في سفر ولا حضر » وكانت في تلك السنة ثمانية دمشق
فأخاف اللصوص وقضى على نائره الفن وفي تلك الفن قال عرقلة الشاعر :

ذر الاتراك والعربا وكن في حزب من غلبا

بجأت أصبحت فتن تجر الويل والحربا

لئن تمت فوا أسفا وان تجرب فوا عجباً

ذهبت الحملة الى مصر وأعاد اسد الدين شيركوه الوزير شاوراً الى وزارة

العاخذ العلوي ولما قبض على زمام الوزارة لم يف لنور الدين بشيء مما شرط على نفسه فشق ذلك على اسد الدين وسار فاستولى على بلبيس والشرقية فأرسل شاور واستنجد بالفرنج على اخراج اسد الدين شيركوه من الديار المصرية فسار الفرنج واجتمع معهم شاور بعسكر مصر وحصروا شيركوه ببلبيس ثلاثة اشهر . وبلغ الفرنج ما أصابه نور الدين في الشام من التوفيق وأنه اخذ حارم فراسلوا شيركوه في الصلح وفتحوا له مخرج من بلبيس بمن معه من العسكر وسار بهم ووصلوا الى الشام سالمين .

هذا ما كان من مبدأ دخول الجند النوري الى مصر فقد لقي الالاقى واستند تعرف قائدهم امراضها وخلصها واطلع على مداخلها ومخارجها ، فبكان انجاد نور الدين شاوراً واستنجد هذا بالفرنج درساً نافعاً لدولة نور الدين ادركت به كل الادراك انه لا سبيل الى انقاذ الشام الا بالاستيلاء على مصر خصوصاً والفاطميون كانوا يخافون الفرنج خوفاً شديداً ولا يطبقون مقاتلتهم كما قال مجير الدين . كان هذا ايام كان لهم شيء من السلطان على النفوس وقوة على الساحر والنفور فما بالك بهم وقد دب الضعف في كيان دولتهم وعبث العابثون بعزتها ومنعتها . والا كان نصيب خطته المرسومة في قتال الصليبيين عقياً ، لان الروح الخبيث سرت لصغار الامراء من المسلمين في الاعتصام باعدائهم اذا ضاقت بهم حالهم واتاهم سلطان أعظم من سلطانهم ، ولئن كانت الشام قد تطهرت من جرائم هؤلاء العمال بفضل الدولة النورية ولكن مصر اذا استهانت بمقدساتها ايضاً يصبح البقاء في الشام خطراً دائماً .

وبينا كان نور الدين يحرق الأرم على شاور وفي نفسه منه حزازات لانه لم يف له بما وعده واستعان على قتال جيشه بالصليبيين عاد شاور على عادته يظلم ويقتل ويصادر ولم يبق للعاخذ معه امر ولا نهي فبعث يستنجد بنور الدين على شاور فاعتم نور الدين ان جهز اسد الدين شيركوه ثانية (٥٦٢) الى مصر بعسكر جيد عدتهم الفا فارس وامر ايضاً ان يخرج معه ابن اخيه صلاح الدين يوسف الى مصر فامنع صلاح الدين وقال : يا مولانا يكفى مالقينا من الشدائد . فقال : لا بد من خروجك فما امكنه مخالفة نور الدين . وكانت في ذهاب صلاح الدين الى مصر سعاده وسعادة امته اذ فتح مصر واصبح بعد ذلك ملك مصر والشام على ما سنبين به سيفه

الصفحات المقبلة . قال المؤرخون : أحب نور الدين مصير صلاح الدين الى مصر وفيه ذهاب الملك من بيته وكره صلاح الدين المسير وفيه سعاده ومملكه . ورب زارع انفسه حاصد سواه . فاستولى اسد الدين على الجيزة وارسل شاور الى الفرنج واستنجدهم فصاروا في اثر شيركوه الى جهة الصعيد فيزعم واستولى شيركوه على بلاد الجيزة واستغلها ثم سار الى الاسكندرية ومملكها .

وجعل اسد الدين ابن اخيه صلاح الدين يوسف بن ايوب في الاسكندرية وعاد الى الصعيد فاجتمع عسكر مصر والفرنج وحصروا صلاح الدين بالاسكندرية مدة ثلاثة اشهر ، فصار شيركوه اليهم فانفقوا على الصلح على مال يحمله الى شيركوه ويسلم اليهم الاسكندرية ويعود الى الشام ، فتسلم المصريون الاسكندرية وعاد شيركوه الى دمشق ، واستقر الصلح بين الفرنج والمصر بين على ان يكون للفرنج بالقاهرة شحنة وتكون ابوابها بيد فرسانهم ، ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة الف دينار .

ولكن الحال في مصر لم يسر سيرا حسنا لان الفرنج لم يخلصوا لمصر ، ومن الخطا الفاحش استنجد شاور وزيرا بهم واستعانته بهم على اخراج قائد نور الدين اسد الدين شيركوه منها فارسل الخليفة العاضد يستغيث بنور الدين (٥٦٤) ثانية وكان الفرنج ملكوا بابل وحصروا القاهرة ، فاحرق شاور مصر لئلا يملكها الفرنج وامر اعلمها بالانتقال الى القاهرة وبقيت النار تحرقها اربعة وخمسين يوما ، وصانع شاور الفرنج على الف الف دينار .

ولما قارب شيركوه مصر للمرة الثالثة هرب الفرنج وخلع عليه العاضد واجرى عليه الاعلامات وماطله شاور فيما كان بذل لنور الدين من تقرير المال وافراد ثلث مال مصر ، وعزم شاور ان يقبض على شيركوه فقبض العسكر النوري عليه وقتل ، ودخل شيركوه القصر فخلع عليه خلع الوزارة ولقبه الملك المنصور امير الجيوش وتولي شيركوه الامر شهرين وخمسة ايام ثم هلك فاحضر العاضد صلاح الدين وولاه الوزارة ولقبه بالملك الناصر ، وثبتت قدم صلاح الدين بمصر على انه نائب نور الدين ،

ويمكن منها وضعف امر العاخذ فكان لايجري في القصر صغيرة ولا كبيرة الا بامر صلاح الدين ، واصبح يدعى له على منابر مصر بعد نور الدين .

بعض غزوات / ولم يغفل نور الدين في غضون ذلك عن الاشجان سيف الفرنج نور الدين / وارهاق الجدلقتالهم ، وقويت عزيمته بعد ان اخذ حارم وبانياس (٥٥٩) على التقدم في فتوحه وكان كلما طالت ايامه ايقن ان القوة القليلة المنظمة افعل من القوّة الكبيرة المبعثرة . ولم ينغصه في عمله سوى مقاومة احد اخوته امير ميران له حتى اضطره الى حربه فمضى اخوه امير ميران الى صاحب الروم وعفا عنه نور الدين كأن السعادة التي اقبلت على هذا السائح من كل وجه ابت الطبيعة الا ان تكررها عليه بمشاكسة احد اخوته له وكان بالامس لما أُرْجف بموت نور الدين في حلب قام يطالب بمملكة اخيه فخاربه واليوم يحمل اخاه على دفع عاديته ثم يتجاوز عما بدر من سيئاته .

وفي سنة ٥٦١ فتح نور الدين حصن المنيطرة وخرب قلعة الكاف في البرية وفتح العريمة وصافيتا وحاصر خلبة وخر بها لخواصر عريقة وعدا عليه غازي بن حساب صاحب منج فاعطاه اربعة . واجتمع باخويه (٥٦٢) قطب الدين وزين الدين بحجة الغزاة وساروا الى بلاد الفرنج فغربوا هونين .

وفي سنة ٥٦٥ سارت الفرنج الى ديباط وحاصروها خمسين يوما وشحنها صلاح الدين بالرجال والسلاح والذخائر وغرّم على ذلك اموالا عظيمة وخرج نور الدين فاغار على بلادهم بالشام فرحلوا عائددين على اعقابهم ولم يظفروا بشيء منها . وفيها سار نور الدين الى الكرك وحاصرها فجمع ملوك الساحل فجاءوه فتأخر الى البلقاء وقال بعضهم : ان الفرنج اغاروا على ناحية روابد في حوران وهم في جمع غلبت كثرته الخبر والعيان ، وتزلوا في قرية شمسكين فركب نور الدين وهو نازل بالكسوة ثم نزلوا بالشلالة ونزل نور الدين في عشترا وبينما هو في البلقاء حدث زلزلة دائلة في الشام فخربت معظم اسوار الحصون ففرق عساكره في القلاع خوفا عليها من العدو وكانت قلاعهم الحجارة الجيرية والحصن الاكبراد وصافيتا وعريمة وعريقة في بحر

من الزلازل غرقى ولا سيما حصن الاكراد ، فانه لم يبق له سور واغارت سرية
نور الدين (٥٦٥) في بعلبك فانهمز الفرنج وعمهم القتل والاسر لم يفلت منهم الا
من لا يعتمد به وقتل فممن قتل رأس مقدم الاسبتار صاحب حصن الاكراد وكان
من الشجاعة بمحل كبير وشجى في حلق المسلمين .

وغزا صلاح الدين (٥٦٦) الفرنج قرب عسقلان وعاد الى مصر ثم حصر أيلة
في العقبة المصرية بجزاً وبراً وفتحها . وغزا عرقة (٥٦٧) وفتحها وغنم الناس غنيمة
عظيمة . واستولى على صافيتا وعريمة عنوة ، وقارب طرابلس وهو يذهب ويخرب
ويحرق ويقتل وفعل جيشه في جهة انطاكية مثل ذلك ، فراجع الفرنج وبذلوا له
جميع ما اخذوه من المركبين اللذين خرجا هذه السنة من مصر الى اللاذقية واخذهما
الفرنج وهما مملوءان من الامتعة والتجارة ، وكان بينهم وبين نور الدين هدنة فنكشوا
وغدروا فلما خربت بلادهم اذعنوا .

قيام بني شهاب من حوران (وفي سنة ٥٦٨ كان قيام آل شهاب من حوران
وحر بهم الصليبيين) الى وادي التيم قال الشهابي : وكان الكبير منهم
في ذلك الوقت الامير منقذ ، ولما عزموا على القيام جمع الامير منقذ الامراء من بيت
شهاب ووجوه القبيلة وقال لهم انتم تفهمون النفور الكائن بين السلطان نور الدين
بسلطان الديار الشامية والحلبية والسلطان صلاح الدين سلطان الديار المصرية ولا بد
ان السلطان نور الدين يتم ما ينوي عليه وقد دس العساكر في حوران وتعلمون ما لنا
عند السلطان صلاح الدين من المحبة والمنزلة الرفيعة وانا ارى انه يلزم علينا القيام
من حوران قبل ظهور حال من تلك الاحوال ، فلما سمع الحاضرون ما قاله الامير
منقذ قالوا له : هذا هو الصواب وليس فينا احد يخالف . فقال له ، ثم عزموا على القيام
وشدوا ظعونهم وحملوا احمالهم ، ورحلوا من حوران بعشائرهم وقصدوا غربي الديار
الشامية ونزلوا حذاء الجسر اليعقوبي .

ولما سمع السلطان نور الدين بقيام آل شهاب من حوران ارسل يسألهم عن
السبب الداعي لقيامهم ، وارسل لهم الخلع والعطايا النفيسة ، وطلب منهم ان يرجعوا

الى اوطانهم آمنين ، فأبوا الرجوع بسبب خراب بلادهم ، وان يسمح لهم بالذهاب الى مكان آخر فسمع لهم بذلك ، فنزلوا في وادي التيم وكانت نزولهم في ببدأ الظاهر لاجرم من الكنيسة الى الجديدة وكانوا في خمسة عشر ألفاً والبلاد التي نزلوها تحت استيلاء الفرنج فلما سمع هؤلاء بنزول آل شهاب جيشوا عليهم نحو خمسين ألفاً بين فارس وراجل وكان بطريقهم الكبير يقال له قنطورا استمد من صاحب قلعة الشقيف فامده بخمسة عشر ألفاً فالتقوا مع عسكر الفرنج ودام القتال ثلاثة ايام قتل من الفرنج ثلاثة آلاف ومن آل شهاب ثلاثمائة ونقب بنو شهاب حيطان قلعة حاصيها مدة عشرة ايام واخذوا قنطورا وجماعته وكانوا ثلاثمائة وقتلوه وارسلوا رؤوسهم الى نور الدين فسر كل السرور واعطى البلاد لآل شهاب ملكاً لهم . ولما سمع صاحب قلعة الشقيف ما حل بالفرنج في حاصبيا ارسل الامير منقذ يطلب منه الصلح وكان في ذلك الوقت الامير يونس المعني بن الامير معن حاكماً على جبل الشوف فجاء وهناً الامير منقذاً في وادي التيم .

وهكذا ادى بنو شهاب خدمة عظيمة للبلاد قاموا لما شعروا بجفاء بين السلطانين نور الدين وصلاح الدين والغالب ان صلاح الدين كان استمال قلوب رؤسائهم حتى لا يسلموا لنور الدين طريق الحملة على صلاح الدين في مصر فلما رأوا انهم لا قبل لهم بنور الدين عرجوا على وادي التيم فكان في ذلك خيرهم وخير دمشق خاصة لانهم وقفوا في غريبها وقفة محمودة وردوا عنها عادية الصليبيين .

الغزور بين نور الدين | قلنا حدث جفاء بين السلطانين والسبب فيه انه لما
وصلاح الدين | قويت سلطة صلاح الدين في مصر وولي ملكها بعد
مهالك عمه اسد الدين شيركوه واصبح الامر الناهي ارسل نور الدين اليه بأمره بقطع
الخطبة العلوية واقامة الخطبة العباسية ، فراجع صلاح الدين في ذلك خوف الفتنة ،
فلم يلتفت نور الدين الى ذلك واصر عليه فامر صلاح الدين الخطباء ان يخطبوا
للمستضي العباسي فامثلوا ، وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه احد من اهله بقطع
خطبته ولما هلك جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه

وكان شيئاً كثيراً جداً فقويت بذلك شوكتة وأصبح ملك مصر حقاً وهدفاً :

قل للملوك تنحوا عن ممالككم فقد أتى أخذ الدنيا ومعظمها

وضيق على آل الخليفة العاظمي حتى لا يتطال أخدمهم لدعوى الخلافة بعد العاصم واستدعى من الشام أباه وأخوته وكان نور الدين مع هذا لا يخاطبه توابل يخاطب أمراءه بمصر ومن جعلتهم صلاح الدين ولقد توطد ملك مصر لصلاح الدين والخطة له فيها بعد نور الدين بدعي لهذا بعد الخليفة العباسي وكما مضى شير يزداد نور الدين استيجاشاً من صلاح الدين مع أن صلاح الدين سد أبواب الشك على نور الدين ، فقام بجميع رسوم التعظيم له وكان معه كقائد مع سلطانه ، وكان صلاح الدين نازل الشوبك وهي للفرنج ثم رحل عنه خوفاً أن يأخذه نور الدين واعتذر بأنه ربما نشبت الفتنة في تغيبه عن مصر : دعا دعاة العبيد بين إلى إرجاع دولتهم .

ولما جاء نور الدين الكرك وسار نور الدين من دمشق حتى وصل إلى الرقيم وهو بالقرب من الكرك فخاف صلاح الدين من الاجتماع بنور الدين واعتذر بمرض أبيه وأنه يخشى أن يموت فتذهب مصر فقبل نور الدين عذره في الظاهر وفي الواقع أن أيوباً والد صلاح الدين قضى نحبه في تلك المدة . ولكن كان في نفس كل من نور الدين وصلاح الدين شيء على صاحبه فلم يخرج صلاح الدين بعساكره إلى الشام لحصار الكرك والشوبك ونهب أعمالها إلا لما أيقن أن نور الدين ابتعد في سمت الشمال وقصد بلاد قلعج أرسلان ملك الروم لفتح مرعش وبهسني حتى لا يجتمع به . والسبب الذي دعا صلاح الدين إلى حصار الكرك والشوبك وقتل بعض العربات ونهب ديارهم هناك أن جماعة من العرب النازلين بارض الكرك كانوا ينقلون الأخبار إلى الفرنج وإذا أغاروا على البلد دلّوهم على مقاتل المسلمين في بلادهم . وكانت الكرك والشوبك طريق الديار المصرية وكانت أعمالها يغيرون على القوافل منها فقصده تسهيل الطريق لتصل البلاد بعضها ببعض .

وكان صلاح الدين منذ تأيد سلطانه في مصر يخاف وآله من نور الدين وكان استقدمهم إليه فاتفق رأيهم على تحصيل مملكة غير مصر فإذا قصد نور الدين شيء

مصر قاتلوه ، فان هزمهم التجأوا الى تلك المملكة ، فجهز صلاح الدين أخاه توران شاه الى النوبة فلم تعجزهم بلادها ثم سيره بعسكر الى اليمن ففتحها واستقرت بلاد اليمن في ملك صلاح الدين . فخطب فيها للخليفة العباسي ثم لنور الدين ثم لصلاح الدين علي ان صلاح الدين لم يستطع ارسال العسكر من مصر لأول مرة الا بعد استئذان نور الدين . فهذا وغيره من الاسباب التي أفلقت نور الدين علي ملكه وحاذر ان تكون عاقبة هذا الادب والخضوع اخذ ملكه منه او انشاء صلاح الدين لمملكة جديدة اعظم واغنى من مملكة نور الدين القديمة .

* * *

وفاة نور الدين / بنا صلاح الدين يحاذر من نور الدين وهذا التحيز للدخول وصفاته الطيبة / الى مصر لاختيها اتي نور الدين اليقين ومملكته الحقيقية لم تنجد الشام والجزيرة وخطيب له بمصر واليمن والحرمين ، ففرق الموت شمل من كان يخوف احدهما من صاحبه ، وبكت الامة الملك العادل نور الدين ابا القاسم محمود ابن عماد الدين اتابك لما ظهر من عدله وحسن سيرته بحيث قل في الملوك الغابرين امثاله . قال ابن الاثير : قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الاسلام وفيه الى يومنا هذا فلم ار بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز احسن سيرة من الملك العادل نور الدين ، ولا اكثر تجراً للعدل والانصاف منه ، قد قصر ليله ونهاره علي عدل ينشره ، وجهاد يتجهز له ، ومظلمة يزيلها ، وعبادة يقوم بها ، واحسان يوليه ، وانعام يسديه ، فلو كان في امة لا فتجرت به فكيف بيت واحد ، اما زهده وعبادته وعلمه فانه كان مع سعة ملكه وكثرة ذخائر بلاده واموالها ، لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف فيما يخصه الا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنمة ومن الاموال الرصيدة لمصالح المسلمين . احضر الفقهاء واستفهام في اخذ ما يحل له من ذلك فأخذ ما اقبله ولم يتعمده الي غيره البتة . واسقط كل ما يدخل في شبهة الحرام فما بقي سوى الجزية والخراج وما يحصل من قسمة الغلات وكتب اكثر من الف منشور بذلك . واطلق المظالم بحلب ودمشق وحمص وغيرها واسقط من دواوينه عن المساكين الضرائب والمكوس وجزمها علي كل متطاول اليها فكان مبلغ ما سماح به

في حلب وما اليها فقط في السنة ١٥٦ الف دينار وما وقفه وتصدق به مائتي الف دينار وتقدير الحاصل من ارتفاعه في كل سنة ثلاثون الف دينار ، واقطع امراء العرب لثلاث تعرضوا للحاج وجدد قني السبل ووقف الكتب الكثيرة ، واجرى على العلماء والقراء . ولقد رأى اصحابه على ما روى ابن الاثير كثرة خرجه فقال له احدهم ان لك في بلادك ادرات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والصوفية والقراء فلو استعنت بها في هذا الوقت لكان اصلح فغضب من ذلك وقال : والله اني لا ارجو النصر الا باولئك فانما انتم ترزقون وتنصرون بضعفائكم . كيف اقطع صلات قوم يقاتلون عني وانا نائم على فراشي بسهام لا تحطى واصرفها الى من لا يقاتل عني الا اذا رأي بسهام قد تصيب وقد تحطى . وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال كيف يحل لي ان اعطيه غيرهم . واجزم الناس من اذا وضع له الامر صدع به . وكان يأخذ مال الفداء ويعمر به الجوامع والبيمارستانات واخذ من احد ملوك الفرنج ثلاثمائة الف دينار وشرط عليه ان لا يغير على بلاد الاسلام سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة ايام وأخذ منه رهائن على ذلك وبنى بالممال المستشفى النوري بدمشق ، ولما بلغ الملك الفرنجي مأمنه هلك . وكان يبعث بما يصل اليه من هدايا وغيرها الى القاضي يبيعه ويعمر به المساجد المهجورة ولا يتناول منه شيئاً ، وامر باحصاء مساجد دمشق فأحصيت فكانت مائة مسجد فأوقف الاوقاف على جميعها وكانت وقوفه في الشام سنة وفاته ١٠٨ آلاف دينار صورية ليس فيها ملك فيه كلام بل حق ثابت بالشرع باطناً وظاهراً صحيح الشراء . وكان آية الرحمة على الفقراء والعدل في الرعية غضيضة عن الشرعينه ثقيلة عن الباطل قدمه . حضر جماعة من التجار عنده وشكوا ان القراطيس كان ستون منها بدينار وتزيد وتنقص فيخسرون ، فسأل الملك العادل عن كيفية الحال ، فذكروا ان عقد المعاملة على اسم الدينار ولا يرى الدينار في الوسط وانما يعدون الى القراطيس بالسعر تارة ستين بدينار وتارة سبعة وستين بدينار ، وأشار كل واحد من الحاضرين على نور الدين ان يضرب الدينار باسمه وتكون المعاملة بالدينار المكيمة وتبطل القراطيس بالكلية ، فسكت ساعة وقال : اذا ضربت الدينار وابطلت المعاملة بالقراطيس فكأنني ضربت بهوت الرعية . فان كل

واحد من السوق عنده عشرة آلاف وعشرون ألف قرطاس ، أي شيء يعمل به فيكون سبباً لخراب بيته .

قالوا والحق ما قالوا أن نور الدين جدد للملوك اتباع سنة العدل والانصاف ، وترك المحرمات وعاقب من يأتيها ، فأنهم كانوا قبل ذلك كالجاهلية هممة أحدهم بطنه وفرجه ، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكراً ، حتى جاء الله بدولته فكانت مصباح الحق ومنار العدل وقف مع أوامر الشرع ونواهيها ، وألزم بذلك اتباعه ونذريه فاقتردى به غيره منهم ، وكان يروي الحديث ويرويه ، وقد ألف كتاباً في الجهاد ، وكانت يباشر الاشراف على خيل الجند وسلاحهم بنفسه ، ولا يتكل على قواده ، ولا يقطع امراً قبل أن يستأذن الخليفة ببغداد . وكان في السياسة والدهاء على جانب عظيم ، تجلى ذلك يوم خيانة مجير الدين صاحب دمشق ولما أخذه اغضى عنه ، وكان يكره اهراق الدماء والحرب على غير طائل ، مع شجاعة ليس بعدها مزيد . وعرفه بالرمية تضرب بها الامثال ، ومن جيد الرأي ما سلكه مع ملجج بن ليون ملك الارمن صاحب الدروب فانه ما زال يخدعه ويستميله حتى جعله في خدمته سفيراً وخضراً ، وكان يقاتل به الفرنج ويقول : انما حملني على استمالته ان بلاده حصينة وعرة الممالك ، وقلاع منيعة وليس لنا اليها طريق ، وهو يخرج منها اذا اراد فينال من الاسلام ، فاذا طلب المنجز فيها فلا يقدر عليه ، فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئاً من الاقطاع على سبيل التآلف حتى أجاب الى طاعتنا وخدمتنا وساعدنا على الفرنج . وكان يملك الروم خرج من قسطنطينية وتوجه الى الشام ظامعاً في تسلم انطاكية فشغله عن مرامد بالمراسلة الى ابن وصل اخوه قطب الدين في جنده من المواصلة وجمع له الجيوش والعساكر ، فايس الزوملي من بلوغ ما كانت يرجو وتمني منه الصالح فاستقر رجوعه الى بلاده .

وقال مترجموه انه كان يكثر اعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج واكثر ما ملكه من بلادهم به ، اما اعماله في رد المظالم وتخفيف المغارم فسيرته فيها سيرة عمرية . واما انشاؤه المدارس والجوامع وعمارة الطرق والجسور ودور المرضى والبائسين والخانات فما لم يسبق اليه ، فأقام الابراج على الطرق بين المسلمين والفرنج

جعل فيها من يحفظها وهم الطيور الهوادي اي الزاجل فاذا رأوا من العدو اجداً
ارسلوا الطيور فأخذ الناس حذرهم واحتاطوا لانفسهم ، وبني مكاتب للايتام واجري
عليها وعليهم وعلى معلمهم الجرايات الوافرة فصارت الشام بعد خلوها من العلم واهله
مقر العلم ونبأه الفقه .

هذا حال ملك القرون الوسطي وحسن بلائه في خدمة بلاده وهو يقاتل الاعداء
في الغرب والجنوب ، وقد فتح نيافاً وخمسين حصناً واقام المعالم وهو مشغول بحفظ
الإوطان ، لم يدخل اليأس على نفسه ولم يناميره الشك بان العاقبة المحيودة تكون
له ولائته ، وانه سيظهر على عيونه فيدفعه عن حجاب . هذا ووليكه في الشام لم تتجاوز
مدته السعيدة اربعاً وعشرين سنة . لا جرم ان ظهور بني زنكي نعمة أنعمت بها
الإقدار على هذه الديار ، فخرجت بها من انقسام الكلمة وتشتت الاهواء والآراء ،
ومن خيانة الملوك والامراء ، والإعتضاد بالمحاربين من الاعداء الى تماسك وتعاقد ،
ومن ظلمة الجهل والغرور الى ضياء العلم والنور ، ومن سلب احوال الامة الى ابتاعها
بالعدل الشامل والأمن الكامل . بسقت فروعها في اسير زمن واحرج العصور ،
فخطب الناس ودتها في كل مكان وودوا لو كان لها الجكم عليهم ، ورجا اولياؤها ان
تطول ايامها لانها لا تسوق الناس الا الي طرق فلاحهم وسعادتهم .



الدولة الصلاحية

من سنة ٥٦٩ هـ الى سنة ٥٨٩ هـ

—————

اولية صلاح الدين | توفي نور الدين محمود بن زنكي وكان له السلطان
والملك الصالح | الأكبر على القلوب فحبه رعيته ويخافه اعداؤه ويحترمه يونه
وبعدله وسيرته وجميل سياسته وادارته ، وطدا اساس مملكه ووحد كلمة الشام ومصر
والجزيرة وانشأ عظمة في دولته كانوا ساعده الامن وعضده الاتموى ففتحوا الفتوح
باسمه وبنى نقيبته ، وصدروا كلهم عن رأيه ومشورته ، ومن اعظمهم بل اعظمهم صلاح
الدين يوسف بن نجم الدين ايوب . واصل صلاح الدين من دوين بلدة في آخر
عمل أذربيجان من جهة ايران وبلاد الكرج وهم اكراد زوادية . وهي قبيلة كبيرة تهد
من اشراف الاكراد وانتقل اهله من هناك الى العراق ثم عين نجم الدين ايوب
والد صلاح الدين محافظاً لقلعة تكريت وفيها ولد ابنه هذا وكان نجم الدين ايوب بن
شادي بحسن الخلق عادلاً شجاعاً كريماً ديناً محسناً ربي في الموصل وانشأ شجاعاً بأسلاً وخدم
السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي ، فرأى منه امانة وعقلاً وسداداً وشهامة ،
فولاه قلعة تكريت فقام في ولايتها احسن قيام ، حتى عمرت ارضها وأمنت سبلها ،
ثم اخضعت اليه ولايتها وكان نجم الدين عظيماً في انفس الناس بالدين والخير وحسن
السياسة واتصل بنور الدين محمود فكان من جملة قواده وفوايد على بلاده . وهذا الرجل
العظيم هو الذي اولد رجلاً أعظم وهو صلاح الدين .

وكان الزمن العصيب الذي ظهر فيه ظهير الدين ثم نور الدين ثم صلاح الدين كان يتطلب ملوكاً كفافة اثبتوا بالعمل المحسوس مقدرتهم السياسية والحربية وبرزوا من آثار نجاتهم وجلادتهم ما تطأطيء امامه الرؤوس فلا يصفق الناس لهم زوراً ورياءً ولا يدعون لهم على المنابر بما لا يقبل ولا يسمع ان لم يكن بين جنوبهم نفوس عالية ممتازة قل في طبقة قواد الامم مثلها . ولم يبق في الحقيقة بعد نور الدين من يصلح لهذا الامر مثل صلاح الدين لانه انبغ رجاله واكبرهم مقاماً وشأناً واقربهم الى قلوب الامة ، وهو ملك مصر حقيقة لا صورة ، ومن ملك مصر كان حرياً بان يملك الشام خصوصاً والشام يحبه لما بدا من غنائه ومضائه في نصرة الملة والدولة .

ولكن نور الدين قد خلف ولداً وبموجب قانون الوراثة في الملوكة في تلك الاعصر يرث الابن ملك ابيه كما يرث قصرة ومزرعته ، هما كانت سنة ، ويتولى رجال الدولة امره ويكفله من يعطفون على دولته ومن غدوا بشعمة ابيه وآله ، بيد ان الحالة السياسية في الشام ومصر وما اليها من الممالك كانت بحيث يقتضي الشذوذ عن هذه القاعدة ولو الى حين ، فيوسد الملك الى من استجمعت اشخاصهم الكفاءة قبل كل شيء لتخرج البلاد من مأزقها الحرج مع الصليبيين ، وهذا لا يتيسر ان ينهض به ولد يافع بلغ من العمر احدى عشرة سنة ، ونعني به ابن نور الدين الملك الصالح اسماعيل . فانظر كيف تصرفت الاقدار بما فيه خير البلاد ، ولم تترك بمصالحها الخافزة للاصول السخيفة في توسيد الملك للكبير والصغير على السواء .

توفي في دمشق نور الدين في سنة ٥٦٩ هـ وبالحال ملك ابنه الصالح اسماعيل وحلف له العسكر بدمشق واطاعه صلاح الدين . وخطب له بمصر وضرب السكة باسمه ، ودبر دولته شمس الدين بن المقديم من اعظم امراء ابيه ، واستولى سيف الدين غازي شقيق نور الدين محمود على البلاد الجزرية وهي لنور الدين وكان صلاح الدين في مصر ، فجعل الملك الملك الفتي كما كان لايه من قبل . بيد انه من المتعذر ادارة البلاد في ذلك العصر اذا لم يحكمها رجل عظيم استوفى عامة شروط الحكم . فيصدر عن رأي واجد يحضه اولاً بمشورة رجال دولته ويكون هو المرجع فيه والمسؤول عنه ، يهتم للملك اهتمامه بابنه وابنته . وهي يتيسر ذلك اذا تشعبت الاءاع . وكان

صاحب الملك الرسمي قاصراً وأوصياؤه يدبرونه وربما كان فيهم من تطمح نفسه الى الاستئثار بالسلطة ، ومتى كان الوكيل كالأصيل ، والمنفل كالملكف :
ممالك لم يدبرها مدبرها الا برأي خصي او بعقل صبي

اختلاف الآراء ومبدأ استيلاء) ولما بدأت نواجذ الاختلاف تبدو بين الامراء
صلاح الدين على الشام) في الشام شعر صلاح الدين وهو بمصر ان
هذا الفراغ الذي حدث بموت نور الدين يستلزم ان يملأه رجل تجمع القلوب على
حبه ، وان يصل السلسلة المقطوعة بهلكه والا انفرط العقد كله ، وتصبح البلاد فوضى
ونفتح أبوابها على مصاريحها ادخول الدخلاء يستصفون المملكة كلها ، وتصبح بالشقاق
الداخلي أشنع صورة مما كانت على عهد أواخر الدولة الاتابكية أخلاف الأتابك
ظهير الدين .

وانفق نزول الفرنج بعد وفاة نور الدين على الثغر وقصدهم بانياس فخرج اليهم
شمس الدين بن المقدم وراسل الفرنج وخوفهم بقصد صلاح الدين لبلادهم وقال لهم : انتم
تعلمون ان صلاح الدين كان يخاف ان يجتمع بنور الدين ، والآت فقد زال ذلك
الخوف واذا طلبناه الى بلادكم لا يمنع ، فعملوا صدقه وصالحوه ، وتكلموا في الهدنة وحصاوا
بقطيعة (بخراج) استعملوها واستطاعوا عدة من اسرارهم وتمت المصالحة . وفي تهديد
ابن المقدم للفرنج بصلاح الدين أعظم دليل على مكانته في قلوب رجال الدولة وان
الصلبيين عرفوا انهم ابتلوا بداهية لا يقل عن نور الدين بحسن تدبيره وشجاعته .
فبلغ صلاح الدين ما تم بين ابن المقدم والفرنج فأنكره ولم يعجبه ، وكتب الى
جماعة الاعيان كتاباً يقرعهم فيه ويلومهم ، ويقول : انه تجهيز وخرج وسار اربع
مراحل ثم جاءه الخبر بالهدنة المؤذنة بذل الاسلام فعاد الى مقره . وقد « استصغر
امر اهل الشام وعلم ضعفهم » وقال : « ان استمرت ولاية هؤلاء تفرقت النكبة
المجتمعة ، وضاعت المناهج المتسعة ، وانفردت مصر عن الشام » . قال ابن شداد :
لما تحقق صلاح الدين وفاة نور الدين وكوف ولده طفلاً لا ينهض باعباء الملك ،
ولا يستقل بدفع العدو عن البلاد تجهيز للخروج الى الشام اذ هو أجل بلاد الاسلام .

وقد كان صلاح الدين بنوي ان بتولى تربية ابن مخدمه نور الدين وكتب : « ان الوفاء انما يكون بعد الوفاة ، والمحبة انما تظهر آثارها عند تكاثر اطماع العداة » . ولكن الامراء في الشام اخذ كل منهم يعمل على شاكلته ، ويريد ان يستأثر بالامر دونه وهو أحق منهم وأولى .

ثم ان شمس الدين بن الداية مقدم العساكر المقيم بحلب ورضيع نور الدين واكبر امرائه أرسل سعد الدين كشتكين الى دمشق يستدعي الى حلب الملك الصالح بن نور الدين ليكون مقامه بها ، ولما استقر بحلب وتمكن كشتكين قبض على شمس الدين ابن الداية واخوته وقبض الرئيس بن الخشاب واخوته ، واستبد سعد الدين بتدبير الملك الصالح مخافة ابن المقدم وغيره من الامراء الذين بدمشق ، وكتبوا صلاح الدين في مصر واستدعوه ليملكوه عليهم (٥٧٠) فسار صلاح الدين جريدة في سبعمائة فارس فوصل الى بصرى وكان صاحبها يستحثه على القدوم ، ولما بلغ دمشق خرج كل من كان بها من العسكر والنقوه وخدموه ، وعصت عليه القلعة وكان فيها من جهة الملك الصالح خادم اسمه ريحان فراسله صلاح الدين واستماله فسلم القلعة اليه ، فصعد اليها صلاح الدين وأخذ ما فيها من الاموال . ثم كتب الى الملك الصالح بن نور الدين كتاباً يتواضع له فيه ويخاطبه بمولانا وابن مولانا ويقول : انما جئت من مصر خدمة لك لاؤدي ما يجب من حقوق المرحوم ، فلا تسمع من حولك فنفسد احوالك وتختل امورك ، وما قصدي الا جمع كلمة الاسلام على الفرنج . فعرض الملك الصالح ذلك على امراء دولته فأشاروا عليه بان يكتبه بالغلظة فكتب اليه منكرأ عليه ، وينسبه الى كفر النعمة وجحد احسان والده ووعدده وهدده فساء ذلك صلاح الدين واغضى على القذى وكظم غيظه .

ولما قرر صلاح الدين امر دمشق استخلف بها أخاه سيف الاسلام طغتكين بن ايوب وسار الى حمص وكانت حمص وحماة وبارين وسلمية وتل خالد والرثا في إقطاع نحر الدين مسعود بن الزعفراني فلما مات نور الدين لم يمكن نحر الدين المقام بحمص وحماة لسوء سيرته مع الناس وكانت هذه البلاد له بغير قلاعها فان قلاعها كان فيها ولادة لنور الدين وليس لنحر الدين معهم في القلاع حكم الابارين ، فملك

صلاح الدين مدينة حمص وعصت عليه القلعة فترك عليها من يضيق عليها ودكوها ورحل الى حماة فاستغاث صاحبها بالاسماعيلية وأعطاهم ضياعاً ومالاً ليستعين بهم على صلاح الدين ، فلم يلبث ان ملك مدينة حماة وكان بقلعتها الامير عز الدين جرديك احد المماليك النورية فامتنع في القلعة فذكر له صلاح الدين انه ليس له غرض سوى حفظ البلاد للملك الصالح اسماعيل وانما هو نائبه ، وقصده من جرديك المسير الى حلب في رسالة فاستخلفه جرديك على ذلك وسار الى حلب برسالة صلاح الدين واستخلف في قلعة حماة أخاه ، فلما وصل جرديك الى حلب قبض عليه كشتكين وسجنه ، فلما علم اخوه بذلك سلم قلعة حماة الى صلاح الدين ، ثم سار هذا الى حلب وحصرها وبها الملك الصالح اسماعيل ، فجمع أهل حلب وقتلوا صلاح الدين وصدوه عن مدينتهم ، وارسل سعد الدين كشتكين الى سنان مقدم الاسماعيلية اموالاً عظيمة ليقتلوا صلاح الدين فأرسل سنان جماعة فوثبوا بصلاح الدين فقتلوه دونه ، واستمر صلاح الدين محاصراً لحلب ورحل عنها بسبب نزول الفرنج على حمص فعاد اليهم فرجعوا أدراجهم ، ووصل صلاح الدين الى حمص فحصر قلعتها وملكها ثم سار الى بعلبك فملكها .

تملك صلاح الدين ومحاولة / ولما استقر ملك صلاح الدين لهذه البلاد ارسل اغتياله وسر نجاحه / الملك الصالح الى ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده على صلاح الدين فنجيز جيشه ، وطلب اخاه الاكبر عماد الدين زكي بن مودود صاحب سنجار ليسير في النجدة ايضاً فامتنع مصانعة لصلاح الدين ، ووصل عسكر الموصل وانضم اليه عسكر حلب وساروا الى صلاح الدين فارسل صلاح الدين ببذل حمص وحماة وان نقر بيده دمشق وان يكون فيها نائباً للملك الصالح ، فلم يجيبوا الى ذلك وساروا الى قتاله ، واقتتلوا عند قرون حماة فانهمزم عسكر الموصل وحلب ، وحينئذ قطع صلاح الدين خطبة الملك الصالح بن نور الدين وازال اسمه عن السكة واستبد بالسلطنة فراسلوا صلاح الدين في الصلح على ان يكون له ما بيده من الشام والملك الصالح ما بقي بيده منه فصالحهم على ذلك ورحل ثم ملك قلعة بارين

كما صالح بني رزيك على ان يكون له الى حد المعرة ولهم ما يلي ذلك فنقض الخلبيون الصلح الذي كان بينهم وبين صلاح الدين وجاء سيف الدين غازي في عساكر الموصل وديار بكر وحلب وعدتهم عشرون ألفاً بين فارس وراجل وعسكر صلاح الدين ستة آلاف عدداً ما جاء بعد من مصر . وقال رسول سيف الدين الى صلاح الدين انه رأى صلاح الدين في خيمة صغيرة على بساط لطيف وتحت سجادة وبين يديه مصحف وهو مستقبل القبلة والى جانبه زردية وسيفه وقوسه وتركاشه (جعبته) معلق في عمود الخيمة ، فلما رأته وقم في خاطري انه المنصور لاني فارقت سيف الدين والامراء وهم على طنافس الحرير والخمور تراق والطبول تعمل ، وليس في خيامهم خيمة الا وفيها انواع المحرمات ، فأدبت اليه الرسالة وجاء وقت الظهور فضج العساكر بصوت الاذان وفي كل خيمة امام . قال سبط ابن الجوزي : ان صلاح الدين لما هزم جيش سيف الدين عاد الى خيامهم فوجد سرداق سيف الدين مفروشاً بالرياحين والمغنون جلوس في انتظاره والخمور تراق ومطابخه بقدرورها وفيه اقفاص الطيور فيها انواع من القماري والبلابل والهزرات فارسل صلاح الدين بما كان في السرداق من المغنين والخمور والطيور اليه وقال للرسول : قل له اشغالك بهذا اليق من مباشرتك الحروب ولا تعد الى مثلها . وكانت هذا المصاف بين السلطان صلاح الدين وسيف الدين غازي في سنة ٥٧١ هـ فهرب سيف الدين والعساكر التي كانت معه فانه كان يستنجد بعد هزيمته في قرون حماة بصاحب حصن كيفا وصاحب ماردن وغيرهما ثم سار صلاح الدين الى بزاغة فحصرها وأسلمها وقصد منبج فحصرها وافتتحها عنوة ولما جلس يستعرض اموال صاحبها وذخائره كان في جملة امواله ثلاثمائة الف دينار ومن الفضة والآنية الذهبية والاسلحة ما يناهز الف دينار ، فحانت من السلطان النفقات فرأى على الاكياس والآنية مكتوباً « يوسف » فسأل عن هذا الاسم فقيل له ولد يحبه ويؤثره اسمه يوسف كان يدخر هذه الاموال له فقال السلطان : انا يوسف وقد اخذت ما خبي فتعجب من ذلك (رواه ابن ابي طي) .

ثم سار السلطان الى عزاز وتنازلها وتسليمها فوثب اسماعيلي على صلاح الدين في حصاره عزاز فضر به بسكين في رأسه فجرحه فامسك صلاح الدين يدي الاسماعيلي

وبقي يضرب بالسكين فلا يؤثر حتى قتل الاسماعيلي على تلك الحال ووثب آخر عليه فقتله ايضاً وجاء السلطان الى خيمته مذعوراً وعرض جنده وابعد من انكره منهم . وهكذا فان صاحب حلب او نائبه او جماعة دولته ، وصاحب حماة او نائبه او حملة غاشيته صمموا على اغتيال صلاح الدين بايدي الخوارج حرصاً على ملك قد يسلم لهم فيستمتعون به زمناً اولاً يستمتعون ، ولو وفقوا الى قتله اقتلوا به أمة بأمرها حتى يعيشوا سنين في دعة ومجد ، وما اكثر الارعياء في كل زمن في حب دينهم وقوميتهم ، فاذا لم ينالوا رغائبهم ساروا على العمياء لحظ انفسهم فقط .

وبعد تسليم عزاز لصلاح الدين جاء حلب فحاصرها وبها الصالح بن نور الدين فسلخوا صلاح الدين في الصلح فاجابهم اليه وسألوه قلعة عزاز فسلمها اليهم ورفع على حلب علمه الاصفر ورحل عنها في المحرم سنة ٥٧٢ ورجع من بلاد الاسماعيلية وحصر قلعة مصياف ، فسأله خاله شهاب الدين الحارمي صاحب حماة الصلح عنهم بسؤال سنان فرحل عنهم الى مصر وسنان هذا هو ابو الحسن سنان بن سليمان بن محمد الملقب راشد الدين صاحب قلاع الاسماعيلية ومقدم الفرقة الباطنية بالشام واليه تنسب الطائفة السنانية وهو الذي كتب الى صلاح الدين جواب كتاب كان هدده فيه على ما نقل ذلك ابن خلكان وافتحه بقوله :

يا ذا الذي بقراع السيف هددنا لا قام مصرع جنبي حين تصرعه
قام الحمام الى البازي يهدده واستيقظت لاسود البر اضبعه
اخفي يسد فم الافعى باصبعة يكفيه ما قد تلاقي منه اصبعة
ثم اردف هذه الابهات بكتاب كله تهديد لصلاح الدين وقد كتب اليه مرة أخرى :

بنات هذا الملك حتى تأثلت بيوتك فيها واشمخر عمودها
فاصبحت ترمينا بنبل بنا استوى مغارسها منا وفينا حديدنا
وفي ذلك يهات لقوة الاسماعيلية في عصر صلاح الدين فكانوا يتهددونه كما يتهددهم ولذلك اغضى في الغالب عنهم وان حاولوا اغتياله غير مرة . ولما بلغ عسقلان (٥٧٣) وشن الغارات على الفرنج طلعو اعليه . وهو في بعض العسكر فقاتلهم اشد قتال وقارب

حملات الفرنج السلطان فانهزم الى مصر على البرية ومعه من سلم ، فلقوا مشقة وعطشاً
واسر الفرنج العسكر المنفرق في الاغارة ، وأسر الفقيه عيسى من اكبر اصحاب صلاح
الدين فافتداه بعد سنين بستين الف دينار هذا مع ان جيش صلاح الدين كان نحو
عشرين الفا وقعت الكسرة عليهم لانهم كانوا متفرقين في الغارات وكسروا ومعظمهم لم يعلم
بالهزيمة . وفي هذه السنة حصر الفرنج حماة طمعاً بهزيمة صلاح الدين وبُعده وكادوا يملكونها
فجد المسلمون في القتال ثم رحلوا عنها الى حارم . وفيها قبض الملك الصالح على
كمشكتكين منغلباً على الامر وكانت له حارم فعذب كمشكتكين واصحابه ليسلموا قلعة
حارم فاصروا على الامتناع حتى مات من العذاب ، ووصل الفرنج من حصار حماة ،
وحصروا حارم اربعة اشهر فداراهم الصالح بال فرحلوا بعنبره مد بلوغ اهلها الجهد ،
ثم ارسل الملك الصالح عسكراً فحصروها وملكوها .

فتوح صلاح الدين | أرسل صلاح الدين (٥٧٤) الى شمس الدين بن المقدم
ووفاة الملك الصالح | ليسلم بعلبك الى توران شاه فعصى بها فحصره صلاح
الدين تسعة أشهر ثم عوض عنها وسلمها الى توران شاه (٥٧٥) وبعث السرايا والغارات
الى بلاد الفرنج بعد موت الهنفرى ملكهم وكان هذا يريد ان يغير على دمشق فأخذ
رجال صلاح الدين وأسروه وغنموا ما مع جماعته وفتح صلاح الدين حصناً كان
بناه الفرنج عند مخاضة الاحزان بالقرب من بانياس ، وكان الفرنج انتهزوا فرصة مقام
السلطان صلاح الدين على بعلبك واشتغاله بامرها فبنوا حصناً على مخاضة بيت
الاحزان وبينه وبين دمشق مسافة يوم وبينه وبين صفد وطبرية نصف يوم ، فراسل
السلطان الفرنج في هدمه فأجابوا انه لا سبيل الى هدمه الا ان يعطينا ما نرمننا عليه
فبذل لهم السلطان ستين الف دينار فامتنعوا فزادهم الى اثنى مائة الف دينار
وكان الداوية اصحاب الحصن يقطعون هناك الطرق على القوافل فخر به المسلمون
وكانت الحرب بين عسكر السلطان صلاح الدين ومقدمهم ابن اخيه نقي الدين
عمر وبين عساكر قليج أرسلان بن مسعود صاحب بلاد الروم وسببها ان حصن رعبان
كان بيد شمس الدين بن المقدم فطمع فيه قليج أرسلان وأرسل اليه عسكراً كثيراً

ليحصروه وكانوا قريب عشرين ألفاً فسار اليهم نقي الدين في ألف فارس فهزمهم وكان نقي الدين يفتخر ويقول هزمت بألف عشرين ألفاً . وفي هذه السنة أحرق الأساعيلية أسواق حلب وافنقر أهلها بذلك وكانت إحدى الجوائح التي أصابت الشهاب وسكانها . وسار صلاح الدين (٥٧٦) إلى بلاد قلعج أرسلان صاحب الروم ووصل إلى رعبان ثم اصطلمحوا فقصد صلاح الدين بلاد ابن ليون الأرمني وشن فيها الغارات فصاحه ابن ليون على مال حملة وأسرى أطلقهم .

وفي سنة ٥٧٧ غزم صاحب الكرك الفرنجي على المسير إلى المدينة المنورة للاستيلاء على تلك النواحي ، وسمع ذلك عز الدين فرخشاه نائب عمه السلطان صلاح الدين بدمشق فقصد بلاد الكرك وأقام عليها ، ففرق صاحب الكرك جموعه وانقطع عزمه عن الحركة . وفي هذه السنة توفي الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين وعمره نحو ١٩ سنة وأوصى بملك حلب إلى ابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل فسار إليها بعد موت الصالح ومعه مجاهد الدين قنبار واستقر في ملكها فكاتبة أخوه زكي بن مودود صاحب سنجار على أن يعطيه حلب ويأخذ سنجار وأشار قنبار بذلك فأجاب وعاد إلى الموصل .

قال ابن الأثير : أن بعضهم قال للملك الصالح وهو يوصي بالملك بعده أن عماد الدين ابن عمك أيضاً وهو زوج اختك وكان والدك يحبه ويؤثره وهو تولى تربيته ولبس له غير سنجار فلو أعطيته البلد (حلب) نكاح الصالح وعز الدين له من البلاد من الفرات إلى همدان ولا حاجة به إلى بلدك فقال له : أن هذا لم يغيب عني ولكن قد علمت أن صلاح الدين قد تغلب على عامة بلاد الشام سوى ما بيدي ، ومتى سلمت حلب إلى عماد الدين فعيجز عن حفظها ملكها صلاح الدين لم يبق لأهلنا معه مقام ، وإن سلمتها إلى عز الدين أمكنه حفظها بكثرة عساكره وبلاده فاستحسنوا قوله وعجبوا من جودة فطنه مع شدة مرضه وصغر سنه .

وفي سنة ٥٧٨ قصد صلاح الدين الشام من مصر وأغار في طريقه على الفرنج وغنم واجتمع الفرنج قرب الكرك ليككونوا على طريقه لما سار فانتبه فرخشاه نائب صلاح الدين بدمشق الفرصة وفتح بعسكر الشام الثقيف وأغار على ما يجاوره وفتح

دبورية وجاء الى شقيف حبس جلدك بالسواد من اعمال طبرية وهو حصن. يشرف على بلاد المسلمين ففتحها واسكنه المسلمين. ونزل صلاح الدين قرب طبرية وشن الغارات على بيسان وجنين واللجون والغور من بلاد الفرنج حتى بلغت عساكره مرج عكا فغنم وقتل ثم عاد الى دمشق وحصر بيروت واغار على تلك الارحاء ونهب بلدها وكان قد امر الاسطول المصري بالهجوم في البحر اليها فساروا ونازلوها واغاروا عليها وعلى بلداءها وكان عازماً على ملازمتها الى ان يفتحها فاتاه الخبر وهو عليها ان البحر قد بقي بطسه للفرنج فيها جمع عظيم منهم الى دمياط كانوا قد خرجوا لزيارة بيت المقدس فأسروا منها بعد ان غرق منهم كثير فكان عدة الاسرى ١٦٧٦ اسيراً. ثم عبر السلطان الفرات الى البيرة فصار معه مظفر الدين كوك بوري صاحب حران واستمال ملوك الاطراف فصار معه نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كينفا وحاصر الرها وملكها وسلمها الى كوك بوري ثم اخذ الرقة وقرقيسيا وماكسين وعربان والخابور جميعاً ثم ملك نصيبين وقلعتها ثم حصر الموصل وبها صاحبها عز الدين مسعود ومجاهد الدين قياز وقد شجنت رجالاً وسلاحاً وحاصر سنجار وملكها واتاه الخبر ان الفرنج قصدوا دمشق ونهبوا القرى ووصلوا الى داريا وارادوا تخريب جامعها فارسل النائب بدمشق اليهم جماعة من النصاري يقول لهم ان اخربتم الجامع جددنا عمارته واخرينا كل بيعة لكم في بلادنا ولا نمكن احداً من عمارتها فتركوه.

وفيها تصد الفرنج المقيمون بالكرك والشوبك المسير لمدينة الرسول لينبشوا قبره الشريف وينقلوا جسده الكريم الى بلادهم ويدفنوه عندهم ولا يمكنوا المسلمين من زيارته الا بعمل أنشأ البرنس ارناط صاحب الكرك اسطولاً في بحر ايلة (العقبة) وجعله فرقتين فرقة حشرت حصن ايلة وفرقة نحو عيذاب يفسدون في السواحل بغتة ، ولم يعهد بهذا البحر فرنج قط ، فعمر الملك العادل ابوبكر بن ايوب نائب الناصر بمصر اسطولاً في بحر عيذاب وارسله مع حسام الدين لؤلؤ الحاجب متولي الاسطول بمصر ، فواقع لؤلؤ بمحاصري ايلة فقتل واسر ، ثم طلب الفرقة الثانية وقد عزموا على دخول المدينة ومكة فبلغ رابع ، فادركهم بساحل الحوزاء وقتلهم اشد قتال فقتل اكثرهم واسر الباقين وارسل بعضهم الى منى لينحروا بها وعاد بالباقيين فقتلوا عن آخرهم بمصر .

وملك صلاح الدين آمد (٥٧٩) وكان وعد بها محمد بن قرا ارسلان صاحب حصن كينغاو كان فيها خزانة كتب فيها الف الف واربعون الف كتاب فوهبها الوزير القاضي الفاضل فانتخب منها حمل سبعين حملاً ، وكان فيها من الذخائر ما يساوي ثلاثة آلاف الف دينار ، فوهبها لابن قرا ارسلان هذا ، فلما قيل له في ذلك قال : لا أضرب عليه بما فيها من الاموال فانه قد صار من اتباعنا واصحابنا ونحن انما نريد ان يسير الناس معنا على قتال الاعداء فقط ، وليس قصدنا من الفتح البلاد بل العباد ، هذا وبعد مدة قل المال لنفقة الجند فاستدان صلاح الدين من اخيه العادل ١٥٠ الف دينار لا طعامهم . وفتح صلاح الدين تل خالد من اعمال حلب ثم عينتاب ثم تسلم بعد المحاصرة حلب من زنكي بن مودود واعطاه سنجار ، وشرط عليه الحضور الى خدمته بنفسه وعسكره اذا استدعاه ، ولا يحتج بحجة عن ذلك . ومن الاتفاقات العجيبة ان محيي الدين ابن الزنكي قاضي دمشق مدح السلطان بقصيدة منها :

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر مبشر بفتح القدس في رجب

فوافق فتح القدس في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة . ثم سار صلاح الدين من حلب بعد ان تسلم حارم ونظم امر تلك البلاد وتجهز من دمشق فأحرق بيسان وشن الغارات على تلك النواحي وأرسل الى اخيه العادل بمصر ان يلاقيه الى الكرك فاجتمعا تايها وحصرهما ثم رحلا عنها . وسار في السنة التالية (٥٨٠) من دمشق فنازل الكرك وكتب الى مصر فسار اليه عساكرها فضيق على من به وملك ربض الكرك ، ولم يتيسر له الاستيلاء على قلعتها فرحل عنها لامتناعها عليه ، فسار الى نابلس وأحرقها ونهب ما بتلك النواحي وقتل وأسر وسبي فأكثر ثم سار الى سبسطية فاستنقذ ما بها من أسرى المسلمين . وفي سنة ٥٨١ حصر الموصل مرة ثانية فسير أتاك عن الدين صاحبها والدته ومعها ابنة عمه نور الدين محمود وغيرها من النساء وجماعة من أعيان الدولة يطلبون المصالحة وكل من عنده ظنوا انهم اذا طلبن منه الشام أجابهن الى ذلك لا سيما ومعهن ابنة مخدومه وولي نعمته نور الدين فلما وصلن اليه اعتذر باعذار غير مقبولة وأعادهن خائبات فأسف العامة لرده النساء ، وندم صلاح الدين بعد ذلك على ردهن ، وجاءته كتب القاضي الفاضل وغيره بقبحوت فعله وينكرونه . وسار

صلاح الدين عن الموصل الى نالط وملك ميفارقين . وغزا البرنس صاحب الكرك (٥٨٢) وأسر قافلة من المسلمين فطلبهم السلطان بحكم الهدنة فآبى فنذر صلاح الدين قتله بيده . وكان ارنالط من اعدر الفرنجة وانقضهم للمواثيق المحكمة والايان المبرمة . وكان كفيل القومص صاحب طرابلس قد حنق على جماعته الفرنج لان زوجة ريمند بن ريمند الصنجيلي هويت رجلاً من الفرنج اسمه كي واخرجت كفيل ابنها من ملك طرابلس وكان طمع فيه ، فراسل صلاح الدين وانتمى اليه واعتضد به ، وطالب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج ، ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ووعدوه النصر والسعي له في كل ما يريد ، وضمن له ان يجعله ملكاً مستقلاً للفرنج قاطبة ، وكان عنده جماعة من فرسان القومص فأطلقهم ، فحل ذلك عنده اعظم محل ، وظهر طاعة صلاح الدين ووافقه على ما فعل جماعة من الفرنج فاختلفت كلمتهم . قال صاحب السكامل : وكان ذلك من اعظم الاسباب الموجبة لفتح بلادهم واستنقاذ البيت المقدس منهم .

وقعة حطين } وكانت سنة ٥٨٣ سنة مباركة جداً على صلاح الدين
وفتح فلسطين } والمسلمين ، كما كانت عليه ٥٦٤ بفتح مصر وانقاذها من
ايدي الفاطميين . ضرب صلاح الدين الفرنج ضربة لم ينلهم مثلها منذ وطئوا اديم
الشام سنة ٤٩١ فبدأ بمضايقة الكرك (٥٨٣) خوفاً على الحجاج من صاحبها فأخرب
كما قال من رسالة الى اخيه سيف الاسلام عماراتها واحرق غلاتها ، وقطف ثمراتها ،
وازعج ساكنيها ، واخاف آمنيتها ، واجلى عنها فلاحيتها ، واقام النوايح عليها في نواحيها . واغار
بعض عسكره على عكا وغنموا ثم حصر مدينة طبرية ومعه الجاندارية والخراسانية والحجارون
والنقايون ففتحها بالسيف وكانت للقومص صاحب طرابلس وكان مهادن السلطان فاجتمع
الى الفرنج للحرب — وكانت طبرية تقاسم على نصف مغل البلاد من الصلت والبلقاء وجبل
عوف والحياينة ^(١) والسواد وناصف الجولان وما يقربها الى بلاد حوران .

(١) الحَيَّانِيَّة كورة بالسواد من ارض دمشق وهي كورة جبل جرش قرب

الغور : وجبل عوف هو جبل عجلون .

ثم اجتمعت ملوك الفرنج فارساً وراجلاً وساروا الى صلاح الدين فركب اليهم من طبرية ، والنقى الجمعان واشتد القتال بينهم واحدق المسلمون بالفرنج من كل ناحية وبادوهم قتلاً وامسراً على قرية حطين بالقرب من طبرية وأسر في جملة من أسر ملك الفرنج الكبير وصاحب الكرك وصاحب جبيل وغيرهم من قمامصتهم وامرائهم وكان الفرنج في حطين خمسة واربعين ألفاً فلم يسلم منهم سوى الفلّ وقتل الباقون واستأسروهم فقتل منهم اربعون ألفاً ولما انقضى المصاف جلس السلطان في خيمته واحضر ملك الفرنج واجلسه الى جانبه وكان الحر والعطش به شديداً فسقاه السلطان ماءً مثلوجاً وسقى ملك الفرنج منه البرنس ارنلط صاحب الكرك فقال له السلطان : ان هذا الملعون لم يشرب الماء باذني فيكون اماناً له ، ثم كلم السلطان البرنس ووجه على غدره غير مرة وعلى قصده الحرمين الشريفين وقام السلطان بنفسه فضرب عنقه فارعدت فرائص ملك الفرنج فسكن بجأشه . قالوا وقد عرض السلطان الاسلام على الداوية والاسبتار ، فمن اسلم منهم استبقاه ، ومن لم يسلم قتله فقتل خلق عظيم ، وبعث بباقي الملوك والاسارى الى دمشق ، ثم عاد السلطان الى طبرية وفتح قلعتها بالامان ثم سار الى عكا وحاصرها وفتحها بالامان وكان فيها ثلاثون الف افرنجي واربعة آلاف اسير مسلم . وارسل اخاه الملك العادل فنازل مجد البابا وفتح عنوة بالسيف ثم فرق السلطان عسكره ففتحوا الناصرة وقيسارية وحيناً وصفورية ودبورية والفولة وجنين وزرعين والطور واللجون والقيمون والزيب ومعلبا والبعنة واسكندرونة ومذواث وارسوف وعفرلا وريح سنجيل والبحيرة وقلونية وصرفند ومجدل الحباب وجبل الجليل وتل الصافية والتل الاحمر وقرينا وصوبا وهرمس والسلع عدا ما تحاطها من القرى والابرار والقلاع . فتح كل ذلك بالسيف وفتح عسكره سبسطية ونابلس وقلعتها بالامان ، وفتح العادل يافا عنوة ثم فتح السلطان تبنين ، وتسلم صيدا خالية ثم بيروت بالامان بعد حصارها . وكان من جملة الاسرى صاحب جبيل فبذل جُزْءاً فأطلق . وحضر المركيس في سفينة الى عكا وهي للمسلمين واقلع الى صور فاجتمع عليه الفرنج الذين بها وملك صوراً . وذكر المؤرخون ان اطلاق امراء الفرنج من الاسر وحملهم الى صور كان من اعظم اسباب الضرر وقوة الفرنج ورواح عكا .

فتح القدس | ثم حصر السلطان عسقلان وتسلمها ثم فتح الرملة والداروم وغزة
والرملة | وبيت لحم وبيت جبريل وتبنين والنطرون ومشهد الخليل
وإدنة وغيرها ثم نازل السلطان القدس وبد من الفرنج عدد لا يحصى وضايقه بالنقابين
واشتد القتال ، وطلب الفرنج الامان فقال : آخذها مثل ما اخذت من المسلمين بالسيف
فعاودوه فاجاب بشرط ان يؤدي كل رجل عشرة دنانير وكل امرأة خمسة وكل
طفل دينارين ومن عجز أسر وتسلم المدينة في رجب وكان فيها بالقبض ستون الف
رجل ما بين فارس وراجل سوى من تبعهم من النساء والولدان وقال : يشو : انه كان
فيها مائة الف صليبي وكان عددهم لما فتحوه ٦١٠٠ فارس و٤٨ الف راجل ولم يكن فيها
لما فتحها صلاح الدين سوى ربان واحد من اليهود وكان يدفع اناوة كبيرة في السنة للملك
حتى بقي فيها :

قال ابن الاثير في معنى ارتضاء صلاح الدين بالفداء من الفرنج في القدس :
ان الفرنج لما رأوا شدة قتال المسلمين وتحكم المنجنيقات بالرمي المتدارك وتمكن النقابين
من النقب ارسلوا باليان بن نيرزان صاحب الرملة الى صلاح الدين يطلب الامان فاجاب
السلطان وقال : لا افعل بكم الا كما فعلتم بالمسلمين حين ملكتموه سنة احدى وتسعين
واربعائة من القتل والسبي فقال له باليان : ايها السلطان اعلم اننا في هذه المدينة في
خلق كثير ، وانما يفترون عن القتال رجاء الامان ، فاذا رأينا ان الموت لا بد منه فوالله
لنقتل اولادنا ونساءنا ونحرق اموالنا ولا نترككم نغتمون منا ديناراً ولا درهماً
ولا تسبون وتأسرون رجلاً او امرأة ، فاذا فرغنا من ذلك اخرجنا الصخرة والمسجد
الاقصى . ثم تقتل من عندنا من اسارى المسلمين وهم خمسة آلاف اسير ، ولا تترك
لنا دابة ولا حيواناً الا قتلناه ، ثم خرجنا اليكم كلنا وحينئذ لا يقتل الرجل منا حتى
يقتل امثاله ، ونموت اعزاء ونظفر كرماء ، فاستشار صلاح الدين اصحابه فاجمعوا على
اجابتهم الى الامان وان لا يخرجوا ويحملوا على ركوب ما لا يارى عاقبة الامر فيه
عن اي شيء ينجلي ، فاجاب صلاح الدين حينئذ الى بذل الامان للفرنج .

وكان رأي صلاح الدين اخذ الفداء فتغلب رأيه على ما كان يراه بعض جماعته
اولاً من اهراق دماء الفرنج كما اهراق اجدادهم دماء المسلمين ، وهذا التهديد من سفير

الصلبيين في الصلح لاشأن له مع صلاح الدين ، وهو في تلك القوة والمنعة ، ولكن صلاح الدين يرمي الى مقصد اعلى من جميع مقاصد جماعته وجماعة الصليبيين ، كان يريد بما فعل من قبول الفداء تعليم الصليبيين درساً في مكارم الاخلاق وسماحة الاسلام ، وان لا يثير الحفاظ وهو على يقين من ان اوربا جيشت الا قليلاً لتفتح القبر المقدس فاذا قتل من فيه وفيهم الامراء والسادة والقادة وغيرهم يقيم في كل دار في الغرب ، أتمماً وتزيد الطوائل بين الفريقين ، ويهب الفرنج في اوربا الى جمع شملهم ، اكثر مما جمعوا في القرن الماضي ومنصف هذا القرن وتعود البلاد الى خرابها .

وما الفائدة من القتل اذا كان يجب الولايات على فاعله وعلى ذويه . على ان صلاح الدين لو قتل فرنج القدس لما كان خرج عن ، ألوف عادة تلك العصور وما عدت عمله شيئاً فرياً اذ يكون قد كمال لهم بالكيل الذي كانوا به لامتة . يند ان السماحة التي بدت منه اكسبته وقومه في الغرب اسماء طراً لا يزال يردد بالخير على كرور الايام ، ودب الفشل في نفوس القابضين على زمام الامر في الغرب فلم يعودوا كما كانوا في الثمانين السنة الاخيرة بأتمرون في الحال باوامر الكنيسة البابوية ، ويحسمون الناس ليسيروا بهم على العمياء الى الارض المقدسة . وبهذا العمل انحلت العقدة المهمة الاولى من حروب الصليبيين وكان الخطب سهلاً في الوقائع بعد ذلك في عهد صلاح الدين واخلافه والماليك فصدق في وصفه شاعره عبد المنعم الجلياني حيث قال من قصيدة :

وفيت لهم حتى احبوك ساطياً	بهم ووفاء العهد قيد المحاصم
نحانوا نخابوا فانتدوا فتلاوموا	فقالوا 'خذلنا بارتكاب الجرائم
وخص صلاح الدين بالنصر اذا قى	بقلب سليم راحماً للمسلم
فخطوا بارحاء الهياكل صورة	لك اعتقدوها كاعتقاد الاقائم
يدين لها قس ويرقي بوصفها	ويكتبه يشفى به في التائم

مر الرحالة ابن جبير الاندلسي بالشام وصلاح الدين محاصر للكرك فتعجب من ان نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين وافرنج وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم وارفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم . واختلاف القوافل من

مصر الى دمشق على بلاد الفرنج غير منقطع واختلاف المسلمين من دمشق الى عكة كذلك ، وتجار الصليبيين ايضاً لا يمنع احد منهم ولا يعترض ، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم ، وهي الأمانة على غاية وتجار النصارى ايضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلمهم والارنفاق بينهم والاعتدال في جميع الاحوال ، واهل الحرب مشغولون بحربهم ، والناس في عافية والدنيا لمن غلب . قال : وهذه سيرة اهل هذه البلاد في حربهم وفي الفتنة الواقعة بين امراء المسلمين وولوكهم كذلك ولا تعترض الرعايا والتجار ، فالامن لا يفارقهم في جميع الاحوال سلماً او حرباً . وقال بعد ان ذكر استيلاء صلاح الدين على نابلس واطلاق ايدي جيشه في جميع ما احتازته : وخرجنا نحن الى بلاد الفرنج وسببهم يدخل بلاد المسلمين وناهيك من هذا الاعتدال في السياسة .

وبعد ان قرر السلطان امور القدس وامر بعمل الرُّبُط والمدارس الشافعية رحل عنها ولم يبق معه مما اخذه من مال الفداء شيء . وكان مائتي الف دينار وعشرين ألفاً ففرقها على الامراء والعلماء والفقراء ، واطلق كثيراً من الفقراء بدون فداء ، وادي اخو السلطان الملك العادل فدية عن النبي صليبي وانتدى به السلطان نفسه وعفوا عن كثيرين ، فلم يبق سوى اربعة عشر ألفاً يخرج منهم الصبيان والبنات الذين ادى الصليبيون فداءهم ، واغضى عن جواهر الصليبيين وناضهم من الذهب والفضة ، فكان يخرج من القدس حراً بدون منازع ، وعامل النساء من الفرنج معاملة لا تصدر عن ارق رجل مهذب في القرون الحديثة . ذكروا انه كانت بالقدس مائة رومية متعبدة مترهبة استعازت بالسلطان فاعاذاها ، ومن عليها وعلى من معها بالافراج ، وابقى عليها من مصوغات صلبانها الذهبية المجوهرة ونفائسها وكرائم خزائنها ، وكذلك خرجت زوجة الملك المأسور كي وهي ابنة الملك آماري وكانت مقيمة في جوار القدس مع مالها من الخدم والحول والجواري فاستأذنت بالالمام بزوجها واقامت عنده ، وكان مقيماً في برج بنابلس اسيراً يرسف في قيده . وخرج البطرك الكبير الذي للفرنج ومعه من اموال البيع منها الصخرة والاقصى والقيامة وغيرها ما لا يعلمه الا الله تعالى ، وكان له من المال مثل ذلك فلم يعرض له صلاح الدين ، فقبل له لئلا يأخذ ما معه يقوي به

المسلمين فقال : لا اغدر به ولم يأخذ منه الا عشرة دنانير الى غير ذلك من مزاياه العالية التي علم بها اعداءه . كيف تكون مكارم الاخلاق .

رحل السلطان الى عكا ومنها الى صور ، وقد حصفت بالرجال وحفر خندقها من البر الى البحر ، ونزل على صور وحاصرها وضايقها وطلب الاسطول فوصل اليه في عشرة شوان فاتفق ان الفرنج كبسوهم في الشواني واخذ خمسة شوان ولم يسلم من المسلمين الا من سبع ونجا واخذ الباقون ، وطال الحصار عليها فرحل السلطان عنها في الشتاء واقام بعكا واعطى العساكر الدستور فسار كل واحد الى بلده وبقي السلطان بعكا وقد فتح الفرنج بيافا وعكا وصور ، وارسل الى هونين ففتحها بالامان كما فتح قلعة ابي الحسن من عمل صيدا وشقيف ارنون وصفد وكوكب وهما حصنان عظيمان للدائية والاستتارية . فلم يبق للفرنج من كل ما كان لهم في فلسطين من البلاد والثغور سوى صور واستصفت كلها جملة . ولما انسلخ الشتاء (٥٨٤) سار السلطان من عكا بن معه بعد ان ولى اعمال الخليل وعسقلان وغزة والداروم وما والاها فخرج اليها وامر بنقل الغلات من البلقاء للقوية الفاحين واعانة المقطعين وكذلك امر بنقل الغلات من مصر الى اعمال عسقلان ليعيد اليها الزراعة والعمران . ومن كتاب فاضلي يحف فيه بعض مدن فلسطين في الفتح الصلاحي : وهذه البلاد مدن ما كان عزم قبل منها مدينا . وعمارات ما كان امل اليها مفضيا . بل طال ما كان عنها مغزيا . مثل بيسان وكفر بلا وزرعين وجنين كلها بلاد مشاهير لها قرى مغللة ، وبساتين مظلة ، وانهار مقللة ، وقلاع مطلة ، واسوار قد ضربت على جهاتها ، واحاطت بجنباتها ، واتخذتها المدن سياجا على قصباتها .

بقية الفتوح) وقصد السلطان كوكب وجعل عليها من يحاصرها وقد اتجهت الصلاحية ا) همته العالية الى فتح ما بقي في ايدي الصليبيين من ثغور الساحل . ولما خرج السلطان على عزم دمشق من القدس بات عند عقبة ظهر حمار بموضع يعرف بالفريديسية ، واصبح را حلا على جينين ثم سار على طريق جبل عامل ، ونزل بضيعة يقال لها الجشي وعبر بين عمل صيدا يسرة وعمل وادي التيم بمنة على الضياع والقرى وعبر

على مرج تلغيانا مقابل مرج القنمية ونزل على مرج قلميطية بالبقياع وعبر عين الجر و بات
على مرج بيوس وكانت غيبة السلطان عن دمشق اربع سنين في الجهاد ولما اجتمعت
العساكر من الاطراف سار من دمشق فنزل على بحيرة قدس غربي حمص واثنه العساكر
بها فرحل ونزل على انطرطوس فوجد الفرنج قد اخلوها فأحرقها وأحرق البسية وهي
بيعة عظيمة عندهم محجوج اليها من اقطار بلادهم . وسار الى مرقبة فوجدهم قد اخلوها
ايضاً وسار الى المرقب وهو للاستتار فوجده لا يرام وتسلم جبلة و « بلدة » من غربي
النهر على شاطئ البحر وسار الى اللاذقية ولما قلعتان فحصر القلعتين وزحف اليها فطلب
اهلها الامان فأمنهم وتسلم القلعتين وعمر البلد وحصن قلعتها ، ولما كان على اللاذقية
طلب مقدم اسطول صقلية من السلطان الامان ليحضر عنده فأمنه وحضر وقبل
الارض بين يديه وقال ما معناه : انك سلطان رحيم كريم وقد فعلت بالفرنج ما فعلت
فذلوا فاتركهم يكونون مماليكك وجندك تفتح بهم البلاد والممالك وترد عليهم بلادهم ،
والا جاءك من البحر ما لا طاقة لك به ، فيعظم عليك الامر ويشدد الحال فاجابه
صلاح الدين بنحو من كلامه من اظهار القوة والاستهانة بكل من يجيئ من البحر وانهم
ان خرجوا اذا قهرهم ما اذاق اصحابهم من القتل والاسر ، ورحل السلطان الى صهيون
فتسلمها بالامان فلم يجبههم الا على امان اهل القدس فيما يؤدونه فأجابوه الى ذلك وتسلم
قلعة صهيون ، ثم فرق عسكره في تلك الجبال فملك حصن بلاطونس وكان الفرنج
قد اخلوه ، وملك حصن العيذر وحصن الجماهرية ، ووصل الى قلعة بكاس فاخلاه
اهلها وتحصنوا بقلعة الشجر فحصرها ووجدوها منيعة فضايقها فطلب اهلها الامان
وحصر ابنه الملك الظاهر غازي صاحب حلب قلعة سرمين وضايقها وملكها ،
واستنزل اهلها على قطيعة قررها عليهم وهدم القلعة وعنى اثرها . وكان في هذه
القلعة وفي الحصون المذكورة من اسرى المسلمين الجمل الغنير ، فأطلقوا وأعطوا الكسوة
والنفقة ، ثم سار من الشجر الى برزويه وملكها بالسيف وسبي واسر وقتل اهلها
واسر السلطان صاحب برزويه هو واصحابه وامراته واولاده ومنهم بنت له معها زوجها
فنفقهم العسكر ، فارسل صلاح الدين في الوقت وبحث عنهم واشتراهم وجمع شمل
بعضهم ببعض ، فلما قارب انطاكية اطلقهم وسيرهم اليها ، وكانت امرأة صاحب

برزيه اخت امرأة يميند صاحب انطاكية ، وكانت ترسل صلاح الدين وتهاديه وتعلمه كثيراً من الاحوال التي تؤثر فأطلق هؤلاء لاجلها .

ثم سار فنزل على جسر الجديد وهو على العاصي بالقرب من انطاكية ومنه الى در بساك فتسلمها بالامان على شرط ان لا يخرج احد منها الا بثيابه فقط . وسار الى بغراس وحصرها وتسلمها بالامان على حكم امانت در بساك ، وارسل يميند صاحب انطاكية الى السلطان يطلب منه الهدنة والصلح وبذل اطلاق كل اسير عنده فأجابه السلطان الى ذلك واصطلحوا ثمانية اشهر ، ثم عاد الى دمشق فأشير عليه بتفريق العساكر ليرجعوا ويستريحوا فقال السلطان : ان العمر قصير والاجل غير مأمون . وكان يجهز الدين لما سار الى البلاد الشمالية قد جعل على الكرك وغيرها من يحصرها وخطى اخاه الملك العادل في تلك الجهات بإشعار ذلك فأرسل اهل الكرك يطلبون الامان فتسلمها صلاح الدين مع الشوبك وما بتلك الجهات من البلاد ، ثم سار السلطان الى صند فحصرها وضايقها وتسلمها بالامان ، ثم سار الى كوكب فضايقها وتسلمها بالامان وسير اهلها الى صور .

وفي سنة ٥٨٥ نزل صلاح الدين بمرج عيون وحضر اليه صاحب شقيف ارنون بعد مدة ولما بقي للمدة ثلاثة ايام استخضره السلطان وخاطبه في التسليم فقال : لا يوافقني عليه اهل واهل الحصن . فأمسكه السلطان وبعثه الى دمشق فحبس . ولما سقطت القدس واستولى السلطان على جميع البلاد التي كانت بيد الفرنج ولم يبق لهم الا يافا وصور وطرابلس تجتمع جميع اهل البلاد التي اخذها السلطان صلاح الدين في ثغر صور فكثرت جمعهم ، وارسلوا الى الغرب يستصرخون بوصول صورة المسيح وصوره عربية عربي يضربه وقد ادماه وقالوا : هذا نبي العرب يضرب المسيح . فخرجت النساء من يهوئهن . ووصل من الفرنج في البحر عالم بلا يحصون كثرة ، وساروا الى عكا من صور ونازلوها وأجاطوا بسورها من البحر الى البحر ووقعت وقائع على عكا قتل فيها من الفرنج نحو عشرة آلاف ومن المسلمين الوف ايضاً وعاد السلطان في السنة التالية (٥٨٦) الى قتال الفرنج على عكا .

الحملة الصليبية (١) بينما كان صلاح الدين على عكا يغادي الفرنج القتال
الثالثة (٢) ويراوحهم ، جاءت الاخبار من الروم ان ملك الالمان قادم
لنجدة الصليبيين في الشام في مائة الف محارب ، فدخل اليأس على الناس وهذه هي
الحملة المعروفة عند الفرنج بالحملة الصليبية الثالثة ، ولكن سلط على ملك الالمان الوباء
والعلاء وغرق في نهر كان يغتسل فيه في الروم ، ولم يصل مع ابنه سوى الف مقاتل
فقط . يئس الناس لانهم ذهبوا الى انت الفرنج لا تقوم لهم قائمة بعد وقعة حطين
والقدس بل بعد استصفاء اكثر المدن والمعقل التي كانت لهم وضرب معظم قوتهم في
الهميم ، وكانت هذه الحملة الثالثة مؤلفة من ثلاثة ملوك فريدرىك باربروس ملك
المانيا وفيليب اوغست ملك فرنسا وريشاردس قلب الاسد ملك انكلترا . نجف
الاول الى نجدة فرنج الشام قبل صاحبيه فكان من امره ما كان أما الاخران فجاءا
الى عكا في البحر وبعد ان فتح ريشاردس جزيرة قبرص تمكن الصليبيون من أخذ
عكا وقتل من المسلمين جمهور كبير .

قال ميشو : ان الوقعة التي حارب فيها ريشاردس في بحر صور سفينة كبرى
للعرب ، كانت من اول الانتصارات ومقدمة الغنائم للبحرية الانكليزية ، ونال
مغلطاي : ان الفرنج حاصروا عكا من البر ومن البحر وكانت عدتهم مائتي الف
واربعين الفاً ونصبوا عليها المناجيق من كل جهة ، وفتحوا فيها مواضع كثيرة حتى
خربت ودثرت وصارت مثل الطريق ، فغلب المسلمون وطلبوا الالمان . وقال غيره :
ان السلطان كان غمر في بيروت بطسة وشحنها بالعدد والآلات وفيها نحو سبعمائة
رجل مقاتل فلما توسطت في البحر صادفها ملك الانكثير واحاطت به مراكبه وحصل
القتال بين الفريقين فلما رأى مقدمها اشتداد الامر نزل فخرقها حتى غرقت وكانت
هذه الحادثة اول حادثة حصل بها الوهن للمسلمين .

ثم رحل الفرنج عن عكا نحو قيسارية والمسلمون يسايرونهم ويتحفظون منهم ،
ثم ساروا من قيسارية الى ارسوف ، ووقع بينهم وبين المسلمين مصاف ازالوا المسلمين
عن موقعتهم ، ووصلوا الى سوق المسلمين فقتلوا من السوق وغيرهم خلقاً كثيراً ، ثم
سار الفرنج التي يافق وقد اخلاها المسلمون فمكوها ، ورأى السلطان تخريب عسقلان

مصلحة فخرها وخرب الرملة وكنيسة لدة وكان هدم سور طبرية وهدم يافا وارسوف
وقيسارية وهدم سور صيدا وجبيل ونقل اهلها الى بيروت ، وكان معظم اهل صيدا
وبيروت وجبيل مسلمين وكانوا في ذلة من مساكنة الفرنج . ثم سار الى القدس
وقرر اموره وعاد الى مخيمه بالمطرون . ثم ترأس الفرنج والسلطان في الصلح على
ان يتزوج الملك العادل اخو السلطان باخت ملك انكلترا ويكون للملك العادل
القدس وامراته عكا فانكر القيسيون عليها ذلك الا ان ينهض الملك العادل فلم
ينفق بينهم حال .

وذكر بعض المؤرخين : ان ملك انكلترا هو الذي عرض على العادل اخيه ،
وكانت أرملة ملك كبير من ملوكهم وهو صاحب مقلية توفي عنها ، ورغب ان
يتزوجها العادل ويجعل له الحكم على الساحل ، وهو يقطع الداوية والاستباز من
البلاد والقرى دون الحصون ، وتكون اخيه مقيمة بالقدس وان الانكليز لما عنفوا
المرأة وأتهموها في دينها ، اعتذر ملك انكلترا بعدم موافقتها الا ان يدخل
العادل في دينها فعرف انها خديعة كانت منه .

قال ابن شداد : في وصف ريشاردس ملك الانكليز : وهذا ملك الانكلترا
شديد البأس بينهم ، عظيم الشجاعة ، قوي الهمة ، له وقعات عظيمة ، وله جسارة
على الحرب ، وهو دون الفرنسيين عندهم في الملك والمنزلة ، لكنه اكثر مالا منه ،
وأشهر في الحرب والشجاعة . قال : وكان ملوكهم يتواعدوننا به فكان المستأمنون
منهم يخبروننا عنه انهم موقنون فيما يريدون ان يفعلوا من مضايقة البلد اي عكا
حين قدومه ، فانه ذو رأي في الحرب مجرب ، وأثر قدومه في قلوب المسلمين خشية
ورهة . وقال بعد ان ذكر كيف كان ملك الانكليز يكرر الرسائل الى الملك
لتعرف قوة النفس وضعفها وكيف كان يوهن المسلمين على تعارف ما عنده من ذلك
ايضا : فانظر الى هذه الصناعة في استخلاص الغرض باللين تارة والخشونة أخرى ،
وكان مضطراً الى الرواح وهذا عمله مع اضطراره ، والله الولي في ان بقي المسلمين شره
فما بلينا بأعظم حيلة وأشد اقداما منه .

وبقي صلاح الدين في كل يوم يقع بينه وبين الفرنج مياوشات فلقبوا من ذلك

شدة شديدة واستولوا سنة ٥٨٨ على قلعة الداروم وخرّبوها وأسروا من فيها .
عرض للملك انكلترا ما يشغل قلبه من جهة بلاد فاحب ان يصالح صلاح الدين .
فرضي السلطان بالصالح بعد الذي أصاب جيشه من الفشل على عكا وفشل عكا هو الوحيد
الذي أصابه وذلك لتكاثر جيوش الصليبيين عليه وقد ملّ الجند الحرب التي دامت
أعواماً ، وخرج المسلمون من عكا وأخذوا امان الفرنج على ان يخرجوا باموالهم وانفسهم
على تسليم البلد ومائتي الف دينار والف وخمسمائة أسير من المجهولين ومائة أسير من
المعروفين و صليب الصليبيات ، وعشرة آلاف دينار للمركيس اربعة آلاف دينار
لحجابه ، وعقدت بين الصليبيين والمسلمين هدنة عامة في البحر والبر وجعلت مدتها
ثلاث سنين وثلاثة اشهر على ان يستقر بيد الفرنج يافا وعملها وقيسارية وعملها
وارسوف وعملها وحيفا وعملها وعكا وعملها ، وان تكون عسقلان خراباً ، واشترط
السلطان دخول بلاد الاسماعيلية في بلاد الهدنة واشترط الفرنج دخول صاحب
انطاكية وطرابلس في عقد هدنتهم ، وان تكون لدولة الرملة مناصفة بينهم وبين
المسلمين ، فاستقرت القاعدة على ذلك . وانقضى وفاة السلطان بعد الصالح بيسير
فلو اتفق ذلك في اثناء وفاته كان الاسلام على خطر .

وفي التاريخ العام : ان صلاح الدين لما فتح القدس بهت المسيحيون في اوربا
فأخذ اوربانوس الثالث يحمس الناس في الغرب . وان امارات الصليبيين لم تقاتل
مدة نصف قرن سوى صغار امراء سورية والموصل . وكان مسلمو مصر يعيشون
بسلام معهم ، وهذا كان عهد نجاح تلك الامارات ، ولما قضى صلاح الدين على
الدولة الفاطمية وقامت مقامها دولة حربية من المماليك ، لم يستطع المسيحيون ومصر
تهاجمهم ان يقاوموا زمناً طويلاً ، على ما ظهر من انتصارات صلاح الدين ، واذا
احتفظوا ببقايا الامارات قرناً آخر فذلك لان ملوك الاسلام لم يرضوا ان يقضوا
عليها . لا جرم ان هذه الحرب كانت حرباً مقدسة في نظر المسلمين والمسيحيين اذ .

مزايا صلاح الدين) ولا عجب اذا انتثر سلك الامارات الصليبية في الجنوب
ووفاته) والغرب جملة فبان تنظيم الجيش الجاهلي كان آية الآيات ،

والنجدات وكانت تأتيه سراعاً دراكاً ، والمكر متجه الى مقصد واحد ، واستمات المسلمون في تأييد سلطانهم ، وحاربوا بكل ما لديهم من ضروب الكر والفر وصنوف الدهاء والخديعة ، وما الحرب الا خدعة — قاتلوا كما قال شاعر العيان من المؤرخين ، مرة بالابراج ، وأخرى بالمنجنيقات ، ورادفة بالبابات ، وتابعة بالكباش ، وآونة بالموالب ، ويوماً بالنقب ، وليلاً بالسرايات ، وطوراً بطم الخنادق ، وآناً بنصب السلام ، ودفعة بالزحوف في الليل والنهار ، وحالة في البحر بالمراكب ، ولكن الحرب سجال والذهر دول ، وما كل يوم يكتب النصر للغزاة ، ويحالف التوفيق اعلامهم ، وما كل خطة يقررها صاحب الامر بادي الرأي تكون سديدة من كل وجه ، فقد انتقدوا على صلاح الدين بعد وقائعه مع الصليبيين وظفروه الباهر بهم في الأردن والجليل وبيت المقدس كيف فتح لاعدائه السبل لينهبوا الى صور ، ويجتمع هناك فل جيوشهم حتى تألفت منهم كتلة قوية بما جاءها من البحر من الانكيز والفرنجية ، فكان ما كان من هزيمة جيشه على عكا ، ولو كان حياً لادفع عن نفسه دفاعاً معقولاً مقبولاً فيما نحسب ، ولعل ذلك يدخل في باب مراجحه التي تجلت فيها نفسه العظيمة يوم فتح القدس ، فلم يعامل اعداءه الا بما اقتضته سياسته وسيرته .

كان صلاح الدين يعنى بجنده ويتعهده ويسأل عن صحة امرائه ومن دونهم في راحتهم ومناهم واكلهم وشربهم ، يحارب المحارب ساعات مخصوصة من النهار او الليل ثم يستريح او يحارب مدة معينة ثم يذهب الى ذويه ، على ارقى الاصول المتعارفة في الحروب الحديثة . والغنائم تقسم بين المحاربين بحيث يغتني أفرادهم وجماعاتهم دع مالهم من الاموال الدارة من اموال الجباية والرسوم على التجار وما خصوا به من الحرمة ورفع الشئان ، يأخذون اما رواتب او اقطاعات ، ولم تكن اقطاعاتهم كاقطاعات الغرب تورث على الاغلب بل تزول عن صاحبها بموته او بعزله ، ولذلك كان المحاربون متعلقين ابداً بسلطانهم وأميرهم ، متفانين في احسان الخدمة بكانهم يدافعون عن بيوتهم وأطفالهم .

جاء صلاح الدين الى دمشق بعد عقد الصلح مع الفرنج في فلسطين ، وكان يحب دمشق ويؤثر الإقامة فيها على سائر البلاد . فلقى الاهل والبلد بعد تغيب أربع سنين

وذهب يتصيد مع أخيه الملك العادل خمسة عشر يوماً فكان عمله كأنه وداع لاهله
وأولاده ومرايع نزهه وأنسه . ثم مرض اياماً وهلك حميد الأثر فضجت البلاد لفقده ،
وبكت العيون ، وانتحبت النفوس ، لانه لم يحيي مصر والشام ، بل احيا بعمله المسلمين
والاسلام ، وكان كما ذكره ابن شداد : رؤفاً رحيماً ، ناصراً للضعيف على القوي ،
يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس ، في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ،
ويفتح الباب للمتجملين حتى يصل اليه كل احد من كبير وصغير ، وعجوز هرمه
وشيوخ كبير ، وكان يفعل ذلك سفرأ وحضرأ ، على انه كان في جميع زمانه قابلاً
لجميع ما يعرض عليه من القصص في كل يوم ، ويفتح باب العدل ، وكان يجلس مع
الكاتب ساعة اما في الليل او في النهار ، فيوقع على كل قصة بما يحريه الله على قلبه ،
ولم يرد قاصداً ابداً ، وما استغاث اليه احد الا وقف وسمع قضيته وكشف ظلامته
واعتنى بقضته .

مات صلاح الدين وقد ملك مصر اربعاً وعشرين سنة والشام تسع عشرة سنة ،
وملك الجزيرة واليمن ، ولم يحفظ ما تجب عليه الزكاة ، فان صدقة النفل استنزفت
جميع ما ملكه من الاموال ، فملك ما ملك ولم يخلف في خزائنه من الذهب والفضة
الا سبعة واربعين درهماً ناصرياً وجرمأ واحداً ذهباً ، ولم يخلف ملكاً ولا داراً
ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئاً من انواع الاملاك ، وكان
رحمه الله يهب الاقاليم ، ويعطي في وقت الضيق كما يعطي في حال السعة ، وكان
نواب خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال حذراً ان يفاجئهم معهم ، اعلمهم بانه متى علم به
اخرجه . وقد ذكر القاضي ابن شداد وعماد الدين الكاتب من خلال صلاح الدين
ومواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للامور الشرعية ، وعدله وكرمه وشجاعته ،
واهتمامه بامر الجهاد وصبره واحتسابه ، وحلمه وعفوه ومحافظته على اسباب المروءة ،
ما هو العجب العجيب . وبعضه اذا جمع في شخص كان منمخراً من المفخر على
توالي الاحقاب .

ملأت خيرات صلاح الدين جميع البلاد التي خفق علمه عليها ، وملأت اوقافه
مصر والشام وهي غير منسوبة اليه . قال ابن خلكان : ولقد انكرت في نفسي في

امور هذا الرجل وقلت انه سعيد في الدنيا والآخرة ، فانه فعل في هذه الدنيا هذه الافعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها ورتب هذه الاوقاف العظيمة ، وليس فيها شيء منسوباً اليه في الظاهر اه .

بل قد تجد للماليك وخواصه اوقافاً نسبت اليهم اكثر منه وكان كل ممالك صلاح الدين وخواصه وامراؤه واجناده اعف من الزهاد والعباد ، والناس على دين ملوكهم . ومن كرم صلاح الدين انه اخرج في مدة مقامه على عكا ثمانية عشر الف دابة من فرس وبغل سوى الجمال ، واما العين والثياب والسلاح فانه لا يدخل تحت حصر ، وما كان يركب فرساً الا وقد وعد بان يعطيه لطالب من جماعته ، وقد فرق من ذخائر الفاطميين لما فتح مصر ما يفوق الاحصاء ولم يبق منه قليلاً ولا كثيراً . ومن رسالة له الى الديوان العزيز ببغداد : فقد علم ان الخادم بهوت امواله ، في بهوت رجاله ، وان مد اطن تزوله ، في مواقف تزاله ، ومضارب خيامه ، اكنة ظلاله ، وانه لا يذخر من الدنيا الا شكته ، ولا ينال من العيش الا مسكته . وكان يعيش عيش المتوسطين ، وينفق بحيث تكاد تعده الى الاسراف ، ويكتفي من اللباس بالكتمان والقطن والصوف ، ومجلسه منزه عن الهزء ومحافله حافلة باهل الفضل ، وكان لمداومته الكلام مع الفقهاء ومشاركته التضاة في القضاء اعلم منهم بالاحكام الشرعية ، وكان من جالسه لا يعلم انه يجالس السلطان ، بل يعتقد انه يجالس اخ من الاخوان . كان من عظماء الشجعان ، قوي النفس ، شديد البأس ، عظيم الثبات ، لا يهوله امر . وصل في ليلة واحدة من الفرنج نيف وسبعون مركباً الى عكا وهو لا يزداد الا قوة نفس ، وكان يعطي دستوراً اي يسرح عسكره في اوائل الشتاء ويبقى في شردمة يسيرة في مقابلة عدتهم الكثيرة ، اذ كان عدد جيشهم لا يقل عن خمسمائة الى ستمائة الف فيما قالوا ، ومع هذا تراه صابراً هاجراً في محبة الجهاد في سبيل الله اهله واولاده ووطنه وسكنه وساير ملاذه ، قانعاً من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تضر بها الرياح يمنة ويسرة ، وكان لا بد له من ان يطوف حول العدو كل يوم مرة او مرتين اذا كان قريباً منهم ، واذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ، ويخرق العساكر من الميمنة الى اليسرة ، يرتب الاطلاب ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها وكان يشارف العدو ويجاوره .

انهزم المسلمون في يوم المصاف الاكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله ووقعت الكاسات والعلم وهو ثابت القدم في نفر يسير ، فانحاز الى الجبل يجمع الناس و يردهم و يخجلهم حتى يرجعوا ولم يزل كذلك حتى عكس المسلمون على العدو في ذلك اليوم وقتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس ، ولم يزل مصابراً لهم وهم في العدة الوافرة ، الى ان ظهر له ضعف المسلمين فصالح وهو مسؤول من جانبهم ، فان الضعف والهلاك كان فيهم اكثر ، واكنهم كانوا يتوقعون النجدة ، والمسلمون لا يتوقعونها ، وكانت المصلحة في الصلح .

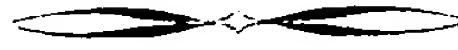
سئل ابن بيزان يوم انعقاد الصلح عن عدة الفرنج الذين كانوا على عكا وهو جالس فقال للترجمان : قل له كانوا خمسمائة الف الى ستمائة الف قتل منهم اكثر من مائة الف وغرق معظمهم : وكان صلاح الدين يدور على الاطلاب اي الكتائب ويقول وهل انا الا واحد منكم .

وذكروا من مراحم السلطان انه كان للمسلمين لصوص يدخلون خيام الفرنج في الليل ويسرقونهم ، فسرقت ليلة صبيها رضيعاً ، فباتت امه تبكي طول الليلة فقال لها الفرنج : ان سلطانهم رحيم القلب ، فاذهبي اليه فجاهته وهو على تل الخروبة راكب فعمرت وجهها وبكت فسأل عنها ، فاخبروه بقصتها فرق لها ، ودمعت عيناه ، ونقدم الى مقدم اللصوص باحضار الطفل ، ولم يزل واقفاً حتى احضروه فلما رآته بكت واخذته فارضته ساعة وضمته اليها ، وأشارت الى ناحية الفرنج فامر ان تحمل على فرس وتلحق بالفرنج ففعلوا .

قال سبط ابن الجوزي : ويقال ان صلاح الدين فتح ستين حصناً وزاد على نور الدين بمصر والحجاز والمغرب واليمن والقدس والساحل وبلاد الفرنج وديار بكر ولو عاش لفتح الدنيا شرقاً وغرباً . قلنا ان نابغة الدهر السالف صلاح الدين يوسف كان في امته صلاحاً لدينها ودنياها .

الدولة الايوبية

(من سنة ٥٨٩ الى سنة ٦٣٧)



ابناء صلاح الدين
واختلافهم ودعاء
عمهم الملك العادل
اهتزت اعصاب المملكة لمهاك صلاح الدين يوسف بن
ايوب صاحب مصر والشام واليمن والبلاد الشرقية لانه
الفاتح الثاني لبית المقدس كما كان عمر بن الخطاب الفاتح
الاول . وقد خلف صلاح الدين سبعة عشر ذكراً وابنة واحدة ، وناب بعض اولاده عنه
في اكثر بلادهم ، وخلف اخاه الملك العادل ابا بكر وكان ينوب عنه في مصر والشام في
حياته فوقع الخلف بين بنيه وعمهم في الباطن اولاً ثم اعلن كل واحد لصاحبه خصومته .
وكان كثير ممن ربوا في نعمة الدولة الصلاحية ورأوا من العدل الصلاحي ما لم يكمد يسبق
له مثيل الا في دولة نور الدين ، يتخوفون ان تصير حال الدولة بعد صلاح الدين الى
الشقاق والزاع ، ومن الذين اوجسوا خيفة من ذلك القاضي الفاضل وزير صلاح الدين
الاكبر فهد كتب الى ولده الملك الظاهر ساعة موت السلطان من كتاب « ان وقع
اتفاق فما عدتم الا شخصه الكريم » ، وان كان غير ذلك فالمصائب المستقبل اهنها
موته وهو الهول العظيم .

وكان الملك الافضل نور الدين علي اكبر اولاد صلاح الدين قد حلف له الناس
عند ما اشتد مرض والده فاستقر في ملك دمشق وبلادها المنسوبة اليها ، وبالديار
المصرية الملك العزيز عماد الدين عثمان ، وبحلب الملك الظاهر غياث الدين غازي ،

وبالكرك والشوبك والبلاد الشرقية الملك العادل سيف الدين ابوبكر بن ايوب ،
وبحماة وسنمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر
نقي الدين عمر ، وبعلبك الملك الامجد محمد الدين بهرام شاه وبحمص والرحبة وتدمر
شيركوه بن محمد ، وببصرى الملك الظاهر خضر بن صلاح الدين ، وكان في خدمة
اخيه الملك الافضل ، وبهد جماعة من امراء الدولة بلاد وحصون ، منهم سابق الدين
عثمان بن الداية وبهده حصن شيزر وحصن ابي قبيس ، وناصر الدين بن كورس بن
نخاردكين وبهده صهيون وحصن برزية : ودلدرم بن بهاء الدين ياروق وبهده تل باشر
وعز الدين أسامة الحلبي وبهده كوكب وعجلون ، وعز الدين ابراهيم بن شمس الدين
ابن المقدم وبهده بعريين وكفر طاب وافامية . ولما اتى الملك الافضل زمام
السلطنة بعهد ابيه استوزر ضياء الدين بن الاثير الجزري فحسن له طرد امراء ابيه
ففارقوه الى اخويه العزيز بمصر والظاهر بحلب ولما اجتمعوا بمصر حسنوا للملك العزيز
الاتفراد بالسلطنة ووقعوا في اخيه الافضل فحصلت الوحشة بين الاخوين الافضل
والعزيز واستحكم الفتور (٥٩٠) بينهما فسار العزيز في عسكر مصر وحصر اخاه
الافضل بدمشق عشرة اشهر وقطع الماء عنها . فأرسل الافضل الى عمه العادل واخيه
الظاهر وابن عمه الملك المنصور صاحب حماة يستنجدهم ، فساروا الى دمشق واصلحوا بين
الاخوين وعاد كل ملك الى بلده . قال العماد الكاتب : ولما انفصلت العساكر عن
دمشق شرع الافضل في اللهو واللعب واحتجب عن الرعية وانقطع الى لذاته فسمي
الملك النوام وفوض الامر الى وزيره الجزري وحاجبه الجمال محاسن بن المعجمي فافسدا
عليه الاحوال وكانا سعيان لزال دولته واستبدلا اراذل الناس بكبراء الامراء والاجناد
ففسدت امور العباد . وفي هذه السنة استعادت الفرنج حصن جبيل واخذ الافضل
من الفرنج جبلة والملاذقية .

وفي السنة التالية عاود الملك العزيز عثمان صاحب مصر قصد الشام ومنازلة اخيه الملك
الافضل فسار ونزل الفوار من ارض السواد فاضطرب بعض عسكر العزيز عليه وهم طائفة
من الامراء الاسدية وفارقوه فعاد العزيز الى مصر . وكان الافضل يستنجد بعمه العادل
لما قصده اخوه فلما رحل العزيز الى مصر رحل الملك الافضل وعمه العادل ومن انضم

اليهما من الاسدية وساروا في اثر العزيز طالبين مصر فنزلوا على بلبيس وقصد الملك
الانسل مناجزة من فيها من جند العزيز فمنعه عمه العادل وقال : مصر لك متى
شئت . وكان العادل العزيز وامره بارسال القاضي الفاضل ليصلح بين الاخوين .
وكان القاضي الفاضل قد اعتزل عن ملابسة اولاد صلاح الدين لما رأى من فساد
احوالهم على مارواه المؤرخون — والقاضي الفاضل هو الذي كان صلاح الدين يقول في
ملاء من الناس : لا تظنوا اني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل وكان يستشير
في اموره — فدخل الملك العزيز على القاضي الفاضل وسأله ان يتوجه من القاهرة
الى الملك العادل ففعل واجتمع به وانفقا على ان يصلحا بين الاخوين فاصلحا بينهما واقام
الملك العادل بمصر عند العزيز ابن اخيه ليقرر امور مملكته وعاد الافضل الى دمشق
واموره بيد ابن الاثير يديرها برأيه حتى كثر شاكوه وقل شاكروه . وكان الاعتماد
على مشورة الوزير ابن الاثير الذي زين للملك الافضل اقضاء امراء ابيه ليخلو له الجو
اول خطوة نحو خراب بيت بني ايوب ، وبعبارة اصح ابناء صلاح الدين يوسف . وقوة
الدولة على نسيئة عقل القائمين بها ، الدافعين عن حوزتها ، الغيورين على بقائها ، وقد خالف الملك
الافضل سيرة ابيه فاقصى العقلاء وكان ابوه يفادي بكل مرتخص وغال لاستمالة قلوبهم
وكان لسان حال الملك العادل وقد رأى اختلاف ابناء اخيه المثل المأثور « لم آمر بها
ولم تسؤني » . قال سبط ابن الجوزي لما عاد الافضل الى دمشق ازدادوز يرد الجزري
من الافعال القبيحة وأذى اكابر من الدولة والافضل يسمع منه ولا يُعدي احداً
ولا يخالفه ، فكتب قياز النجمي واعيان الدولة الى العادل يشكونه ، فارسل العادل
الى الافضل يقول : ارفع يد هذا الاحمق السيئ التدبير القليل التوفيق فلم يلتفت ،
وانفق مع العزيز على النزول الى الشام فسار الى الشام فاستشار الافضل اصحابه فكل
اشار عليه ان يلقي عمه واخاه ولا يخالفهما الا الجزري فانه اشار عليه بالعصيان فاستعد
للمحاصر وحلف الامراء والمقدمين وفرقهم في الابراج وعلى الاسوار .

انفق العادل مع العزيز على ان يأخذ دمشق وان يسلمها العزيز الى العادل
لتكون الخطبة والسكة للعزيز في جميع البلاد كما كانت لابيّه ، فخرجا وسارا من مصر
فارسل الافضل اليهما فلك الدين وهو احد امرائه وهو اخو الملك العادل لأمه ونزل

العادل والعزیز علی دمشق وقد حصنها الملك الافضل ، فكتب بعض الامراء من داخل البلد الملك العادل وصاروا معه وانهم يسلمون المدينة اليه فزحف الملك العادل والملك العزيز فدخل الاول من باب توما والثاني من باب الفرج ، فاجاب الملك الافضل الى تسليم القلعة وانتقل منها باهله واصحابه ، وأخذت بصرى من الملك الظاهر خضر اخي الافضل وكان معاضداً له ، وأعطى الافضل صرخد فسار اليها باهله واستوطنها واخرج وزيره الجزري في الليل في جملة الصناديق خوفاً عليه من القتل فاخذوا الا عظمة وهرب الى بلاده . سلم الافضل دمشق لعمه العادل على حكم ما كان وقع عليه الاتفاق بينهما ، فتسلمها العادل بعد ان كان وقع الاتفاق على ان يكون ثلث البلاد للعادل والثلثان للافضل وهو السلطان ، ورحل العزيز وابقى العادل السكة والخطبة بدمشق الملك العزيز .

استئثار العادل } توفي الملك العزيز عثمان في مصر (٥٩٥) وعمره سبع
بالمملك الصلاحي } وعشرون سنة واشهر وكان في غاية السماحة والكرم والعدل .
والرفق بالرعية والاحسان اليهم ففجعت الرعية بموته فجعة عظيمة لانه شبل من أسد ،
وكان الغالب على دولته فخر الدين جبار كس فأقام في الملك ولد الملك العزيز الملك
المنصور محمد وانفقت الآراء على احضار احد بني أيوب ليقوم بالملك ، وعماراً مشورة
بمحذور القاضي الفاضل فأشار بالملك الافضل وهو حينئذٍ بصرخد فأرسلوا اليه فسار
مخفياً ووصل الى مصر على انه اتاك اي مربى الملك المنصور بن الملك العزيز ، وكان
عمر الملك المنصور حينئذٍ تسع سنين وأشهرأ . ولما وصل الافضل الى بليس النقاء
العسكر فذكر منه فخر الدين جبار كس وفارقه وتبعه عدة من العسكر وساروا الى
الشام ، وكاتبوا الملك العادل وهو محاصر ماردین ، وأرسل الملك الظاهر الى أخيه
الملك الافضل يشير عليه بقصد دمشق واخذها من عمه الملك العادل ، وان ينتهز
الفرصة لاشتغال العادل بماردین ، فبرز الملك الافضل من مصر وسار الى دمشق
فبلغ الملك العادل مسيره الى دمشق ونزل الملك الافضل على دمشق وجرى بين العم
وابن أخيه قتال ، وهجم بعض عسكر الافضل المدينة حتى وصل الى باب البريد ولم
يعدم العسكر ، فتكاثر أصحاب الملك العادل وأخرجوه من البلد ، ثم تحاذل العسكر

فتأخر الافضل الى ذيل عقبة الكسوة ، ثم وصل الى الملك الافضل أخوه الظاهر صاحب حلب فعاد الى مضايقة دمشق ، ودام الحصار عليها وقتل الاقوات عند الملك العادل وعلى أهل البلد ، وأشرف الافضل والظاهر على ملك دمشق ، وعزم العادل على تسليم البلد لولا ما حصل بين الاخوين الافضل والظاهر من الخلف .

روى سبط ابن الجوزي : انه لما اشتد الحصار على دمشق وقطعت أشجارها ومياها الى اخلة اليها وانقطعت عن أهلها الميرة وضجوا ، بعث العادل الى الظاهر يقول له : انا أسلم اليك دمشق على ان تكون انت السلطان وتكون دمشق لك لا للافضل ، فطمع الظاهر وأرسل الى الافضل يقول : انت صاحب مصر فأثرتي بدمشق . فقال : دمشق لي من ابي وانما أخذت بني غصباً فلا اعطيها احداً ، فوقع الخلف بينهما ووقع النقاعد . وكان القاء الخلف بين الاخوين من جملة دهاء عمهما ، وفي هذه السنة قصد المنصور صاحب حماة بارين وحاصرها وفتحها وأصلح امورها ، وكانت لعز الدين ابراهيم بن شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم وهذا محصور في دمشق مع الملك العادل .

ودخلت سنة ٥٩٦ والمملكان الافضل والظاهر محاصران دمشق وقد أحرق جميع ما هو خارج باب الجابية من الفنادق والخوانيت وأحرق النيرب وأبواب الطواحين وقطعت الانهار وأحرقت غلة حرسنا في بهادرها وحفر على دمشق خندق من أرض اللوان الى أرض يلدا شرقاً احترازاً من مهاجمة من بدمشق لهما ، ولما تغير الظاهر على أخيه الافضل ترك قتال العادل فظهر النشل في العسكر فتأخر الافضل والظاهر عن دمشق وأقاما بمرج الصُّفَر ، ثم سار الافضل الى مصر والظاهر الى حلب ، ولما تفرقا خرج العادل من دمشق وسار في أثر الافضل الى مصر ، وضرب مع الافضل مصافاً فنانكسر الافضل وانهمزم الى القاهرة ونازلها العادل ثمانية أيام فأجاب الافضل الى تسليمها ، على ان يعوض عنها مياغارقين وخاني وسميساط ، فأجابه العادل الى ذلك ولم ينف له به ، ثم سار الافضل الى صرخد وأقام العادل بمصر على انه أتاك الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان مدة يسيرة ، ثم أزال العادل الملك المنصور واستقل العادل في السلطنة فقطع اولاً خطبة ولد العزيز بعد ان جمع الفقهاء وقال هل يجوز ولاية

الصغير على الكبير فقالوا : الصغير مولى عليه قال : فهل يجوز لكبير ان يولي عليه وينوب عنه قالوا : لا لان الولاية من الاصل اذا كانت غير صحيحة فكيف تصح النيابة . فقطع خطبة ابن العزيز وخطب لنفسه ولولده الكامل محمد من بعده ، وكان ذلك على الحقيقة مبدأً سلطنة العادل الكبرى ، فان استثنائه بالخطبة والسكة في مصر سهل عليه فيما بعد ملك الشام وما اليها من بلاد الشرق .

لما تم الامر بمصر للعادل كاتب الملك الظاهر صاحب حلب عمه الملك العادل (عمه بالمعنيين شقيق ابيه وابو امرأته) وصالحه وخطب له بحلب وبلادها ونسب السكة باسمه ، واشترط الملك العادل على صاحب حلب ان يكون خمسمائة فارس من خيار عسكر حلب في خدمة الملك العادل كلما خرج الى البهيمكار (الحرب) والتزم الظاهر بذلك الا انه أخذ بتحصين حلب خوفاً من عمه الملك العادل وأرسل الملك المنصور للعادل يعتذر مما وقع منه من أخذه بعربين من ابن المقدم ، فقبل العادل عذره وامره بردها الى صاحبها الاول . وسار (٥٩٧) الظاهر وملك منبج وخرب قلعتها وملك قلعة نجم وافامية وكفرطاب من شمس الدين عبد الملك بن المقدم ، وأرسل الى الملك المنصور صاحب حماة ببذل له منبج وقلعة نجم على ان يصير معه على الملك العادل ، فاعتذر صاحب حماة باليمين التي في عنقه للملك العادل ، فلما ايس الملك الظاهر منه سار الى المعرة وأقطع بلادها واستولى على كفرطاب ثم سار الى افامية وبها قراقوش نائب ابن المقدم فلم يسلم هذا القلعة الا بعد الحرب الشديدة فرحل الملك الظاهر وتوجه الى حماة وقاتلها أشد قتال ، فلما لم يحصل على غرض صالح الملك المنصور على مال يحمله اليه قيل انه ثلاثون الف دينار سورية ، ثم رحل الظاهر الى دمشق وبها الملك المعظم ابن الملك العادل فنزلها الملك الظاهر هو وأخوه الملك الافضل ، وانضم اليها فارس الدين ميمون القصري صاحب نابلس ومن وافقه من الامراء الصلاحية ، واستقرت القاعدة بين الاخوين الافضل والظاهر انها متى ملكا دمشق يتسلما الملك الافضل ثم يسيران ويأخذان مصر من الملك العادل ويتسلما الملك الافضل ، وتسلم دمشق حينئذ الى الملك الظاهر صاحب حلب بحيث تبقى مصر للملك الافضل ويصير الشام جميعه للملك الظاهر .

وبلغ العادل حصار اولاد اخيه دمشق فخرج بعساكر مصر ، وأقام بنابلس ولم
يجسر على قتالهم ، واشتدت مضايقة الملكين الافضل والظاهر لدمشق وتعلق النقاويون
بسورها ، فلما شاهد الملك الظاهر ذلك حسد أخاه الافضل على دمشق وقال له :
أريد ان تسلم اليّ دمشق الآن فقال له الافضل : ان حربي وحريتك على الارض
وليس لنا موضع نقيم فيه ، وهب هذا البلد لك فاجعله لي الى حين تملك مصر
وتأخذه . فامتنع الظاهر من قبول ذلك ، وكان قتال العسكر والامراء الصلاحية
لاجل الافضل فقال لهم الافضل : ان كان قتالكم لاجلي فاتركوا القتال وصالحوا
الملك العادل ، وان كان قتالكم لاجل اخي الملك الظاهر فانتقموا واياهم . فقالوا : انما
قتالنا لاجلك وتخلوا عن القتال وارسلوا وصالحوا الملك العادل ، ثم تفرقت العساكر فرحل
الملك الظاهر عن دمشق ، وسار الافضل الى حمص ، فقدم العادل الى دمشق
بعد رحيل اخيه الافضل والظاهر عنها وتسليمها . وخرب الظاهر منيج خوفاً من
انتزاعها منه وأقطعها لعاد الدين المشطوب ونزل ابن المقدم عن افامية فأقطعه الظاهر
الراوندان وكفرطاب ومفردة المعرة وهو عشرون ضيعة معينة من بلاد المعرة
فعصى ابن المقدم بالراوندان فسار اليه الملك الظاهر واستنزله عنهما وأبعده فلحق
بالمملك العادل .

وفي سنة ٥٩٨ سار الملك العادل من دمشق ووصل الى حماة ونزل على
تل صفروث وقام الملك المنصور صاحب حماة بجميع وظائفه وكلفه ، وبلغ الظاهر
صاحب حلب وصول عمه العادل الى حماة بنية قصده ومحاصرته بحلب فاستعد للحصار ،
وراسل عمه ولاطفه واهدى اليه ، ووقعت بينهما مراسلات ووقع الصلح وانتزعت منه
مفردة المعرة واستقرت للملك المنصور صاحب حماة ، واخذت من الملك الظاهر ايضاً
قلعة نجم ، وسلمت الى الملك الافضل ، وكان له سروج وسمية ساط ، وسلم الملك العادل
حوران وما معها لوايه الملك الاشرف مظفر الدين موسى وسيره الى الشرق ، ولما استقر
الصلح بين العادل وابن اخيه الظاهر ، رجع العادل الى دمشق واقام بها وقد انظمت
الممالك الشامية والشرقية والديار المصرية كلها في سلك ملكه وخطب له على منابرها
وضربت السكة فيها باسمه .

الاحداث في عهد العادل
 واهتمامه بجرب الصليبيين
 مضت تسع سنين على وفاة الملك الناصر صلاح الدين يوسف حتى استقر ملك الشام لاختيه الملك
 العادل ابي بكر بن ايوب وتخلص من ابناء اختيه الافضل والظاهر وغيرها بل توفى
 الى مقاصده باستثناء العلماء بان ملك مصر وأنقذها من حفيد اختيه صلاح الدين ،
 وكان أخذه مصر مقدمة لاستيلائه على ملك اختيه الا قليلاً ومقدمة لتسلسل الملك
 في اولاده ، اذ ليس في ابناء اختيه من يدانيه في الحقيقة بحسن السياسة وبعد النظر
 وكثرة التجارب والرهاء ، وكان صلاح الدين يحبه ويحترمه ويستشير في معضلات
 الامور فبين عن رأي وحنكة . وسار بعض الامراء الصلاحية الذين غدوا بنعمة
 صلاح الدين سيراً لا يدل على غمط نعمة ونكران جميل ، ولكن كان الافضل
 والظاهر والعزيم متخالفين متشاكسين وكل منهم بطمع في الملك ويسر لاختيه وعمه
 حسواً في ارتقاء ، فكان اختلافهم من حظ عمهم العادل وهو بتجاربه يشبه أخاه
 صلاح الدين من اكثر الوجوه . اما الافضل فقد ركب هواه وأخذ الى اللذات
 والمنكرات لاول امره واستسلم لوزيره ابن الاثير وكان صاحب دعوى عريضة
 لا يراعي الحال ولا يعرف الزمان فكتبت الغلبة للعادل ، ولو ترك الأخوان
 الافضل والظاهر وشأنهما بدون ان يعدل عمهما من جماحها لاشتد غزو احدكما
 لاختيه وهلك الناس بسببهما وكثرت الغوائل والحصارات ، هذا ان لم نقل انه كان
 للعادل يد في توسيع شقة الخلاف بين اولاد اختيه ، فقد اتخذ الملك العادل سياسة
 غريبة معهم يريد ان يوفق بينهم في الظاهر ولكن انتهى توفيقه بالاستيلاء على
 مصر والشام وبلاد الشرق ، وذلك بان أخذ بعض المتشاكسين لحزبه وكان بعد ذلك
 يغتنم فرصة حمل الاخ على اختيه فيملك البلاد مثل الشام وغيرها على نحو ما ملك
 مصر ويخطب له فيها وتضرب السكة باسمه وي زال اسم ابناء صلاح الدين .
 مثل ابناء صلاح الدين صورة من صور خلاف الاخوة بعد موت أبيهم ،
 والسبب في ذلك ان أباهم على بعد نظره لم يكتب لهم عهداً يبين لكل واحد حقه
 من هذا الملك الذي فتحه ووطد أساسه ، بل ترك الامر للاقدار . واذا حلف
 العسكر في دمشق لا كبر اولاده الملك الافضل فان المملكة ليست عبارة عن دمشق ،

بل حلب والقاهرة تنازعانها فضل التقدم ، ولو كانت اصول الوراثه في الملك متبعة في ذلك العصر لتوفر على الامة وابناء الدولة عناية كبير وشهر كثير مستطير ، ولما تعب الفاتح بفتوحه وخلف لابنائه ميراثا يورثهم همما وغما ، ويجنون بعمالهم على الامة الجناية بعد الاخرى . هذا وبقايا الصايبيين لم تبرح نازلة في عكا وصور وطرابلس ، ومن حسن الطالع انهم لم يتحركوا للفئنة طول هذه المدة سوى مرة واحدة (٥٩٣) وقد وصل جمع عظيم منهم الى الساحل واستولوا على قلعة بيروت فسار العادل ونزل بتل العجول واثنه النجدة من مصر ووصل اليه سنقر الكبير صاحب القدس وميمون القصري صاحب نابلس ثم سار الملك العادل الى يافا وهجمها وملكها بالسيف وقتل الرجال المقاتلة وخربها وكانت هذا الفتح ثالث فتح لها . وخرب صيدا ايضا ونازلت الفرنج تبنين فارسل العادل الى الملك العزيز صاحب مصر فسار الملك العزيز بنفسه بمن بقي عنده من عساكر مصر ، واجتمع بعمه العادل على تبنين فرحل الفرنج الى صور ثم عاد الملك العزيز الى مصر وترك غالب العسكر مع عمه العادل وجعل اليه امرا الحرب والصلح ، فطاول العادل الفرنج فطلبوا الهدنة واستقرت بينهم ثلاث سنين ورجع العادل الى دمشق .

ومن الاحداث في الشام على عهد الملك العادل بعد ان صنا له ملك الشام ومصر وخضع ابناء اخيه صلاح الدين له ظاهرا وان لم يخضعوا باطنا ، حصار ابنه الاشرف ماردين وسعى الملك الظاهر (٥٩٩) في الصلح ، فاجاب الملك العادل الى ان يحمل اليه صاحب ماردين مائة وخمسين الف دينار ويخطب له ببلاده ويضرب السكة باسمه ويكون بخدمته متى طلبه فأجيب الى ذلك . وسار الملك المنصور صاحب حماة الى بعريين مرابطا للفرنج وكتب الملك العادل الى صاحب بعلبك والى صاحب حمص بانجاده فانجدها واجتمعت الفرنج من حصن الاكراد وطرابلس وغيرها وقصدوا الملك المنصور ببعريين وانقعوا معه فانهمزم الفرنج ثم خرج الاسبتار من حصن الاكراد والمرقب وانضم اليهم جموع من الساحل والنقوا مع الملك المنصور صاحب حماة وهو على بعريين فانهمر عليهم ثانيا واسر منهم عدة كثيرة وهاذتهم (٦٠٠) وارسل العادل واتزع

ما كانت بيد الملك الأفضل وهي رأس عين وسروج وقلعة نجم ولم يترك بيده غير سيمساط وتوسلوا اليه في ابقاء ما كان بيده فلم يجب الى ذلك .

وخرج الفرنج (٦٠٠) لقصد بيت المقدس فخرج الملك العادل من دمشق ونزل على الطور وجرت الهدنة بينه وبينهم وسلم الى الفرنج يافا والناصرية ونزل عن مناصفات لدة والرملة . جاءت الفرنج (٦٠١) الى حماة بغتة واخذوا النساء الغسالات من باب البلد على العاصي وامتلاأت ايديهم من الغنائم وخرج اليهم الملك المنصور بن نقي الدين وابلى بلائاً حسناً وكسر الفرنج عسكره وحاصر الحلبون المرقب وكادوا يفتحونها لولا قتل مقدمهم مبارز الدين ثم هزمت فرنج طرابلس الحلبين وقتل خلق من المسلمين وطمعت الفرنج في البلاد ثم صالحهم العادل ووقعت الهدنة بين صاحب حماة وبينهم . واغارت الارمن (٦٠٢) على اعمال حلب فتسارع اليهم العسكر فبيتهم وهزمهم ، وذهب الارمن بالغنائم ، ثم ثابعت الغارات من صاحب سيس ابن لاون على البلاد الحلبية وهابته العسكر . قال سبط ابن الجوزي : وبلغ الظاهر صاحب حلب اشارة ابن لاون على حلب فخرج من حلب ونزل مرج دابق ، وجاء الى حارم فهزم ابن لاون الى بلاده ، وكان قد بنى قلعة فوق در بساك فاخرجها الظاهر وعاد الى حلب . ونازل الملك العادل (٦٠٣) عكا فصالحه اهلها على اطلاق جمع من الاسرى ثم سار الى حمص واستدعي العساكر فأنشئ من كل جهة ونازل حصن الاكراد وفتح برج اعزاز واخذ منه خمسمائة رجل ثم نازل طرابلس وغاث العسكر في بلادها وقطع قناتها واخذ بالامان القليعات قرب طرابلس وخربه حتى وقعت الهدنة بينه وبين الفرنج (٦٠٤) . واستولى الملك الاوحد ايوب ابن الملك العادل على خلاط ، ووصل للعادل التشریف من الخليفة الامام الناصر ونقل يد بالبلاد التي تحت حكمه ، وخوطف الملك العادل شاهنشاه ملك الملوك خليل امير المؤمنين ، وكثر هذه السنة الفرنج الذين بطرابلس وحصن الاكراد واكثروا الاغارة على حمص وولاياتها فانجد الظاهر غازي صاحب حلب صاحب حمص فنعوا الفرنج عن ولايته .

وقطع العادل (٦٠٦) الفرات وجمع العساكر والملوك من اولاده ونزل حران ونازل سنجار ثم خامرت العساكر التي صحبته ، ونقض الملك الظاهر صاحب حلب

الصلح معه ، فرحل عن سنجار واستولى على نصيبين والخابور وعاد العادل (٦٠٧) الى دمشق وقصدت الكرج خلاط وحصروا الملك الاوحد ابن الملك العادل بها وبعد ان نال ملكهم منه حمل ملك الكرج الى الملك الاوحد فرد على الملك الاوحد عدة قلاع وبذل اطلاق خمسة آلاف اسير ومائة الف دينار وعقد الهدنة مع المسلمين ثلاثين سنة وشرط ان يزوج ابنه بالملك الاوحد فتسلم ذلك منه وتحالفا وتوفي الملك الاوحد من قاتل فسار اخوه الملك الاشرف وملك خلاط عاصمة ارمينية الوسطى واستقل بملكها مضافا الى ما بيده من البلاد الشرقية .

وفي سنة ٦٠٧ ارسل نساء دمشق الى سبط ابن الجوزي العلامة الواعظ المشهور شعورهن لتستعمل في الادوات اللازمة للجهاد فعمل منها شكالا للخيول وكرفسات ولما صعد المنبر في الجامع الاموي امر باحضارها فحملت على الاعناق وكانت ثلاثمائة شكال فلما رآها الناس صاحوا صيحة عظيمة وقطعوا مثلها ثم سافر المجاهدون ولحقوا بالملك المعظم بنابلس فحاربوا في البلاد الواقعة تحت حكم الفرنج وقطعوا اشجارها واسروا جماعة منهم ولم ينجر احد منهم ان يخرج من عكا وخاف الفرنج فارسلوا الى العادل وصالحهم .

وقبض الملك المعظم (٦٠٩) على عز الدين أسامة صاحب قلعتي كوكب وعجلون بأمر الملك العادل متها بمكاتبة الظاهر صاحب حلب ، فقال له المعظم بعد ان لاطفه : انت شيخ كبير وبك نقوس وما تصلح لك قلعة سلم الي كوكب وعجلون وانا اخلفك على مالك وملكك وجميع اسبابك وتعيش معنا مثل الوالد ، فامتنع وشم المعظم وذكر كلاما قبيحا فلما ايس المعظم منه اعنقله في الكرك واستولى على قلاعه وامواله وذخائره وخيله ، فكانت قيمة ما اخذ منه الف الف دينار . وحبس أسامة في الكرك الى ان مات وأمر العادل بتخريب كوكب ونعنية اثرها فخربت ، وابقى عجلون وملك المعظم بلاد جباركس وهي بانياس وما معها لآخيه الملك العزيز عماد الدين ، واعطى صرخد مملوكه عز الدين أيبك المعظمي ، واعطى العادل ولده الملك المظفر غازي الرها وميفارقين وفيها استولى البال القبرسي على اطاكية فرميت تلك الاعمال منه

بداهية ، وتابع الغارات على تركانها فشردهم فتجمعوا واخذوا عليه المضايق وحصل في واد فقتلوه وجميع رجاله وطافوا برأسه في اعمالهم ثم حملوه في البحر الى الملك العادل بمصر .

واستولى (٦١٢) الملك المسعود ابن الملك الكامل ابن الملك العادل على اليمن واستولى ابن لاون الارمني على انطاكية من الفرنج وتوفي (٦١٣) الملك الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين صاحب حلب واوصى بالملك لولده الصغير الملك العزيز محمد لانه من بنت عمه العادل وطلب بذلك ان يستمر الامر له لاجل جده العادل واخواله واولاده لانهم ملوك البلاد يومئذ وبعد ذلك يكون الملك لولده الكبير الملك الصالح صلاح الدين احمد وبعدما لابن عمهما الملك المنصور محمد بن العزيز بن عثمان ، وحلف الامراء والاكابر على ذلك ، وجعل الحكم في الاموال والقلاع الى شهاب الدين طغريل الخادم ، وكانت مدة ملك الظاهر لحلب احدى وثلاثين سنة ، وكان فيه بطش واقدام على سفك الدماء ثم أقصر عنه ، وهو الذي جمع شمل البيت الناصري الصالحي ولكن اختلافه مع اخيه الافضل كان من اهم الاسباب في زوال الملك من ذرية صلاح الدين وكان الظاهر ذكياً فطناً . قال سبط ابن الجوزي : كان مهيباً له سياسة وفطنة وكانت دولته معمورة بالعلماء والفضلاء ، مزينة بالملوك والامراء ، وكان محسناً الى الرعية ملجأ الفقراء والغرباء وكهنًا للملهوفين . وفي سنة ٦١٣ كانت الحادثة بدمشق بين أهل الشاغور والعقبة وحملهم السلاح وقتلهم بالرحبة وركوب ~~العسكر~~ للفصل بينهم وحضور المعظم من جوسق الرئيس لتسكين الفتنه وكان مقيماً به وقبضه جماعة من مقدمي الحارات .

الحملة الصليبية الخامسة } بينما كانت داخلية البلاد مشغولة بالنصب والعزل وتقاتل
ابناء البيت الواحد على الملك والسلطان اجتمعت الفرنج من داخل البحر ووصلوا الى عكا في جمع عظيم وهذه هي الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٩ — ١٢٢١م) وكانت مؤلفة من المان ومجر اما الحملة الرابعة فكانت توقفت في طريقها الى الشام واستولت (١٢٠٤ — ١٢٦١م) على الاستمانه فبانتسخت بذلك الهدنة

بين المسلمين والفرنج فخرج العادل بعساكر مصر ونزل على نابلس فسارت الفرنج اليه ولم يكن معه من العساكر ما يقدر به على مقاتلتهم فاندفع قدامهم الى عقبة فيقي فأغاروا على بلاد المسلمين وكانوا في خمسة عشر الناء ووصلت غارتهم الى نوى من بلد السواد ونهبوا ما بين بيسان ونابلس وبشوا سراياهم فقتلوا وغنموا من المسلمين ما يفوت الحصر وبلغوا خربة اللصوص والجولان ثم تعدوا الى الطور وقتل منهم ، ثم رجعوا الى عكا ووصلت حملة منهم قدرها خمسة ائة من صيدا الى جزين قرب مشغرا فانهاهال عليهم الميادنة من الجبال فلم يفلت منهم سوى ثلاثة اشخاص .

قال المؤرخون : لما قتل كند من اكسادالفرنج المشهورين على الطور تشاءموا بالمقام عليه ورجعوا الى عكا واختلفوا هناك فقال ملك الهنكر : الزأي انا نمضي الى دمشق ونحاصرها فاذا أخذناها ملكنا الشام ، فقال الملك النوام قالوا : انما سمى بذلك لانه كان اذا نازل حصناً نام عليه حتى يأخذه أي انه كان صبوراً على حصار القلاع واسمه دستريج ومعناه المعلم بالريش لان اعلامه كانت الريش فقال : نمضي الى مصر فان العساكر مجتمعمة عند العادل ومصر خالية ، فأدى هذا الاختلاف الى انصراف ملك الهنكر مغاضباً الى بلده فتوجهت باقي عساكرهم الى دمياط فوصلوها ، والعادل نازل على خربة اللصوص بالشام وقد وجه بعض عساكره الى مصر . وأنام العادل بمرج الصنر وأرسل الى ملوك الشرق مستحثاً لعساكرهم . ثم سار الفرنج الى الديار المصرية ونزلوا على دمياط وسار الملك الكامل بن الملك العادل من مصر ونزل قبالتهم وارسل الملك العادل العساكر التي عنده لدفعهم .

وخرب المعظم قلعة الطور (٦١٥) بعد ان غرّم المسلمون على بنائها اموالاً كثيرة واشتغلت فيها جيوش وذلك مخافة ان تكون سبباً للاستيلاء على دمشق . ولما مات الملك الظاهر صاحب حلب وأجلس ابنه العزيز في المملكة وكان طفلاً طمع صاحب بلاد الروم كيكاوس في الاستيلاء على حلب وكان موت الملك ونصب طفل من ابنائه سبباً كبيراً لطمع اعداء المملكة بأخذها . فاستدعى الملك الافضل صاحب دمياط واتفق معه كيكاوس ان يفتح حلب وبلادها ويسلمها الى الافضل ، ثم يفتح البلاد الشرقية التي بيد الملك الاشرف بن الملك العادل ويسلمها كيكاوس وتحالفوا على ذلك فاستولى

كيكاوس على رعبان وسلمها الى الافضل ، فمالت اليه قلوب أهل البلاد لذلك ، ثم سار الى تل باشر فأخذها لنفسه فنفر الافضل منه وتغيرت خواطر أهل البلاد ، ووصل الاشرف الى حلب لدفع كيكاوس عن المملكة ، ووصل اليه بها الامير مانع بن حديثه أمير العرب في جمع عظيم ، وكان كيكاوس سار الى منبج وتسلمها لنفسه ، وانقع بعض عسكر الاشرف مع عسكر كيكاوس فانهزمت مقدمة هذا فولى كيكاوس منهزماً ، ثم حاصر الاشرف تل باشر واسترجعها مع رعبان وغيرها ونوجه الافضل الى سميسات سنة هذه السنة ورد إلى مصر الى المعتمد والي دمشق بالاهتمام والاستعداد واستخدام الرجال وتخريب دروب فنصر حجاج والشاغور وطرف البساتين ونقل غلة داريا الى القلعة وغريق اراضيها بالماء فان الفرج مظهرون قصدها ، والتقى المعظم بالفرنج على القيمون فنصر عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وأسر من الداوية .

توفي الملك العادل في عالقين في الجيدور (٦١٥) وكان نازلاً بمبرج الصفر وقد أرسل العساكر الى مصر وولده الكامل بالديار المصرية ومدة ملكه نحو ١٩ سنة . وكان حازماً متيقظاً غزير العقل شديد الآراء ذا مكر وخديعة ، صبوراً حليماً يسمع ما يكره ويغضي عنه ، وأنه السعادة واتسع ملكه وكثرت ذريته ، وخلف ستة عشر ذكراً عدا البنات ، ورأى في اولاده ما يحب « ولم ير احد من الملوك الذين اشتهرت اخبارهم في اولاده من الملك والظفر ما رآه الملك العادل في اولاده » وقد خلف العادل آثاراً مهمة في البلاد التي تولاه لا يزال بعضها ماثلاً في البلاد ، وطهر جميع ولاياته من الكرخ الى همدان والجزيرة والشام ومصر والحجاز واليمن من النساء والخموز والخواطي والقار والمخانيث والمكوس والمظالم وكان الحاضل من هذه الجهات من دمشق على الخصوص مائة الف دينار . واستمتع العادل بالملك وخدم الدولة خدمة طيبة وسأعده على ذلك ضعف الصليبيين عن الحرب بعد ابقاع اخيه بهم وتشتت كلمة أبناء صلاح الدين . ولما هلك العادل لم يكن عنده احد من اولاده حاضراً فحضر اليه ابنه الملك المعظم عيسى وكان بناهلس وكنم موته ، وأخذ ميتاً في محفة وعاد به الى دمشق ،

واحتوى المعظم على جميع ما كان لآبيه من الجواهر والسلاح والخيول وغير ذلك ، وكان في خزانته سبعمائة الف دينار ، وحلف له جميع الناس وكتب الى الملوك من اخوته وغيرهم يخبرهم بموته ، ولما بلغ الكامل موت أبيه وهو في قتال الفرنج عظم عليه جداً واختلفت العساكر عليه ، فتأخر عن منزلته ، وطمعت الفرنج ونهبت بعض ائقال المسلمين ، وكان في العسكر عماد الدين احمد المشطوب وكان مقدماً عظيماً في الاكراد العسكرية ، فعزم على خلع الملك الكامل من السلطنة ، وحصل في العسكر اختلاف كثير ، حتى عزم الملك الكامل على منارقة البلاد والحق باليمن . وبلغ الملك المعظم ذلك رحل من الشام ووصل الى أخيه الكامل وأخرج عماد الدين ونفاه من العسكر الى الشام فانتظم امر الملك الكامل ، وقويت مضايقة الفرنج لدمياط وضعف اهلها بسبب الفتن التي حصلت في عسكر الكامل من ابن المشطوب .

وكان العادل قد قسم البلاد في حياته بين اولاده فجعل بمصر الكامل محمداً وبدمشق والقدس وطبرية والأردن والكرك وغيرها من الحصون المجاورة لها ابنه المعظم عيسى ، وجعل بعض ديار الجزيرة وميفارقين وخلاط واعمالها لابنه الاشرف موسى ، واعطى الرها لولده شهاب الدين غازي ، واعطى قلعة جعبر لولده الحافظ أرسلان شاه . فلما توفي ثبت كل منهم في المملكة التي اعطاه اياها ابوه وانفقوا اتفاقاً حسناً ولم يمر بينهم من الاختلاف ما جرت العادة ان يجري بين اولاد الملوك بعد آباءهم بل كانوا كالنفس الواحدة كل منهم يثق بالآخر بحيث يحضر عنده منفرداً من عسكره ولا يخافه . قال ابن الاثير : « فلا جرم زاد ملكهم وراؤا من نفاذ الامر والحكم ما لم يره ابوه ، ولعمري انهم نعم الملوك فيهم الحلم والجهاد والذب عن الاسلام » .

ودخلت سنة ٦١٦ والملك الاشرف مقيم بظاهر حلب يدبر امر جندها واقطاعاتها ، والملك الكامل بمصر في مقابلة الفرنج وهم محاصرون لشفر دمياط ، وكتب الكامل متواصلة الى اخوته في طلب النجدة ، ثم سقطت دمياط في ايدي الفرنج ، فأرسل الملك المعظم عيسى وخرب اسوار القدس مخافة ان يصيبها ما اصاب دمياط ، ولما استولى الفرنج على دمياط عظم الامر على آل ايوب ، فكتب المعظم الى الواعظ

سبط ابن الجوزي : أريد ان تحرض الناس على الجهاد وتعرفهم ماجرى على اخوانهم
أهل دمياط ، واني كشفت ضياع الشام فوجدتها التي قرية منها الف وستمائة
املاك لاعلمها وأربعمائة سلطانية ، وأريد ان تخرج الدماشقة ليزبوا عن املاكهم
الا صغر منهم والا كابر . فأجابوا بالسمع والطاعة ثم تخلفوا ، فأخذ اثمن والخمس
من أموالهم لتقاسمهم ، ثم فتح المعظم قيسارية وسار الى النهر ففتحته وهدمه وخرب
في بلاد الفرنج .

فتح الصليبيين دمياط) وفي سنة ٦١٨ قوي طمع الفرنج المتملكين دمياط في
وذلتهم بعد العزة) مدينة المنصورة التي بناها الكامل ، واشتد القتال
بين الفريقين براً وبحراً وكتب الملك الكامل الى اخوته وأهل بيته يستحثهم على انجاده
فسار الملك المعظم عيسى صاحب دمشق والملك الاشرف صاحب البلاد الشرقية وعسكر
حلب وصاحب حماة وصاحب بعلبك وصاحب حمص فوصلوا القطر المعري والقتال
مشتد بين المسلمين والفرنج ، ورسل الملك الكامل واخويه مترددة الى الفرنج في الصلح
وقد بذل المسلمون لهم تسليم القدس وعسقلان وطبرية واللاذقية وجبلة وجميع ما فتحه
السلطان صلاح الدين من الساحل ما عدا الكرك والشوبك ، على ان يجهزوا
الى الصلح ويسلموا دمياط الى المسلمين ، فلم يرز الفرنج بذلك وطلبوا ثلاثمائة
الف دينار عوضاً عن تخريب أسوار القدس ، وقالوا لا بد من تسليم
الكرك والشوبك .

وبينا الامر متردد في الصلح عبر جماعة من عسكر المسلمين في بحر الحلة الى
الارض التي عليها الفرنج من بر دمياط ففجروا فجرة عظيمة من بحر النيل ، وكانت
ذلك في قوة زيادته ، فركب الماء تلك الارض وصار حائلاً بين الفرنج وبين دمياط ،
وانقطعت عنهم الميرة والمدد فبعثوا يطلبون الامان على ان ينزلوا عن جميع ما بذله
المسلمون لهم ويسلموا دمياط ويعقدوا الصلح . فنجت بلاد الشام بل بلاد مصر
من الفرنج في هذه التوبة بفضل فرجة من النيل دهمتهم ولم يكونوا من المعرفة بحيث
يقدرون منازلهم ومنازلهم ، فغابت آلامهم وخذلتهم قوتهم وتحكم فيهم من كانوا يستطيعون

عليهم ويستطون في مطالبتهم ، وكانت مدة اقامتهم في بلاد الاسلام ما بين الشام والديار المصرية أربعين شهراً وأربعة عشر يوماً .

ولما انكسر الفرنج على دمياط وامر ملكهم سان لوي وثلاثون ألفاً من رجاله دخل الناس كما قال ابن ابي شامة كنيسة مريم بدمشق بفرحة وسرور ومنعهم المغاني والمطربون فرحاً بما جرى وهموا بهدم الكنيسة قال : وبلغني ان النصارى يبعلبك سودوا وسخموا وجوه الصور في كنيسة تم حزنًا على ما جرى على الفرنج فعلم بهم الوالى وامر اليهود بصفعهم وضربهم وامانتهم .

اختلاف بين ابناء العادل . وقضد الملك المعظم عيسى حماة لان الملك الناصر وتقدم الكامل عليهم . صاحبها كان قد التزم له بما لم يسمعه اليه اذا ملك حماة فلم يف ، ونزل بعين وغلقت ابواب حماة لجرى بينها قتال قليل . ثم ارتحل الملك المعظم الى سلمية فاستولى على حواصلها وولى عليها ، ثم توجه الى المعرة فاستولى عليها . وبلغ الملك الاشرف ما فعله اخوه المعظم بصاحب حماة فعظم عليه ذلك وانفق مع اخيه الكامل على الانكار على الملك المعظم وترحيله فارسل اليه الكامل فاصح الدين الناري فوصل الى الملك المعظم وهو سلمية وقال له : السلطان يأمرك بالرحيل فقال : السمع والطاعة ، وكنت اطاعه قد قويت على الاستيلاء على حماة فرحل عنها مغضباً ، وتسلم المظفر سلمية من اخيه الملك الناصر ، واستقر بهد هذا حماة والمعرة وبعين ، ثم سار الاشرف من مصر واستصحب معه خلعة وسناجق سلطانية من اخيه الكامل للملك العزيز صاحب حلب وعمره عشر سنين ، ووصل الاشرف بذلك الى حلب واركب العزيز في دست السلطنة ، ولما وصل الاشرف بالخلعة الى حلب اتفق مع كبراء الدولة الحلبية على تريب قلعة اللاذقية فارسلوا عسكرياً وهدموها الى الارض .

كان الملك الاشرف انعم على اخيه الملك المظفر غازي بخلاط الارمنية وهي مملكة عظيمة وكان قد حفل بين الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وبين اخويه الكامل والاشرف وحشة بسبب ترحيله عن حماة ، فأرسل المعظم وخسرت لاختيه المظفر غازي صاحب خلاط العصيان على أخيه الاشرف ، فأجاب المظفر الى ذلك وخالف

اخاه الاشرف ، وكان قد اتفق مع المعظم والمظفر غازي صاحب اربل مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي بكك ، وكان بدر الدين لولو منتمياً الى الاشرف فسار مظفر الدين وحاصر الموصل عشرة ايام لبشغل الاشرف عن قصد اخيه بخلاط ، ثم رحل مظفر الدين عن الموصل لخصائنها وسار الاشرف الى خلاط وحاصر اخاه شهاب الدين غازي فسلمت اليه مدينة خلاط ، وانحصر اخوه غازي بقلعتها الى المايل فنزل من القلعة الى اخيه الاشرف واعتذر اليه فقبل عذره وعفاه عنه وأقره على ميافارقين وارتجع باقي البلاد منه .

وذكر ابن شامة في حوادث سنة ٦٢٠ ان الاشرف بن العادل عاد من مصر الى الشام فاصداً بلاده بالشرق فالتقاء اخوه المعظم ملك الشام وعرض عليه النزول بالقلعة فامتنع . وبعد ان ذكر كيف عيى اخوه عليه في خلاط قال : انه كتب الى اخيه شهاب الدين غازي يطلبه فامتنع من المجيء اليه فكتب اليه : يا اخي لا تفعل انت ولي عهدي والبلاد والخزائن بحكمك فلا تخرب بيتك بهدك وتسمع كلام الاعداء فوالله ما ينفعوك ، فأظهر العصيان فجمع الاشرف عساكر الشرق وحلب وتجهز للمسير الى خلاط وكان صاحب حمص قد مال الى الاشرف فسار المعظم الى حمص ووصل الى حماة ونزل على بعر بن فأقطع بلاد حماة وعاد الى حمص وخرج اليه العسكر فظفروا عليه ونهبوا اصحابه فعاد الى دمشق ولم يظفر بطائل .

وتوفي الملك الافضل (٦٢٢) نور الدين علي بن السلطان صلاح الدين يوسف وايس بعده غير سمي ساط وكان حسن السيرة وتجمعت فيه الفضائل والاخلاق الحسنة وكان مع ذلك قليل الحظ وله شمر جيد .

وفي سنة ٦٢٢ كان بأبدي الاسماعيلية بالشام ثمان قلاع وهي قلعة الكهف والعلبة والقدموس والحواني والمدينة ومصيان والرصافة والقلعة فان ابن صباغ لم يمت حتى ملك بالشام جبل عامله وتلك الحصون . قال ابن ميسر : ان الذين بالشام منهم يقال لهم الحشيشية ، ومن كان بأموت يقال لهم الباطنية والملاحدة ، ومن كان بخراسان يقال لهم التعليمية وكلهم اسماعيلية .

وفي سنة ٦٢٣ سار الملك المعظم عيسى بن العادل صاحب دمشق ونازل حمص

وكان قد اتفق مع جلال الدين بن خوارزم شاه ببلاده الشرقية ثم رحل المعظم عن حمص الى دمشق وورد عليه اخوه الاشرف طلباً للصالح وقطعاً للفتن فبقي مكرماً ظاهراً وهو في الباطن كلاً سيراً معه ولما رأى الاشرف حاله مع أخيه المعظم وأنه لا خلاص له منه الا باجابه الى ما يريد أجابه (٦٢٤) كما ذكره الى ما طلبه منه وحلف له ان يعاذه ويكون معه على اخيهما الكامل ، وان يكون معه على صاحبي حماة وحمص فلما حلف له على ذلك أظلمه المعظم . قال ابن الاثير : ان انفساق الملوك اولاد الملك الدادل ابي بكر بن أيوب كان سبباً لحفظ بلاد الاسلام وسر الناس اجمعون بذلك . وفي سنة ٦٢٤ قدم رسول الانبرور ملك الفرنج البحرية على المعظم (بدمشق) بعد اجتماعه بالكامل بطالب منه البلاد التي كان فتحها عمه صلاح الدين فأغلظ له وقال : قل لصاحبك ما انا مثل العزيز ما له عندي الا السيف .

ولما استقر الاشرف ببلاده رجع عن جميع ما اتفق بينه وبين أخيه المعظم ، وتأول في أيمانه التي حلفها انه مكره ، ولما تحقق الكامل صاحب مصر اعتضاد أخيه المعظم بجلال الدين خاف من ذلك ، وكتب الانبرور ملك الفرنج في ان يقدم الى عكا ليشغل سر أخيه المعظم عما هو فيه ، ووعد الانبرور ان يعطيه القدس ، فسار الانبرور الى عكا فبلغ المعظم ذلك فكتب أخاه الاشرف واستعطفه .

قال ابن الاثير : ان الكامل لما سار من مصر الى دمشق خاف المعظم ان يأخذ دمشق منه فأرسل الى عمه الاشرف يستنجده ، ويطلبه ليحضر عنده بدمشق فسار اليه جريدة فدخل دمشق ، فلما سمع الكامل بذلك لم يتقدم اليه لان البلد منيع وقد حاربه من يمنه ويحميه ، وأرسل اليه الاشرف يستعطفه ويعرفه انه ماجاء الى دمشق الا طاعة وموانعة لا غرضه والاتفاق معه على منع الفرنج عن البلاد فأعاد الكامل الجواب يقول : انني ما جئت الى هذه البلاد الا بسبب الفرنج فانهم لم يكن في البلاد من يمنعهم عما يريدونه ، وقد عمروا صيدا وبعض قيسارية ولم يمنعوا ، وأنت تعلم ان عمنا السلطان صلاح الدين فتح البيت المقدس فصار لنا بذلك الذكر الجميل على نقضي الاعصار وتمر الايام ، فان أخذ الفرنج حصن لنا من سوء الذكر وقبح الاحدوثة ما يناقض ذلك الذكر الجميل الذي ادخره عمنا ، واي وجه يبق لنا عند الناس وعند

الله تعالى ، ثم ما يقنعون حينئذ بما أخذوه و يتعدون الى غيره ، وحيث قد حضرت
انت فانا أعود الى مصر واحفظ أنت البلاد ، ولست بالذي يقالت عني في قانات
اخي او خصرته حاشا لله تعالى وتأخر عن نابلس الى الديار المصرية .
وانتزع هذه السنة الاتيك طغر بل الشجر وبكس من الملك الصالح احمد ابن
الملك الظاهر وعرضه عنها بعينتاب والاراندات وفيها توفي الملك المعظم عيسى
ابن العادل وكان شجاعاً عالمًا وعسكره في غاية النجمل يجامل أخاه الملك الكامل ويخطب
له بيلاده ولا يذكر اسمه معه ولا يحب التكلف والعظمة . ذكر سبط ابن الجوزي ؛
ان المعظم كان في ايام الفتح من الزنج يرتب النيران على الجبال من باب نابلس الى عكا
وعلى عكا جبل قريب منها يقال له الكرمل كان عليه المنورون وبينهم وبين الجواسيس
علامات ، وكان له في عكا أصحاب أخبار واكثرهم نساء الخيالة فكانت طاقاتهم في
قبالة الكرمل فاذا عزم الفرنج على الغارة فتحت المرأة الطاقة ، فان كان يخرج مائة
فارس او قعدت المرأة شمعة واحدة ، وان كانوا مائتين شمعتين ، وان كانوا يريدون
قصد جوران او ناحية دمشق اشارت الى تلك الناحية ، وكذا الى نابلس ، فكان
قد ضيق على الفرنج الطرق وكان يعطي النساء والجواسيس في كل فتح جملة كثيرة .
وترتب في مملكة المعظم واعمالها ولده الناصر صلاح الدين داود ونام بتدبير مملكته
مملوك والده واستاذ داره الامير عز الدين ايبك المعظمي وكان لا يبك صرخة .
ولم يطل الامر على الناصر داود في دمشق حتى طلب منه عمه الكامل صاحب مصر
حصن الشوبك فلم يعطه الناصر ذلك ولا اجابه اليه ، فسار الملك الكامل من مصر
الى الشام ونزل على قل العجول بظاهر غزة فولي على نابلس والقدس وغيرهما من
بلاد ابن اخيه الملك الناصر داود ، فاستجد الناصر بعمه الملك الاشرف فجاءه من
بلاد الشرقية فوقع الاتفاق ان يسير الناصر داود والملك المجاهد شيركوه مع الملك
الاشرف الى نابلس فيقيم الناصر داود بنابلس ، ويتوجه الاشرف الى اخيه الكامل
الى غزة ، شافعاً في ابن اخيهما الناصر داود ففعلوا ذلك ، ولما وصل الاشرف الى
اخي الكامل وقع اتفاقهما في الباطن على اخذ دمشق من ابن اخيهما الناصر داود ،
وتعويضه عنها بجران والردباريقة من بلاد الاشرف ، وان تسبق دمشق للاشرف

و يكون له الى عقبية فيق ، وما عدا ذلك من بلاد دمشق يكون للكامل وان ينتزع حماة من الناصر قليج ارسلان و يعطي المظفر محمود بن الملك المنصور ، وان ينتزع سلمية من المظفر محمود وكانت اقطاعه و يعطي اشير كوه حمص . و وقعت سنة ٦٢٥ وقعة بين المسلمين والفرنج على باب صور فلم يسلم من الفرنج سوى ثلاثة انفس وكانت وقعة عظيمة وذلك لترك الفرنج في الساحل بسبب انقضاء الهدنة .

الحملة الصليبية . } وهذه هي الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٨ — ١٢٢٩ م) وكانت السادسة } بزعامة الانبرور فريدريك الثاني وكان سياسياً داهية فلم يدخل في حرب مع المسلمين بل فاض الكامل وتسلم القدس وبيت لحم والناصر لمدة عشر سنين واليك ما قاله مؤرخونا في هذا الشأن :

استولى الانبرور فريدريك صاحب صقلية وبولاية وانكبرديه على صيدا ، وكانت مناصفة بين المسلمين والفرنج وسورها خراب فعمر الفرنج سورها واستولوا عليها ، وتم لهم ذلك بسبب تخريب الحصون القريبة منها بنين وهونين وغيرهما . و بينا كانت الرسل تتردد بين الملك الكامل وبين الانبرور رحل الناصر داود وهو بنابلس الى دمشق وكانت قد لحقه بالغور عمه الاشرف وعرفه ما امر به عمه الكامل ، وانه لا يمكنه الخروج عن مرسومه فلم يلتفت الناصر الى ذلك فسار الاشرف في اثره وحصره بدمشق ، وكانت الفتنة بين الملكين الكامل والناصر قبالة باب الجديد وفي الميدان وما بين ذلك والنصر فيه لاهل دمشق ، ووقع الحريق والنهب في باب توما ، وأحرقت بعض الطواحين ونهبت الدور ووقع الجرح والقتل وخربوا بعد ايام قريات من قرى الغوطة وأخرجوا منها اهلاً مثل جوهر وجديا وزملكا وسقبا وغيرها . قال في الذيل : وسمعت والدي وجماعة من المشايخ الذين شاهدوا الحصارات المتقدمة في دولة اولاد صلاح الدين يحكون انهم ما رأوا اشد من هذا الحصار وفيه هذا الحصار أحرق الناصر للتحصن مدرسة اسد الدين وخانقاه خاتون وما يليها من الخانات والدور والبساتين والحمامات والخانقاهات .

طال الامر ولم يجد الملك الكامل بداً من المهادنة فأجاب الانبرور الى تسليم

القدس اليه ، على ان تستمر اسواره خراباً ولا يعمرها الفرنج ، ولا يتعرضوا الى قبة
الصخرة ولا الى الجامع الأقصى ، ويكون الحكم في الرساتيق الى والي المسلمين و يكون
لهم من القرى ما هو على الطريق من عكا الى القدس فقط ، ووقع الاتفاق على ذلك
ونحالفنا عليه وتسلم الانبرور القدس فقامت القيامة في جميع بلاد الاسلام واشتدت
العظائم ، وأقيمت المآتم وقال الوعاظ والعلماء يا حجة ملوك المسلمين لمثل هذه الساذثة .
قال ابن ابي شامة : جاءنا الخبر بان الكامل اخلى البيت المقدس من المسلمين وسلمه الى
الفرنج فصالحهم على ذلك وعلى تسليم حجة من القرى فتسلموه ودخلوه مع ملكهم الانبرور ،
وكان هذه من الوصمات التي دخلت على المسلمين ، وكانت سبباً في ان توغرت قلوب
اهل دمشق على الكامل ومن معه ووجد بها الناصر طريقاً في الشناعة . وقد ذكر سبط
ابن الجوزي نكتة في تساهل الغالبين والمغلوبين اذ ذاك قال ما نسه : كان الكامل
قد تقدم الى القاضي شمس الدين قاضي نابلس ان يأمر المؤذنين ما دام الانبرور في
القدس ان لا يصعدوا المنائر ولا يؤذنوا في الحرم ، فأنسى القاضي ان يعلم المؤذنين وصعد
عبد الكريم المؤذن في تلك الليلة في وقت السحر والانبرور نازل في دار القاضي فجعل
يقرأ الآيات التي تختص بالنصارى مثل قوله تعالى : « ما اتخذ الله من ولد ذلك عيسى
ابن مريم » ونحو هذا فلما طلع الفجر استدعى القاضي عبد الكريم وقال له : ايش عملت
السلطان رسم كذا وكذا قال : فما عرفني النوبة فلما كانت الليلة الثانية ما صعد عبد
الكريم المأذنة ، فلما طلع الفجر استدعى الانبرور القاضي وكان قد دخل القدس في
خدمته وهو الذي سلم اليه القدس فقال له : يا قاضي اين ذاك الرجل الذي طلع
المنارة وذكر ذاك الكلام ، فعرفه ان السلطان ارضاه ، فقال الانبرور :
اخطأتم يا قاضي تغيرون انتم شعاركم وشرعكم ودينكم لاجلي ، فلو كنتم عندي في بلاد
هل ابطل ضرب النافوس لاجلكم ، الله الله لا تفعلوا هذا ، ازل ما تنقصون عندنا ،
ثم فرق في القوام والمؤذنين والجوارين حجة اعطى كل واحد عشرة دنانير ولم يبق
بالقدس سوى ليلتين وعاد الى يافا وخاف من الداوية فانهم طلبوا قتله .

وكان هذا الانبرور مثل اكثر ملوك ايطاليا يحسنون العربية فان فريدريك
هذا مثل غليسان الذي ذكر ابن جبير انه كان يحسن العربية كان كثير الثقة

بالمسلمين يستخدمهم في بلاطه ومنهم امراء دولته ، وهو يتشبه بامراء المسلمين ويعني بالعلماء كما كان يعني روجر ، ملك تلك البلاد بالعلم وهو الذي قدم له الشريف الادريسي كرة ارضية من الفضة وافضل عليه كثيراً .

اختلافات جديدة بين | بعد ان « أُحيط بدمشق من كل جانب وحل بها
آل العادل | من الخراب والفساد العجائب » واشتد عليها الحصار
عوض الناصر داود عنها بالكرك والبلقاء واللمت والاغوار والشوبك ، واخذ الكامل
لنفسه البلاد الشرقية التي كانت عينة للناصر وهي حراب والرها وغيرها التي
كانت بيد الاشرف ، ثم نزل الناصر داود عن الشوبك وسأل عمه الكامل في قبولها
فقباهما ، وتسلم دمشق الاشرف ، وتسلم الكامل من الاشرف البلاد الشرقية المذكورة
ولما سلم الملك الكامل دمشق الى اخيه الاشرف سار من دمشق ونزل على مجمع المروج
ثم نزل على سلمية وارسل عسكراً نازلوا حماة وبها صاحبها الناصر قليج ارسلان وكان
فيه جبن . وكانت في العسكر الذين نازلوه شيركوه صاحب حمص فاستسلم اليه
اخذته الى الملك الكامل وهو نازل على سلمية فشمه وامر باعتقاله وان يتقدم الى نوابه
بجماة تسليمها الى الكامل ، فارسل الناصر قليج ارسلان علامته الى نوابه بجماة ان
يلتزموا الى عسكر السلطان الملك الكامل ، فامتنع من ذلك العلواشيان بشر ومرشد
المنصورين ، وكانت بقلعة حماة اخ للملك الناصر يلقب الملك المعز بن الملك المنصور
صاحب حماة فملكوه حماة ، وقالوا للملك الكامل : لا نملك حماة لغير احد من اولاد
نقي الدين . فارسل الملك الكامل يقول للملك المظفر محمود صاحب حماة انفق مع غلمان
ايك وتسلم حماة وكان المظفر نازلاً على حماة من جملة العسكر الكامل فراسل المظفر
الحكام بجماة فحلفوا له وواعدوا المظفر ان يحضر بجماعته خاصة وقت السحر الى باب النصر
ليفتحوه له فدخل البلد وتسلم القلعة ، وفوض تدبير حماة الى الامير سيف الدين علي
الهدباني ، ولا استقر المظفر في ملك حماة انتزع الكامل سلمية منه وسلمها الى شيركوه
صاحب حمص ورسم الكامل لاختيه المظفر ان يعطي اخاه الناصر قليج ارسلان بعرين
بكلها ، ولم يبق بيد المظفر غير حماة والمعة ، ثم رحل الكامل عن سلمية الى البلاد

الشرقية التي اخذها من اخيه الاشرف عوضاً عن دمشق وارسل الاشرف اخاه صاحب
بصرى الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل بعسكر فنازل بعلبك وبها صاحبها
الملك الامجد بهرام شاه ، ولما طال الحصار عليها سلمها الامجد ، وعوضه الاشرف عنها
الزبداني وقصير دمشق ومواضع أخر . وقصد الفرنج حصن بارين ونهبوا بلاده
واعماله واسروا وسبوا ومن جملة من ظنروا به طائفة من التركمان كانوا نازلين في
ولاية بارين فأخذوا الجميع ولم يسلم منهم الا النادر الشاذ .

وفي سنة ٦٢٧ شرع صاحب حمص شيركوه في عمارة قلعة شميميس فأراد
الملك المظفر صاحب حماة منعه من ذلك ثم لم يمكنه ذلك لكونه بأمر الملك الكامل .
وغيرها جمعت الفرنج من حصن الاكراد وقصدوا حماة فخرج اليهم صاحبها المظفر محمود
والنقاھ عند قرية بين حماة وبعرين يقال لها افيون وكسروهم كسرة عظيمة .

وفي سنة ٦٢٨ سار الكامل من مصر الى دمشق فسلمية واجتمع معه ملوك اهل بيته
في جمع عظيم ثم سار بهم الى آمد وحصرها وانزلها من صاحبها المسعود بن الملك
الصالح محمود ، وكانت سبب انتزاع الكامل آمد من المسعود لسوء سيرته وتعرضه
لحزيم الناس ، وحاصر المظفر صاحب حماة اخاه الناصر ببعرين بأمر العادل خوفاً
من ان يسلمها للفرنج لضعفه عنهم ، وانتزعها منه واكرمه وسأله الانامة عنده بنجاة
فسار الى أخيه الكامل في مصر . وسار الكامل من مصر (٦٣١) الى قتال كيقباد
ملك الروم وقد استصحب معه ستة عشر ملكاً من ملوك الشام فاجزيرة من اخرته
والآل بيته في عسكرهم وقطعوا الفرات وانهزم العسكر الكامل على خربت ، وذلك
لان الملوك الذين في خدمته خامروا عليه (خاتلوه) وفتاءدوا عن الحرب لان شيركوه
صاحب حمص سعى اليهم وقال : ان السلطان ذكر انه متى ملك بلاد الروم فرقمها
على الملوك من اهل بيته عوض ما بأيديهم من الشام ، ويأخذ الشام جميعه لينزرد بملك
الشام ومصر ، فتقاءدوا عن القتال وفسدت نياتهم فرجع الكامل الى مصر وعاد كل
واحد من الملوك الى بلده .

وفي سنة ٦٣٣ سار الناصر داود من الكرك الى بغداد ملتجئاً الى الخليفة المستنصر
لما حصل عنده من الخوف من عمه الكامل . وسار الكامل من مصر واسترجع

جران والرثا من كيقباد صاحب الروم ، وكان استولى عليهما في السنة الماضية بعد رحيل الكامل عن بلاده ، وبدأت في هذه السنة طلائع الشر . قال سبط ابن الجوزي : وكانوا في مئة طلب كل طلب خمسمائة فارس .

وتوفي العزيز صاحب حلب جنيد صلاح الدين يوسف بن أيوب وكان حسن السيرة في رعيته عن ثلاث وعشرين سنة واشهر ونقرر في الملك بعده ولده الملك الناصر يوسف وعمره نحو سبع سنين وقام بتدبير الدولة شمس الدين لولو الأرميني وعن الدين عمر بن مجلي وجمال الدين أقبال الخاتوني ، والمرجع في الأمور إلى والده العزيز ضيفة خاتون بنت الملك العادل . ذكروا أنه لما ولدت ضيفة خاتون ابنة الملك العادل ابنها العزيز هذا في سنة عشر بعد الستائة بقيت حلب شهرين مزينة والناس في أكل وشرب ولم يبتئ صنف من اصناف الناس إلا أفاض عليهم السلطان النعم ووصلهم بالاحسان وسير إلى المدارس والخوانق الغنم والذهب وأمرهم أن يعملوا الولائم ثم فعل ذلك مع الاجناد والغلمان وعمل للنساء دعوة مشهودة انطلقت لها المدينة وأما داره بالقلعة فزينها بالجواهر وأواني الذهب ولما ختن ولده قدم له نقاد جليلة فلم يقبل منها شيئاً رفقا بهم لكن قبل قطعة سمندل ذراعين في ذراع فغمسوها في الزيت وأوقدوها حتى نفذ الزيت . وفي ذلك برهان جلي على رفيق آل أيوب برعيتهم وحبهم لهم . وقويت الوحشة بين الكامل وبين أخيه الأشرف ، وكان ابتداءها ما فعله شيركوه صاحب صاحب حمص لما قصد الكامل بلاد الروم فاتفق الملك الأشرف مع صاحبة حلب ضيفة خاتون اخت الكامل ومع باقي الملوك على خلاف الكامل خلا المظفر صاحب حماة ، فلما امتنع تهدهده الملك الأشرف بقصد بلاده وانتزاعها منه فقدم خوفاً من ذلك إلى دمشق ، وحلف للملك الأشرف ووافقه على قتال الكامل وكاتب الأشرف كيخسرو صاحب بلاد الروم واتفق معه على قتال أخيه الكامل أن يخرج من مصر . وتوجه عسكر حلب مع المعظم توران شاه عم العزيز فحاصروا بغراس وكان قد عمرها الداوية بعد ما فتحها صلاح الدين يوسف وخربها واشرف عسكر حلب على اخذها ثم رحلوا عنها بسبب الهدنة مع صاحب انطاكية ، ثم ان الفرنج اغاروا على ريف دريساك وهي جينند لصاحب حلب فوقع بهم عسكر حلب وولى الفرنج منهزمين وكثير

فيهم القتل والاسر وعاد عسكر حلب بالاسرى ورؤوس الفرنج وكانت هذه الواقعة من اجل الوقائع .

توفي الملك الاشرف (٦٣٥) وتلك دمشق بعده اخوه الملك الصالح اسمعيل بعهد منه . قال ابو الفداء : وكان الاشرف مفرط السخاء يطلق الاموال الجلييلة النفيسة ، وكان ميمون النقيصة لم تنهزم له راية ، وكان سعيداً وبتفق له اشياء خارقة للعقل . وعلل الاشرف سبب الوحشة بينه وبين اخيه الكامل صاحب مصر ان الاشرف لم يبق بيده غير دمشق وبلادها وكانت لانني بما يحتاجه وما يبذله وقت قدوم اخيه الكامل الى دمشق ، ولما فتح الكامل آمد وبلادها لم يزد منها شيئاً ، وبلغه ان الكامل يريد ان يفرد بمصر والشام وينزع دمشق منه فتغير بسبب ذلك ولما بلغ الكامل في مصر وفاة اخيه الملك الاشرف سار الى دمشق وكان الملك الصالح اسمعيل قد استعد للحصار ووصلت اليه نجدة الحلبيين وصاحب حمص فنازل الكامل دمشق واخرج الملك الصالح النفاطين فاحرق العقيبة جميعها وما بها من خانات واسواق ، وفي مدة الحصار وصل من عند صاحب حمص رجاله يزيدون على خمسين رجلاً لنجدة للصالح اسمعيل فظفر بهم الكامل فشنقهم بين البساتين عن آخرهم ، وحال نزول الكامل على دمشق ارسل توقيماً للمظفر صاحب حماة بسلمية ثم سلم الملك الصالح اسمعيل دمشق الى الكامل وتعوض عنها بعلبك والبقاع مضافاً الى بصرى . قال ابن ابي شامة في هذا الحصار : انه كان اكثر خراباً في ظاهر البلد وحريراً ومصادرة واقل غلاء ولم تطل مدته فان الصلح جرى ووافق اليوم الذي كسرت فيه الفرنج على دمياط واليوم الذي فتحت فيه آمد .

وفاة الملك الكامل) توفي الكامل بدمشق هذه السنة (١٣٥) بعد ان حكم وحال الشام بعده) في مصر نائباً وملكاً نحو اربعين سنة ، واشبه حاله حال معاوية بن ابي سفيان فانه حكم في الشام نائباً نحو عشرين سنة وملكاً نحو عشرين سنة . وكان الكامل ملكاً جليلاً مهيباً حازماً حسن التدبير امنت الطرق في ايامه وكان مباشراً تدبير المملكة بنفسه . قال ابن خلكان : كان سلطاناً عظيم القدر جميل الذكر ، محباً للعلماء متمسكاً بالسنة النبوية حسن الاعتقاد ، معاشرراً لارباب الفضائل حازماً في

اموره ، لا يضع الشيء الا في موضعه من غير اسراف ولا اقتار . وكان يخطب له بمكة : « مالك مكة وعبيدها ، واليمن وزبيدها ، ومصر وصعيدها ، والشام وصناديدها والجزيرة ووليدها ، سلطان القبلتين ، ورب العلامتين ، خادم الحرمين الشريفين الملك الكامل ، أبو المعالي ناصر الدين محمد خليل أمير المؤمنين » .

وكان مع الكامل بدمشق الملك الناصر داود صاحب الكرك فاتفقت آراء الامراء على تخليف العسكر للملك العادل ابي بكر بن الكامل ، وهو حينئذ نائب ابيه بمصر فخلف له جميع العسكر واقاموا في دمشق الملك الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل نائباً عن العادل ابي بكر بن الكامل ، ونقدمت الامراء الى الملك الناصر داود بالرحيل عن دمشق وهددوه ان اقام فرحل الى الكرك وشرقت العساكر . وارسل صاحب حمص فارجع سلمية من صاحب حماة ، وقطع القناة الواصلة من سلمية الى حماة فبيست بساكنيها ، ثم عزم على قطع نهر العاصي عن حماة فسدت مخرجه من بحيرة قدس بظاهر حمص فبطلت نواعير حماة والطواحين .

لما بلغ الحلبين موت الكامل اتفقت آراؤهم على اخذ المعرة ثم اخذ حماة من صاحبها المظفر لموافقته الملك الكامل على قصدهم ، ووصل عسكر حلب الى المعرة وانتزعوها من يد المظفر وحاصروا قلعتها ، وخرجت المعرة عن ملك المظفر ، ثم سار العسكر الحلبى ونازلوا حماة ونهبوا بلادها ، ولما لم يبق بيد المظفر غير حماة وبعريين خاف ان تخرج بعريين بسبب قلعتها فتقدم بهدمها فهدمت الى الارض .

وجرى بين الناصر داود صاحب الكرك وبين الملك الجواد يونس المتولي على دمشق مصاف بين جينين و نابلس ، انتصر فيه الجواد يونس وانهمز الناصر داود هزيمة قبيحة ، وقوي الملك الجواد بسبب هذه الواقعة وكان في عسكر مصر والشام وتمكن من دمشق ونهب عسكر الناصر واثقاله . واستولى الملك الصالح ايوب بن الكامل على دمشق واعمالمها بتسليم الجواد يونس واخذ العوض عنها سنجار و الزرقعة وعانة ، ولما استقر ملك الملك الصالح بدمشق وردت عليه كتب المصريين يستدعونه الى مصر ليملكها فذهب وجعل نائبه في دمشق ولده الملك المغيث فتح الدين عمر وكان الجواد لما يئس من ملك الشام فرق الضياع على الامراء وخلع عليهم ، وفرغ الخزانين وكان

فيها تسعمائة الف دينار . وفي رواية انه فرق من خزائن دمشق ستة آلاف الف دينار
وخلع خمسة آلاف خلعة .

وفي سنة ٦٣٧ هاجم الملك الصالح اسمعيل صاحب بعلبك وبعه شيركود صاحب
حمص مدينة دمشق وحصروا القلعة فخربت بذلك دور ومدارس تحت الإقامة ثم تسلم
الصالح اسمعيل القلعة وحاصر الصالح نجم الدين ايوب حمص ولما بلغ الصالح ايوب
استيلاء عمه اسمعيل على دمشق رحل من نابلس الى الغور وكان هناك قاصداً الى مصر
للاستيلاء عليها ففسدت زيات عساكره عليه وشرعت الامراء ومن معه من الملوك
يحركون تقاريرهم ويرحلون مفارقين الصالح ايوب الى الصالح اسمعيل بدمشق ، فلم يبق
عند الصالح ايوب بالغور غير مماليكه فاصبح لا يدري ما يفعل ولا له موضع يقصده
فامسكه الناصر داود صاحب الكرك واعتقله عنده مجالاً . وقصد الناصر داود القدس
وكان الفرنج قد عمروا قلعتها بعد موت الكامل فحاصرها وفتحها وخرب القلعة وخرب
برج داود . وتوفي الملك المجاهد شيركوه صاحب حمص وكان عسوفاً لرعيته وملك
حمص نحو ست وخمسين سنة ملكه اياها صلاح الدين يوسف .

انقراض الايوبيين

« وظهور دولة المماليك البحرية وظهور التتار »

— من سنة ٦٣٧ الى سنة ٦٩٠ —



بينما كان ابناء ايوب يلقانون على الملك والصلبيين قد
أخلدوا الى السكون بعد حادثة صاحب مصر معهم واكفوا
ظهور الخوارزمية } بما ملكوه من مدن الساحل والقدس ، جاء الخوارزمية يعيشون في البلاد و يروعون
أهلها ويقتلون فيهم ويخربون العامر . والخوارزمية عسكر جلال الدين منكبرتي احد
ملوكهم الذي استولى على ايران والعراق وأذربيجان وكرجستان وكانت عاصمة ملكه
تبريز . جاؤا سنة ٦٣٤ الى البلاد الشرقية فاستخدمهم الملك الصالح أيوب بن الكامل
وكان في آمد وحصن كيفا وحران وغيرها نائباً عن ابيه جاؤا بعد ان قتلوا ملكهم
الى كيقباز ملك بلاد الروم وخدموا عنده وكان فيهم عدة مقدمين ، فلما مات كيقباز
وتولى ابنه كيخسرو قبض على بركت خان اكبر مقدميهم ، فنارقت الخوارزمية حينئذ
خدمته وساروا عن الروم ونهبوا ما كان على طريقهم ، فاستألم الملك الصالح نجم الدين
أيوب بن الملك الكامل واستأذن أباه في استخدامهم فأذن له واستخدمهم ، فما زال
هؤلاء العسكر يتقدمون حتى نازلوا حمص مع صاحب حماة الملك المنصور .
كثير عيث الخوارزمية وفسادهم بعد مفارقة الصالح أيوب البلاد الشرقية وساروا
الى قرب حلب (٦٣٨) فخرج اليهم عسكر حلب مع الملك المعظم تورانشاه ابن صلاح

الدين ووقع بينهم القتال فانهمز الحلبيون هزيمة قبيحة وقتل منهم خلق كثير ، منهم الملك الصالح بن الافضل بن السلطان صلاح الدين ، وأسر مقدم جيش المعظم ، واستولى الخوارزميون على ائصال الحلبين وأسروا منهم عدة كثيرة . وكانوا يقتلون بعض الاسرى يشتري غيره نفسه منهم بما له فأخذوا بذلك شيئاً كثيراً . ثم نزل الخوارزمية بمد ذلك على حيلان وكثر عيثهم وفسادهم ونهبهم في بلاد حلب وأحرقوا الاقوات التي في القرى ودخلوا مدينة حلب واستعد أهلها للحصار ، وارتكب الخوارزمية من الفواحش والقتل ما ارتكبه النمر ، ثم سار الخوارزمية الى منبج وهجموها بالسيف وفعلوا من القتل والنهب مثل ما تقدم ورجعوا الى بلادهم وهي حران وما معها . ووصلوا الى الجبول ثم الى تل عراز ثم الى سرمين ودخلوا دار الدعوة المنسوبة الى الاسماعيلية ووافوا المعرة وهم ينهبون ما يجدونه ، وقد جفل الناس من بين أيديهم .

وكان قد وصل الملك المنصور ابراهيم بن شيركوه صاحب حمص ومعه عسكر من عسكر الصالح اسماعيل المستولي على دمشق فاجتمع الحلبيون مع صاحب حمص المذكور وقصدوا الخوارزمية واستمرت الخوارزمية على ما هم عليه من النهب حتى نزلوا على شيزر ونزل عسكر حلب على تل السلطان ثم رحلت الخوارزمية الى جهة حماة ولم يتعرضوا الى نهب لانتماء صاحبها الملك المظفر الى الملك الصالح أيوب ، ثم سارت الخوارزمية الى سلمية ثم الى الرصافة طالبين الرقة ، وسار عسكر حلب من تل السلطان اليهم ولحقهم العرب فألقت الخوارزمية ما كانت معهم من المكاسب وسيدوا الاسرى .

ووصلت الخوارزمية الى الفرات ولحقهم عسكر حلب وصاحب حمص فاصفح صفين فعمل لهم الخوارزمية ستائر ووقع القتال بينهم الى الليل ، فقطع الخوارزمية الفرات وساروا الى حران فسار عسكر حلب الى البيرة وفتحوا الفرات منها ، وقصدوا الخوارزمية وانفقوا قريب الرها ، فولى الخوارزميون منهزمين وركب صاحب حمص وعسكر حلب أفيثهم يقتلون ويأسرون . ثم سار عسكر حلب الى حران فاستولوا عليها ، وهرب الخوارزمية الى بلد عانة وبادر بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل الي

نصيبين ودارا وكانت للخوارزمية فاستولى عليها ، وخأص من كان بها من الاسرى ، وكان منهم الملك المعظم توران شاه ابن السلطان صلاح الدين أسيراً في دارا من حين أسروه في كسرة الخلبين ، واستولى عسكر حلب على الرقة والرها وسروج ورأس عين وماع ذلك . واستولى صاحب حمص المنصور ابراهيم على بلد الحسابور ثم سار عسكر حلب ووصل اليهم فنجدة من الروم وحاصروا الملك المعظم بن الملك الصالح ايوب بآمد وتسلموها منه وتركوا له حصن كينغا وقلعة الهيثم .

اختلاف بني ايوب
واعتضاد بعضهم للفرنج
وعودة الخوارزمية

كان الملك الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل قد استولى بمد ملك دمشق على سنجار وعانة ، فباع عانة من الخليفة المستنصر بمال تسلمه منه وسار لولو صاحب الموصل وحاصر سنجار ويونس غائب عنها فاستولى عليها ولم يبق بيد يونس من البلاد شيء ، فسار على البرية الى غزوة وارسل الى الملك الصالح ايوب صاحب مصر يسأله في المصير اليه فلم يجبه الي ذلك فسار يونس حينئذ ودخل الى عكا ، وأقام مع الفرنج فأرسل الصالح اسماعيل صاحب دمشق حينئذ وبذل مالا للفرنج وتسلم الملك الجواد من الفرنج واعتقله ثم خنقه (٦٣٨) .

وكان قد قوي خوف الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق من ابن اخيه الصالح ايوب صاحب مصر فسلم الملك الصالح اسماعيل صفد والثقيف الى الفرنج ليعضدوه ويكونوا معه على ابن اخيه صاحب مصر مما لم يمهده له مثال في تاريخ بني ايوب - حتى الآن اللهم الا ما كان من مفاوضة الكامل صاحب مصر للملك الفرنج سنة ٦٢٤ في ان يقدم الى عكا يشغل سراخيه المعظم عما هو فيه ووعد له باعطائه القدس ، وكان ذلك خديعة من الكامل لاختيه المعظم حتى لا يستنجد باحد من ملوك الاطراف عليه اذ لم يتم شيء من ذلك . وقد انكر على الصالح اسماعيل كل من شيخ الشافعية والمالكية بامتناعهم فعزلاً من وظائفهم وسجنوا بقلعة دمشق .

وكان في سنة ٦٤٠ مضاف بين الخوارزمية ومعهم الملك المظفر غازي صاحب ميافارقين وبين عسكر حلب ومعهم المنصور ابراهيم صاحب حمص وذلك بالقرب

من الخابور فانهزم الخوارزمية وصاحبهم اقبج هزيمة. ونهب منهم عسكر حلب شيئاً كثيراً ونهبت وطائنات ^(١) الخوارزمية ونساؤهم . وتوفيت هذه السنة ضينة خاتون والدة الملك العزيز وابنة الملك العادل ، وكانت تصرفت في ملك حلب تصرف السلاطين وقامت بالملك احسن قيام ، وكان عمر ابن ابنها الملك الناصر يوسف بن العزيز نحو ثلاث عشرة سنة فأشهد عليه انه بلغ وحكم واستقل بمملكة حلب وما هو مضاف اليها ، والمرجع في الامور الى جمال الدين اقبال الاسود الحصي الخاتوني .

وفي السنة التالية قصدت النمر بلاد صاحب الروم السلجوقي فاستنجد بالخيام بن فارس فأسلوا اليه نجدة مع ناصح الدين الفارسي فانهزم الروم والحلبوب . وسار الصالح وحاصر عجلون وقتل من عسكره يوم الزحف عليها فوق المائتين وغرم اربعمائة الف دينار على هذه الحملة ولم يقدر على فتحها . وفيها كانت المراسلة بين الصالح ايوب صاحب مصر والصالح اسماعيل صاحب دمشق في الصلح ، وانفق الصالح اسماعيل مع الناصر دأود صاحب الكرك واعتضدا بالفرنجة وسلا ايضاً الى الفرنجة عسقلان وطبرية فحصر الفرنجة تلعتيها وسلا ايضاً اليهم القدس بما فيه من المزارات .

ووصلت الخوارزمية (٦٤٢) الى غزوة باستدعاء الملك الصالح ايوب لنصرته على عمه الصالح اسماعيل ، وكان مسيرهم على حارم والزوج الى اطراف بلاد دمشق حتى وصلوا الى بلاد غزوة ودمروا بيت لحم ، ووصل اليهم عدة كثيرة من العساكر المصرية ، وأرسل الصالح اسماعيل عسكر دمشق مع شيركوه صاحب حمص ودخل عسكراً فاستدعى الفرنجة على ما كان قد وقع عليه اتفاقهم ووعدهم بجزء من بلاد مصر وكان اعطاهم الشقيف فخرجت الفرنجة بالفارس والراجل ، واجتمعوا ايضاً بصاحب حمص وعسكر دمشق والكرك ولم يحضر الناصر دأود ذلك والتقى الفريقان بظاهر غزوة فانهزم الفرنجة فولى عسكر دمشق وصاحب حمص والكركيون وتبعهم عسكر مصر والخوارزمية فقتلوا منهم خلقاً عظيماً . قيل ان القتلى زادوا على الثمانمائة وانه اسر من الفرنجة ثمانمائة . قال ابن ابي شامة : كسرت الفرنجة ومن انضم اليهم من منافقي المسلمين . كبيرة عظيمة في عسقلان وغزوة وغنم منهم اموال عظيمة وأسروا من الفرنجة خلقاً

(١) الوطاني . الخيمة او مجموعة الخيام والعسكر .

من ملوکهم وکبرائهم وقتل منهم مقللة عظيمة . واستولى الملك الصالح ایوب صاحب مصر على غزة والسواحل والقدس ثم ارسل باقى عسكر مصر مع معین الدین بن الشیخ واجتمع اليه من بالشام من عسكر مصر والحوارزمية وساروا الى دمشق وحاصروها وبها صاحبها الملك الصالح اسمعيل وابراهيم بن شيركوه صاحب حمص ولما ضاق صاحب دمشق ذرعاً بحصار صاحب مصر له سير الصالح اسمعيل وزیره امین الدولة على العراق مستشفعاً بالخليفة ليصلح بينه وبين ابن اخيه فلم يجب الخليفة الى ذلك . وتسلم عسكر الملك الصالح ایوب دمشق من الصالح اسمعيل بن الملك العادل على ان يستقر بعد الصالح اسمعيل بعلمك وبصرى والسواد وتستقر حمص وما هو مضاف اليها بعد صاحبها . ثم ان الحوارزمية خرجوا عن طاعة الصالح ایوب فانهم كانوا يعتقدون انهم اذا كسروا الصالح اسمعيل وفتحوا دمشق يحصل لهم من البلاد والاقطاعات ما يرضي خاطرهم ، فلما لم يحصل لهم ذلك خرجوا عن طاعة الصالح ایوب وصاروا مع الملك الصالح اسمعيل ، وانضم اليهم الناصر داود صاحب الكرك وساروا الى دمشق وحاصروها فقاسى اهليها شدة عظيمة . قال الذهبي : واشتد البلاء بدمشق واحترقت العقبة والخوانيق ، ودام الحصار والويل خمسة اشهر ، وهلك العوام موتاً وجوعاً وقل الشيء بالبلد حتى بلغت غرارة القمح الفأوس ثمانية درهم وابتاع الخبز كل اوقيتين بدرهم واكلوا الميتة وابتعت الاملاك والامتعة بالشيء البير ، وابتاع رطل اللحم بتسعة دراهم ، واثنى البلد بالموتى على الطرق ، وعظم الخطب واولئك يقاتلون على الملك ، والحمور الفاحشة مضمنة بالبلد والمكوس شديدة . وقال غيره : وقطعت الحوارزمية على الناس الطرق وزحفوا الى البلد من كل ناحية ورموا النيران في قصر حجاج وضربوا بالمناجيق وكان يوماً عظيماً ، وبعث الصالح اسمعيل الزرايين فأحرقوا جوسق العادل وزقاق الرمان الى العقبة بأسرها ، ونهبت اموال الناس واحترق بعضها . وزاد سبط ابن الجوزي : انه احرق قصر حجاج والشاغور واستولى الحريق على مساجد وخانات ودور عظيمة ، ثم نصبت على دمشق المناجيق ورميت به من بابي الجابية والصغير ، ونصبت مناجيق ايضاً من داخل البلد ، وترامى الفريقان وامر بتخريب عمارة العقبة خارج باب الفرادين وباب السلامة وباب الفرج واحرق حكر السماق وخارج باب النصر . وارسل الصالح اسماعيل

فأحرق جوسق والده العادل . قال المؤرخون : وجري بدمشق أمور شنيعة بشعة جداً لم يتم عليها مثلاً قط .

وفي هذه السنة تسلمت نواب المنصور صاحب حماة سلمية وانتزعوها من صاحب حمص وفي سنة ٦٤٢ اجتمعت الفرنج من بلاد الشقيف وبلاد عامل وقصدوا وادي التيم فجمع الأمير عامر الشهابي عساكره وفرسان عشيرته ونهض للمنتقام ، واستنجد بالأمير عبد الله بن الأمير سيف الدين المعني فجمع أهالي الشوف وسار إلى نجدة الأمير عامر والنقي الجمعان في مرج الخيام وصدمتهم الفرنج ودام القتال ثلاثة أيام ، وهلك من الفريقين خلق كثير وفي اليوم الرابع هجمت عساكر آل معن وآل شهاب على الفرنج فنكسوا أعلامهم وولوا مدبرين ، وعظمت بعد ذلك أماردة الأمير عامر واشتهرت صولاته وأخذ قطائع في البقاع وأنشأ فيها مغارات عديدة .

وفي سنة ٦٤٤ اتفق الحلبيون والمنصور صاحب حمص وصاروا مع الملك الصالح أيوب بن الكامل وقصدوا الخوارزمية فرحلت الخوارزمية عن دمشق وساروا نحو الحلب بن صاحب حمص والنقوا على بحيرة قدس فانهزمت الخوارزمية هزيمة قبيحة أثقت شملهم بعدها ، ومضت طائفة من الخوارزمية إلى الترو وصاروا معهم وانقطع منهم جماعة ونزقوا في الشام وخدموا به .

وسار الملك الصالح اسمعيل صاحب دمشق إلى الملك الناصر يوسف صاحب حلب واستجار به وأرسل الصالح أيوب صاحب مصر يطالبه فلم يسلمه الناصر اليد ولما جرى ذلك رحل حسام الدين الهذلي بن عنده من العسكر بدمشق ، ونازل بعلمك وبها أولاد الصالح اسمعيل وحاصرها وأسلمها بالأمان وحمل أولاد الصالح اسمعيل إلى الصالح أيوب بديار مصر فاعتقلوا هناك ، وكذلك بعث بأمين الدولة وزير الصالح اسمعيل فاعتقل فلم يبق في دمشق وعملها من يدفع عنها فأرسل صاحب مصر عسكراً مع نحر الدين يوسف ابن الشيخ إلى الناصر داود صاحب الكرك فاستولى نحر الدين على جميع بلاده وحاصر الكرك وخرب ضياعها وضعف الناصر ولم يبق بيده غير الكرك وصادف وفاة صاحب عجلون سيف الدين بن قليج فتسلم الملك الصالح أيوب عجلون أيضاً .

وفتح (٦٤٥) نحر الدين ابن الشيخ قلعتي عسقلان وطبرية بعد محاصرتهم مدة وكان

عمرها الفرج بعد استيلائهم عليها سنة ٦٤١ . وسلم الاشرف صاحب حمص قلعة شميميس للملك الصالح ايوب فعظم ذلك على الحلبيين لئلا يحصل الطمع للصالح في ملك باقي الشام . وفي سنة ٦٤٦ ارسل الملك الناصر صاحب حلب عسكرياً مع شمس الدين لولو الارمني فحاصروا الاشرف بحمص فسلمهم اياها وتعوض عنها بتل باشر مضافاً الى ما بهده من تدمر والرحبة . ولما بلغ ذلك الصالح ايوب شق عليه وسار من مصر الى الشام لارتجاع حمص من الحلبيين ونصب عسكرياً عليها منجنيقاً مغرباً يرمي بجحر زنته مائة واربعون رطلاً بالشامي مع عدة منجنيقات أخر ثم رحل عنها لمرض عرض له ولوصول الفرج الى دمياط ولجئ رسول الخليفة والسعي في الصلح بين الصالح ايوب والحلبين وان تستقر حمص بيد الحلبيين . ثم استولى الصالح ايوب على الكرك اعطاه مفااتيحها الامجد فوهبه خمسين الف دينار .

وفاة الملك الصالح } توفي الملك الصالح ايوب في سنة ٦٤٧ وكان ملك مصر
ومبدأ دولة المماليك } والقسم الاعظم من الشام قال ابو الفداء : وكان مهيباً عالي
الهمة عفيفاً شديد الوفا والصمت وجمع من المماليك الترك ما لم يجتمع لغيره من اهل بيته ،
حتى كان اكثر امراء عسكريه مماليكه ، ورتب جماعة من المماليك الترك حول دهلزيه
وسماهم البحريه ، ودفلاء كانوا اول كلمة اجتمعت من هذا الجيل من الناس والفوا
دولة المماليك البحريه . مات الملك الصالح ولم يوص بالملك الى احد فأحضرت شجرة الدر ،
وهي جارية الملك الصالح ، فخر الدين بن الطواشي وجمال الدين محسناً وعرفت بها موت
السلطان فكتموا ذلك خوفاً من الفرج ، وجمعت شجرة الدر الامراء وقالت لهم :
السلطان يأمركم ان تحلفوا له ثم من بعده لولده الملك المعظم تورانشاه المقيم يحصن كيفما
بجاء وتسلم ملك مصر الا ان مدته لم تطل اكثر من شهرين وأياماً فقتله المماليك
البحريه الذين أنشأهم والده ، وكان اول من ضربه ركن الدين بيبرس الذي صار
سلطاناً فيما بعد ولقب بالملك الظاهر ، والسبب في قتله انه أطرح جانب امراء ابيه
ومماليكه واعتمد على بطائنه التي وصلت معه من حصن كيفا وكانوا أراذل . وأقام
رجال الدولة شجرة الدر زوجة الملك الصالح في المملكة وخطب لها على المنابر وضربت

السكة باسمها ، وأرسل المصريون رسولا إلى الامراء الذين بدمشق في موافقتهم على ذلك فلم يجيبوا اليه ، وكاتب الامراء القيرية الذين بها الملك الناصر يوسف صاحب حلب فسار اليهم وملك دمشق وعصت عليه بعلبك وعجلون وشميس مدة ثم سلمت جميعها اليه ، ولما ورد الخبر بذلك الى مصر قبضوا على من عندهم من القيرية وعلى كل من اتهم بالميل الى الحلبيين .

لا جرم ان مقتل الملك المعظم توراثا بهد بيبرس البندقداري والماليك المجرية بمصر كان مبدءا زوال الدولة الايوبية من مصر والشام ، فان الاختلاف بين آل البيت الذي تسربت الى ابناءه وأحفاده المطامع ، وكل منهم يريد ان يستأثر بالامر دون اخيه او عمه او ابن عمه ، ثم اعتصام بعضهم بالصلبيين لنجدوهم على آلهم فيصفو لهم الملك ، دعا الى نفي أوصال المملكة ، وان كان أكثر أسرة صلاح الدين ابن أيوب وأخيه أبي بكر بن أيوب على جانب من حسن التربية والعلم ، ولكن الاختلاف اذا سرت شرارته التهم الاخضر واليابس وشدم الاركان القوية فما بالك بها اذا كانت متضعضة . فصارت المملكة بيد الماليك في الحقيقة وكان الذين أنشأهم الملك الصالح أيوب اشبه بالمعتصم العباسي في اصطناعه بماليك الترك فأدخل بعمله الوهن على الدولة العباسية ، وهذا الصالح أدخل الوهن باصطناع الماليك حتى قضوا على الدولة الايوبية .

وكان الملك السعيد بن العزيز صاحب الصببة قد سلمها الى الملك الصالح أيوب فلما جرى ذلك قصد قلعة الصببة فسلمت اليه وتسلم الكرك والشوبك الملك المغيث فتح الدين عمر . ووقع الحرب بين صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ وبين الناصر صاحب حلب فاستولى الحلبيون على نصيبين ودارا وقرقيسيا .

وانفق كبراء الدولة في مصر على اقامة امير الجيوش أبيك الجاشنكير في السلطنة لئلا تفسد الامور اذا استقر امر المملكة في يد امرأة . وبين وفاة ضيفة خاتون صاحبة حلب وتملك شجرة الدر صاحبة مصر سبع سنين وهما اول من ملك في الشام ومصر من النساء ، ثم انفق كبراء السلطنة على انه لا بد من إقامة شخص من بني أيوب في السلطنة وانفقوا على الملك الاشرف موسى بن يوسف صاحب اليمن وسلطنوه ، وكان

غزة حينئذ جماعة من عسكر مصر فسار اليهم عسكر دمشق فاندفعوا من غزة الى الصالحية ، وانفقوا على طاعة المغيث صاحب الكرك وخطبوا له بالصالحية ، ولما جرى ذلك اتفق كبراء الدولة بمصر ونادوا ان البلاد للخليفة المستعصم ، ثم جدت الايمان للملك الاشرف موسى بالسلطنة ولايبك الترككاني بقيادة الجيش ، ورحل فارس الدين أقطاي الصالحى مقدم البحرية متوجهاً من مصر الى غزة ومعه تقدير الفى فارس فلما بلغها اندفع من كان بها من جهة الملك الناصر بين يديه .

وبعد مقتل المعظم تورانشاه بيد المماليك البحرية غضب معظم رجال الدولة في مصر والشام وكاد الاجماع يقع على سلطنة أحد من آل أيوب حتى لا يخرج الامر عنهم بالمرّة ، وهذا ما حدا ببعض بقايا الایوبیین في الشام ان يجمعوا شملهم ويسيروا الى مصر للمطالبة بسلطنتهم وسلطنة آبائهم . فسار الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز صاحب دمشق بعساكره من دمشق وصحبته من ملوك أهل بيته الصالح اسماعيل والاشرف موسى والمعظم تورانشاه وأخوه نصره الدين والامجد حسن والظاهر شاذي أبناء الناصر داود بن المعظم ونقي الدين عباس بن الملك العادل قاصدين مصر لفتحها فاهتم المصريون لقتالهم ، والنقي العسكران المصري والشامي بالقرب من العباسية فكانت الكسرة اولاً على عسكر مصر ، ولما انكسر المصريون وتبعتهم العساكر الشامية ولم يشكوا في النصر ، بقي الناصر تحت السناجق السلطانية فحمل المعز الترككاني بمن معه عليه ، فولى الناصر منهزماً طالباً الشام وأسر معظم أهل بيته من الملوك واستقر الصالح (٦٥١) بين الناصر يوسف صاحب الشام وبين البحرية بمصر على ان يكون للمصريين الى نهر الاردن وللناصر ما وراء ذلك ، وكان نجم الدين الباذراي رسول الخلافة هو الذي حضر من جهة الخليفة واصلىح بينهم على ذلك ورجع كل منهم الى مقره .

ثم اغتال المعز ايبك الترككاني المستولي على مصر خوشداهش^(١) اقطاي الجمدار فلما علمت البحرية بذلك هربوا من ديار مصر الى الشام ، وكان الفارس اقطاي يمنع ايبك من الاستقلال بالسلطنة ، وكان الاسم الاشرف موسى بن ايوب فلما قتل

(١) خوشداهش اي المصاحب وهي كلمة فارسية .

أقطاي استقل المعز التركاني بالسلطنة وأبطل الأشرف موسى منها بالكافية ، وبعث به
الى عماته . والأشرف آخر من خطب له من بيت أيوب بالسلطنة في مصر .

ولما وصلت البحرية الى الناصر يوسف صاحب الشام اضمعوه في ملك مصر
فرحل من دمشق بعسكر ونزل الغور وأرسل الى غزاة عسكراً ففزلوا بها وبرز المعز
إليك صاحب مصر الى العباسية ، ومشي نجم الدين الباذراي في الصلح بين المصريين
والشاميين وانفقت الحال ان يكون للناصر الشام جميعه الى العريش و يكون الحد
بين الورادة والعريش ، وقتلت شجرة الدر المعز إليك التركاني الصالح ، وكانت
امراًة أستاذة الملك الصالح ايوب ثم تزوج بها ، وكان سبب ذلك انه بلغها ان المعز
إليك قد خطب بنت بدر الدين لولو صاحب الموصل فقتلته في الحمام ونصبوا نور
الدين علي بن المعز إليك ولقبوه الملك المنصور ساططاً على مصر والشام .

ونقل الى الناصر يوسف صاحب دمشق ان البحرية يريدون ان يفتكوا به
فاستوحش خاطره منهم ونقدم اليهم بالانتزاح عن دمشق فساروا الى غزاة ، فأرسل
عسكراً في أثرهم فكبس البحرية ذلك العسكر ونالوا منه . ثم ان عسكر الناصر بعد
الكبسة كسروا البحرية فانهزموا الى البلقاء والى زعر ملتجئين الى المغيث صاحب
الكرك ، فأنفق فيهم المغيث أموالاً جلية وأطمعوه في ملك مصر فجهزهم بما احتاجوه .
وسارت البحرية الى جهة مصر وخرجت عساكر مصر لقتالهم والنقى المصريون مع البحرية
وعسكر المغيث فانهزم عسكر المغيث والبحرية وفيهم يبرس البندقداري الى جهة
الكرك . وكان المغيث خيم بغزة وجمع الجموع ومعه البحرية وخرجت عساكر مصر
مع ممالك المعز إليك فالتقى الفريقان فكانت الكسرة على المغيث ومن معه فولى
منهزماً الى الكرك في أسوأ حال .

وبينا كان آخر ملوك الشام ومصر من بني أيوب يتنازعون
مع الممالك البحرية وقد خرجت مصر عن حكم الايوبيين
هولاكو التتري }
وكانت دخلت في حكمهم اولاً فأسسوا هناك بنيانها ولما انهار البناء كانت البرنية
الاولى أول ما هدمت وبقيت بعدها الاطراف وهي الشام وما اليها مدة قليلة ، جاء

هولاكو التتري (٦٥٦) واستولى على بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله وقضى الخلافة العباسية ، فدهشت البلاد ثم أخذ التتري يتقدمون الى الجزيرة فأرسل الناصر يوسف صاحب دمشق ولده العزيز محمد وصحبه زين الدين محمد المعروف بالحافظي من أهل قرية عقربا في الغوطة بتحف وثنادم (هدايا) الى هولاكو ملك التتري ، وصانعه لعله يعجزه عن ملقى التتري . وكان بين البحرية بعد هزيمتهم من المصربين وبين عسكر الناصر يوسف صاحب دمشق ومقدمهم الامير مجير الدين بن ابي زكري وصاف بظاهر غزة انهزم فيه عسكر الناصر يوسف وأمر مجير الدين ، وقوي امر البحرية بعد هذه الكسرة واكثروا العبث والنساذ ، وسار الناصر يوسف بعد ان عرف ما تم على عسكره ومعه صاحب حماة بعسكره الى جهة الكرك ، وأقام على بركة زيزاء محاصراً للمغيث صاحب الكرك بسبب حمايته للبحرية ، فقبض المغيث على من عنده من البحرية وعلم ذلك في الحال ركن الدين يبرس البندقداري فهرب في جماعة من البحرية ووصل بهم الى الملك الناصر يوسف فاحسن اليهم ، وقبض المغيث على من بقي عنده من البحرية وارسلهم الى الناصر فبعث بهم الى حلب فاعتقلوا بها واستقر الصلح بين الناصر وبين المغيث صاحب الكرك .

وقدم هولاكو (٦٥٧) الى البلاد التي شرقي الفرات ونازل حران وملكها واستولى على البلاد الجزرية وارسل ولده شموط بن هولاكو الى الشام فوصل الى ظاهر حلب وكان الحاكم فيها المعظم توران شاه نائباً عن ابن اخيه الناصر يوسف ، فخرج عسكر حلب لقتالهم وخرج المعظم ولم يكن من رأيه الخروج اليهم ، واكن لهم التتري في باب الله فمقاتلوا عند بانقوسا فاندفع التتري قداسهم حتى خرجوا عن البلد . ثم عادوا عليهم وهرب المسلمون طالبين المدينة والتتري يقتلون فيهم حتى دخلوا البلد ، واخضعوا في ابواب البلد جماعة من المنهزمين ، ثم رحل التتري الى عزاز فتسلموها بالامان ولما بلغ الناصر يوسف صاحب الشام قصد التتري حلب برز من دمشق (٦٥٨) الى برزة وجفل الناس بين ايدي التتري وسار من حماة الى دمشق المنصور صاحب حماة ونزل معه ببرزة وكان هناك مع الناصر يوسف يبرس البندقداري فاجتمع عند الملك الناصر ببرزة أم عظيمة من العساكر والجنال ، وبلغ الناصر ان جماعة من مماليكه قد غرّموا على اغتياله والفتك

به فيهرب من الدهليز الى قلعة دمشق ، وبلغ مما يليكه الذين قصدوا ذلك علمه بهم فهربوا على حمية (بامان) الى جهة غزة ، وكذلك سار يبرس البندقداري الى جهة غزة ، واشاع المماليك الناصرية انهم لم يقصدوا قتل الناصر وانما كانت قصدهم ان يقبضوا عليه ويسلطوا اخاه الملك الظاهر غازي بن الملك العزيز لشهامته ، ولما جرى ذلك هرب الظاهر هذا خوفاً من اخيه الناصر فوصل الى غزة واجتمع عليه من بها من العساكر واقاموه سلطاناً ، وكاتب يبرس البندقداري المظفر قطز صاحب مصر فبذل له الامان ووعدته بالعودة الى ففارق يبرس الشاميين وسار الى مصر في جماعة من اصحابه .

واستولى التتر على حلب وسببه ان هولاء كرو عبر الفرات بجموعه ونازل حلب وارسل هولاء كرو الى الملك المعظم تورانشاه نائب السلطنة بحلب يقول له : انكم تضعفون عن لقاء المغل ونحن قصدنا الناصر والعساكر ، فاجعلوا لنا عندكم بحلب شحنة وبالقلعة شحنة ، وتوجه نحن الى العسكر فان كانت الكسرة على الاسلام كانت البلاد لنا ، وتكونون قد حقنتم دماء المسلمين ، وان كانت الكسرة علينا كنتم مخيرين في الشحنتين ، ان شئتم طردتموها وان شئتم تتلقموها ، فلم يجب الملك المعظم الى ذلك وقال : ليس لكم عندنا الا السيف . فتعجب هولاء كرو من هذا الجواب وتألّم ، لما علم من هلاك اهل حلب بسبب ذلك .

واحاط التتر بحلب وقتلوا مقللة عظيمة حتى لم يسلم من اهلها الا من التجأ الى دار شهاب الدين بن عمرون ودار نجيم الدين اخي مردكين ودار البازيار ودار علم الدين قيصر وخاتقاه زين الدين الصوفي وكنيسة اليهود وذلك لفرمانات كانت بايديهم . وقيل انه سلم بهذه الاماكن ما يزيد على خمسين الف نفس . ونازل التتر القلعة وحاصروها وبها المعظم ومن التجأ اليها من العسكر واستمر الحصار عليها ومضايقة التتر لها نحو شهر ثم سلمت بالامان ، وامر هولاء كرو ان يمضي كل من سلم الى داره وان لا يعارض وجعل النائب بحلب عماد الدين القزويني .

قال ابن العديم : واحترز نواب حلب وجمعوا اهل الاطراف والحوضر واجتمعوا كلهم داخل البلد ، وكانت حلب في غاية الحصانة والقوة لاسوارها المحكمة البناء وقلعتها العظيمة ، ولم يكن في ظن احد انها تؤخذ بسرعة قال : وخرج العوام والسوقة واجتمعوا

کلهم یجبل بانقوسا ووصل جمع التتار الى اسفل الجبل ، وکنوا علی القرية المعروفة
 ببابلا ثم کر التتار منهزمین ثم رجعوا وقتلوا من المسلمین جمعا کثیرا من الجند والعوام .
 وقتل هولاکو فی حلب اکثر ممن قتل فی بغداد . وقال ابن تغری بردي : ان
 هولاکو حاصر حلب ستة ايام ثم اوقع بها خمسة ايام حتی لم یبق بها احد ووصل الى
 هولاکو علی حلب الملك الاشرف صاحب حمص موسى بن ابراهیم بن شبرکوه
 فاکرمه هولاکو واعاد علیه حمص ، ثم رحل هولاکو الى حارم وطلب تسليها
 فامتنعوا ان یسلموها لغير نحر الدين والي قلعة حلب فاحضره هولاکو وسلموها اليه
 فغضب هولاکو من ذلك وامر بهم فقتل اهل حارم عن آخرهم وسبي النساء ، ثم رحل
 هولاکو الى الشرق وجعل مکان عماد الدين القزويني بحلب رجلا اعجميا وامر هولاکو
 بخراب اسوار قلعة حلب واسوار المدينة فخرت عن آخرها وامر الاشرف موسى صاحب
 حمص باخراب سور قلعة حماة فخرت واجرقت زردخانتها ، ولم تخرب اسوار المدينة
 لانه کان بحماة رجل یقال له ابراهیم بن الفرنجية بذل لخسرو شاه نائب هولاکو فی
 حلب جملة کثیرة من المال وقال : الفرنج قریب منا فی حصن الاکراد ومتی خربت
 اسوار المدينة لا بقدر اهلها علی المقام فیها ، فاخذ منه المال ولم يتعرض لخراب الاسوار
 وكانت قد امر هولاکو الاشرف موسى صاحب حمص بخراب قلعة حمص ایضا فلم
 یخرّب منها الا شیئا قلیلا لانها بلده ، واما دمشق فان نائب هولاکو قدم الى اهلها
 بالفرمان والامان فتلقاه کبراء المدينة وانفذت منایج دمشق الى هولاکو . قال سبط
 ابن الجوزي : وکثرت الاراجیف بدمشق بسبب التتار فهرب کثیر من الدمشقیین
 وباعوا اصلهم وخرجوا علی وجوههم مفرقین فی البراري والجبال والحصون ، وصادف
 ذلك ايام الشتاء وقوة البرد فمات کثیر منهم ونهب آخرون . وقال القلقشندي فی
 کلامه علی البيت الهولاکوي : ولو تمکنوا من دمشق لمحو آثارها وانسوا اخبارها
 وان ملکها یومئذ صاهر صاحب قبرص لیتقوی به .

ولم يتعرض عسکر هولاکو الى قتل ولا نهب وعصت قلعة دمشق علیه فحاصرها
 التتار وجرى علی اهل دمشق بسبب عصیان القلعة شدة عظيمة ثم تسلموا القلعة بالامان
 ونهبوا جمیع ما فیها وجدوا فی خراب اسوار القلعة واعدام ما بها من الزردخانات

والآلات ثم توجهوا الى بعلبك ونازلوا قلعتها واخذوا نابلس بالسيف وتسلحوا قلعة عجلون واستولوا على قلاع الصلت وعجلون وصرخد وبصرى والصبيبة وهدم الجميع ووقعوا على العرب عند زيزاء وحسبان فيزموهم ، وغنموا اولادهم ونساءهم وانعامهم واستاقوا الجميع ، وهرب سلطان البلاد الناصر يوسف بن محمد الى البراري فساقوا خلفه واخذوه ثم قتلوه عندهم . واستولى النصارى من بلاد الفرنج على صيدا ونهبوها واسروا منها ثلاثمائة اسير . وعاث التتار في بلاد حوران ونابلس وبلغت غاراتهم غزة وبيت جبريل والخليل والصلت وما اليها وجاؤا بالاسرى الى دمشق فمنهم من اقتدى نفسه ومنهم من هرب .

وظل التتار يتنقلون في الشام حتى فتحوه الى غزة واستقرت شحائهم فيه لان الناصر صاحب دمشق لما بلغه اخذ حلب رحل من دمشق في عسكره الى الديار المصرية وفي صحبته المنصور صاحب حماة ، فلما رأى كبراء حماة تحلي ملكهم عنهم توجهوا الى حلب ومعهم مفاتيح بلدهم وحملوها الى هولاكو وطلبوا منه الامان لاهل حماة وشحنة تكون عندهم فأمنهم هولاكو وأرسل الى حماة شحنة رجلاً أعجمياً اسمه خسرو شاه فقدم حماة وأمن الرعية . واستولى التتار (٦٥٨) على ميفارقين بعد ان حاصروها سنين حتى فنيت أزوادهم وفني أهلها بلوباء والقتل فقتلوا صاحبها الكامل محمد بن المظفر بن العادل ابي بكر بن أيوب وحملوا رأسه على رمح وطاقفوا به في البلاد فمروا بحلب وحماة ودمشق بالمغاني والطبول وعلقوه في شبكة بسور باب الفراديس الى ان عادت دمشق الى المسلمين .

قال الذهبي : ان نصارى دمشق شمت اثناء مجي هولاكو الى البلاد ورفعوا الصليب في البلد وألزموا الناس بالقيام له من الخوانيت ، ونقضوا العهد وصاحوا : ظهر الدين الصحيح دين المسيح . فلما انتصر المسلمون على هولاكو على عين جالوت بين بيسان ونابلس وقتل مقدمهم كتبغا جاء الخبر الى دمشق في الليل فوقع النهب والقتل في النصارى وأخرقت كنيساتهم العظمى . وقال ابو الفداء : ان النصارى استطالوا بدمشق على المسلمين بدق النواقيس وادخال الخمر الى الجامع . قال في المذيل : ان النصاري بدمشق قد شتمخوا بسبب دولة التتار وتردد ايل شبان وغيره من كبارهم

الى کنائسهم وذهب بعضهم الى هولاکو وجاء من عنده بفرمان لم اعثاء منهم وتوجه في حقهم ، ودخلوا به البلد من باب توما وصلبائهم مرثعة وهم ينادون حولها بارتقاء دينهم دون دين الاسلام ویرشون الخمر على الناس بابواب المساجد ، فرکب المسلمین من ذلك هم عظیم فلما هرب النثار من دمشق أصبح الناس الى دور النصارى ینهبونها وینحربون ما استطاعوا فیها وخرّبوا کنیسة الیعاقبة وأخربوا کنیسة مریم حتى بقيت کوماً والحیطات حولها تعمل النار فی أخشابها وقتل منهم جماعة واخفی الباقون وجرى علیهم أمر عظیم اشغفی به بعض الاشفاء صدور المسلمین ثم هموا بنهب اليهود فنهب قليل منهم ثم کفوا عنهم لانهم لم یصدر منهم ما صدر من النصارى اه .

اجتمعت العساكر الاسلامیة بمصر هرباً من النثار فلما انتظمت أحوالهم واستجمعوا قواهم عزم المظفر قطز مملوك المعز ايبك على الخروج الى الشام لقتال النثار ، وسار معه صاحب حماة المنصور وأخوه الافضل علي حتى التقى مع النثار فی الغور وكان کتبغا نائب هولاکو على الشام ومعه صاحب الصببة الملك السعيد فانهمزم النثار هزيمة قبیحة على عين الجالوت وقتل مقدمهم کتبغا واستؤسر ابنه ونفروا فی البلاد ، ومنهم من قصد الشرق فأفناهم المسلمون ، وجرد قطز ركن الدين بپرس فی أثرهم فتبعهم الى أطراف البلاد الشرقیة ، وكانت فی صحبة النثار الملك الاشرف موسى صاحب حمص ففارقهم وطلب الامان من المظفر قطز فأمنه ، وأقره على ما ینده وهو حمص ومضافاتها ، وأسر صاحب الصببة وضربت عنقه ، وأقر المنصور على حماة وبارین والمعرّة وأخذ منه سلیة وأعطاهامیر العرب ، ودخل دمشق فتضاعف شكر المسلمین على هذا النصر العظیم فان القلوب كانت قد یشت من النصرة على النثار لاستیلائهم على معظم بلاد الاسلام ، ولانهم ما قصدوا إقليماً الا فتحوه ، وتواقعوا مع عسكر الا هزموه . قال ابن ابی شامة : ومن العجائب ان النثار كسروا وأهلكوا بابناء جنسهم من التترك وقيل فی ذلك :

طلب النثار على البلاد فجاءهم من مصر تركي یجود بنفسه
بالشام أهلكهم وبدد شملهم ولكل شيء آفة من جنسه

ورتب شمس الدين أقوش البرلي أميراً بالسواحل وغزة وجيز عسكراً إلى حلب لحفظها ، وفوض نيابة السلطنة بدمشق إلى الأمير علم الدين سنجر الحلبي ونيابة السلطنة بحلب إلى الملك السعيد بن بدر الدين لولو صاحب الموصل ، ولما استقر هذا في نيابه حلب سار سيرة ردئية وكان دأبه التحيل على اخذ مال الرعية .

مقتل المظفر قطز وسلطنة الظاهر بيبرس وأحداث البندقداري وبعض أعيان الدولة على قتله ، فساروا معه وقتلوه في القصير بطرف الرمل على مرحلة من الصالحية في طريق مصر ، وتسلم بن بدران البندقداري وتلقب بالملك الظاهر ، ودخل مصر ففتحت له واستقرت قدمه في المملكة . ولما بلغ نائب السلطنة بدمشق علم الدين سنجر قتل قطز وسلطنة الظاهر جمع الناس وحلفهم لنفسه بالسلطنة ، فأجابوه إلى ما أرادهم عليه ، ولم يتأخر عنه أحد ولقب نفسه الملك المجاهد وخطب له بالسلطنة وضربت السكة باسمه وكاتب المنصور صاحب حماة في ذلك فلم يجبه وقال صاحب حماة : أنا مع من يملك الديار المصرية كائناً من كان . أما السعيد نائب السلطنة بحلب فحملة امراء حلب إلى الشحر وبكاس معقلاً لما اندفع العسكر الحلبي من بين ايدي الثار على البيرة وقدموا عليهم الأمير حسام الدين الجوكندار العزيزي ثم سار الثار إلى حلب وملكوها وأخرجوا أهلها إلى قريبا شرقي حلب فأفندوا غالبهم بالسيف واستولوا على اعزاز وخربوا قلعتها واستولوا على حارم وقتلوا أهلها عن آخرهم وسبوا النساء وملكوا حلب وأعمالها نحو أربعة أشهر . وقارب الثار حماة فخرج منها صاحبها وباقي العسكر واجتمعوا بجمص مع سائر الاجناد فوقع بين الثار وعساكر المسلمين مصاف في حمص وكان الثار أكثر من المسلمين فانهمز الثار وهاموا على وجوههم إلى افامية ومنها إلى الشرق ومنهم من دخل في خدمة المسلمين . وجيز الملك الظاهر (٦٥٩) صاحب مصر عسكراً إلى الشام لقتال علم الدين سنجر المستولي على دمشق فخرج هذا لقتالهم فانهمز إلى جهة بعلبك فتبعه العسكر وقبضوا عليه وحمل إلى الديار المصرية فاعقل ثم أطلق واستقرت دمشق في ملك الملك الظاهر بيبرس وأقيمت

له الخطبة بها وبغيرها من الشام مثل حماة وحلب وحمص وغيرها ثم استقر ابدكين
البندقداري الصالح في دمشق لتدبير امورها .

وفي هذه السنة دخل الحلبي الى قلعة دمشق وتسلطن وحاصره المصريون وبرز
اليهم وحاربهم فلما كانت الليل ركب وقصد قلعة بعلبك فمضى بها ثم أخذ وجبسه
الظاهر زمناً . وفي سنة ٦٦٠ وصل من مصر الى دمشق عسكر مقدمه الامير
عز الدين الدمياطي وقبض على علاء الدين طبرس الوزيري نائب السلطنة بدمشق
وقبض حواصله ، وكان طبرس قد أهلك أهل دمشق باخراجهم من بلدهم والترسيم
عليهم واخراج عيالهم وإهانتهم ، وضيق على الناس وخوفهم من النار .

ولما بلغ هولاكو وهو في بلاد العجم كسرة عسكره بعين جالوت وقتل نائبه كتبغا
ثم كسرة عسكره على حمص ثانياً غضب من ذلك وأحضر الملك الناصر بن أيوب
واخاه الملك الظاهر غازي وكانا في أسره وقال للناصر : أنت قلت ان عسكر الشام
في طاعتك فغدرت بي وقتلت المغول فقال الناصر : لو كنت في الشام ما ضرب
أحد في وجه عسكرك بالسيف ومن يكون ببلاد توريز كيف يحكم على بلاد الشام ؟
فضرب هولاكو عنقه . فقال الناصر : يا خَوَّند^(١) ، الصنيعة . فنهأ اخوه الظاهر
وقال : قد حضرت ثم رماء فقتله . ثم أمر بضرب رقاب الباقين فقتلوا الظاهر أخا
الملك الناصر والملك الصالح ابن صاحب حمص والجماعة الذين كانوا معهم واستبقوا
الملك العزيز بن الناصر لانه كان صغيراً .

والملك الناصر هو صاحب حلب تملك حرَّان والزُّها والرقّة ورأس عين وحمص
ودمشق وبعلبك والاغوار والسواحل الى غزة ، وعظم شأنه وكسر عساكر مصر
وخطب له بمصر وكان قد غلب على الديار المصرية لولا هزيمته وقتل مدبره شمس الدين
لولو الارمني ومخامرة ممالك ابيه العزيزية . وكان الناصر حليماً وتجاوز به الحلم الى
حد أضرَّ بالملكية ، فكان اذا حضر اليه القاتل عفى عنه وقال : الحى أفضل من
الميت . فانتشرت اللصوصية في البلاد وأصبح المسافرين في ايامه من دمشق الى حماة وغيرها
لا يقدر على السفر الا برفقة من العسكر ، وكثير طمع العرب والتركمان في ايامه .

(١) الخَوَّند السيد معرب خدوآند .

ويقتل الناصر والظاهر قتل الرجال الذين يصلحون للملك من آل أيوب ، وضعت
عصبيتهم وأنصارهم من الأكراد وغيرهم ، وكان انقراضهم بيد المماليك المجرية الذين
غذوا بشتمتهم فلم يعرفوا لهم قبض أيادهم وبيد السفاك هولاء وجماعة من النصار .
وكان شأن بني أيوب في هذا المعنى شأن بني العباس مع الأتراك ، ادخلوهم في خدمتهم
واحسنوا إليهم ورفعوا منزلتهم وولاهم الأعمال ، فما كان منهم إلا أن نقضوا بنيان تلك
الدولة وفتحوا السبيل لعدوها يستبيح حماها ويستصفي أرضها .

ولم يشبع المغول بما سفكوا من الدماء ، وعادوا سنة ٦٥٩ إلى حلب فانهزم جميع
أهل القرى والمدن إلى حلب فنقدم قائدهم أن يخرج أهل القرى والمدن إلى ظاهر
البلد ويبقى أهل كل مدينة وقرية بمعزل بحيث يعدونهم ويسيرون كل قوم إلى
مكانهم وموطنهم ، ويسلمهم المغول كأنهم يسرون إلى ضياعهم وعندما يبعدون
يقولون لهم : انتم لو كانت قلوبكم معنا صافية لما انهزمت من قدامنا فقتلوهم عن آخرهم
ولم يفلت منهم غير أهل حلب لأنهم لم ينقلوا عنها .

وكان الملك الظاهر بين عاملين في خلال هذه المدة .	} حروب الظاهر وفتوحه
عامل دفع المغول وعامل دفع الصليبيين ، والغالب أنه ترجح عنده معاناة الثاني فأفلح فيه . وقد جيز سنة ٦٥٩ من مصر بدر الدين الأيدمرى فتسلم الشوبك من المغيث صاحب الكرك ثم سير حملة إلى حلب (٦٦٠) وكان مقدمهم شمس الدين سنقر الرومي فأمنت بلاد حلب وعادت إلى الصلاح بعد افساد المغول فيها ، ثم أوعز إلى صاحب حماة وصاحب حمص وسنقر الرومي أن يسيروا إلى أنطاكية وبلادها للاغارة عليها ، فساروا إليها ونهبوها ولم يتيسر لهم فتحها . وقبض الظاهر على نائبه بدمشق علاء الدين طهبرس الوزيري وكان ردي السيرة في أهل دمشق حتى نزع عنها جماعة كثيرة من ظلمه وقتل الظاهر صاحب الكرك المغيث بشبهة أنه كتب إلى النصار بطمعهم في ملك مصر والشام ، وقيل لأنه أكره امرأة الملك الظاهر لما قبض المغيث على المجرية وأرسلهم إلى الناصر يوسف صاحب دمشق	

وهرب الظاهر وبقيت امرأته في الكرك ، فانقم الظاهر منه بان اسلمه الى زوجته في قلعة الجبل بمصر وامرت جواربها فقتلته بالقباقيب .

وفي سنة ٦٦١ ارسل الظاهر وهو نازل على الطور عسكراً هدموا كنيسة الناصرة واغاروا على عكا وبلادها فغنموا وعادوا ، ثم ركب الظاهر بنفسه واغار ثانياً على عكا وبلادها وهدم برجاً كان خارج البلد . واغار صاحب سيس الارمني على الحمق والمرة وسرمين والفوعة . ومات في هذه السنة الملك الاشرف صاحب حمص وكان آخر من ملكها من بيت شيركوه فانقرض بهوته ملكهم واولهم شيركوه بن شاذي . وكانت بقيت في ايدي الاسماعيلية الى آخر سنة ٦٦٢ ثمان قلاع بالشام وهي الكهف والعليقة والقدموس والخوابي والمذبة ومصياف والرصافة والقلعة . وروى ابن مسير ان النصارى لما ملكوا الشام سلموا اليهم اربع قلاع ، فلما كسروهم قطز عادت الاربعة قلاع اليهم فتسلمها رئيسهم وقتل اصحابه الذين سلموها للنصارى قال : وكان الضرر على المسلمين وملوكهم منذ خرج ابن صباح والى سنة بضع وعشرين وستائة عظيماً . وقد استخدمهم الظاهر في قتل صاحب مرقبة والامير ادوارد من امراء انكلترا .

وفي سنة ٦٦٣ سار الملك الظاهر من مصر ونازل قيسارية وضايقة وفتحها من الفرنج وامر بها فهدمت ثم سار الى ارسوف ونازلها وفتحها وفتح القلعات (٦٦٤) وحلبا ومرة ونزل على صفد وضايقة وفتحها ثم قتل اهلها عن آخرهم . وجيز عسكراً ضخماً من دمشق وقدم عليهم المنصور صاحب حماة وامرهم بالمسير الى بلاد الارمن فانهمز الارمن وأسر ابنان لصاحبهم وامتلأت ايدي العسكر الاسلامي من الغنائم . وعندما توجه الملك الظاهر من دمشق للتحقق عساكره العائدة من غزوة بلاد سيس اصدر امره لما نزل على قارا بين دمشق وحمص بنهب اهلها وقتل كبارهم فنهبوا وقتل منهم جماعة ، وكانوا نصارى يسرقون المسلمين وبيعونهم خفية من الفرنج ، واخذت صبيانهم بماليلك فتربوا بين الترك في الديار المصرية فصار منهم اجناد وامراء . وشن الظاهر الغارة على بلاد الفرنج (٦٦٥) من اطرافهم واستدعى بالمناجيت من دمشق وفي سنة ٦٦٦ توجه الملك الظاهر بعساكره المتوافرة من مصر الى الشام ففتح بافان الفرنج وهدمها وقلعتها وملك

الباشورة بالسيف وعوض اهل القلعة اربعين الف درهم ، ثم قصد قلعة الشقيف شقيف تيرون فنزل تحتها في وادي العواميد وحاصرها فلم يقدر على اخذها ، ثم صعد الى اعلاها وكشف ماءها وبعد هزيع من الليل ذبح في قناتها عدة من الغنم والبقر وقطع كروشها ورمها فيها ، فلما اصبحوا وجدوا ماءهم منتناً وهودم عبيط فملوها بعد حصار عشرة ايام ، ووجد بها اربعمائة وثمانين رجلاً فارسلهم الى الفرنج في صور ورتب عليها قوماً من جماعته وبني برجاً على باب القلعة .

ثم اغار الظاهر على طرابلس فقطع اشجارها وغور انهارها وضرب اربعاً وعشرين من قراها ، فانهاالت عليه المردة من الجبال فذهب الى حصن الاكراد ، ومن هناك زحف على انطاكية فنازلها بغتة ، وبعد حصار اربعة ايام ملكها بالسيف فقتل اهلها واحرق كنائسها وغنم منها اموالاً كثيرة ، وأحصي من قتل بانطاكية هذه المرة فكانوا نيفاً واربعين الفا ثم اطلق من كان بها من الأسرى ، وفي رواية انه قتل من حمايتها بين ١٦ و ١٧ الف صليبي واخذ مئة الف اسير واحرقها وقلعتها ونال من غنائمها ما لا يدخل تحت حصر ، وخرج جماعة من اهلها يطالبون الامان وشرطوا شروطاً لم يجب الظاهر اليها وزحف عليها فملكها . وكانت انطاكية للبرنس يميند بن يميند وله معها طرابلس ، ولما فتحت انطاكية هرب اهل بغراس منها وتركوا الحصن خالياً فارسل الظاهر واستولى عليه .

ووقع الصلح بين الظاهر وهيتوم صاحب سيس الارمني على انه اذا حضر صاحب سيس سنقر الاشقر من التتار ، وكانوا اخذوه من قلعة حلب لما ملكها هولاكو ، وسلم مع ذلك بهسنى ودر بساك ومرزبان ورعبان وشيخ الحديد يطلق له ابنه ليفون الذي كان في اسر الملك الظاهر فسلمه صاحب سيس البلاد خلا بهسنى ودخل صاحب سيس على ابغا ملك التتر وطلب منه سنقر الاشقر فاعطاه اياه ، وتسلم الظاهر بلاطنس من عز الدين عثمان صاحب صهيون واغار (٦٦٨) على عكا وتسلم حصن مصياف من الاسماعيلية وفتح من حصونهم الكهف والقدموس والمنيقة والعليقة وأمر عليهم نجم الدين حسن بن المشغرائي وفرض عليه ان يرفع اليه في كل عام مئة الف درهم . ونازل السلطان (٦٦٩) حصن الاكراد فملكه بالامان وملك حصن عكار بعد حصاره

له بالامان ، فتذلل له صاحب طرابلس وبذل له ما اراد وهادنه عشر سنين وتسلم
حصن القرين بالامان وهدمه . واغارت التتار على عينتاب وعلى الرُّوج وقسطون الى
قرب افامية ثم عادوا . فاستدعى الظاهر عسكرياً من مصر وتوجه بهم الى حلب ونازل
التتار على البيرة واراد عبور الفرات الى بر البيرة ونصبوا عليها المناجيق وضابقوها
فقاتله التتار على المخاضة فاقتحم الفرات وهزم التتار فرحلوا عن البيرة . وشن الغارة
(٦٦٩) بفرقة من العسكر ومعه ولده الملك السعيد بفرقة اخرى على جبلة واللاذقية
والمرقب وعرة والقليعات وحلبا وصافيتا والمجدل وانطرطوس . وفي سنة ٦٧٣ توجه
السلطان الى بلاد الارمن ودخلها بعساكره المتوافرة وغنموا ثم عادوا الى دمشق .
وعاد التتار (٦٧٤) ونازلوا البيرة فتوجه الظاهر اليهم وبلغه رحياتهم وهو بالقטיפفة فاتم
السير الى حلب وعاد التتار (٦٧٥) فزحفوا على بلاد الشام وخرج اليهم الظاهر وقاتلهم
فكسرهم وقتل منهم خلائق وتبعهم الى نحو الابلاستين فكانت بينهما هناك وقعة قيل
انه قتل فيها من الفريقين نحو مئة الف انسان . ثم سار الى قيسارية واستولى عليها
ووصل الى عمق حارم فدمشق .

توفي الملك الظاهر (٦٧٦) بعد ان بطش البطشة	} وفاة الملك الظاهر وسلطنة ابنه الملك السعيد ثم سلطنة الناصر قلاوون
الكبرى بالصلبيين في الشام ودفع عادية المغول عنه ما امكن ، وغزا الارمن الذين اصبحوا	

يبدون لدولته نواجد الشر فحرب بلادهم واباد خضراءهم وغضراءهم . وكان ملكاً جليلاً
شجاعاً عاقلاً مهيباً وصل الى الملك بقتل آخر ملوك بني ايوب وما زال يتدرج في مراتب
القوة حتى ملك الديار المصرية والشامية وفتح الفتوح الجلييلة . اصله مملوك قيجاق في
الجنس وقيل برجعلي وكان ذا همة شماء يتنقل في ممالكه فلا يكاد يشعر به عسكره
الا وهو بينهم ، ولولا انه ابلي البلاء الحسن في اعداء البلاد لما كفر عما اتاه من قتل ابن
ايوب ، وبنو ايوب احببتهم البلاد على علائهم لغناء اكثرهم في خدمة الملة والدولة .
ترجم سو برنهام في المعلة الاسلامية للظاهر بپرس بقوله : انه كان السبب
بتوسيد ملك الشام الى قطز لما ابلي البلاء الحسن في وقعة عين جالوت فأقطع قطز

الامراء من بني أيوب الاقطاعات التي كانت لهم قبل غارات المغول ولكن بيبرس الذي كان يرجو ان توسد اليه حلب مكافأة على شجاعته لم ينل شيئاً فعزم على الانتقام لنفسه من هذا الظلم فقتل السلطان في الصيد ونادى به زعماء الجند وغيرهم سلطاناً وكانت المملكة المصرية والشامية محاطة من كل جانب بالاعداء في الشمال ملك أرمينية المسيحي وكان في الغرب الصليبيون منتشرين على جميع شاطئ الشام وفي الداخل الحشيشية الاشداء ومن الشرق المغول الطامعون في الغنائم والانتقام ، وفي جنوبي مصر أهل النوبة المجاربون ، وفي الغرب البربر الصعب قيادهم ، وكان يخشى ان ينجم له ناجم في الداخل من بني أيوب ويسمو الى السلطنة ، فيجد على دعوته انصاراً على أيسر وجه ، فرأى ان يبايع لاحد ذرية بني العباس بالخلافة بعد ان قرضها المغول من بغداد ، فتوفق الى ذلك وبايع له في مصر ، لان من مصلحته ان يظهر أمام العالم الاسلامي بانه حامي الخلافة وبذلك اصبح له نفوذ على حكومات مكة والمدينة ، وعرف كيف يداري معظم امراء الفرنج الشرقيين فعقد محادثات مع الملك مانفريد دي هوهانستوفن ، ثم عقد محالفة مع شارل دأنجو و جاك داراغوت والفونس دي كاستيل ، وعقد معاهدة مع ميشل باليولوغ الرومي الذي طرد الصليبيين ، وكانت له صلات حسنة مع ملوك السلاجقة في آسيا الصغرى ومع صاحب اليمن . ثم ذكر ان الظاهر رأى في الصليبيين أشد الاعداء خطراً على المملكة واستفاد من تفرق كتبتهم وكان المدد الذي يأتيهم من اوربا قد ضعف ، وكان في موت شارل التاسع انقاذ بيبرس من أعظم خصومه من الفرنج ، وهكذا فان الظاهر ظل ظافراً بجميع اعدائه ، ولم يتوقف عن شيء بلوغ غايته ، وكثيراً ما كان يعد وعوداً كاذبة ويكتب كتباً مزورة ليحمل فيها قواد الحصون على الاستسلام له ، وكان نجاحه مناط قريحته في التنظيم وسرعته وشجاعته المناهية ، وكانت مملكته كلها يسافر فيها البريد بسرعة حتى يصل الخبر من مصر الى الشام في ثلاثة ايام وكان اسعد سلطاناً من سلاطين المماليك وأقدرهم . وروى شمس الدين سامي ان السلطنة الاسلامية صارت ذات بهاء في ايامه وانه مات مسموماً بدمشق .

كان الظاهر قد حلف العسكر لولده بركة بن بيبرس ولقبه الملك السعيد وجعله

ولي عمره ، الا انه خبط واراد تقديم الاصغر على الامراء الاكابر ، ففسدت نيات الكبار عليه وقرروا خلعه من السلطنة ، بعد ان دخل بلاد سويس (٦٧٧) وشن الغارة عليها وغنم . فحصره العسكر في قلعة الجبل بالقاهرة فخلع نفسه على ان يعطى الكرك فاجابوه الى ذلك فليحق بها وهلك بعد قليل .

وانفق الامراء لما خلع الملك السعيد نفسه على افامة بدر الدين سلامش ابن الملك الظاهر بپرس في المملكة ، ولقبوه الملك العادل ، وعمره اذ ذاك سبع سنين وشهور ، ثم خلعوه وأجلسوا على تخت السلطنة الملك المنصور قلاوون الصالحی . ولما اضطرب امر المملكة استأثر بالشام سنقر الاشقر الذي كان الظاهر اشترط على صاحب سويس ان يتوسط لدى ملك التتار لاطلاقه من الاسر ففعل ، ونسي سنقر هذه اليد للظاهر ، وجلس على سرير السلطنة بدمشق وحلف له الامراء والعسكر وتلقب بالملك الكامل شمس الدين سنقر فجيز الملك المنصور قلاوون عساكر الديار المصرية مع علم الدين سنجر ، فبرز سنقر الاشقر بعساكر الشام الى ظاهر دمشق والنقى الفریقان فولى الشاميون وسنقر الاشقر منهزمين ، فجعل الامير لاجين المنصور في نائب السلطنة بالشام ، وهرب سنقر الاشقر الى الرحبة وكاتب ابغا بن هولاء ملك التتار وأطمعه في البلاد ، وكان عيسى بن مهنا ملك العرب في الشام مع سنقر الاشقر وقاتل معه وكتب بذلك الى ابغا ابغاً موافقة له ، ثم سار سنقر الاشقر من الرحبة الى صهيون واستولى عليها وعلى برزيه وبلاطدس والشفر وبكاس وعسكار وشيزر واقامية وصارت هذه القلاع له .

واحرق (٦٧٧) عسكر الشام بلاد الغرب وجبيل بيروت وذلك ان قطب الدين السعد بعد ان اسقطع قرية كفر عمية من امراء الغرب آل ثنوخ وجد فيها ذات يوم مقتولاً فاتهم بقتله نجم الدين بن جمحي وكان ابوه وذو قرابته معتقلين في مصر فتوجهت اليه العساكر والعشيران من ولاية بعلبك والبقاع وصيدا وبيروت واحترقت بلادهم ، ونفرك الثنوخيون أيدي سبا الى ان أمنهم الملك فرجعوا الى بلادهم .

وجاء التتار الى حلب (٦٧٩) فعاثوا وقتلوا من كان بظاهرها وملكوا ضياعها ونهبوا وسبوا وأحرقوا الجامع والمدارس المعتبرة ودور السلطنة والامراء وأقاموا بها

يومين وعادوا من حيث اتوا ، فهب الملك المنصور قلاوون الى غزاة لدفعهم فرحلوا قبل ان يوافيهم ، قال ابن ابي الحديد : وكانت للتتار نهضات وسرايا كثيرة الى بلاد الشام ، قتلوا ونهبوا وسبوا فيها حتى انتهت خيولهم الى حلب ، فأوقعوا بها وصانعهم عنها اهلها وسلطانها ، ثم عمدوا الى بلاد كي خسرو صاحب الروم فجمع لهم هذا قرضه وقضيضه وجيشه ولفيفه ، واستكثر من الاكراد العنصرية من عساكر الشام وجند حلب فيقال انه اجتمع مائة الف فارس وراجل فلقية التتار في عشرين الفا ، فجرت بينه وبينهم حروب شديدة قتلوا فيها مقدمة كلها او اكثرها من رجال حلب وهم انجاد ابطال فقتلوا عن آخرهم وانكسر العسكر الرومي ، وهرب صاحب الروم حتى انتهى الى قلعة له على البحر تعرف بانطاكية فاعتصم بها ، وتمزقت جموعه وقتل منهم عدد لا يحصى .

واستأذن نائب السلطنة بحصن الاكراد في الاغارة على المرقب لما اعتمد اهلهم من الفساد عند وصول التتار الى حلب فأذن له السلطان في ذلك ، فجمع عساكر الحصون فاتفق هروب المسلمين ونزول الفرنج من المرقب فقتلوا من المسلمين جماعة . وترددت الرسل بين السلطان وسنقر الاشقر ، واحتاج السلطان لمصالحته لقوة التتار ونفادياً من الاشتغال بالعدو الداخلي والعدو الخارجي ، ووقع بينهما الصلح على ان يسلم سنقر قلعة شيزر الى السلطان و يتسلم سنقر الشجر وبكاس ، وكانا قد ارتجعتا منه وحلفا على ذلك واستقر الصلح بينهما ، كما استقر الصلح بين الملك المنصور قلاوون وبين الملك خضر بن الملك الظاهر بپرس صاحب الكرك .

وبعد ان استقر الصلح بين الاميرين المتوثبين على السلطنة كان المصاف (٦٨٠) العظيم بين المسلمين وبين التتار بظاهر حمص فجمع قلاوون العساكر من مصر والشام ومن جملتهم عسكر سنقر الاشقر وجاء الامراء كلهم في جيوشهم وكان التتار في ثمانين الف فارس وفي رواية مائة الف منهم خمسون الفا من المغول والباقي حشود وجموع من اجناس مختلفة مثل الكرج والارمن والعجم وغيرهم والمسلمون في خمسين الفا فانهم زعم التتار وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون . وعقد قلاوون هدنة مع المقدم افرتر كيا سام ديباجون مقدم بيت الداوية بعكا والساحل وبين جميع الاخوة الداوية

بانطرسوس لمدة عشر سنين على ان لا ينال بلاده ولا بلاد ولده الملك الصالح ولا حصونها ولا قلاعها ولا بلادهما ولا ضياعهما ولا عساكرهما ولا عربهما ولا تركانهما ولا اكرادهما ولا رعاياهما على اختلاف الاجناس ضرراً ولا سوء ولا غارة ولا تعرض ولا اذية .

وسارت العساكر الاسلامية الى فتح جبة بشرى (٦٨١) فصعدوا في وادي حبرونا وحاصروا اهدت حصاراً شديداً وبعد اربعين يوماً ملكوها فنهبوا وقتلوا وسبوا وهدموا القلعة التي في وسط القرية والحصن الذي على رأس الجبل وفتحوا بقوفا وقضوا على اكابرها وهدموها وضربوا حصرون وكفر حارون وخربوا حدث البشرى وبنوا برجاً قبالة المغارة ووضعوا فيه عسكراً يكون للعصاة وهدموا جميع الاماكن العاصية وملكوا قلعة حوفا بتسليط الماء عليها من فوقها فملكوها بقوة الماء لانها داخله الشير . وتوجهت العساكر ايضاً الى بلاد الارمن فخربت فيها وسبت عقوبة لهم عما اتوه من معاونته المغول على المسلمين .

وقصد المغول دمشق في سنة ٦٨٣ ثم ذهبوا الى وادي التيم فأحرقوها وسبوا اهلها وقتلوا منهم نحو سبعمائة نفس وملكوها وفتح السلطان حصن المرقب (٦٨٤) بعد ان نقب جنده حصنها بسرعة وكان هذا الحصن الاسبتار فنزل اهلها بالامان وفتح حصن الكرك (٦٨٥) بالامان وجيز عسكراً كثيفاً من العساكر المصرية والشامية الى قلعة صهيون فتسلمها من سنقر الاشقر بالامان . ثم سار جيش السلطان الى اللاذقية ، وكان بها برج للفرنج يحيط به البحر من جميع جهاته ، فركب طريقاً اليها في البحر بالحجارة وحاصروا البرج وتسلموه بالامان وهدموه وفتح طرابلس (٦٨٨) ، وكان البحر يحيط بغالب اطراف هذه المدينة ولا تقابل الا من جهة الشرق ، ولما نازله نصب عدة منجنيقات كبيرة وصغيرة والح عليها بالحصار ففتحها بالسيف ودخلها العسكر عنوة بعد حصار ٣٣ يوماً ، فهرب اهلها الى المينا وركبوا في المراكب وقتل غالب رجالها وسببت ذراريتهم ، وغنم منهم المملوك غنمة عظيمة وامر السلطان فهدمت طرابلس ودكت الى الارض . وكانت في البحر قرية من طرابلس جزيرة وفيها كنيسة تسمى كنيسة سنطاس وبينها وبين طرابلس المينا ، فلما أخذت طرابلس

هرب الى الجزيرة المذكورة والى الكنيسة التي فيها عالم عظيم من الفرنج والنساء ، فاقحم العسكر الاسلامي البحر وعبروا بخيولهم سباحة الى الجزيرة ، فقتلوا جميع من فيها من الرجال وغنموا ما بها من النساء والصغار — نقلت معظم هذا من تاريخ ابي الفداء ويقول ميثو : ان المسلمين لما استعادوا طرابلس اهلكوا ساكنيها من الصليبيين الا قليلاً وامر السلطان باحراق المدينة وهدمها وكان فيها مصادر الثروة والرخاء وكل ما يزهر به السلام ويستخدم في الدفاع زمن الحرب فحرب كل ذلك تحت الفأس والمطارقة وقال : لما نزل الصليبيون عسكرهم على سواحل الشام سنة ١٣٦٦ م واستولوا على طرابلس اوقدوا النار فيها وكان حظ طرطوس واللاذقية وعدة مدن فينيقية مثل ذلك .

وقال مؤرخو لبنان : ان الكسروانيين والجرديين نزّلوا من الجبال لنجدة الفرنج في طرابلس وقتلوا من عسكر السلطان خلقاً كثيراً فبرز الامر من حسام الدين لاجين نائب دمشق الى قراسنقران يجمع العساكر الشامية ويحذف بها لاستئصالهم . ومن ذلك الوقت خربت كسروان والذين سلموا من اهلها تشتتوا في كل صقع . قالوا ومن جملة اوامر حسام الدين الى امراء غرب بيروت النيوخين اذا توجهوا الى كسروان وجرده بجمعوعها ، ان كل من سبى امرأة منهم كانت له جارية ، اوصيهاً كان له مملوكا ومن احضر منهم رأس رجل فله دينار . وذكرنا ان الخراب استولى على الاقطار الشمالية بسبب نقل احوال ملوك مصر والشام والحروب النائرة مع التتار من جهة ومع الفرنج من أخرى فكان الناس يرغبون في سكنى الجبال العالية الصعبة المسالك ، وقدم الى جبل لبنان في ذلك الحين خلق كثير ومنهم اهل بلاد وادي التيم وقلت بلاد وادي التيم من السكان خمسة اعوام ولم يكن فيها بلد عامراً سوى حاصبيا وكذلك البقاع . ثم نادى الناس وعمرّوا بعض القرى في جبل حاصبيا فقط .

توفي الملك المنصور قلاوون (٦٨٩) وكان ملكاً مهيباً حليماً قليل سفك الدماء كثير العفو ، شجاعاً اقام منار العدل واحسن سياسة الملك	} وفاة قلاوون وسلطنة ابنه الاشرف خليل واشتدائه في فرنج الساحل
وقام بتدبير المملكة احسن قيام وفتح الفتوح الجليلة التي لم يجسر احد من الملوك مثل	

صلاح الدين وغيره على مثالها وهو الذي وُظِدَ حكم المماليك على الشام واصلح كما في العملة الاسلامية بالتدريج ما احدث المغول فيه من التخريب وقام باعمال مهمة من مثل ترميم قلعة حلب وبعابك ودمشق . وهو الوحيد من ملوك المماليك الذين تسلسل الملك في اعقابهم وَاَلْفُوا دولة فان اعقابه حكموا الى سنة (٧٨٣ هـ ١٣٨٢ م) خمسة بطون . وقد عقدت معاهدات مع الدول التي يخشى بأسها ويمكن الانتفاع بحسن الصلات معها ، مثل المعاهدة التجارية مع جمهورية جنوة ومعاهدة دفاعية مع الملكين الفونس ملك قشتالة وحاك ملك صقلية . وكانت سفراؤه تغدو وتروح الى امبراطور بيزنطية والامبراطور رودولف دي هابسبورغ وملك اليمن وامير سيلاط وغيرهم من امراء الشرق . ولهذا السلطان آثار جليلة في العمران في القدس ودمشق وغيرها من ربوع الشام تدل على بعد نظره وحب المصالح .

وجلس في السلطنة بعد قلاوون ابنه الاشرف صلاح الدين خليل وسار على قدم ابيه في جهاد الصليبيين . وكان اول عمل اتجهت اليه همته بعد ان قدم تجار الفرنج الى عكا وقتلوا من كان بها من المسلمين (٦٨٩) ان نهض من مصر لفتح عكا بالعساكر المصرية والشامية فهرب جماعة من اهلها من الفرنج في المراكب لما هاجمها المسلمون كما فعلوا في طرابلس على عهد والده . واستنزل الاشرف جميع من عصى بالابرجة التي كانت داخل البلد . وهي بمنزلة قلاع دشاها عالم عظيم من الفرنج وتحصنوا بها فاستنزلهم السلطان وامر بضرب اعناقهم عن آخرهم حول عكا ، ثم امر بالمدينة فهدمت الى الارض ودكها دكاً . وكانت كما قال الذهبي من احسن المدائن بالعمارة والبناء الفاخر فلما فتحها الاشرف وهدم سورها هرب اهل المدينة منها وصارت خراباً وصار الناس من حينئذ يتولون منها الرخام الملون مدة طويلة . ومما وجد مكتوباً على باب كنيسة من كنائس عكا :

جمع الكنائس ان تكن عبثت بكم ايدي الحوادث او تغير حال
فلطال ما سجدت على ابوابكم شمس الانوف ججاج ابطال
صبراً على هذا المصاب فانه يوم يوم والحروب سجال
ولما فتحت عكا رعب الفرنج في الساحل فأخلوا صيدا فأخربها السلطان وجزيرتها

وقلعتها الجنوبية والشمالية . واستولى على بيروت فهدم سورها ودك قلعتها وكانت حصينة جداً واستولى على صور وكان أهلها مثل سائر الساحل . وكذلك عثليث وكانوا أوقدوا فيها النار . وسلمت انطرطوس بالامان وطرد السلطان الفرنج من جبيل وهدمها ودك قلعتها . وحربوا من انفة والبثرون وصر فند واسكندرونة بالقرب من عكا وذلك في مدة سبعة واربعين يوماً وكان فتحاً مبدئياً .

خرب الساحل كما رأيت بهذه الضربة الاخيرة ولكن اسنقلت الشام ونجت من بقايا الصليبيين الذين كانوا ينغصون عيش الدولة والامة ، ولا يؤخذ على الاشرف استئصاله شأفة اعدائه واهلاكه لهم عن آخرهم ، فقد كان على الصليبيين بعد وقعة حطين وفتح القدس ان يغادروا البلاد جملة واحدة وظنوا تسامح صلاح الدين يوسف معهم يومئذ ضعفاً وادرك كل من تولى زعامة الشام بعده انه يستحيل انقاذ البلاد من الفرنج الا بافنائهم وآخر الدواء الكي .

الحملة الصليبية السابعة } ولقد دخلت الجيوش الصليبية سنة ٤٩١ وخرج
وانتهاء الحروب الصليبية } منها آخر منهزمين سنة ٦٩٠ اي انهم ظلوا قرنين
يحاربون الشام ومصر . تعاقبت فيها عدة دول اسلامية على البلاد وكانها حاربت هؤلاء الدخلاء بما وسعها ان تحارب وربما قتل من الفريقين في خلال ذينك القرنين ما لا يقل عن خمسة ملايين من الانفس ، ولو لم تنقطع الرغبات في الغرب وتبطل النجدات بل الحملات الكبرى التي اصبح الباباوات والملوك يوجهونها في وجهات أخرى لقتال المسلمين لطال امدها اكثر مما طال .

فلما ان الحملة الصليبية السادسة كانت بقيادة الامير فريدريك الثاني ، وهي الحملة التي عقدت معاهدة مع ملك مصر والشام تنازل فيها هذا عن القدس وبيت لحم والناصره عشر سنين ، فلما انتهت المدة عادت القدس الى المسلمين وعندها عمده سان لوي ملك فرنسا ان يسترجعه منهم وكان هو السبب في تأليف الحملة الصليبية السابعة والثامنة جاء في الاولى الى دمياط وانهزم مع جيشه هزيمة فاضحة في المنصورة بمصر وأسر وجميع من معه فاضطر ان يدفع فدية عظيمة عن نفسه وعن جماعته ثم عاد الى بلاده

فزين له اخوه ان يذهب الى تونس ومنها يذهب ليفتح مصر والشام فهلك في تونس بالطاعون (۱۲۷۰م) وبذلك انتهت الحروب الصليبية . نشأت في فرنسا وانتهت بفشل ملكها ثم بهلاكه .

ولقد عد الفرنج من الفوائد التي جنوها من الحروب الصليبية انهم اوقفوا سير المسلمين عن التقدم ، وتعلم ملايين منهم اموراً ما كانوا يحلمون بوجودها ، واخذوا عن الروم والعرب ما كان عندهم من اسباب المدنية التي لم يكن للفرنج عهد بها . فان كثيراً من اصناف البقول نقلوها الى اوربا وشاعت هناك ولم تكن تعهد عندهم وقد تعلم صناعة الورق رجلان افرنسيان كانا اسيرين في دمشق وادخلا صناعته الى فرنسا ، فكان للشام على فرنسا هذا الفضل ، ومنها شاع صنعه في سائر بلاد الغرب ، وتعلموا صنع الاقشة الدمشقية والسيوف وغيرها من الصنائع الجميلة ونقلوها الى بلادهم .

ومع كثرة ما بذله اخلاف صلاح الدين من الجهد في قتال الصليبيين امثال العادل والكمال وببرس وقلاوون وابنه صلاح الدين خليل ، فان الصليبيين كان يتعذر القضاء عليهم في الشام لو لم ينقطع المدد عنهم من البحر وتصرف وجهة الصليبيين الى قتال العرب في الاندلس . وفي الحق ان تلك الحملات الصليبية كانت شعبة من شعب الجنون في البشر ، فقدت فيها اوربا اكثر مما رجت من الاتس والاموال . وما يدرينا ان نتقدم دولة السلاجقة في آسيا الصغرى على سمت الشمال ونقضي على مملكة الروم البيزنطية ثم نتقدم في فتوحها الى اوربا لو لم يشتغل ملوك المسلمين بهذه الحملة قرنين كاملين في الشام ومصر . وكانت الشام من جملة ممالك السجوقيين وربما تبعها مصر ففتحها صلاح الدين او غيره باسمهم بدلاً من ان يفتحها باسم نور الدين ، وما نور الدين الا صنعة السلاجقة ، وما جده وابوه الا عاملان من عمالهم .

نشأت اوربا بمسألة انقاذ القبر المقدس من ايدي المسلمين قرنين ، وتطوعت شعوبها في هذه السبيل ، ومن الامم من لم ينلها الا قتل رجالها وذهاب اموالها ، وكان الراجح على الاكثر اهل ايطاليا فانهم حاربوا حرباً تجارية ربحوا منها ارباحاً طائلة من سفنهم وتجارتهم وخصوصاً البنادقة والجنوون والبيسيون منهم ، اما الالمان والبريطانيون

والفرنسيين والمولانديون والسويسريون وغيرهم فأنهم خسروا خسارة كبيرة .
 ساق الفرنج الى الحروب الصليبية الدين والتجارة فلما قُتِرت نعمة الدين بهلاك من
 كانوا يحسنون هناك الضرب على اوتارها ، ولم ير التجار في هذا الشرق ما يكفي لسد
 نعمتهم وأيقنوا ان الامر يطول اذا أرادوا القضاء على جميع الممالك الاسلامية في
 آسيا قُتِرت همهم بالطبع ، ولكن بلاد الشام خربت بعد هذين القرنين وان كانت
 الدول الاتابكية والنورية والصلاحية ودولة بهرس وقلاوون وابنه يعمدون حالاً الى
 ترميم ما خربه الاعداء في داخل البلاد لا يقانهم انها بلادهم ولا بد لهم من دفع
 اعدائهم عنها وانهم يسترجعونها لا محالة وسيدلون منهم . هما طال مقام من استصفوا
 بعض سواحل الشام وبيت المقدس فكان الامر كما اعتقدوا .

ما بلغ الاعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه
 وكما طال احتلال الصليبيين كانت الامة تستمرى طعم الموت لخراجهم من
 البلاد ، وكما رأت من ملك او أمير لغاضياً عنهم او انقضاء عاديهم بالمعاهدات
 والمهادنات كانت تستهين به وتدعو ان لا تدوم أيامه . وعلى ما بذل الصليبيون من
 استمالة جيرانهم ما عدّهم هؤلاء قط الا غاصبين أرضهم ، دخلاء على الملك الاسلامي .
 ولو لم يؤسس الدولة في الشام ومصر ملك عاقل عادل مثل نور الدين ويتم عمله عاقل
 عادل من طرازه اي صلاح الدين لما تم الفتح الاخير على يد الاشرف خليل ، ولما تم
 اخلافه بعده الخطة المرسومة . ولو كان الملك لا يوسد الا للكفائة من ابناء الممالك
 او لا كبرهم سنّاً ، ولو لم يكن شجر الخلاف بين آل ايوب لضرب الصليبيون الضربة
 القاضية الاخيرة بعد مهلك صلاح الدين بعشر او بعشرين سنة على الاكثر ، اذ
 كان يتأقن المسلمون ان يجمعوا قواهم بعد فشل جيش صلاح الدين على عكا بما جاء
 الصليبيين من انجذات العظيمة في البحر . ولكن مات صلاح الدين قبل ان يطبق
 خطته ، وشغل اخوه اولاده بالنزاع على الملك ، وعدوا الهدنة الطبيعية التي مضت بين أخذ
 عكا واستلام القدس ثانية من المسلمين نعمة عليهم لتشبع نفس كل طامع منهم بالملك
 والسلطان ، والعهد في بلادهم وفي غيرها عهد الابطال والفرسان ، وغفلوا عن اعدائهم
 الذين لم يكذب يغفل عنهم نور الدين وخليفته صلاح الدين سنة واحدة الا ربما يجمعان

قواهما، وقد کنا لهذا الغرض یصانمان جميع ملوک الاطراف لیسیروا معهما علی قتال الاعداء، اما أخلافهم فکانت سیاستهم فی الاکثر موجهة الی اختراع الطرق لقضاء بعضهم علی بعض او لاستئثار قویهم بملک مصر او دمشق او حلب او الکرك والشوبک او ماردين او خلاط، فشغلوا بدخلیتهم اکثر من اشتغالهم بامورهم الخارجیة وهي اهم وأعظم، هذا واکثر اولئک الملوک کانوا قد تشبعت نفوسهم بالتربية العالیة والعلم والادب الغزیر، وکانوا علی معرفة تامة باصول الجهاد وفتح المعاکل والحصون، ومعرفة بعلم الحروب وقواعد السلم، واعطاء العهد وعقد الهدنة والصلح، ورثوها واقتبسوها من أخلاق البانیین لمجدهم نور الدین وصنیعته صلاح الدین .

ومما أجز القضاء عشرات من السنین علی بقایا الصلیبیین فی الساحل ظهور النار فی البلاد بعد قضائهم فی منتصف القرن السابع علی الخلافة العباسیة، فأصبحت الشام بین عدوین أتى الاول من الغرب فأقام وظال مقامه وجاءها الثاني من الشرق، والشر قد یأتی من الشرق، فکان یخرب فی بلادها ویغنم ویقتل ثم یذهب ثم یعاودها . ولكن ما حدث من حروب الخوارزمیة ثم اخلاف هولاکو الناری فی هذا القطر بعد منارشات اذا قیس بالحروب والحراب الذی حدث بعد ذلك فأهلك الاخضر والیابس وغدت البلاد غرض النابل وفریسة الصائل .

وفی تاریخ العام انه کان من نتائج الحروب الصلیبیة اذا صُرف النظر عن ذلك فیها من ملاپین الخلقی احداث امارات کاثولیکية فی الشرق انتزعت من المسلمین والبیزنطیین واحتلها فرسان فرنسایون وتجار طلیان . وقد طرد هؤلاء الاورپیون لقلتهم بدون ان یتروکوا سوى آثار معاقبهم فی الموانی وعلی صخور یونان والشام، ولكن هیأ الصلیبیون لنصارى اوربا ان یكونوا علی صلات متصلة مع الشرق مدة قرنین اه فلنسا وهذه نتیجة من ربط الصلات مع الشرق کان یتأتى لاوربا الحصول علیها بدون احراق هذه الدماء واتلاف الاموال العظيمة وغرس البغضاء فی نفوس من احتلوا بلادهم .

وفی تاریخ فلسطین ان من أضرار الحروب الصلیبیة فی الشام ایقاد جذوة التعصب الدینی بین المسلمین والمسیحیین، ورأى هؤلاء ان مسلمی العرب أحسنوا الیهم یوم الفتح

أكثر مما رأوا من هؤلاء الفرنج الذين أنكروا أبناء دينهم . ومنها تخريب البلدات وقطع الأشجار حتى زادت الاسعار ستة أضعاف ما كانت عليه ومنها تلطيخ الدين المسيحي والازدراء بتعاليمه ، لان مسيحي الصليبيين كانوا أبعد الناس عن دينهم . وقد أجمع المؤرخون على ان المسلمين تقيّدوا بالفضائل الدينية وراعوا المصلحة الانسانية اكثر من الفرنج الناكثي العهد والقاتلي الاسرى والذين أخشوا في سفك الدماء لما دخلوا القدس وحقروا الديانة المسيحية اه .

لا جرم ان الصليبيين افتضحوا في هذا السرق باخلاقهم وقلة معرفتهم ، وعرفوا بعد ان أخفقت الحملة الثامنة واصطلموا من الساحل مبلغ قوة اعدائهم ، وانهم في أرضهم ، وهم يحتاجون الى الرحيل أشراً في البر وربما اشهرأ في البحر . وذكر ميشو ان الفرنسيين والنورمانديين وسائر شعوب شمالي اوربا المتوحشة في القرن الثاني عشر للميلاد كانوا في حالة البداوة وهذا ما ساعدهم على اعلان الحروب الصليبية في الشرق ، فلما نشأت المدنية الحديثة في القرن السادس عشر وتسربت اولاً الى الملوك اصبحوا لا يرون الاغتراب عن اوطانهم ولا الشعوب ان تفارق مساقط رؤوسها وعمت الصناعات وحسنت الزراعة وانتشر العلم ، وغدا ذكرى كل مدينة وكل أسرة وثقاليد كل شعب وقطر والالقاب والامتيازات والحقوق المستحصلة والامل في ثمنيتها كل ذلك قد غير من اخلاق الفرنج وبذل من ميلهم لحياة التنقل والارتحال وجعلها صلات تربطهم بالوطن . وقد كتب التوفيق للملاحه في القرن التالي ان اكتشفت اميركا واجتاز الملاحون رأس الرجاء الصالح فنشأ من هذه الاكتشافات تبدل كثير في التجارة واخذت الافكار نتجه وجهة جديدة والنشأت المضاربات الصناعية التي كانت قائمة بالحروب الصليبية تسير نحو اميركا والهند الشرقية ، ففتحت امام الغربيين ممالك كبرى واقطار غنية تسد مطامعهم وتشبع نهمه التائقين الى الجهد والثروة والوقائع . فأنست حوادث العالم الجديد ماني الشرق من عجائبه . هذا ما قاله مؤرخ ثقة من مؤرخيهم في القرن الماضي واليك ما قاله اديب كبير من ادبائهم المعاصرين كلود فارير : « في سنة ٧٣٢ للميلاد حدثت فاجعة ربما كانت من اشأم الفجائع التي انقضت على الانسانية في القرون الوسطى فغمرت العالم الغربي

مدة سبعة او ثمانية قرون ان لم نقل اكثر في طبقة عميقة من التوحش لم تبدأ بالتبدد الا على النهضة ، وكاد عهد الاصلاح يعيدها الى كثافتها الاولى ، وهذه الفاجعة هي التي أريد ان أمقت حتى ذكرها ، واعني بها الغلبة المكروهة التي ظفر فيها على مقربة من بواتيه برايرة المحاربين من الفرنج بقيادة الكارولنجي شارل مارتل على كتائب العرب والبربر ممن لم يحسن الخليفة عبد الرحمن جمعهم على ما يقتضي من الكثرة فانهمزوا راجعين ادراجهم .

« في ذاك اليوم المشؤم تراجعت المدينة ثمانية قرون الى الوراء ، وبكفي المرء ان يطوف في حدائق الاندلس او بين العاديات التي لا تزال تأخذ بالابصار مما يبدو من عواصم السحر والخيال اشبيلية وغرناطة وقرطبة وطليلة ليشاهد والالم الغريب آخذ منه ما عساها ان تكون بلادنا الفرنساوية لو انقذها الاسلام الصناعي الفلسفي السلي المقسامح — لان الاسلام مجموعة كل هذا — من الاله ويل التي لا اسماء لها ، وكان منها ان انتجت خراب غالبا القديمة التي استعبدتها اولاً لصوص اوسترازايا ثم اقتطع جزءاً منها قرصان النورماندين ثم تجزأت وتمزقت وغرقت في دماء ودموع ، وفرغت من الرجال بما انبعث في ارجائها من الدعوة للحروب الصليبية ، ثم انفتحت بالجثث بما دهمها من الحروب الخارجية والاهلية الكثيرة العدد ، حدث ذلك على حين كان العالم الاسلامي من نهر الوادي الكبير الى نهر السند يزهر كل الازهار في ظل السلام تحت اعلام اربع دولات سعيدة الأموية والعباسية والسمجوقية والعثمانية » .

يشقى رجال ويشقى آخرون بهم	ويسعد الله اقواماً بأقوام
وليس رزق الفتى من لطف حيلته	لكن جدود بارزاق واقسام
كالصيد يحرمه الرامي المجيد وقد	يرمى فيرزقه من ليس بالرامي

دولة المماليك

من سنة ٦٩٠ الى ٧٩٠



فتوح ارمينية وعصيان | أصبحت مصر والشام بعد انقراض الصليبيين من
الموارنة بعوامل صليبية | السواحل ووضع السيف في بقاياهم واعتصام جزء
قليل منهم بالموارنة في لبنان مملكة واحدة لا يتخللها ارض لغير مالكيها ، ولا ينازعها
سلطان من غير المسلمين ، واصبحت حوادثها وطنية محلية يدور محورها على الاستئثار
بالمالك والذهاب بفضل السبق ، والتفكر فيما يدفع العوادي عن حدود البلاد ، اويوسعها
الى المدى المقدّر لها ، وبعد ان كانت الشام مصدر الاعمال والسياسة نازعتها مصر في
هذا الشأن ، فابتاع القطر المصري الشام وعده كما كان زمن الفاطميين جزءاً متمماً لمصر
لا قطعاً مستقلاً بنفسه وسياسته . اي ان القوة أصبحت بعد عهد العادل تستمد في
الشام من مصر لغناها الطبيعي ولانها مقر السلطان ، ومصر بين بلاد تحيط بها الصحاري
من اطرافها لاسيما كل حين الى غزوها كما تغزى الشام من اطرافها الاربعة ، وليس
في امراء طرابلس وبرقة وتونس والنوبة والسودان والحباشان من يستطيع ان يغزو
مصر ويحلم بفتحها ، ولذلك كانت الشام بعد عهد الأيوبيين اشبه بامارة سلطانها الاكبر
في مصر ويتولاها نائبه او نوابه .

ولم يكتب للشام ان تصبح دار ملك بعد عهد الدولتين النورية والصلاحية وكان
اهم عدو مجاور لها صاحب سيس ، فان الارمن كانوا قد جمعوا شملهم بعد ان قضت
على سلطانهم الدولة الأيوبية وانتزعت منهم خلاط اوائل القرن السابع ، وكانت

خلاط قاعدة ارمينية الوسطى اخذها بنو ايوب لمكانهم فيها من عصبية الاكراد وهي قسم من ارمينية الكبرى وقاعدتها سيس ، وقد ذهب الملك الاشرف سنة ٦٩١ في عساكره المصرية والشامية وقصد قلعة الروم ، وهي قلعة على جانب الفرات يتم بها خليفة الارمن كيتاغيكوس فأخذه ومن معه اسرته ، ورم ما تجرب من تلك القلعة الحصينة .

نقدم ان فرنج الساحل لما اصابتهم الضربة القاضية اعتصم بعضهم باهل جبل لبنان ونزلوا عليهم ، وعاد آخرون الى بلادهم في المراكب ، وقد اثار هذا القسم اللاجئ الى لبنان في نفوس بعض اهله فكرة العصيان فعصوا ، فتوجست دولة الاشرف منهم خيفة فارسلت عليهم حملة من دمشق (٦٩١) بقيادة الامير بدر الدين بيدر ، فسار الى جبل كسروان في العسكر وعدة من الامراء ، فانحل عزمه لما تمكن الكسروانيون من بعض العساكر في تلك الجبال ونالوا منهم ، وعاد العسكر شبه المكسور وحصل لاهل الجبل الطمع والقوة ، فاطلق محاييس لهم بدمشق من ارباب الجرائم العظيمة ، وحصل لهم من جميع المقاصد ما لم يكن في حسابهم . قال مغلطاي : وكل ذلك من الطمع وسوء التدبير .

وجاء الاشرف (٦٩٢) لتجهيز العسكر لقصد بلاد سيس فوردت عليه رسل صاحبها يطلب الصلح ورضا السلطان عليهم ، فرضي على ان يسلموا لنواب السلطان ثلاث قلاع وهي : بهسنى ومرعش وتل حمدون . وكانت بهسنى قلعة حصينة في فم الدربند وباب حلب ، فلما انتقلت من ايدي المسلمين الى ايدي الارمن وقت مجيئ النار كانت منها على المسلمين اذى ، فلما فتح السلطان قلعة الروم واخذ خليفة الارمن حصل للارمن خوف عظيم فصانعوا عن انفسهم بهذه القلاع . قال مغلطاي : ورسم السلطان في هذه السنة للامير عز الدين الافرم بان يسافر الى الشوبك وان يخرب قلعته فعاوده في ابقائها فنهره فسافر واخر بها ، وكان هذا غاية الخطأ وسوء التدبير فان هذا الملك كان طالعه يقضي الخراب فانه اخرج في قلعة الجبل اكثر بنيانها وكذلك في قلعة دمشق اخرج قاعات كثيرة وبظاهر دمشق من حد الميدان الى تحت القلعة وكان على يده خراب جميع الساحل وتعطلت بلاده من جميع الاصناف التي تجلب من البحر

وبقيت بلاد الشام معطلة . قلنا ولكن هذا السلطان وأبوه دفعا الصليبيين عن البلاد واجتثا اصولهم وفروعهم وادخلا البلاد في عهدهما في دور عز وقوة ووحدة حقيقية . واتسعت مملكة الناصر قلاوون حتى خطب باسمه في افريقية (تونس) ببلاد المغرب قال ابن اياس : وكان من اجل الملوك قدراً واعظهم نهياً وامراً واكثرهم معروفاً وبراً ، وقد جبلت القلوب على محبته سرّاً وجهراً اه . وقد خلف آثاراً مهمة ومصانع خالدة في مصر وبعض بلاد الشام تدل على ذوق وحسن هندسة وحب للعمران ، وتسلسل الملك في اولاده واحفاده لان الرعية كانت تحبه فاحبت آل بيته ، وخفت وطأة المماليك في ايامه ثم عادت تدريجاً الى القوة والعرامة .

قتل الملك الاشرف (٦٩٣) صلاح الدين خليل بن الملك المنصور قلاوون اغتيالاً بهد بعض اعيان الدولة بمصر وانفق قاتلوه على سلطنة بيدرا وتلقب بالقاهر ثم انفق الحزب القوي منهم فبايعوا للملك الناصر ولد الملك المنصور ثم تغلب (٦٩٤) الاميرز بن الدين كتبغا نائب السلطنة على سرير المملكة واستخلف الناس على ذلك وخطب له بمصر والشام ونقشت السكة باسمه وجعل الملك الناصر في قلعة الجبل وحجب الناس عنه ، فتزعزعت اعصاب المملكة لهذه الحوادث المشؤمة التي تورث النفوس كآبة واعمال الناس فتوراً . ولما عاد الملك العادل كتبغا من دمشق الى مصر بالعساكر (٦٩١) ووصل الى نهر العوجا تفرقت ممالكه وغيرهم فركب حسام الدين لاجين المنصوري نائب الملك العادل كتبغا ومعه فريق من الامراء فيرب كتبغا الى دمشق ودخل قلعتها وادتم في جمع العساكر والتأهب لقتال لاجين فلم يوافقهم عسكر دمشق ورأى منهم التخاذل فخلع نفسه من السلطنة وارسل الى لاجين يطلب منه الامان وموضعاً يأوي اليه فاعطاه صرخد . واما حسام الدين لاجين فانه لما هزم العادل كتبغا نزل بدله ليزه على نهر العوجا واجتمع معه الامراء الذين وافقوه على ذلك وشرطوا عليه شروطاً التزمها منها ان لا ينفرد عنهم برأي ولا يسلط ممالكه عليهم كما فعل بهم كتبغا ، فاجابهم لاجين الى ذلك وحلف لهم ، فعند ذلك حلفوا له وبايعوه بالسلطنة ولقب بالملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري ، ورحل بالعساكر الى الديار المصرية وارسل الى دمشق سيف الدين قبيق المنصوري وجعله نائب السلطنة بالشام .

ومن اهم ما وقع من الحوادث في عهد هذا الملك دخول غازان من احفاد هولاكو (٦٩٦) دمشق ثم ارتجاعه عنها بعد ان بذل له اهاليها مالا عظيماً . ثم تجريد السلطان العسكر الكشيف من مصر والشام (٦٩٧) لشن الغارات على بلاد سبى فضاقت على الارمن الارض بما رحبت وهلكوا من كثرة ما قتل المسلمون منهم وغنموا حتى اضطر ملكهم ان يبذل الطاعة لصاحب مصر والشام والاجابة الى ما يرمم به سلطان الاسلام والى الاعتراف بانه نائب السلطان في بلاده ، فطلب منه العسكر ان يكون نهر جيحان حداً بين المسلمين والارمن وان يسلم كل ما هو جنوبي نهر جيحان من الحصون والبلاد ، فاجاب عظيمهم الى ذلك واخذ من البلاد حموص وتل حمدون وسرفندكار ومرعش وحجر شغلان وغيرها من الحصون والقلاع .

وفي سنة ٦٩٧ وفد احد مقدمي المغول الى الملك المنصور لاجين وطلب نجدة ليعود الى الروم طمعاً في اجتماع اهل الروم عليه ، فجرد معهم من حلب عسكراً مقدّمهم سيف الدين بكتمر الجملي وساروا مع المقدم سلا مش المغولي حتى تجاوزوا بلاد سبى فخرجت عليهم النار واقتتلوا معهم فقتل الجملي وجماعة من العسكر الاسلامي وهرب الباقون .

وفي سنة ٦٩٨ وحشت نفوس الدولة مما يأتيه منكوتمر من امساك الكبار وسقي بعضهم ، وذهب نائب دمشق فبجق بالعساكر فنزلوا بارض حمص وهناك بكتمر السلحدار بطائفة من المصريين فتكلموا في مصلحتهم وان منكوتمر لا يفتقر عنهم فأنفقوا على المسير الى غازان ملك النار اعلمهم باسلامه فساروا الى حمص ونزلاً بنحو اصحابها ، فاخذوا على ناحية سلمية وعديا الفرات فلم يكن بعد عشرة ايام من مسيرهم الا وقد جاء البريد بقتل السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري وقتل منكوتمر نائبه وعلم الامراء الخاضعون بقتلها ، فانفق رأي ارباب الدولة في مصر على اعادة الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون الى مملكته فخيّبه من الكرك وجلس على سرير سلطنته للمرة الثانية . ووصلت هذه السنة الى بيروت مراكب كثيرة وهي ثلاثون بطاسة وفي كل واحدة سبعائة مقاتل من الفرنج للطلوع الى الساحل والاغارة على بلاد المسلمين فاصابتهم عاصفة اغرقت سفنهم الا قليلاً ورجع الباقون خائبين .

وقائع النار } لم تكن نازلة الصليبيين نخس حتى كانت المصاف العظيم بين المسلمين والنصارى في سنة ٦٩٩ فسار غازان بن أرغون خان بن هولاكو بن تولي بن جنكيز خان وهو السابع من ملوك الأيلخانية في فارس ، بجموع عظيمة من المغول والنصارى والكرج والمزندة وغيرهم وعبر الفرات ووصل بجموعه الى حلب ثم الى حماة ونزل على وادي مجمع المروج وسارت العساكر صحبة الملك الناصر الى جهة المجمع ، وكان سلار والجاشنكير متغلبين على المملكة فدخل الامراء الطمع ولم يكملوا عدة جنسهم فنقص العسكر كثيراً مع سوء التدبير ونحو ذلك من الامور الفاسدة التي اوجبت هزيمة العسكر على رأي ابي الفداء . ثم ساروا والنقوا بالقرب من مجمع المروج في شرقي حمص على نصف مرحلة منها فولت ميمنة المسلمين ثم الميسرة وثبت القلب وأحاطت به النار وجرى بينهم قتال عظيم وتأخر السلطان الى جهة حمص ، فولت العساكر الاسلامية بتبدر الطريق وتمت بهم الهزيمة الى ديار مصر وانهمزم السلطان الى نحو بعلبك بعد ان تلاقى عسكر مصر وعسكر النصارى على مرج راهط تحت جبل غباغب ووقعت بينهما وقعة عظيمة . وكان مع العسكر المصري من العسكر الشامي وعربان من جبل نابلس نحو مائتي الف انسان في بعض الروايات ومع غازان مثل ذلك أو أكثر .

تبع النار المنهزمين من المسلمين في وقعة مجمع المروج حتى بلغوا دمشق واستولوا عليها ونهبوا ضياعها وسبوا أهلها ، وساقوا في أثر الجفأ الى غزة والقدس وبلاد الكرك . ولما استولى غازان على دمشق أخذ سيف الدين قبيق الامان لاهلها ولغيرهم منه . وكانت قلعة دمشق عصت على غازان فحاصرها وكانت الامير بها سيف الدين ارجواش المنصوري فقام في حنظلها أتم قيام وصبر على الحصار ولم يسلمها — هذا ما قاله ابو الفداء وابن اياس . ووصف مغلطي ما حلّ بدمشق وضواحيها من النار وما جرى على العساكر المصرية والشامية ، وما تم من تخريب الدور والمساكن بظاهر دمشق مثل الصالحية والحواضر البرانية من العقبة والشاغور وقصر حجاج وحاصر السماق وقد خرب منها واستبيح ما لم يصبه الحريق من الاماكن قال : انهم أسروا من الصالحية نحو اربعة آلاف نسمة وقتلوا نحو ثلاثمائة او اربعمائة اكثرهم في التعذيب

على المال . ودام النار نحو اربعة اشهر . وكان عدد من دخلوا دمشق من النار اربعة آلاف مقاتل . وقد احترقت اما كن حول قلعة دمشق منها دار الحديث الاشرفية وما قبلتها الى العادلية الصغرى والعادلية الكبرى وأحرقت دار السعادة وكانت مقر نواب السلطنة وما حولها ، واحتاط النار بهذه النواحي والاما كن التي لم يصل اليها الحريق فنهبت ونقضت أخشايها ، وقلع ما فيها من الرخام وأخذ ما فيها من الاثاث ، وكذلك فعل بجميع الصالحية .

وعقيب ان تم كل هذا الحيف جاء رسول النار الى دمشق بالامان ومما شرطه في فرمانه اي امره ونقله وكان مكتوباً بالعربية ، ان لا يتعرضوا لاحد من أهل الاديان على اختلاف اديانهم من اليهود والنصارى والصابئة ، فانهم انما يبذلون الجزية عنهم من الوظائف الشرعية . وقال صاحب النار : انه حارب حكام مصر والشام لانهم خارجون من طريق الدين غير متمسكين باحكام الاسلام ، فاقضون لعهودهم ، حالفون بالايمان الفاجرة ، ليس لديهم وفاء ولا زمام ، وشاع من شعارهم الحيف على الرعية ، ومدت الايدي العادية الى حريمهم وأموالهم ، والتخطي عن جادة العدل والانصاف . قال مغلطاي : انه حمل الى خزانة غازان ثلاثة آلاف الف دينار وستائة الف دينار سوى ما لحق من التراسيم (المقررات) والبراطيل والاستخراج لغيره من الامراء والوزراء وغير ذلك . وقال الصفدي : والى شيخ الشيوخ الذي نزل بالعادلية ما قيمته ستمائة الف درهم والى الاصيل بن نصير الدين الطوسي مائة الف درهم .

ولقد أقام غازان بمرج دمشق المعروف بمرج الزنبقية . ثم عاد الى بلاده الشرقية وعاصمتها تبريز وقرر في دمشق قبجق ولم يستفد الا تخريب البلاد وقتل بعض جيشه وجيشي مصر والشام ، فلما بلغ العساكر مسير غازان عن الشام خرجوا من مصر وخرج السلطان الى الصالحية ، ثم انفق الحال على مقام السلطان بالديار المصرية ومسير سلاطه وبهرس الجاشنكير بالعساكر الى الشام فساروا بالعساكر ، وكان قبجق وبكتمر والابكي قد كاتبوا المسلمين في الباطن وصاروا معهم ، فلما خرجت العساكر من مصر هرب قبجق ومن معه من دمشق وفارقوا النار وساروا الى مصر ، وبلغ النار بدمشق ذلك

فخافوا وساروا من وقتهم الى البلاد الشرقية ، ورتب الامير جمال الدين اقوش الافرم في نيابة السلطنة بدمشق ، وأقر سنقر في نيابة السلطنة بحلب ، وقطلوبك في نيابة السلطنة بالساحل والحصون ، والامير كتبغا زين الدين المنصوري بحماة . وسار جمال الدين اقوش الافرم من دمشق وصحبته من الرجاله والفلاحين جمع كثير الى جبال كسروان لقتال أهلها عقوبة لهم عما قدمت أيديهم مما كانوا فعلوه مع المسلمين واخذ عُددهم ، فدخل الكسروانيون تحت الطاعة وقرر عليهم جملة مستكثرة من المال فالتزموا به وحملوه وأقطعت بلادهم وأراضيهم .

وكان الارمن في السنة الماضية لما وصل غازان بجموع المغول الى الشام طمعوا في البلاد التي افنتحها المسلمون منهم وعجز المسلمون عن حفظها ، فتركها الذين بها من العسكر والرجال فاستولى الارمن عليها ، ولم يبق مع المسلمين من تلك القلاع غير قلعة حجر شغلان ، واستولى الارمن على غيرها من الحصون والبلاد التي كانت جنوبي نهر جيحان ، فجردت مصر والشام في السنة التالية عسكراً الى بلاد سويس ونهبت وخربت . وعاد المغول فجرد صاحبهم غازان (٧٠٠) مرة ثانية عسكراً على الشام بدعوى ان عساكر صاحب مصر والشام أغارت على ماردن وبلادها فطرفت البلاد على حين غفلة من أهلها وهتكوا المحارم فأناه أهل ماردن وبلادها مستصرخين ملهوفين فحركته الحمية الاسلامية — وكان دان بالاسلام حديثاً — فلاقى العسكر وفرّق شملهم ، وان سبب رحيله المرة الاولى عن الشام ان الرعية تضررت بمقامه لكثرة جيوشه ومشاركتهم الرعية في الشراب والطعام فرحل وترك عندهم من يجرسهم من تعدي بعضهم على بعض ويحفظ الشام من أعدائه المتقدمين واكراده المتمردين .

ولما عبر الفرات في المرة الثانية جفل الناس من المغول ودخلوا بلاد حلب وعاثوا في ارجائها ، وسار نائب السلطنة بحلب الى حماة ووصلت العساكر من دمشق واجتمعوا بظاهر حماة وأقام المغول ببلاد سرمين والمعرة وتيزين والعمق وجبال انطاكية وجبل السماق ينهبون ويقتلون ، وسار السلطان من مصر بالعساكر المصرية ووصل الى نهر العوجا فلم يمكنه اطراد السير لكثرة الامطار والاحوال فرجع الى مصر ، واقام المغول ينتقلون في بلاد حلب نحو ثلاثة اشهر ثم عادوا الى بلادهم . والمغول هم والبنار

شيء واحد والشار صنف من أم المغول . فقول المؤرخين المغول أو الشار من الالفاظ المترادفة تقريباً .

وفي سنة ٧٠٢ فتحت جزيرة أرواد قبالة أنطرحوس وهي ليعقوب الطرطوسي وكان اجتمع فيها جمع كثير من الفرنج وبنوا فيها سوراً وتحصنوا وكانوا يظلمون منها ويقطعون الطريق على المسلمين المترددين في ذلك الساحل وكان النائب على الساحل اذ ذاك سيف الدين اسندمر الكرجي فسأل ارسال اسطول من مصر فصار اليها وجرى بين الفرنج والمسلمين قتال شديد انتصر فيه المسلمون وملكوا الجزيرة وقتلوا وأسروا جميع أهلها وخربوا أسوارها وكانت القتلى نحواً من الذين والأسرى نحو خمسمائة . وفي هذه السنة نزلت الفرنج على نهر الدامور بين صيدا وبيروت ورفعت الشكايات الى نائب دمشق الافرم في الجرددين والكسروانيين — وكانوا أعواناً للفرنج والحكومة في دمشق تعمل جهدها لمنع الفرنج عن الاجتماع باهل كسروان — فشدت جيوش الشام لمقاتلتهم وكانت الواقعة على ما روى ابن القلاعي عند مدينة جبيل فحمل الكسروانيون على الجيش الشامي فقتلوا اكثره وغنموا أمتعتهم وسلاحهم واخذوا اربعة آلاف رأس من خيلهم وقدمت الاكراد لنجدتهم ، فصددهم كمينان في الفدار والمدفور فلم يخلص منهم الا القليل وخربوا بعض بلاد الغرب ، وكان امراء الغرب الننوخيون مع جيش دمشق فعاد الجردديون فغزوا عين صوفر وشليخ وعينز بتونة وبحطوش وغيرها . ويقول صالح بن يحيى : ان السبب في قتالهم ان الهاربين من وجه النار من العسكر نفرقوا (٦٩٩) في البلاد فحصل لهم اذية من المفسدين وخصوصاً من أهل كسروان وجزين واكثرهم اذية للهاربين أهل كسروان فانهم بلغوا الى ان أسكوا بعضاً منهم وباعوهم للفرنج واما السلب والقتل فكان كثيراً الى ان عاملت الدولة الكسروانيين بما تقدم . وفي هذه السنة عادت النار قصد الشام وساروا الى الفرات وأقاموا عليها مدة في أزوارها وسارت منهم طائفة تقدير عشرة آلاف فارس وكانوا كلهم نحواً من خمسين ألفاً عليهم خطوشاه نائب غازان واغاروا على القرى تبين وتلك الارحاء ، وكانت العساكر قد تجمعت في حماة بقيادة اسندمر الكرجي نائب السلطنة بالساحل بمعاونة عسكر حلب وحماة فاقتتلوا مع النار في موقع يقال له الكوم قريب من

عرض بين تدمير والرتصافة فانهزم النار وقتلوا عن آخرهم ، وكان المسلمون الفأ وخسمائة فارس والنار ثلاثة اضعافهم وهم الطائفة التي كانت وصلت الى القريةين ونهبت التركان .

ثم سار النار بجمعهم العظيمة صحبة قطلوشاه نائب غازان بعد كسرتهم على الكوم ووصلوا الى حماة فاندفعت العساكر الذين كانوا بها بين ايديهم واجتمعت عساكر مصر والشام في دمشق بمرج الزنبقية ظاهر دمشق ثم ساروا الى مرج الصفر لما فاربههم النار وبقي العسكر منظرين وصول الملك الناصر وسارت النار وعبروا على دمشق طالبين العسكر ووصلوا اليهم عند شحج بطرف مرج الصفر فالتقى الفريقان واشتد القتال فانهزم التتار ولحق المسلمون اثر المنهزمين الى القريةين يقتلون فيهم ويأسرون ، ووصل التتار الى الفرات وهو في قوة زيادته فلم يقدرروا على العبور والذي عبر فيها هلك ، فساروا على جانبها الى بغداد فانقطع اكثرهم على شاطئ الفرات ، واخذ العرب منهم جماعة كثيرة ورجع غازان من حلب في خيق صدر من كسرة اصحابه وتمزقهم بعد المسافة وتحطف اهل الحصون لهم . قال شرف الدين الوحيد في انتصار التتار مرة وكسرتهم تارة أخرى :

وجاءت ملوك المغل كالرمل كثرة وقد ملكت سهل البسيطة والوعرا
فأنصفت الايام في الحكم بيننا فكانت له الاولى وكانت لنا الاخرى

غزوة الارمن والكسروانيين } ولما ارتاح ذهن صاحب مصر والشام من
وتزعزع السلطنة } النار عاد فجرد عسكراً من مصر وحماة وحلب
(٧٠٣) ودخلوا بلاد سبس وحاصروا تل حمدون وفتحوها بالامان وارتجعوها من الارمن
وهدموها الى الارض . وكان من نتائج معاونة النبوخيين في غرب لبنان لجيش دمشق
على قتال الكسروانيين ان تأصلت العداوة بين الفريقين حتى اذا كانت سنة ٧٠٤
ارسل اقوش الافرم نائب دمشق الى الجبايين والكسروانيين الشريف زين الدين
عدنان ، يأمرهم ان يصلحوا شؤونهم مع النبوخية ويدخلوا في طاعتهم ، ثم ارسل اليهم
ابن تيمية في صحبة بهاء الدين قراقوش فلم يحصل اتفاق ، فافتي العلماء حينئذ بنهب

بلادهم بسبب استمرارهم على العصيان وابائهم الدخول في الطاعة ، ولذلك جردت
العساكر من جميع بلاد الشام ولم تنزل نزداً الى سلخ هذه السنة . وقال سيف
الدر المنظوم ان اقوش المذكور فتح كسروان من جهتها الشمالية ولذلك دعيت فتوحاً
وقال آخر : ان الافرم جمع رجال الدروز (٧٠٦) وكانوا عشرة امراء بعشرة آلاف
مقاتل والفتت الجموع عند عين صوف وجري بينهم قتال عظيم وكانت الدائرة على
الامراء فهربوا بجرمهم واولادهم واموالهم ونحو ثلاثمائة نفس من رجالهم واجتمعوا في
الغار غربي كسروان المعروف بغار تهبية فوق انطلياس بالغرب من مغارة البلانة
فدافعوا عن انفسهم ولم يقدر الجيش ان ينال منهم . ثم بذلوا لهم الامان فلم يخرجوا فامر
نائب دمشق ان يبنوا على الغار سداً من الحجر والكس وهالوا عليه تلاً من التراب
وجعلوا الامير قطلوبك حارساً عليهم مدة اربعين يوماً حتى هلكوا داخل الغار ، ثم احاط
العسكر بتلك الجبال ووطئوا ارضاً لم يكن اهلها يظنون ان احداً من خلق الله يصل
اليها ، فحربوا القرى وقطعوا الكروم وهدموا البيع وقتلوا واسروا جميع من صادفوا
من الدروز والكسروانيين وغيرهم فذلت تلك الجبال المنيعه بعد عزتها .

وكل حصن وان طالت اقامته على دعائه لا بدَّ مهذوم

ويقول مؤرخو لبنان : ان الافرم في هذه الحملة كان في خمسين الف فارس
وراجل . ويقول ابو النداء وابن الوردي : ان هذه الحملة كانت على بلاد الظنبيين^(١)
وغيرهم من المارقين عن الطاعة وكانوا يتخطفون المسلمين ويبيعونهم من اعدائهم ويقطعون
الطرق . وفي تاريخ بيروت ان سيف الدين اسند^٢ مر نائب طرابلس كان نسب
الى مباطنة الكسروانيين فالحش فيهم القتل لينفي عنه هذه التهمة اللاحقة به
وان الكسروانيين بادوا ونفروا في البلاد واقطع هذا النائب بعضهم املاً كاً من حلقة
طرابلس وجازى بعضهم بالرواتب .

وفي سنة ٧٠٥ ارسل نائب السلطنة بحلب مع قشمر مملوكه في عسكر حلب
الاغارة على بلاد سيس ايضاً ، وكان ضعيف العقل قليل التدبير ، ففرط في حفظ العسكر

(١) جبال الظنبيين علي ما في تاريخ بيروت هو الجبل الذي يعرف اليوم بجبل

الضنية قرب عكار .

ولم يكشف اخبار العدو واستهان بهم ، فجمع صاحب سيس جموعاً كثيرة من الثار وانضمت اليهم الارمن والفرنج ووصلوا على غرة الى قشمر فالتقوا بالقرب من اياس فلم يكن للحلبين قدرة بن جاءهم فتولوا يتدرون الطريق . وتمكنت الثار والارمن منهم فقتلوا واسروا غالبهم واخفى من سلم في تلك الجبال .

ولم يحدث بعد ذلك من الكوائن المهمة شي . يستحق التدوين حتى سنة ٧٠٨ وقد خرج السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون من مصر يظهر التوجه الى الحجاز ، فلما وصل الى الكرك امر الامراء الذين حضروا في خدمته بالمسير الى الديار المصرية واعلمهم انه جعل السفر الى الحجاز وسيلة الى المقام بالكرك . وكان سبب ذلك استيلاء سلاز وبهرس الجاشنكير على المملكة واستبدادهما بالامور وتجاوزا الحد في الانفراد بالاموال والامر والنهي ، ولم يترك له غير الاسم فاشتور الامراء فيما بينهم وانفقوا على ان تكون السلطنة لبهرس الجاشنكير فجلس على سرير السلطنة على ان يكون سلاز مستمراً على نيابتها .

وفي السنة التالية سار جماعة من المماليك على حمية من الديار المصرية مفارقين طاعة بهبرس الجاشنكير الملقب بالملك المظفر ، ووصلوا الى السلطان بالكرك واعلموه بما الناس عليه من طاعته ومحبة ، فاعاد السلطان خطبته بالكرك ووصلت اليه مكاتبات عسكر دمشق يستدعونهم وانهم باقون على طاعته ، وكذلك وصلت اليه المكاتبات من حلب ثم جاء من الكرك الى حمان وهي قرية قريبة من رأس الماء وعاد فرجع الى الكرك واستمرت العساكر على طاعته وانحلت دولة بهبرس الجاشنكير وجاهره الناس بالخلاف بعد ان ساعفته الايام ولم يهم الا انه سيتجونه الاقدار ولا تظني ان ما بناه على شفا جرف هار .

ولما تحقق الملك الناصر صدق طاعة العساكر الشامية وبقاءهم على طاعته وولائه عاود المسير الى دمشق فسار الى البرج الابيض من اعمال البلقاء ، فاظاعه جند دمشق وجند حماة والساحل ، وطلب نائب السلطنة الافرم الامان فأمنه ، ولما تكاملت العساكر الشامية عند السلطان بدمشق سار الى مصر وبلغ بهبرس الجاشنكير ونائبه ذلك فجردا عسكراً ضخماً اقاموا في الصالحية بطريق مصر . ولما وصل السلطان الى

غزة قدم الى طاعته عسكر مصر اولاً فأولاً ثم تابعت الأطلاب والكتائب ، وبويع له بالسلطنة للمرة الثالثة ولما تحقق بعبس الجاشنكير ذلك خلع نفسه من السلطنة وطلب الامان واعطاه السلطان صهيون ومئة مملوك ثم قبض وقتل . وكذلك فعل بسلاز واكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع .

وفي سنة ٧٠٩ وقعت فتنه في حوران بين اليمينية والقيسية وحشدوا وبلغت المقتلة الف نفس وكانت بقرب السويداء وفي سنة ٧١٠ اقام السلطان ملكاً على حماة اسماعيل بن علي الملقب بابي الفداء وهو آخر من بقي من سلالة الملوك الاقدمين في الشام . ولولا حسن سياسة ابي الفداء ما وصل الى هذا المنصب لان الدور اصبح دور الممالك والغرباء عن البلاد وجميع مواطن النيابة اصبح فيها ممالك السلطان او ممالك والده او ممالك ممالك والده ، وجميعهم مرتبون من الابواب الشريفة . ولم يكن كل ملك او قيل من هؤلاء الملوك والاقبال حراً بمملكته كما زعم بعضهم ، بل كانوا حتى من تسلسل فيهم الملك في بلدان صغيرة من الشام اشبه باصحاب اقطاعات لا يزالون في حربهم وسلمهم تحت امر السلطان . واذا شذ في الاحابن بعضهم وعدوا على سلطانهم فانهم لم يخرجوا عن كونهم ولاية او عمالاً خرجوا على السلطان ليس الا .

الغزوات في الشمال) وفي سنة ٧١١ قصد قراسنقر كبير الامراء في حلب وظهور دعوة جديدة) امير العرب مهنا بن عيسى وكان على مسيرة يومين من حلب يستنصره ، وكان في ثمانمائة مملوك ، على الملك وكان يريد أن يبطش به . فركب مهنا فمين اطاعه من أهله ، واستنفر من العرب نحو خمسة وعشرين ألفاً ، وقصدوا حلب وأحرقوا باب قلعتها وتغلبوا عليها ، واستخلصوا منها مال قراسنقر ومن بقي من أهله ولم يتعدوا الى سوى ذلك ودخلت سنة ٧١٥ فارسل السلطان محمد بن قلاوون عساكر الشام ومصر الى ملطية ففتحوها ، وسبب ذلك أن حكومتها كانت تعتدي على ابناء السبيل ومن جاورها من سكان القلاع ، وان المسلمين كانوا بها يختلطون بالنصارى حتى انهم زوجوا النصراني بالمسلمة وثبت أنهم كانوا يطلعون التتار والارمن على اخبار المسلمين ، ثم رجع الجيش الي مرج دابق قرب حلب ، وترددت الرسل الي

صاحب بلاد سويس الارمني في اعادة البلاد التي جنوبي جيحان وزيادة القطيعة اي الاتاوة فزادت حتى جعلها نحو الف الف درهم . وصدر امر السلطان بان لا تكون بحماة وبلادها حماية للدعوة الاسماعيلية أهل مصياف ، بل يتساوون مع رعية حماة في اداء الحقوق والضرائب الديوانية وغير ذلك .

وأغار سليمان بن مهنا بن عيسى بجماعة من التتار والعرب على التراكمين والعرب النازلين قريب تدمر ونهبهم ووصل في اغارته الى قرب البهضاء بين القريتين وتدمر وعاد بما غنمه الى الشرق . وجيز نائب السلطنة (٧١٧) بحلب عدة كثيرة من عسكر حلب وغيرهم من التراكمين والعربان والطباعة ما يزيد على عشرة آلاف فارس فساروا الى آمد وبغتها ونهبوا أهلها المسلمين والنصارى . وبالغوا في النهب الحرام فخلت آمد من أهلها . وظهر في جبال بلاطنس من عمل اللاذقية انسان من النصيرية وادعى انه محمد بن الحسن العسكري ثاني عشر الأئمة عند الامامية ، وقيل زعم تارة انه المهدي المنتظر وأخرى انه علي بن ابي طالب وطوراً انه محمد المصطفى وان الامة كفرة . فتبعه خلق من النصيرية نحو ثلاثة آلاف ، وهجم مدينة جبلة والناس في صلاة الجمعة فنهب أموال أهل جبلة ، وجرد اليه عسكر من طرابلس فلما قاربوه تفرق جمعه وهرب واخفى في تلك الجبال فتبع وقتل وباد جمعه ولم يعد لهم ذكر ، بعد ان قتل مائة وعشرون رجلاً من رجاله .

وفي سنة ٧٢٠ تقدمت مراسيم السلطان باغارة العساكر على بلاد سويس فسار الجند الشامي من الساحل ودمشق وحماة وحلب فنازلوا قلعة سويس حتى بلغوا السور ، وغنموا منها وأتلفوا البلاد والزرعات وساقوا المواشي ونهبوا وخرّبوا . وسار جمع عظيم من العساكر الشامية والعرب في أثر آل عيسى ، وكانت منازلهم في سلمية ، حتى وصلوا الى الرحبة فعانة فهرب آل عيسى الى ما وراء الكبيسات ، وأقام السلطان موضع مهنا محمد بن ابي بكر بن علي بن حديثه بن عصبة ثم رضي السلطان (٧٢٢) على الامير فضل بن عيسى وأقره على إمرة العرب . وضع محمد بن ابي بكر أمير آل عيسى . وجردت بعض العساكر المصرية والشامية والساحلية الى بلاد سويس ونازلوا اياها

فهربت الارمن منها واخلوها والقوا النار فيها فملكها المسلمون وخرّبوا ما قدروا على هدمه وعاد كل عسكر الى بلده .

وفي سنة ٧٣٢ مات الملك المؤيد اسماعيل بن علي صاحب حماة وكان سلطان مصر يحبه ويستدعيه كل سنة لزيارته ومرافقته في صيوده وبنعم عليه حتى سلطانه سنة ٧٢٠ لكثرة ما شاهد من علمه وحسن سياسته ، اي انه ارسل اليه شعار السلطنة ، وكانت مؤلفاً عظيماً وعالماً مفضلاً على العلماء . قال ابن الوردي : ولقد رأيت جماعة من ذوي الفضل يزعمون انه ليس في الملوك بعد المأمون افضل منه ، وتملك حماة ابنه الملك الافضل ناصر الدين محمد .

وهذه الأحوال في هذه الحقبة في البلاد ولم يحدث سوى امور طفيفة مثل قدوم مراكب فرنج جنوية (٧٣٤) الى بيروت ، قاتلوا اهلها يومين ودخلوا البرج واخذوا الاعلام السلطانية والمراكب . وكان السلطان يعقل بعض الخوارج عليه او من يرى في سيرهم ما يدعو الى الشبهة ثم يظلمهم وبنعم عليهم ، وربما اخر اهلك من يخافهم على السلطنة مثل نكز نائب الشام عشر سنين ثم قتله وكان قتل خلاقاً فارتاحت البلاد ، وما كانت افكار السلطنة موجهة الا الى قتال الارمن مخافة ان يستطيعوهم ، فكانوا يغزون كل مرة وآخر ما نالهم من غزوة المسلمين غزوة عسكر حلب (٧٣٥) ، وكان الارمن ملكوا مدينة سبس وطرّدوا من كان بها من المسلمين ، فغربوا في بلد أذنة وطرسوس وأحرقوا الزروع واستاقوا المواشي وغنموا وأسروا ، وما عدم سوى شخص واحد غرق في النهر ، وكان العسكر عشرة آلاف سوى من تبعهم ، فلما علم أهل اياس بذلك أحاطوا بمن عندهم من المسلمين التجار وغيرهم وحبسوهم في خان ثم أحرقوه وقلّ من نجا ، فعلوا ذلك بنحو الذي فعل من التجار والبغادة وغيرهم . وبعد مدة سار العسكر من مصر والشام بقيادة ملك الامراء يجلب علاء الدين الطنباغا الى بلاد الارمن (٧٣٧) ونزلوا على مينا اياس وحاصروها ثلاثة ايام ثم قدم رسول الارمن من دمشق ومعه كتاب نائب الشام بالكشف عنهم على ان يسلموا البلاد والقلاع التي شرقي نهر جيحان ، فتسلموا ذلك منهم وهو ملك كبير وبلاد كثيرة كالمصيصة وكويرا والهارونية وسرفندكار وایاس وباناس ونهيمية والنقير وغير ذلك ،

نحرب المسلمون برج اياس الذي في البحر . قال ابن الوردي : وهذا فتح اشمل على فتوح وترك ملك الارمن جسداً بلا روح .

سياسة المماليك مع اكبر عمالهم وفاء الناصر وتولي المنصور
 كانت حكومة المماليك تكثر من نصب الولاة وعزلهم ولا سيما في دمشق ، فتولي في كل وقت نائباً جديداً وربما في كل شهر ولم تطل مدة واحد من الولاة كما طالت نيابة انكر فان ولايته دامت من سنة ٧١٢ الى ٧٤٠ قال الكتبي : وهابه الامراء بدمشق ونواب الشام وأمن الرعايا ، ولم يكن احد من الامراء ولا ارباب الجاه بقدر ان يظلم احداً آدمياً او غيره خوفاً من بطشه وشدة ايقاعه . قال : وكان الناس في ايامه آمنين على أموالهم ووظائفهم . وهو صاحب الابنية العظيمة في دمشق وغيرها من بلاد الشام وكان ممن ينشط الزراعة . ولما اخذه ملك مصر وقتله في الاسكندرية تأسف عليه أهل دمشق .

ونوفي السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤١ بعد ان خطب له ببغداد والعراق وديار بكر والموصل والروم ، وضرب الدينار والدرهم هناك باسمه كما يضرب له بالشام ومصر ، وتألم الناس افقده لانه أبطل المكوس وعمر البلاد وانشأ جوامع ومدارس وكانت ايامه ايام أمن وسكينة ، فتولي الملك بعده ابنه السلطان الملك المنصور ابو بكر وكان تسلمن قبل موت والده . وملك الناصر محمد ابن قلاوون ثلاث مرات مدتها ثلاث واربعون سنة وتسعة أشهر وسبعة عشر يوماً ، تملك المرة الاولى بعد وفاة اخيه الاشرف سنة كاملة ، والمرة الثانية بعد قتل لاجين ، ومدة ملكه ثمانية عشر سنين وستة شهور واثنا عشر يوماً ، والدولة الثالثة أقام بها ثلثين وثلاثين سنة وثلاثة شهور وخمسة ايام ، وكانت في الثالثة حاكماً متصرفاً ليس له منازع ولا معترض ولا من يخالف امره بخلاف المدتين الأوليين . وشأن قلاوون قليل في الملوك ، لانه ندر من يتخلى او يخلع من الملوك ان يعود الى دست السلطنة مرة ثانية فكيف بثلاث مرات . ومن غريب ما وقع له ايضاً انه تسلمن ثمانية من أولاده لصلبه ، وهذا مما بعد في باب سعادة آل قلاوون .

وفي سنة ٧٤١ فتح الأمير علاء الدين ايدغدي الزراق ومعه بعض عسكر حلب قلعة خندروس من الروم ، وكانت عاصمة وبيها أرمن وثار يقطعون الطرقات ، وفي السنة التالية (٧٤٢) بايع السلطان الملك المنصور ابو بكر الخليفة الحاكم بامر الله ابا العباس احمد بن المستكني بالله ابي الربيع سليمان وكان قد عهد اليه والده بالخلافة فلم يبايع في حياة الناصر فلما ولي المنصور ببايعه بمصر وجلس معه على كرسي الملك وبايعه القضاة وغيرهم ، وكان الخليفة من اولاد العباس يقيم في مصر كعامل كبير محترم من عمال السلطنة ويباع السلطان عند جلوسه .

<p>خلع السلطان الملك المنصور ابو بكر فاحتج عليه قوصون الناصري ولي نعمة ابيه بحجج ونسب اليه اموراً ، فأخرجه الى قوص فقتله</p>	}	<p>خلع الملك المنصور ومقتل غير واحد من اخوته الذين خلفوه</p>
--	---	--

واليها ، وأقام في الملك اخاه الملك الأشرف بكك وهو ابن ثمان سنين . اي ان الخوارج على السلطنة بعد ان سكنوا بحسن سياسة الملك الناصر محمد بن قلاوون مدة بعد خلع نفسه ومكثه في الكرك حتى رجع الى السلطنة بعد ان اطاعه عسكر الشام ومصر ، عادوا يبدون نواجد الشر ويقتلون ملكهم ، وقتل الملوك من أشام ضروب الخراب في الممالك ، فقتل الملك الجديد ونصب اخوه الصبي ليكون الحكم لقوصون الناصري كما وقع ذلك في أدوار مختلفة ، ثم أرسل قوصون مع الأمير قطبغا الفخري الناصري عسكراً لحصار السلطان احمد بن الملك الناصر بالكرك ، وسار الطنبغا نائب دمشق والحاج ارقطاي نائب طرابلس باشارة قوصون الى قتال طشمر بحلب ، لان هذا انكر على قوصون ما اعتمده في حق أخيه المنصور ابو بكر ، ونهب الطنبغا بحلب مال طشمر وهرب هذا الى الروم ، واستمال الملك الناصر في الكرك قطبغا الفخري وكان ذهب لقتاله وحاصره اياماً بامر قوصون من مصر فبايعه وبايع للناصر من بقي من عسكر دمشق المتأخرين عن المضي الى حلب صحبة الطنبغا ، ثم سار الفخري الى ثنية العقاب واخذ من مخزن الايتام بدمشق مالا ، ولما بلغ الطنبغا ما جرى بدمشق رجع على عقبه فأرسل اليه الفخري لما قرب من دمشق القضاة ،

وطالب الكف عن القتال فبقيت نفس الطنبغا وابى ذلك ، وطال الامر على العسكر فلما تقاربوا بعضهم من بعض لحقت ميسرة الطنبغا بالفخري ثم الميمنة وبقي الطنبغا وجماعته في قليل من العسكر ، فهرب الطنبغا ومن معه من القواد الى جهة مصر ، فجز الفخري وأعلم الناصر بالكرك وقد خطب له بدمشق وغزة والقدس فلما وصل الطنبغا الى مصر ، وهو قوي النفس بقوصون تغير امر قوصون . وكان قد طلب على الامر لصغر الملك الاشرف ، ثم قبض جماعة الامراء على قوصون وأرسلوه الى الاسكندرية وأدلك بها ، وقبضوا على الطنبغا وحبسوه ، وسافر الملك الناصر احمد من الكرك وعمل أعزية لوالده واخيه ، وامر بتسمير والي قوص لقتله المنصور وخلف الاشرف الصغير ، وجلس الناصر على الكرمي هو والخليفة ثم أعدم الطنبغا وغيره ، وتواتر عزل الولاة والنواب بحلب ، جرى كل هذا في مدة يسيرة . وجرى في هذه السنة (٧٤٢) من تقلبات الملوك والنواب واضطرابهم ما لم يجر في مئاة من السنين على رأي ابن الوردي .

ولم يصف جو السلطنة للملك الناصر احمد في مصر وسافر الى الكرك وحصنها واتخذها مقاما له ولما حصل بها وقتل بها طشمر والفخري قتلة شنيعة (٧٤٣) انقلب عليه عسكر الشام وهو بالكرك وكاتبوا مصر فبلغ الناصر واجلس اخوه السلطان الملك الصالح اسماعيل ، واستناب آل ملك وحصر السلطان الملك الناصر بالكرك واجتمع عليه اخوه الملك الصالح بما اخذه من اموال بيت المال ، وخرج الامير ركن الدين بپرس الاحمدي من مصر بعسكر لحصار الكرك وكذلك من دمشق ، فحاصروا الناصر بالكرك وذكر المؤرخون انه وردت المراسيم الى جميع ولايات الاعمال الشامية بتجريد العشران وغيرهم الى الكرك ، فذهبوا اليها سنة ٧٤٣ ووجدوا في القلعة مع السلطان احمد خلقا كثيرا ، وقد نصبوا على القاعة في اعلاها خمسة مناجيق ومدافع كثيرة ، ونصب المحاصرون على باب القلعة منجنيقا يرمي بحجارة وزنها خمسة وثلاثون رطلا وخرجت السنة ولم يحصل فيها شيء يذكر وانار التركمان مرات على بلاد سويس فقتلوا ونهبوا واسروا وشفوا الغليل بما فتكت الارمن ببلاد قرمان ، وعاد العسكر (٧٤٤) المحييز الى بلاد سويس وما ظفروا بطائل ، وكانوا قد اشرفوا على اخذ اذنة وفيها خلق

عظيم واموال عظيمة وُجفال من الارمن فارتشى اقسنقر مقدم عسكر حلب من الارمن وثبط الجيش عن فتحها واحنّج بان السلطان مارسم باخذها . وحاصر يلبغا النائب بحلب زين الدين قراجا بن دلغادر التركماني بجبل عسر الى جانب جيجان فاعتصم منه بالجبل ، وقتل في العسكر واسر وجرح ، وما نالوا منه طائلا فكبر قدره بذلك واشتهر اسمه وعظم على الناس شره ، وكانت هذه حركة رديئة من يلبغا ثم اوقع دلغادر بالارمن وفتح قلعة كابان (٧٤٦) وبعد فتحها قصد النائب بحلب ان يستنيب فيها من جهة السلطان فعتا ابن دلغادر عن ذلك ، فجهزوا عسكراً لهدمها ثم اخذتها الارمن . وفي سنة ٧٤٥ حوصرت الكرك ونقبت ، وأخذ الملك الناصر احمد وحمل الى اخيه الملك الصالح بمصر فكان آخر العهد به ، وفي هذه السنة كانت الواقعة بين اهل البقاع ووادي التيم وقتل من الفريقين خلق كثير ، واحرق ابن صبح قرية من وادي التيم ، وانقطعت السبل لا سيما طريق الزبداني . وتوفي الملك الصالح اسمعيل بن الملك الناصر محمد بن قلاوون (٧٤٦) وجلس مكانه اخوه السلطان الملك الكامل شعبان . وفي سنة ٧٤٧ خرج نائب الشام يلبغا الى ظاهر دمشق خوفاً من القبض عليه وشق عصا الطاعة وعاضد امراء مصر حتى خلع السلطان الملك الكامل شعبان واجلسوا مكانه اخاه الملك المظفر امير حاج ، وسلموا اليه اخاه الملك الكامل فكان آخر العهد به ، وكان هذا الملك الكامل شعبان سيئ التصرف يولي المناصب غير اهلها بالبذل ويعزلهم عن قريب ببذل غيرهم ، وكان يقول عن نفسه انا شعبان لاشعبان .

وفي سنة ٧٤٨ سافر الامير ناصر الدين بن الحسيني بعسكر من حلب لتسكين فزنة ببلاد شيراز بين العرب والاكراذ قتل فيها من الاكراذ نحو خمسمائة نفس . وفيها عزمت الارمن على نكبة اياس ، فافزع بهم امير اياس حسام الدين محمد بن داود الشيباني ، وقتل من الارمن خلقاً واسر خلقاً ، واحضرت الرؤوس والاسرى الى حلب واقتل سيف الدين بن فضل امير العرب واتباعه مع احمد فياض من الامراء في جمع عظيم قرب سلمية فانكسر سيف ونهبت امواله وجرى على المعرة وحماة وغيرهما من العرب اصحاب سيف واهم فياض من النهب وقطع الطرق مالا يوصف وكانت هذه الحرب ضربة قاضية على بادية حماة فطفق البدو ينهبون القرى ويغيرون على حماة

والمعرة ففر الفلاحون ودرست القرى . وفي هذه السنة قتل السلطان الملك المظفر امير حاج ابن الملك الناصر بن قلاوون بمصر واقيم مكانه اخوه السلطان الملك الناصر حسن ، وكان الملك المظفر قد ادلك اخاه الاشرف بكك وفتك بالامراء وقتل من اعيانهم نحو اربعين اميراً .

احداث وكوائن وعصيان
ومخامرات
ومن الاحداث ان نائب الشام يلبيغا اليحياءى
هرب فتبعه جماعة من عسكر دمشق فقتل معهم
فقتل فقطعوا رأسه وحملوه الى السلطان بمصر . وفي سنة ٧٥٠ دخل الامير جبغا
نائب طرابلس مدينة دمشق في جماعة كثيرة من عسكر طرابلس ، وكان ارغون شاه
نائب الشام مقيماً بالقصر الابلق فدخل عليه الامير جبغا وهو نائم بين عياله وقبضه ،
فلما اصبح الصباح طلب الامير جبغا القضاة والامراء بدمشق واخرج لهم مرسوم
السلطان بالقبض على ارغون شاه فسكن ما كان بين الناس من الاضطراب ، وظنوا
ان ذلك صحيح فسجنه واحتاط على موجوده ، ثم وجدوا ارغون شاه مذبحاً في السجن
ففشا الكلام بين الناس بان ذلك من فعل الامير جبغا فوثب عليه عسكر دمشق
وحاربوه فهرب جبغا الى المزة فلم يتبعه احد من العسكر وخافوا عقبي ذلك ،
وكاتب امراء دمشق السلطان بما وقع من الامير جبغا فانكر ما وقع لارغون
شاه ، ورسم لامراء دمشق ان يحاربوا الامير جبغا فخرج عليه عسكر دمشق قاطبة ،
وحاربوه وهو في طرابلس فانكسر جبغا وقبضوا عليه وشنقوه .

وفي سنة ٧٥١ اثار شخص من النار اسمه هندو على مدينة سنجار وملكها ، فارسل
سلطان مصر والشام له تجريدة فحاصروه فطلب الامان ثم رحل عن سنجار . وفي سنة
٧٥٤ قدمت على رواية ابن سباط مراكب الفرنج الى صيدا فقتلوا طائفة من اهلها
واسروا جماعة وقتل منهم خلق كثير وكسر مركب من مراكبهم ، فوصل الصريح
الى دمشق ، فاجتمعت العساكر من صفد ودمشق واسرعوا الى فك الاسرى ، واخذوا
من ديوان الاسرى ثلاثين الفاً واعطوا عن كل رأس خمسمائة درهم .
وان الخلل الذي طرأ على السلطنة بمصر بعد ذهاب عظماء السلاطين من اولاد

فلاوون وسرعة قتلهم واستخلاف غيرهم من الممالك ، قد سرى من شرارته شيء كثير في هذه الحقبة من الزمن ، ومسألة اليحياء مع أرغون شاه مثال منها . ومن أمثلة الخلل في تلك الدولة خروج بيغا اروس نائب حلب عن الطاعة واطهاره العصيان للسلطان ، وكذلك الامير بكش نائب طرابلس ، والامير احمد نائب حماة ، والامير الطينغا يرقاق نائب صفد ، ولم يبق على الطاعة الا نائب دمشق الامير أرغون الكاملي ، فأرسل يخبر السلطان في مصر بما قد جرى من النواب ، ثم اضطر نائب الشام لما رأى عين الغلبة الى الهرب تحت الليل هو ومماليكه وتوجه الى نحو غزة ، فأقام يعلم السلطان والامراء بما جرى ، والنف على الامير بيغا اروس العربات والعشائر مع العساكر الحلبية والشامية وكان معه نحو ستين اميراً لما فتح دمشق واستعرض العساكر بها ثم أرسل الى نائب قلعة دمشق بطلب منه اطلاق امير كان مسجوناً فيها فاعتذر عن ذلك الا بمرسوم السلطان ، وحصن القلعة تحصيناً عظيماً وركب عليها المكاحل بالمدافع وأرسل يقول لاهل المدينة لا تفتحوا دكاناً ولا سوقاً ولا تبيعوا عسكر حلب شيئاً ، فلما بلغ الامير بيغا اروس ذلك اشتد به الغضب ، وأمر عسكره بان يذهبوا ضياع دمشق واليساتين ويقطعوا الاشجار ، فلما سمعوا هذه المناداة ما أقبوا ممكناً من الاذى والفساد ، فذهبوا حتى النساء والبنسات والقماش ، وجرى على أهل دمشق من بيغا اروس ما لم يحجر عليهم من عسكر غازان لما دخل دمشق .

ثم ان سلطان مصر جهز عسكراً عظيماً وجعل عليهم من امراء الطبليخانات والعشراوات ^(١) نحو ثمانين اميراً وكان صحبته القضاة الاربعة والخليفة الامام احمد الحاكم بامر الله فأمر بقتال جماعة بيغا فانهمز هذا ولحق ببلاد التراكمة ، وجيء بجماعته في القيود يرسفون . ثم عاد السلطان الى مصر بعد ان عزل من عزل وولى

(١) الطبليخانات من الرتب العسكرية وظيفتها الضرب بالآلات الموسيقية وكان عدة من في باب السلطان منهم أربعين اميراً وبخدمة كل واحد منهم أربعون مملوكاً ولهم الطبول الصغار والزمارات والابواق - قال الظاهري : وبالطبليخانات من الكوسات (الطبول الصغيرة) التي تدق على باب السلطان أربعون حملاً وأربعة طبل دهل وأربعة زمور وعشرون نفيراً ولها مهتار وبها عدة خدام .

من ولى . والسلطان هذا هو الملك الصالح صلاح الدين صالح وهو العشرون من ملوك الترك واولادهم . والثامن من اولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون . ثم انت نائب حلب بيبغا ونائب طرابلس بكش ونائب حماة احمد الذين كانوا هربوا من بلاد السلطان الى بلاد التركات قطعوا رؤسهم وأرسلوها الى السلطان بمصر .

وخلع السلطان على الامير ارغون الكامي واستقر به نائب حلب عوضاً عن بيبغا اروس وجرد ارغون الى قراجا بن ذي القدر امير التركمان في مرعش وحواليها ، وكان ذنب قراجا انه وافق بيبغا اروس على العصيان فلما وصل اليه الامير ارغون هرب منه فتبعه الامير ارغون الى أطراف بلاد الروم فقبض عليه وارسله الى السلطان بمصر فسمره على جبل .

وفي سنة ٧٦٠ توجه الامير بهدمر الخوارزمي نائب حلب الى بلاد سيس وحاصر أهلها فطلبوا منه الامان فتسلمها وكذلك المصيصة ، وفتح في تلك السنة عدة قلاع ثم رجع الى حلب . وفي سنة ٧٦٢ أظير بهدمر الخوارزمي نائب الشام العصيان وملك قلعة دمشق وقتل نائب القلعة وقد وافقه على ذلك جماعة من النواب فاضطرب السلطان بمصر لهذه الاخبار ، وخرج قاصداً الشام ، ولما بلغ دمشق أرسل له أماناً فقبض عليه وقيده .

وفي سنة ٧٦٥ جاء الفرنج الى قلعة ايباس وحاصروها فخرج اليهم الامير منكلي بغا الشمسي نائب حلب وصحبته العساكر الحلبية ، فلما سمعوا به رحلوا عن قلعة ايباس ثم قصدوا نحو طرابلس وكانوا ثلاثة ملوك وهم صاحب قبرص وصاحب رودس وصاحب الاسبتار فجاءوا في مائتي مركب حربي الى طرابلس ، وكان النائب غائباً عنها فطمعوا في أخذها ثم خرج اليهم بعض عسكرها فوقعوا معهم فانكسر عسكر طرابلس ودخل الفرنج المدينة ونهبوا أسواقها وقتلوا بها جماعة من المسلمين نحو ألفي انسان فلما تسامع أهل البلاد بذلك جاؤا الى الفرنج وحاربوهم وقتلوا جماعة كثيرة منهم فانكسرت الفرنج كسرة قوية ورحلوا عن طرابلس .

وفي سنة ٧٦٧ عصا على السلطان نائب دمشق بهدمر واجتمع اليه مقدمو البلدان

وحضر اليه ابن اكلكش ومعه آلاف وقدم الزبداني ومعه الف نفس فأرسل السلطان اليه جيشاً وبعد حصار شهرين تسلم دمشق وقبض على النائب وقتله .
وفي سنة ٧٧١ وقع تشاجر بين الامير جبار من آل الفضل امير العرب وبين نائب حلب قشمر المنصوري فخرج اليه نائب حلب بالعساكر الحلبية فقاتل مع الامير جبار فقويت العربان على نائب حلب فقتل في المعركة .

مقتل الاشرف شعبان } وفي سنة ٧٧٨ قتل في القاهرة الملك الاشرف
والاحداث بعده } شعبان . قال ابن اياس : وكان من محاسن الزمان
في العدل والحلم وكان ملكاً هيناً ليناً محبباً للناس منقاداً للشريعة محسناً وكانت الدنيا
في أيامه دائدة من الفتن والتجار يد الى البلاد الشامية وفساد العرب وساس الناس
أحسن سياسة . وتولى الملك بعده ابنه الملك الصالح بن الحاج وله من العمر نحو
احدى عشرة سنة وهذا آخر من تولى السلطنة من ذرية بني قلاوون وبه زال
الملك عنهم وقد أقامت السلطنة في قلاوون وذريته مائة سنة وثلاث
سنين وأشهرأ .

وفي سنة ٧٧٣ شدد الامير سيف الدين منجك نائب الشام وكان تولاهما المرة
الثانية منذ سنة ٧٧٠ على أهل اللهم بدمشق وامر بقطع الاشجار والصفصاف الذي بين
النهرين وتخريب المكان الذي أحدث في الشرف الاعلى وأزال المنكرات من هذا
المكان ومن الذي فوق الجبهة ايضاً وهدم الابنية والخوانيت المستجدة هناك . قال ابن
طولون : انه فعل الخيرات وبنى المحطات في الدروب وبنى زاوية بالكسوة وعمل لها
سماطاً وعزل الطرقات وعدل في الرعايا . وفي السنة التالية أرسل الجاي اخاه طقتمر
الحسني الى دمشق لعرض الاجناد فيها فحصل اموالاً عظيمة ، حتى قيل ان الذي خصه
خمسون الف دينار ، وأخذ من ذخائر القلعة اشياء نفيسة وبالغ في الظلم ، فاستغاث
الناس الى منجك نائب الشام فكاتب فيه ثم توجه المذكور الى جهة حلب ففعل في
بقية البلاد أشد مما فعل بدمشق . قال ابن حجر : ولولا تلطف النائب وناظر الجيش
س لهلكوا معه .

وفي سنة ٧٧٦ خرج نائب حلب الى مدينة سيس هو والعساكر الحلبية وفتحها وكانت في أيدي الارمن . وفي سنة ٧٧٩ خامر جميع نواب البلاد الشامية وخرجوا عن الطاعة فساق مصر تجريدة عليهم . وفي سنة ٧٨٠ خرج نائب الشام يهدم الخوارزمي عن الطاعة وقصد الحرب الى بلاد التركمان ببركة ورجاله فقبضه عسكر دمشق وسجنوه بالقلعة فأرسل سلطان مصر واخذه منها وسجنه ثم اطلقه بعد ثلاث سنين وأعيد الى منصبه . وفي سنة ٧٨٠ نازل الفرنج طرابلس في عدة مراكب فالتقاهم بلبغا الناصري فيزيمهم ، ثم امر العسكر ان يتأخروا فطمع فيهم الفرنج وتبعوهم الى ان أبعدها عن البحر فرجع عليهم بالعسكر فهزيمهم وقتل منهم جمع كبير قبض على اكثرهم وأقلع من بقي في المراكب . وثار اقبغا عبد الله (٧٨١) وجماعة معه على نائب الشام وكان قد تجرد مع نائب حلب في عسكر البلدين بسبب التركمان فوقع بينهم وبين اقبغا المذكور ومن معه وقعة فكسروهم نائب الشام وهرب اقبغا الى نعيم امير عرب الفضل . وفي سنة ٧٨٣ نهبت طائفة من التركمان بعض ضياع حلب وعاثوا وافسدوا وعين لهم الانابك برقوق في مصر تجريدة وخرج اليهم ثلاثة من الامراء المقدمين وخمسمائة مملوك فالتقوا مع التركمان وكسروهم وقتلوا منهم جماعة كثيرة ونهبوا أموالهم وطردهم الى ملطية .

وفي سنة ٧٨٤ حضر الى القاهرة رسول صاحب سيس ومعه كتاب يخبر فيه بان الارمن الذين هناك مات كبيرهم فامروا عليهم زهجتة فحكمت فيهم مدة ثم عزلت نفسها ، فاتفق رأيهم ان يفوضوا امرهم لصاحب مصر فيختار لهم من يوليه عليهم ، فالتقى لهم برقوق واحداً من الارمن الاسارى الذين يسكنون ظاهر القاهرة ويبيعون هناك الخمر فاخذوه معهم فملكوه عليهم . وفي السنة التالية جاءت رسل صاحب سنجار ورسل صاحب قيسارية ورسل صاحب تكرت يسألون صاحب مصر ان يكونوا تحت حكمه ويخطبوا باسمه فاجيب سؤلهم وكتب لهم بذلك ثقايلد وخلص عليهم . وفي هاتين الواقعتين دليل على ان صاحب مصر والشام في تلك الفترة كان اقوى من جاوره من الملوك خطب وده الاتراك والاكراد والارمن من مجاوريه .

وفي سنة ٧٨٥ وقعت بين قبلاي نائب الكرك وخاطر امير العرب بها مقتلة عظيمة

فانكسر قبلاي وخلص خاطر ، وكان قبلاي امسكه قبل ذلك منهم ثم تحيل قبلاي على خاطر الى ان حضر عنده فذبجه وذبح ولديه غدرأ . وفيها نازل الفرنج بيروت في عشرين مركباً فراسلوا نائب الشام فتقاعده عنهم واعتل باحتياجه الى مرسوم السلطان فقام اينال اليوسفي فنادى الغزاة في سبيل الله ففر معه جماعة فحالب بين الفرنج وبين البحر وقتل بعضهم ونزل اليه بقية الفرنج فكسروهم وقبض من مراكبهم ستة عشر مركباً فسر المسلمون بذلك سروراً عظيماً ، وكان الفرنج دخلوا صيدا فوجدوا المسلمين قد بدأوا بهم فاحرزوا اموالهم واولادهم بقرية خلف الجبل فوجد الفرنج بعض امتعتهم فنهبوها واخذوا ما وجدوا من زيت وصابون واحرقوا السوق وقصدوا بيروت فتداركهم المسلمون ثم رحل النائب وانكسر الفرنج ثم عاد الفرنج الى مباحلة بيروت فتيقظ لهم اهلها فحاربوهم ونزل طائفة من الفرنج فوجدوا بالساحل خمسة عشر نفسا فقتلوهم ثم قتل من الفرنج جماعة .

وفي سنة ٧٨٥ وقعت فتنة بين نعيم بن مهنا امير العرب وابن عمه عثمان بن قارا ، فساعد يلبغا الناصري عثمان فكسر نعيم ونهبت امواله حتى قيل ان من جملة ما نهب له ثلاثون ألف بعير . وفيها سار يلبغا الناصري بالعساكر الحلبية وبعض الشامية الى جهة التركان ، فنازلوا احمد بن رمضان التركاني عند الجسر على الفرات فكسر التركان وأسر ابراهيم بن رمضان وابنه وابوه ، فوسطهم يلبغا الناصري ، ثم تجمع التركان وواقعوا الناصري عند اذنة فانكسر العسكر وقلعت عين الناصري وجرح ثم تراجع العسكر ولم يفقد منه الا العدد اليسير ، فطردوا التركان الى ان كسروهم فغدر التركان بنائب حماة وبيتوه فانهزم ثم ركب يلبغا الناصري فبزمهم .

وفي سنة ٧٨٧ توجه نواب الشام الى قتال التركان فانكسر العسكر وفتك فيهم التركان وقتلوا سودون العلائي نائب حماة وغيره . وكان اصل ذلك ان السلطان امر نواب الشام بالتوجه الى قتال سولي بن دلغادر ومن معه من التركان فوصلوا الى طيبون وهي بين مرعش وابلستين فالتقي بهم سولي فقتل سودون نائب حماة في المعركة وكذا سودون نائب بهسني فبلغ السلطان ذلك فشق عليه ولم يزل يعمل الحيلة حتى دس على سولي من قتله وقتل اخاه .

سلطنة برقوق وحالة المماليك | دخل الهرم في دولة الاتراك المصرية وزاد
 الجبرية والشراكسة | فساد العربان في البلاد ، وخامن غالب النواب
 في الشام وخرجوا عن الطاعة ، فاجتمع الاتابك برقوق متولي الامر والقضاة مع
 الخليفة وسائر الامراء في مصر فأروا الحاجة فامسه الى إقامة سلطان كبير تجتمع
 عليه الحكمة ويسكن الاضطراب فتكلم القضاة الاربعة مع الخليفة في سلطنة
 الاتابكي برقوق ففعلوا الملك الصالح امير حاج من السلطنة وسلطنوا الاتابك
 برقوق (٧٨٤) وهو اول ملوك الشراكسة بمصر والشام والخامس والعشرون من
 ملوك الترك .

وكانت هذه الدولة التركية والشركسية التي أولدها عجبا في ضعف الادارة
 وقيام الخوارج ، لان الملك على الاكثر كان ضعيفا يُنزله عن عرشه كل من عصا
 عليه ، واستكثر من المماليك وقدر ان يتسلط على عقول السذج من العربان وارباب
 الدعارة والطمع من الناس « والمماليك السلطانية الذين جرت العادة على انهم يفعلون
 الامور المشهورة عنهم من اخذ اموال الناس وهتك حريمها » . والقاهرة لا شأن لها
 بعد ان ينقاتل المتقاتلون على الملك او يقاتل القواد ارباب العصيان والتمرد ويظفر
 احد المنازعين على السلطنة ، او الامير الذي وسد اليه اجنثا دابر العاصي ، الا ان
 تزين أسواقها سبعة ايام او ثلاثة ايام على الاقل . ننعلم ذلك لاقبل حادث يحدث
 حتى ولو قبض جماعة السلطان على احد صماليك المماليك ممن خامر عليه واستنبح أناسا
 من الغاغة . وكانت دمشق في ايام الشراكسة ثم في ايام الاتراك اخلافهم تزين
 سبعة ايام لاقبل ظفر يقع ، فيفرح السلطان وتصدق البشائر . وكان من سلاطين
 المماليك اهل خير تغلب عليهم الرحمة وحسن السياسة ، وكان ضعفهم آتيا من جماعتهم
 المماليك لان لكل امير منهم جوقة ينفقون في حبه اذا تغلب عليه خصمه سجنهم
 او اقصاهم او نكبهم ، فلا يزالون يعملون على إثارة الخواطر حتى يطلق سراحهم ثم
 يعودون الى ما نهوا عنه وهكذا دواليك . والامة من اجل هذا تحرب ديارها ،
 وتهلك ابناءؤها وتذهب اموالها وعروضها ، حتى يسعد الطالع احد المتخاصمين فيتغلب
 على من يريد التغلب عليه . وهناك خليفة في مصر يعتضد به السلاطين يوم الشدائد ،

و يبايعهم يوم نصيبهم ، وربما سجنوه واقصوه عن انظار الامة اذا شعروا بان هواه مع
غيرهم او يمكن ان يكون كذلك : اتخذوه آلة كما كان خلفاء العباسيين مع المتغلبة من
سلاطين السلجوقيين والبويهيين وغيرهم في بغداد .

وقائع تيمورلنك

من سنة ٧٩٠ الى ٨٠٣



بداءة تيمورلنك بينا كانت امور الدولة في الشام ومصر مختلفة معتلة لا تستقر
ومناوشة جيشه الادارة الشركسية على حال ، والمتوثبوت على السلطنة
بكثرون ويقلون بضعف الممالك وقوته ، جاء تيمورلنك من الشرق واخذ يتقدم نحو البلاد
بجيوش جرارة لا قبل للمالكيين زمام الامر بدفعها ان لم يستعينوا بجيوش أخرى
فاصبحت البلاد بين عدوين داخلي وخارجي ، كما اصبحت في اواسط القرن السابع بين
عدوين احدهما من الشرق وهم التتار والآخر من الغرب وهم الصليبيون . وتيمورلنك
هو ابن ترغاي بن ابغاي مؤسس مملكة المغول الثانية ، ومعنى تيمور الحديد واللك الاعرج
والكسيع بلغتهم ، لان راعياً ضربه فيما قيل بسهم في فخذه ادخله به في زهرة العرجان ،
وفي رواية انه اصاب بسهم في الحرب في صباه . ولد تيمورلنك في قرية خواجه ايلغار من اعمال
كش من وذن ماوراء النهر سنة ٧٣٧ هـ ١٣٣٦ م (ومات في اوتار سنة ٨٠٧ — ١٤٠٥)
بينما كان ذاعباً نفع بلاد الخطا في الصين وجيء به الى سمرقند فدفن فيها) .

وكان تيمور يت بقرابة بعيدة الى آل البيت الملوكي من المغول ذرية جنكيز
خان ، وذلك من جهة الامهات لا الآباء ، ورأس ابوه قبيلة برلاس التركية وحكم
ولاية كش وقد تيم صغيراً وسلبه جيرانه امارته ، فتوسل تيمور الى امير بلاد كشغر
مالك الجغتاي فانعم عليه بولاية ما وراء نهر جيحون ، ثم تزع يده من يد امير كشغر
وانضم الى عمه حسين ، ولما ماتت زوجته وقيل انه هو الذي قتلها بيده اصبح تيمور في

حل من امره ، وداهم حسينا وتغلب عليه واستولى على بلخ فاصبح ملكا على بلاد الجغتاي كلها « ولما استولى تيمور على ما وراء النهر وفاق الاقربان تزوج بنات الملوك فزادوه في القبايل كوركان وهو بلغة المغول الختن » وكان عهد تيمور كله عبيد حروب وفظائع في القتل ، يقتل الناس بالالوف وعشرات الالوف ، اذا لم يخضعوا لسلطانهم في الحال قال السخاوي : وكان يقرب العلماء والسمراء والشجعان والاشراف وينزلهم منازلهم ولكن من خالف امره ادنى مخالفة استباح دمه ، فكانت هيبة لا تدانى بهذا السبب ، وما اخرب البلاد الا بذلك فانه كان من اطاعه من اول وهلة آمن ومن خالفه ادنى مخالفة وهي ، انجد تيمور احد الخانات على ازروس خان ملك قسم من بلاد روسيا الجنوبية الشرقية ثم فتح خراسان وهرات وطوريس وقارص ونفليس وشيراز واصفهان وكشغر ومازندران والعراق بأسره وخرتب حفيده محمد بلاد بولونيا وروسيا ودخل الهند فنازل مملكة المسلمين حتى غاب عليها وفتح افغانستان وجلب من الهند الى بلاده المهندسين والنقاشين . ثم حارب السلطان بايزيد العثماني (٨٠٥) وولىه ووضع في قفص من حديد واخذ به عرضه على الناس فهلك قبرا ، وباستيلائه على ازمير اضطر امبراطور القسطنطينية ان يؤدي اليه الجزية .

هذا الفاتح خرب عاصمى الشام حلب ودمشق وكم خرب من مدائن عامرة جدا في آسيا وكانت ملوك اوربا يخافونه وكثيرا ما ارسلوا الوفود لتمنيته بانتهاراته .

هذا الرجل الجبار لم يجعل على الشام حملته المشؤومة الا باسباب اوجدتها النواب والامراء والملوك على الارجح ، فقد ذكر ابن حجر في حوادث سنة ٧٩٨ ان اطمش قريب تيمورلنك قبض عليه قرا يوسف التركاني صاحب تبريز وارسله الى الملك الظاهر فاعتقله ، فكانت هذه الفعلة اعظم الاسباب في حركة تيمورلنك الى البلاد الشامية . وقال في حوادث سنة ٧٩٩ وصلت كتب من تيمورلنك فعوقت رسله بالشام وأرسلت الكتب التي معهم الى القاهرة ومضمونها التحريض على ارسال قريبه اطمش الذي اسره قرا يوسف ، فامر السلطان اطمش المذكور ان يكتب الى قريبه كتابا يعرفه فيه بما هو عليه من الخير والاحسان بالديار المصرية ، وارسل ذلك السلطان

مع اجوبته ومضمونها اذا اطلقت من عندك من جهتي اطلقت من عندي من جهتك والسلام .

فالقائمون بالامر هم الذين فتحوا تيمورلنك السبل لغزو البلاد فيما بعد ، غزوة اذلت العزيز وافقرت الغني وخربت العامر . قال ابن حجر ايضاً : لما رجع تيمورلنك الى الشرق وكان هذا دأبه اذا بلغه عن مملكة كبيرة وملك كبير لا يزال يبالغ في الاستيلاء عليها الى ان يحصل مقصوده فيتركها بعد ان يخربها ويرجع ، فعل ذلك بالشرق كله وبالهند وبالشام وبالروم .

ارسلت مصر في سنة ٧٩٠ عسكراً على تيمورلنك في سيواس فانكسر عسكر تيمورلنك وكان ذلك من الوقائع الاولى بين تيمورلنك وعسكر الشام ، ولو كان في الدولة اذ ذاك رجال عقلاء لغموا شملها حتى تقوى على عدوها الراجف عليها ولكن شغلت البلاد بنفسها . ومن الاحداث في هذه السنة منازلة الفرنج طرابلس الشام فواقعهم المسلمون فكسروهم واخذوا منهم ثلاثة مراكب .

خامر يلبغا الناصري نائب حلب (٧٩١) وخرج عن الطاعة وقتل الامير سودون المظفري الذي كان نائب حلب قبله وقتل اربعة أنفس من مماليك سودون ، وامسك حاجب الحجاب بحجاب وجماعة من امرائها ، وأظفر يلبغا الناصري العصيان والنف عليه جماعة كثيرة من مماليك الاشرف شعبان ، وكان من جملة من النف على يلبغا قمر بغا الافضلي المدعو منطاش مملوك الظاهر برفوق ، وعهد سلطان مصر الى اينال اتابك العساكر بدمشق ليكون نائب حلب وحلف السلطان الامراء من الاكابر والاصغر بان يكونوا معه كلمة واحدة وعصبة واحدة على يلبغا الناصري فحلفوا على ذلك جميعهم ، وأرسل الى يلبغا تجريدة . وانتشب القتال بين امراء الغرب النوخية وبين عشرين البر أهل كسروان والامراء اولاد الاعمى وكان النوخية مبالغين الى الملك الظاهر وكان الكساروة مع أرغون نائب منطاش في بيروت فاستظفروا أهل كسروان على امراء الغرب وقتلوا منهم نحو ٩٠ نفرأ وأمسكوا جماعة فسمروا بعضهم ووسطوا آخريين

وأحرقوا عدة قرى من الغرب وتلقبوا بعشران البر . ثم انت العساكر الظاهرية زحفت على تركمان كسروان وجرت بين الفريقين وقعة في الساحل فقتلوا منهم جماعة كثيرة .

ولما استولى كمشبغا على قلعة حلب عمر أسواق هذه المدينة أحسن عمارة في أسرع وقت وكانت من وقعة غازان خراباً ، فلما انتصر كمشبغا على اعدائه قتل غالب اهل محلة بانقوسا وكانوا زيادة على اربعة آلاف نفس وقتل كبيرهم احمد بن الحرامي وخر بها الى ان جعلها دكا .

عوامل الخراب / ذكر الاسدي ان السبب في خراب الشام في القرن الثامن انتشار قيس ويمين / الشرور بين القيس واليمن ووقوع الحرب والقتال بينهم ، والسبب في ذلك تغيير العوائد والتدليس على الملوك والحكام وولاة الامور ، بالاغراء والتسلط على الفلاحين بالظلم وطالب العاجل ، والعسف في الحكم والميل مع القوي ، وانهاك الضعيف وعدم رد لفظة الملهوف ، ومع تغيير العوائد وقع الاغراء فيما بينهم والشرور والتحاسد فاخطر كثير من اهل الزرع والضرع الى التمرد والعصيان والتشرد عن الاوطان وتسلطت العربان والعشران^(١) على الاراضي والبلدان ، وتراكت الأهواء ووقع التحاسد والاغراء الموجهان لسفك الدماء ، فنهبت الاموال وقتلت الرجال وشملت العشائر وعظمت الفتن بين القبائل ، وصار اهل الزرع والضرع من الفلاحين على صهوات الخيول مارقين ، الى ان ارجب ذلك الخراب في كثير من رستاق الشام والقرى والبلدان ، وصارت دماً ليس فيها انسان ، وفي ذلك ما يشهد به الديوان من اسماء القرى التي صارت مزارع وتسمى بالخراب الدائر في هذا الزمان ، والموجب لهذا جميعه سوء التدبير مع نقص القوة والامكان ، ونقص سنة العدل وسوء التصريف والاخذ في جانب التقصير والنقصان الى ان صار الحكم لمقدمي الفلاحين ورؤساء العشران وصار الاعيان منهم يظهرون

(١) العشران جمع عشير أطلق في الشام على بعض القبائل التي سكنت في البقاع وجبل لبنان . قال المقر يزي : عشير الشام فرقتان قيس ويمين لا ينفقان قط وفي كل مدة يثور بعضهم على بعض .

الطاعة للسلطان و يبطنون المخالفة والعصيان ، ويستخرجون الاموال بالظلم والطغيان ،
و يرضون ببعضها من له في الدولة كلام وامكان ، وبما يحصلونه من الهدايا والاموال
يرشون به الاعوان ، فيسعى لهم ويلبسون التشاريف الملوكية بين يدي الملك والامير
والسلطان ، فيصير كل واحد منهم في بلده وإقليمه اذا عاد اليه ذاقوة وسلطان ، وسطوة
وأعوان ، وخيول وميدان ، واقطاعات ونعم وديوان .

فلما وهذا الاختلاف الدائم بين قيس وبين كان يقوى ويضعف بحسب المواضع ،
فاذا وفقت البلاد الى حاكم يقول ما كان يقول ويعمله السندي والي دمشق في القرن
الثالث وهو يسوي بين القحطاني والعدناني : « لسنا نقدمكم الا على الطاعة لله عز وجل
والخلفاء ، وكلمكم اخوة وليس للنازاري شيء ايس لليمني مثله » وكان يتغدى مع جلة
الفرقيين ويسوي بينهم في الاذن والمجالس . فاذا كان الحاكم من هذا الطراز
تسكن نعمة القيسي واليمني والا فينقاتلون ويخربون العمران ويقتلون الانساب .
وكانت هذه النعمة شديدة في بلاد دون أخرى من ارض الشام ، فقد كانت في القديم
في حمص حتى ضرب المثل بها فقالوا : « اذل من قيسي بحمص » وذلك ان حمص كلها
لليمن ليس بها من قيس الا بيت واحد . ثم كانت ترى آثارها في حوران ولبنان
وربما انقلبت نعمتها من حوران منذ عهد جلاء كثير من الأسر المسيحية الى جبل لبنان
وبقيت في هذا الجبل الى القرن الماضي ثم اضمحلت .

وفي هذه الاثناء ركب عسكر طرابلس على النساب وقتلوا من امراء طرابلس
جماعة وركب ممالك نائب حماة سودون العثماني مع عسكر حماة وأرادوا قتله فهرب
الى دمشق ، ف وقعت الفتنة في سائر بلاد الشام . ولما تحقق برقوق ان البلاد قد
افلتت خاف على نفسه وامر نائب القلعة بمصر بان يضيّق على الخليفة ويمنعه من
الاجتماع بالناس ، وكان مسجوناً بالقيّد في برج بالقلعة ، وأصدر امره بالتضييق على السادة
اولاد السلاطين في دير الحرم ، ووصلت التجريدة من مصر الى دمشق وانتهى عسكر
مصر مع عسكر بابغا الناصري فأوقعوا معه بظاهر دمشق واقعة عظيمة حتى جرى
الدم بينهم وقتل من الفرقيين ما لا يحصى عددهم ، فانكسر عسكر السلطان وانتصر
عليهم بلبغا ، ثم جيش بلبغا وساق جيشه الى مصر فالتف اكثر امراء مصر عليه

وقاتل قليلاً حتى اضطر السلطان برقوق الى ترك سرير السلطنة وأعيد الملك الصالح امير حاج بن الملك الاشرف شعبان ساطاناً على مصر والشام ، وأخذ الظاهر برقوق الى قلعة الكرك فسجن فيها واندبوا بعد حين لقتله رجلاً فقتله الرجل الذي بخدمة الملك الظاهر ، وأراد اقارب الرجل الذي بخدمة الملك قتل نائب الكرك فاستجار بالملك الظاهر فأجاره واستولى برقوق على القلعة بعد ان قامى من الحزن والاهوال امرأ عظيمًا واتاه مماليكه الذين كانوا بقوص من ارض مصر وقتلوا واليهما والتحقوا به والنف عليه العربان وقصد دمشق فجاءه نائب غزة في خمسة آلاف مقاتل من عربان جبل نابلس فأوقعوا مع الظاهر برقوق وقعة عظيمة انكسر فيها نائب غزة فنهب عسكر برقوق عسكر غزة فنقبوا بتلك الغنيمة ، وكان الظاهر كئامر بقرية يخرج اليه اهلها و يلاقونه ومعهم العلف والضيافة ، ولما بلغ برقوق قرية شغب خرج اليه عسكر دمشق وأوقعوا معه هنسك واقعة عظيمة فقتل بها من امراء دمشق سنة عشر اميراً ومن المماليك نحو خمسين مملوكاً وقتل من عسكر برقوق نحو ذلك .

وصادف ان خرج عن الطاعة كمشبع الحموي نائب حلب واستولى ابناء اليوسفي على قلعة صفد وهو من جماعة الظاهر فتويت شوكته ودخل الظاهر برقوق دمشق ، ونزل في الميدان فكبس عليه اهل دمشق واخرجوه من المدينة الى ظاهر البلد ، لان بعض مماليكه عبت ببعض السوقة واخذ منه شيئاً من البضائع بالغضب فاستغاث ذلك السوقى فحضر اليه جماعة من اهل دمشق وتعصبوا له فاستطال ذلك المملوك وضر بهم فرجه اهل دمشق ، فرمى المماليك على عوام دمشق بالنشاب فتكاثرت على المماليك العوام بالحجارة والمقاليع ، فكسروا المماليك كسرة قوية فركب الظاهر برقوق ومن معه من الامراء وخرجوا من دمشق الى قبة يلبغا فدخل العوام الى الميدان ونهبوا برك الظاهر برقوق وأغلقت ابواب دمشق وكان برقوق اشرف على اخذ قلعة دمشق وراج امره فتعطل بسبب ذلك .

ثم جرد الملك المنصور امير حاج عسكراً من مصر وجاء الشام لينزع الملك من الملك برقوق ، فلما وصل العسكر الى غزة تسحب اكثر عسكر الملك المنصور الى الملك برقوق لان دواهم كان معه ، ووقعت بين عسكر الملك المنصور وعسكر الظاهر برقوق

على شقحب (٧٩٢). فانكسر الظاهر برقوق، كسرة قوية فهرب برقوق في نفر قليل من
العسكر ونوارى خلف الجبل الذي تحته الملك المنصور والخليفة والقضاة ، فأتى اليه
بعض العرب واخبروه بان الملك المنصور تحت ذلك الجبل ، وكان على يوم من دمشق
فكبس عليهم برقوق بمن معه من العسكر وكانوا نحو اربعين انساناً فذعر عسكر المنصور
وغلثت ايديهم عن القتال ، فنزل عليهم الظاهر برقوق كالبار على الطائر واحتوى على
كل ما معهم من البرك والاثقال والقياس والسلاح وخزائن المال ، فلما جرى ذلك
تسامع به الناس فجاؤا اليه افواجا من كل مكان ، وبلغ ذلك منطاش وحضر معه
عساكر دمشق وغيرهم فحصل بينهم واقعة اعظم من الواقعة الاولى وقتل بها كثير من
الخلائق فانكسر الاتابكي منطاش وعسكر دمشق فولوا حاربين الى نحو دمشق موافق الظاهر
برقوق بمنزلة شقحب ، ثم ان شخصا من الصالحين يقال له الشيخ شمس الدين الصوفي مشى بين
الملك الظاهر برقوق وبين الملك المنصور امير حاج في ان يخلع نفسه ويسلم الامر الى
الملك الظاهر برقوق ، فاجاب الملك المنصور الى ذلك واحضر الخليفة المتوكل والقضاة
الاربعة وخلع نفسه من الملك واشهدوا عليه بذلك . ثم ان الخليفة والقضاة بايعوا
الملك الظاهر برقوق بالسلطنة وذلك بمنزلة شقحب واقام الظاهر هناك تسعة ايام ،
ثم رحل الى مصر ومعه الخليفة والملك المنصور والقضاة الاربعة ودخل مصر بلا منازع ،
وكان مماليكه قد وطدوا له الامر قبل وصوله وخطبوا له على المنابر فساد واستولى
على مصر والشام .

الخوارج على / وملك منطاش (٧٩٢) مدينة بعلبك والتف عليه جماعة من
ملوك مصر / عسكر دمشق ومن عسكر صفد ومن عسكر طرابلس ومن
عربان جبل نابلس ونهب عدة ضياع من الشام ، وارسل منطاش شخصا يسمى تمان تمر
الاشرف الى مدينة حلب ، وكان نائب حلب كمشغبا الحموي قد ثقل امره على اهل
حلب فما صدقوا بهذه الحركة فحاصروا نائب حلب اشد الحاصرة وتعصبوا لمنطاش
فنقبوا القلعة من ثلاثة مواضع ، فصار كمشغبا نائب حلب بقواتهم من داخل النقب
على البرج ، واستمروا على ذلك نحو ثلاثة اشهر ، فانهصر كمشغبا نائب حلب على

ثمان تمر الأشرفي الذي ولاء منطاش على حلب فانكسر ثمان تمر وولى هارباً ثم توجه منطاش الى طرابلس فحاصرها حتى ملكها وهرب من كان فيها من الامراء والنائب وهرب اكثر اهلها الى دمشق ، ثم حاصر منطاش دمشق فاتفق عوامها على ان يسلموه المدينة ليلاً وكانوا يحبونه اكثر من الملك الظاهر برفوق .

فلما بلغ ذلك الامراء الذين من قبل الظاهر برفوق خرجوا الى ظاهر دمشق ووقعوا مع منطاش ومع عوام دمشق واقعة عظيمة قتل فيها من الفريقين نحو الف انسان . ثم رجع عسكر دمشق الى المدينة ثم توجه منطاش الى عينتاب فالتف عليه جماعة كثيرة من التركمان ، فحاصروا المدينة اشد ما يكون من المحاصرة فملكها ، وهرب النائب الذي كان بها فلما دخل الليل جمع نائب عينتاب جماعة كثيرة من التركمان وكبس على منطاش فقتل من عسكره نحو مائتي انسان وهرب منطاش نحو الفرات ، ثم ان منطاش جمع قوته وخامر على السلطان اكثر التركمان والعربان والنفوس على منطاش (٧٩٣) فتوجه الى دمشق وحاصرها فخرج اليه نائبها فهرب منطاش الى جبل يقرب من طرابلس فتبعه نائب دمشق ، فجاء منطاش من وراء ذلك الجبل وجاء الى دمشق فلم يجد بها احداً من الامراء ولا النائب ، ففتح له عوام دمشق باباً فدخل منه الى المدينة ونهب الاسواق واخذ اموال التجار والخيول ، والتف عليه جماعة من عسكر دمشق فقويت شوكته .

بلغ السلطان في مصر ما وقع سيف الشام فقوي عزمه على الخروج الى منطاش ، فجاء دمشق ونادى فيها بالامان لان اهل دمشق لما خرج الظاهر برفوق من الكرك ودخل الى دمشق رجموه واخرجوه من بلادهم هائماً على وجهه ونهبوا اثقائه وقماشه ، فضج اهل دمشق له بالدعاء وسكن ما كان عندهم من الاضطراب ، وافام اياماً سيف دمشق . ولما توجه الى حلب جاء نعيم بن جبار امير آل فضلي ونهب خياع دمشق وكان نعيم عاصياً على السلطان وهو ملتف على منطاش واخرب غالب بلاد الشام ونهب ضياعها فلما بلغ نائب دمشق محيي نعيم خرج اليه ووقع معه واقعة قوية في قرية الكسوة فانكسر نائب دمشق وقتل عسكر دمشق جماعة ثم رجع نعيم الى بلاده . اما منطاش فلما بلغه محيي السلطان من مصر هرب الى بلاد التركمان .

ولما عاد سلطان مصر الى عاصمته هجم (٧٩٤) نحو خمسة عشر مملوكاً وقيل خمسة
انفس على نائب قلعة دمشق وتوجهوا نحو السجن الذي بها واخرجوا من كان به من المحاييس
الذين من عصابة منطاش وكانوا نحو مئة مملوك ، فقويت شوكتهم بالسجاء وهجموا على
نائب القلعة وقتلوه وملكوا القلعة ، فقاتلهم عسكر دمشق وحاصروا من بالقلعة ثلاثة
ايام فقتل من عسكر دمشق جماعة ثم هجم عسكر دمشق على باب القلعة واحرقوه ودخلوا
الى القلعة وقبضوا على المالك كاهنهم ووسطوهم اي قطعوهم نصفين تحت باب القلعة
وامسكوا الشائرين فلم يبقوا منهم الا من هرب .

وعاد منطاش (٧٩٤) فحاصر حلب مع جماعة التركمان فخرج اليه عسكر حلب
وأوقعوا معه واقعة فكسروه ورجع هارباً الى الفرات ، ثم ان منطاش ونعير بن جبار
امير العربات انفقا (٧٩٥) بمن معهما من العسكر وحاصروا حماة فخرج اليهم نائبها
فأوقع معهم واقعة قوية فانكسر نائب حماة وهرب ، فدخل منطاش ونعير الى
المدينة ونهبوا أسواقها وأخذوا اموال التجار ، فلما بلغ ذلك نائب حلب ركب هو
وعساكر حلب وكبس على بلاد نعير ونهب أمواله وأخذ اولاده ونساءه وأحرق بيوته
وقتل من عربائه كثيراً فأرسل نعير يطلب من نائب حلب اولاده ونساءه الذين
أسبرهم فأرسل نائب حلب يقول له : ما أطلق لك اولادك ونساءك حتى تسلمنا
منطاش . وكان منطاش قد تزوج من بنات نعير واستنسل منهم . فلما رأى نعير
ان السلطان ونائب حلب عليه وقد نهبوا أمواله ومواشيه وأسروا اولاده ونساءه ، قصد
ان يرخي السلطان بآمساك منطاش حتى يزول ما عنده مما جرى منه في حق السلطان ،
فندب نعير الى منطاش اربعة عبيد قبضوا عليه فلما وقع في أيديهم أخرج من تكته خنجراً
شق به بطنه فغشي عليه فحمله العبيد واتوا به الى نعير فقيده وارسله الى نائب حلب ثم
حمل الى القاهرة ، وجعل الموكل بحمله يعاقبه ويعصره ويقررده على الاموال التي غصبها
من البلاد فلم يقر بشيء ، ودخل عليه النزع فقطع رأسه ووضع في عربة وحمله الى السباطان
في مصر ثم ارسل السلطان الى نعير خلة وأقره على عادته امير آل فضل .

قال ابن اياس : وعند اخذنا هذه الحوادث فما صدق الساس بان فتنه منطاش
قد خمدت عنهم حتي استؤنفت لهم فتنه أخرى ، فوردت الاخبار بان تيمورلنك اخذ

تبريز وشيراز وركب الظاهر برقوق الى الشام وجاءه في حلب فاصد من عند ابن عثمان ومعه مطالعات مضمونها ان يكون هو والظاهر يداً واحدة على دفع تيمورلنك فأجابه الظاهر الى ذلك ورد له الجواب بما يطيب به خاطره ، ثم حضر اليه فاصد طقتمش خان صاحب بسطام وعلى يده مطالعات تضمن ما قاله ابن عثمان فأجابه الظاهر كما أجاب ابن عثمان . فلما اقام الظاهر بحلب بلغه ان جاليش (اعلام) عنده عسكر تيمورلنك قد وصل الى البصرة . ثم بلغه ان تيمورلنك رجع الى بلاده فلما تحقق ذلك نادى هو الى مصر . وفي سنة ٧٩٩ اخذ عسكر تيمورلنك مدينة ارزنجان وقتل أهلها ونهب ما فيها فلما سمع سلطان مصر والشام ذلك ارسل الى نوابه في الشام ان يتوجهوا الى شاطيء الفرات ويحصنوا البلاد فخرجوا كلهم واقاموا هنالك ، وكانت ارزنجان من جملة البلاد التي خطب فيها لصاحب مصر والشام الملك الظاهر برقوق كما خطب له في تبريز والموصل وماردين وسنجار ودوركي ، وضربت السكة باسمه في هذه الاماكن .

وفي سنة ٨٠١ تحرك ابن عثمان ملك الروم على بلاد السلطان ووصلت طلائعه الى الابليستين وهو قاصد حلب فوقع الاتفاق في مصر على محاربتهم والخروج عليه ، وان يؤخذ من اجرة الاملاك شهر واحد يتقوى بها العسكر على دفع العدو ، ثم ظهر ان ابن عثمان وصل الى ملطية وبمكها ولم يشوش على احد من أهلها وامر عسكره بان لا ينهبوا لاحد من الرعية شيئاً ، فأقام بملطية اياماً ثم رجع الى بلاده فبطل امر التجريدة عليه .

وفي سنة ٨٠١ توفي الظاهر برقوق وتولى السلطنة بعده ابنه الناصر فرج . وله من العمر نحو اثنتي عشرة سنة فكانت وفاته من سوء طالع الشام	} وفاة برقوق وسلطنة ابنه الناصر فرج والخوارج على الملك
كثير طمع القريب والبعيد في اكتساح البلاد . وكان من ذلك الحظ الاكبر لتيمورلنك حتى انه لما بلغه موت الظاهر برقوق فرح واعطى من بشره بذلك خمسة عشر الف دينار ، وتهيأ لمسير الى الشام فجاء الى بغداد واخذها ثانية .	

وفي سنة ٨٠٢ خامر نائب الشام وأظهير العصيان وأطلق من كات مسجوناً من
الامراء بقلعة دمشق ثم جمع النائب وكان اسمه ثم عسكراً عظيماً من الشام وقصد
نحو الديار المصرية ووصل ارائل عسكره غزة ، فجيش السلطان الملك الناصر فرج
وسار الى الشام ، فلما وصل كان اقبحا اللكاش نائب غزة خرج هو ونائب حماة ونائب
صفد الى قتال الملك فدهش النواب ، فكان اول من دخل تحت طاعته نائب حماة ثم
نائب صفد . فلما رأى عسكر الشام دخول النواب تحت طاعة السلطان . وكان
مع ثم نائب الشام نواب طرابلس وحب وحماء وصفد وكثير من العربان وظن
نفسه انه اصبح سلطاناً — خامر الجميع على ثم نائب الشام وتوجهوا اليه في غزة فملك
السلطان غزة وبلغ ذلك نائب دمشق فخرج منها هو وبقية الامراء واتوا الى مدينة
الرملة فصار السلطان في غزة وهم في الرملة ، فراسلهم السلطان في الصلح فابوا فتلاقى
العسكران (على مكان يسمى الحبطين) فكان بينهم هناك وقعة عظيمة فوقت الكسرة
على ثم نائب الشام وامسك واحتاطوا على يركه ودوابه ، وقبض الملك الناصر فرج
على جملة من الامراء الذين خامروا عليه وقيدهم وجلسهم في قلعة دمشق . ودخلها في
موكب عظيم وقدامه ثم نائب دمشق . وهو مقيد راجكب على كدش ابلق ومعه
عشرة من امراء دمشق وهم في قيود فحبسهم في القلعة ، ثم قتل وخنق عدة امراء منهم
وذكر ابن حجر هذه الحوادث بما نصه : وفيه (٨٠٢) توجه اقبحا اللكاش ومعه جماعة
الى غزة من جهة نائب الشام فملكها في ربيع الاول ، وتوجه حلتان ومعه جماعة الى
حلب فحاربوا صاحبها ثم تبعهم الامير ثم بمن تأخر معه ، فلما وصل الى حمص تسلما
وتسلم القلعة ولم يشوش على النائب بل قرر غيره خيفة النيابة ، ثم وصل الى حماة
فحاصرها فانصل به وصول الشمس ومن معه فرجع منها الى دمشق ، ووصل اليه نائب
طرابلس فبلغه بعد ان خرج من طرابلس ان اهلها وثبوا على نائبه واقفلوا ابواب
البلد الجدد فرجع عليهم ودخلها عنوة وقتل من اهلها مقتلة عظيمة ، حتى قيل ان
اقل من قتل منهم الف نفس منهم مفتي البلد وقاضياها ومحدثها وهرب اكثر اهلها
ومن تأخر اما قتل واما صودر قال : واراد يونس الرياح نائب طرابلس احراق البلد
فاشتريت منه بثلاثمائة وخمسين الف درهم جبيت ممن بقي بها من اهلها .

الحرب الأولى (١) وفي هذه السنة انكسرت طليعة جيش تيمورلنك في وقعة مع تيمورلنك (٢) مع صاحب بغداد القان احمد بن اويس وقرا يوسف امير التركمان ، فلما انكسر النار اتوا الى بلطينة وكانوا نحو سبعة آلاف انسان فازبنوا الى نائب حلب يقولون له عين : لنا مكانا ننزله ، فلما سمع نائب حلب بذلك ركب هو ونائب حماة فتوجهوا الى عسكر تيمورلنك فأوقعوا معهم وقعة عظيمة فانكسر نائب حماة وقتل من عسكر حلب جماعة كثيرة ، وكانت هذه اول الفتن الكبرى بين عسكر مصر والشام وبين تيمورلنك في هذه الديار ، فأمر السلطان نواب دمشق وحشد وطرابلس بان يجمعوا العساكر ويتوجهوا الى حلب يقيمون بها ، فأرسل تيمورلنك الى دمرداش نائب حلب بعده بان يقيه على نيابته بشرط ان يمكسك سوديون نائب الشام ، فأطلع دمرداش على ذلك سوديون فوثب على الرسول فضرب عنقه فلما بلغ ذلك تيمورلنك نازل حلب ، ولكن تيموراذا تظاهر البشر اكية بالقوة أمامه يعرف ما نندمج عليه فيموسهم وتصل اليه قرايهم ، واذا انكسر له فيلق صغير لم يكن الا على اتم المعرفة بملكه من يزيد فتح بلادهم ، وكان له « جوابيس في جميع البلاد التي ملكها والتي لم يملكها ، فكانوا ينهون اليه الحوادث الكائنة على جليتها ويكتبونه بجميع ما يروى ، فلا يتوجه الى جهة الا وهو على بصيرة من امرها ، وبلغ من دهائه انه كان اذا اراد قصد جهة جمع اكابر الدولة وتشاوروا الي ان يقع الرأي على التوجه في الوقت الفلاني الى الجهة الفلانية ، فيكتب جوابيس تلك الجهات فتأخذ الجهة المعينة جذرها ويأمن غيرها ، فاذا ضربوا النفير واصبحوا سائر بين ذات الشمال عزج بهم ذات اليمين ، فإلى ان يصل الخبر الثاني يكون دم هو الجهة التي يريد واهلها غافلون » .

وذكر ابن حجر انه كان ابتداء حركة تيمورلنك الى البلاد الشامية في سنة اثنى عشر وثمانمائة . وأصل ذلك ان احمد بن اويس صاحب بغداد ساءت سيرته وقتل جماعة من الامراء وعسف على الباقين ، فوثب عليه الباقون فأخرجوه منها ، وكتبوا نائب تيمورلنك بشيراز ان يتسلها فتسلها ، وهرب احمد الى قرا يوسف التركماني بالموصل فسار معه الى بغداد فالتقى به اهل بغداد فكسروه ، واستمروا وقرا يوسف منهزمين الى قوب حلب ، وقيل بل غلب على بغداد وجلس على تخت الملك ، ثم صار

صحبة قرا يوسف فوصلا جميعاً الى أطراف حلب وسألا انت بطالع
السلطان بامرهم فكاتب أحمد بن اويس يستأذن في زيارته. مضراً فأجبت بتفويض
الامر الى النائب فخشي دمر داش نائب حلب ان يقصد هو وقرا يوسف حلب فسار
دمر داش نائب حلب ومعه طائفة قليلة منهم نائب جماعة ايكبس احمد بن اويس
بزعمه ، فكانت الغلبة ل احمد فانكسر دمر داش وقتل من عسكره جماعة ، ورجع
منهم ما وأمر نائب جماعة ثم فدي بستمائة الف درهم ، ثم جمع نعيم والنائب بيشتي
جماعة والنقوا مع احمد بن اويس فكسروه واستلبوا منه سيفاً يقال له سيف الخلافة
وصحفاً واثناً كثيرة . فوصلت الاخبار بذلك الى القاهرة فسكن الحال بعد ان كان
امر السلطان بتجريد العساكر لما بلغه هزيمة دمر داش وأرسل يريدنياً الى الشام
بالجهيز الى جهة حلب .

تيمورلنك على ابواب) وصل تيمورلنك بعد فتح عينتاب الى الباب و بواحدة
حلب .) بالقرب من حلب وأرسل الى نائب حلب فاصد آموعة
المكاتبات من تيمورلنك فيها عبارة خشنة لنائب حلب . وذكر ابن حجر ان كتاب
تيمورلنك الى نائب حلب يقول فيه : انا وصلنا سيف العام الماضى الى البلاد الخليفة
لاخذ القصاص ممن قتل رسلنا بالرحبة ثم بلغنا موته يعني الظاهر ، وبلغنا امره
وما هم عليه من الفساد فتوجهنا اليهم فاخفرونا الله تعالى بهم ، ثم رجعنا الى الكرج
فاخفرونا الله بهم ، ثم بلغنا قلة ادب هذا الصبي ابن عثمان فاردنا عرك اذنه فشدنا
بسيواس وغيرها من بلادهم ما بلغهم ، ونحن نرسل الكتب الى مصر فلا يعود جوابها
فنعلمهم ان يرسلوا قريتنا اطمش وان لم يفعلوا فدماء المسلمين في اعناقهم والسلام .
حقق نائب حلب وامر بضرب اعناق قضائد تيمورلنك ، فاضطربت عنده ذلك
احوال مدينة حلب وحصنوا سورها بالمدافع والمكاحل والمقاتلين ، وقد ارتكب نائب
حلب خطأ فاحشاً بقتل الرسول والرسول لا تقتل في العادة ، ظاناً وجماعته من
الحلبين ان لهم قوة تقاوم قوة تيمورلنك . قال بعض المؤرخين : لما كان اهل حاب
وصاحبها يشاورون في دفع عادية تيمور عنهم قال نائب طرابلس في جملة قوله : اننا

نظير الى الآفاق اجنحة البطائق الى الاعراب والاكراد والتراكة فيتسلطون عليه من الجواب . وفي ذلك دليل آخر على جهل امراء الشام بقوة تيمورلنك وعجزهم عن كشف اخبار جيوشه وتقدير مبلغ قوته . وذكر بعض المؤرخين ان عسكر تيمورلنك كان لما أسرسلطان العثمانيين اربعمائة الف فارس وستمائة الف راجل . وذكر ابن حجر عن ابن الشحنة عن الخوارزمي ان ديوان الملك اشتمل على ثمان مائة الف مقاتل ، وعلى كل فسكره كان بضع مئات الالوف .

لما بلغ تيمورلنك ما فعل الخلبيون بقصاده زحف الى قرية حيلان واحاط بمدينة حلب ونهب ما حولها من الضياع ، فخرج عساكر حلب وسائر النواب بعساكرهم ، وخرج لقتال تيمورلنك من أهل حلب حتى النساء والصبيان ، ووقعوا مع تيمورلنك فكان بينهم ساعة تشيب منها النواصي ، وقد دهمتهم عساكر تيمورلنك كأفواج البحر المتلاطمة ، فلم تثبت معهم عساكر حلب وولوا على أعقابهم مديرين الى المدينة ، وقد داست حوافر الخيل أجساد العامة ، وكان احتفى بالمزارات والمساجد الجم الغفير من النساء والاطفال ، فدخل النار اليهم وأسروهم وقرنوه بالحبال وأسرفوا في قتل النساء والرجال ، وصارت الابكار تفض في المساجد وآبأوهن يشاهدونهن ، ولم يرموا حرمة الجوامع وأصبحت كالمجزرة من القتل واستمر ذلك بتزايد أربعة ايام . وفي كنفوز الذهب ان جيش تيمورلنك لما دخل الى حلب نهب وأحرق وسبي وقتل وصاروا يأخذون المرأة وبعبها ولدها الصغير على يدها فيلقونه من يدها وينعلون بها ما لا يليق ذكره ، فلجأ النساء عند ذلك الى جامعها ظناً منهن ان هذا يقين من أيدي الكفرة وصارت المرأة تطلي وجهها بطين او بشيء حتى لا ترى بشرتها من حسنها ، فيأتيه الله اليها ويغسل وجهها ويجمعها في الجامع . قال : وحكى بعض من حضر الوقائع بان تيمور عرض الاسرى من بلاد الشام ونواحيها فكانوا ثلاثمائة الف اسير وستين الف اسير .

رأى دمر دأش نائب حلب عين القلب فزلس من القلعة هو وبقية النواب ، واخذوا في رغابهم مناديل وتوجهوا الى تيمورلنك يطلبون منه الامان ، فلما مثلوا بين يديه خلع عليهم أقبية مخمل احمر والبسهم تيجاناً مذهبة ، وقال لهم : انتم صرتم نوابي ،

ثم ارسل معهم جماعة من امرائه يتسلون القلعة ، وكان فيها من الاموال والذخائر والحلي والسلاح ما تعجب الملك من كثرته ، حتى اخبر بعض اخصائه انه قال : ما كنت اظن ان في الدنيا قلعة فيها هذه الذخائر ، فاستنزلوا من كان بها وهم في قيود وغدر بهم بعد ان آمنهم ، واخذ جميع ما كان فيها من الاموال والمتاع ثم خرب القلعة واحرق المدينة . واستمر مقيماً على حلب نحو شهر ، وعسكره ينهبون القرى التي حول المدينة ويقطعون الاشجار التي بها ويهدمون البيوت ، وقد اسرفوا في القتل ونهب الاموال ، وصارت الارجل لا تخطى الا على جثة انسان لكثرة القتلى ، حتى قيل انه بنى من رؤوس القتلى عشرة مآذن ، دور كل مئذنة نحو عشرين ذراعاً ، وضوعدها في الهواء مثل ذلك ، وجعلوا الوجوه فيها بارزة تسفو عليها الرياح وتركوا اجساد القتلى في الفلاة تنهشها الكلاب والوحوش . فكان عدة من قتل في هذه الواقعة من اهل حلب من صغار وكبار ونساء ورجال نحواً من عشرين الف انسان ، عدا من هلك من الناس تحت ارجل الخيول عند اقتحام ابواب المدينة وقت الهزيمة وهلك من الجوع والعطش اكثر من ذلك — هذا ما قاله ابن تغري بردي وابن حجر وابن اياس وعنه نلخص . وقال ابن حجر : ان اعظم الاسباب في خذلان العسكر الاسلامي ما كان دمر داش نائب حلب اعتمده من القاء الفتنة بين التركمان والعرب حتى اعانه بعض التركمان على اموال نعيم فنهبها فغضب نعيم من ذلك وسار قبل حضور تيورلنك فلم يحضر الواقعة احد من العرب . وقال بعضهم : ان دمر داش كان باطن تيورلنك لكثرة ما كان تيورلنك خدعه ومناه .

تيورلنك على حماة	ووصل تيورلنك الى حماة وسلمية فأرسل جماعة من عسكره
وسلمية وحمص	الى نحو طرابلس فتأهوا عن الطريق فدخلوا في وادي بين
	جبلين فوثب عليهم جماعة من عربان جبل نابلس فقتلوا منهم جماعة كثيرة بالنشاب
	والحجارة فولوا مدبرين . وذكروا ان ابن رمضان امير التركمان جمع عساكره وجاء
	حلب بعد رحيل تيورلنك وطرد من بها من عساكر تيورلنك النازلين بحلب . وفعل
	تيورلنك باهل حماة كما فعل باهل حلب من القتل والنهب واحرق معظمها ، ولم تطل

يده الى حمص فوهيها كما قال خالد بن الوليد . قال ابن حجر : وذكر بعض من يوثق به انه قرأ في الخائط القبلي بالجامع الأموي النوري بحجة منقوشة على رخامة بالفارسي ما نصه : ان الله يسر لنا فتح البلاد والممالك حتى انتهى استخلاصنا الى بغداد ، فحاورنا سلطان مصر والشام فراسلناه لنتم بيننا المودة فقتلوا رسلنا ، فظفرت طائفة من البركان بجماعة من اصلنا فسيجروهم ، فتوجهنا لاستخلاص قريبنا من ايدي مخالفينا وانفق في ذلك نزولنا بحجة في العشرين من شهر ربيع الآخرة .

تيمورلنك على . (وجاء تيمورلنك دمشق فازل عند سفح جبل الثلج (الشيخ)
دمشق (اي في غربي دمشق سيفه قطنا واقليم البلان الى ميسنوت
وقوي عزمه على فتحها لما بلغه ان الملك فر منها الى مصر فأرسل تيمور الى نائب
دمشق رسولا من قبله فقتله قبل ان يسمع كلامه . جرى في ذلك على ماجرى عليه
نائب حلب فزاد تيمورلنك حنقا .

ومن الغريب ان نائبي حلب ودمشق لم يقدر ا قوة تيمورلنك حتى قدرها وهي
منهما على قيد غلوة وظنا باعتصامهما في قلعتي المدينة وبأقليل ممن عندهما من العسكر
واحداث البلدين يستطيعان ان يتغلبا على جيوش تيمورلنك المؤلفة كما قال عربشاه :
من رجال توران ، وابطال ايران ، ونمور تركستان ، وفهود بلخشان ، وصقور المذشت
والخطا ، ونسور المغول ، وكواسر اجتا ، وافاعي نخند ، وثمايين ابدكاث ، وهوام
خوارزم ، وجوارح جرجان ، وعقبان صغانيان ، وضواري حصارشادمان ، وفوارس
فارس واسود خراسان ، وضباع الجبل وليوث مازندران ، وسباع الجبال وتماسيح
رستمدر وطالقان ، واهل قبائل خوز وكرمان ، وطاس ارباب طيالس اصهبان ،
وذئاب الري وغزني وهمدان ، وافيال الهند والسند وملتان ، وكباش ولايات
المور وتيران شواحق الغور وعقارب شهرزور ، وحشرات عسكر مكرم وجندي سابور .

قوم اذا الشر ابدى ناجذيه لهم طاروا اليه زرافات ووحداً
مع ما أضيف اليهم من اعيار الخدم ، وفواعل التراكمة والاباش والحشم ،

وكلاب النهاب من رعا ع العرب وهمج العجم ، وحنانة عباد الاوثان ، وانجاس مجوس
الام ، ما لا يكثفه ديوان ، ولا يحيط به دفتر حسابان اه .

غلطة ارتكبها نائب دمشق المغرور بقوة سلطانه ومن معه من المتعصبة والمتلصصة
وارباب الدعارة من الشطار والاحداث الاغيار ، قضت على اعظم مدينة في الارض
كانت في غابر الايام . وذكر ابن اياس : انه كان بين اهل دمشق وبين عسكر تيمورلنك
في اول يوم واقعة عظيمة فقتل من عسكر تيمورلنك نحو الف انسان ، فارسل تيمورلنك
يطلب من اعيان دمشق رجلاً من عقلائهم ، يمشي بينه وبين اهل دمشق في الصلح فلما اتى
قاصد تيمورلنك بهذه الرسالة اشتور اهل دمشق فيمن يرسلونه الى تيمورلنك فوقع الاختيار
ان يرسلوا اليه القاضي نقي الدين بن مفلح الحنبلي فانه كان انساناً طلق اللسان يعرف
بالتركي وباللسان العجمي فأرخواه من اعلا السور بسرياق ضخمة ومعه خمسة انفس من
اعيان دمشق ، فغاب عند تيمورلنك ساعة ثم رجع من عنده فأخبر بان تيمورلنك تلتطف
معه في القول ، وقال له : هذه بلد فيها الانبياء وقد اعنقها لهم . وشرح من محاسن
تيمورلنك شيئاً كثيراً ، وجعل يخذل اهل الشام عن قتاله ويرغبهم في طاعته ، فصار
اهل البلد فرقتين فرقة ترى ما رآه ابن مفلح وفرقة ترى محاربته وكان اكثر اهل
البلد يرون مخالفة ابن مفلح ، ثم غاب رأيه ورأي اصحابه ، فقصد ان يفتح باب النصر
فمنعه من ذلك نائب قلعة دمشق وقال لهم : ان فعلتم ذلك احرقت البلدة جميعها ،
واكن نائب القلعة لما رأى عين الغلب سلم اليهم القلعة بعد تسعة وعشرين يوماً قال :
ثم قبض تيمورلنك على ابن مفلح واصحابه واودعهم في الحديد وآجر الطب الكي .

وصف افعال تيمورلنك } وذكر ابن تغري بردي انه لما قدم الخبر على اهل
في دمشق } دمشق بأخذ حلب نودى في الناس بالرحيل من
ظاهرها الى داخل المدينة والاستعداد لقتال العدو ، فأخذوا في ذلك فقدم عليهم المنهزمون
من حماة فعظم خوف اهلها ، وهموا بالجللاء فمنعوا من ذلك ، ونودى من سافر نهب
فعاد اليها من كان خرج منها ، وحصنت دمشق ونصبت المناجيق على قلعة دمشق
ونصبت المكاحل على اسوار المدينة واستعدوا للقتال ثم نزل تيمور بعساكره على قطنا ،

فملاّت عساكره الارض كثرة ، وركب طائفة منهم لكشف الخبر فوجدوا السلطان والامراء قد تهيأوا للقتال ، وصفت العساكر السلطانية فبرز اليهم التمرية وصدموهم صدمة هائلة ، وثبت كل من العسكرين ساعة فكانت بينهم وقعة انكسرت فيها ميسرة السلطان ، وانهمزم العسكر الغزاوي وغيرهم الى ناحية حوران وجرح جماعة وحمل تيمور بنفسه حملة عظيمة شديدة لياخذ دمشق ، فدفعته ميمنة السلطان باسنان الرماح حتى اعادوه الى موقفه ، ونزل كل من العسكرين بمعسكره وبعث تيمور الى السلطان في طلب الصلح وارسال اطمش احد اصحابه اليه وانه هو ايضا يبعث من عنده من الامراء المقبوض عليهم في واقعة حلب . ثم حرب الملك لانه بلغه انهم يسلطون غيره في مصر فاراً بجماعته .

وكان اجتمع في دمشق خلائق كثيرة من الحلبين والحويين والحمصيين واهل القرى ممن خرج جافلاً من تيمور ، ما عدا العساكر الذين خلفوا بدمشق من اهل دمشق ولما اصبحوا وقد فقدوا السلطان والامراء والنائب غلقوا ابواب دمشق ، وركبوا اسوار البلد ونادوا بالجهاد ، فتهيأ اهل دمشق للقتال وزحف عليهم تيمور بعساكره فقاتل الدمشقيون من اعلى السور اشد قتالاً ، وردوهم عن السور والخندق ، واسروا منهم جماعة ممن اقتحم باب دمشق ، واخذوا من خيولهم عدة كبيرة وقتلوا منهم نحو الالف وادخلوا رؤوسهم الى المدينة ، ولما اعياى تيمور امرهم جعل يخاضعهم فأرسل يريد الصلح .

وطلب تيمور الطقزات اي التسعة الاصناف من الماء كحل والمشروب والمبلوس وغيره وهذه كانت عادته في كل بلد ينتقم صلحاً . فأجابه الدمشقيون الى ما طلب باقناع ابن مفلح لهم ونقرر ان يجبي تيمور من دمشق الف الف دينار ففرض على الناس فقاموا به من غير مشقة لكثرة اموالهم ، فلم يرض تيمور وقال : ان المطلوب بحساب بلاده وهو عشرة آلاف الف دينار او الف تومان والتومان عبارة عن عشرة آلاف دينار من الذهب . قال ابن حجر : واستقر الصلح على الف الف دينار فتوزعت على اهل البلد ثم روجع تيمور انك فتسخطها وقال : انه انما طلب الف تومان فنزل بالناس باستخراج هذا منهم ثانياً بلاء عظيم ، ولما اخذه ابن مفلح

وحمله الى تيمور قال هذا لابن مفلح واصحابه : هذا المال لحسابنا انما هو ثلاثة آلاف دينار وقد بقي عليكم سبعة آلاف دينار وظهر لي انكم عجزتم ، ثم سلمت اموال المصريين وكراعهم وسلاحهم واموال الذين فروا من دمشق ، ولما كمل ذلك الزمهم ان يخرجوا اليه جميع ما في البلد من السلاح جليها وحقيرها فأخرجوه كله ، فلما فرغ من ذلك كله قبض على ابن مفلح ورفعته والزمهم ان يكتبوا له جميع خطط دمشق وحاراتها وسككها ، فكتبوا ذلك ودفعوه اليه ، ففرقه على امرائه وقسم البلد بينهم فساروا اليها بماليتهم وحواشيهم ونزل كل امير في قسمة وطلب من فيه وطالبهم بالاموال فيئذ حلّ باهل دمشق من البلاء ما لا يوصف ، وجرى عليهم من انواع العذاب وهتك الاعراض شيء نقشعر منه الجلود ، واستمر هذا البلاء تسعة عشر يوماً فهلك في هذه المدة بدمشق بالعقوبة والجوع خاق لا يعلم عددهم ، ثم امر امراءه فدخلوا دمشق ومعهم سيوف مسلولة مشهورة وهم مشاة فنهبوا ما قدروا عليه من آلات الدور وغيرها وسبوا نساء دمشق باجمعين ، وساقوا الاولاد والرجال وتركوا من الصغار من عمره خمس سنين فما دونها ، وساقوا الجميع مربوطين في الجبال ، ثم طرحوا النار في المنازل والدور والمساجد ، وكان يوماً عاصف الريح فعم الحريق جميع البلد حتى صار لهيب النار يكاد ان يرتفع الى السحاب ، وعملت النار في البلد ثلاثة ايام بلياليها ، ثم رحل تيمور عنها بعد ان اقام ثمانين يوماً وقد احترقت كلها وسقطت سقوف جامع بني أمية من الحريق وزالت ابوابه ونظف رخامه ولم يبق غير جدره قائمة ، وذهبت مساجد دمشق ودورها وقياسرها وحماماتها وصارت اطلالاً بالية ورسوماً خالية ولم يبق بها الا اطفال . قال ابن تغري بردي : ولقد ترك المصريون دمشق اكلة لتيمور ، وكانت يوم ذاك احسن مدن الدنيا واعمرها .

قال بهاء الدين البهائي يرثي دمشق المظلومة ويصف ما حل بها من النار في سنة ثلاث وثمانمائة ويذكر حلب وحماة :

لطني على تلك البروج وحسناها	حفت بهن طوارق الحدثان
لطني على وادي دمشق ولطفه	وتبدل الغزلان بالثيران
وشكا الحريق فؤادها لما رأت	نور المنازل ابدلت بدخان

جنايتها في الماء منها اضرمت
كانت معاصم نهرها فضية
ما ذاك الا تركهم ولجت بها
كرهت جداولها حوافر خيلهم
خافت حدود الارض من افعالهم
فمجت للجنات في النيران
والآن صرن كذائب العقيان
فتخضبت منها باحمر قات
فتسابت هرباً كحيل رهات
فتلثمت بعوارض الزيجات

* * *

لوعايت عيناك جامع نكز
وتعطش المرجين من اورادها
لاتت جفونك بالدموع ملوناً
قطرات جفن ترحمت عن حرقتي
ابني امية ابن يمن وليدكم
شربوا الخمر بصحنه حتى انتشوا
لم يرحموا طفلاً بكى فقلوبهم
قصوا جناح النسر بعد نهوضه
الواحه اجرت دموعي اسطراً
ان انكروا يوم الحساب فعالم
لهفي على كتب العلوم ودرسها
اعروسنا لك أسوة بجمائنا
ثابت بدور الحسن عن هالاتها
ناحت نواخير الرياض لفقدهم
حزني على الشهباء قبل حمائنا
لاتدعي الاحزان يا شقراءنا
رتعت كلاب المغل في غزلانها
لهفي عليك منازلًا ومنازهاً
والبركتين بحسنها الفتات
وتهدم الخراب والايوان
دمعاً حكي اللولو على المرجات
فكأنهن قلائد العقبات
والمغل ثقل في ذرى الاركان
القوا عرابدهم على النسوان
في الفتك صخر لا ابو سفيان
يا ليمه لو فاز بالطيران
كتبت على اللوخين من اجناني
فشهيدنا عثمان ذو القرائن
صارت معانيها بغير بهان
في ذا المصاب فانما اختان
فاستبدلت من عزها بهوان
فكأنها الافلاك في الدوران
هو اول وهي الحل الثاني
السبق للشهباء في الاحزان
وتحكمت في الحور والولدان
ومقام فردوس وباب جنان

ثم رجع ورثي دمشق فقال :

لم ادر من ابكي واندب حسرة للقصر للشرفين الميدات
للجبهة الغراء ام خلخالها للزرة الفيحا ام اللوات

الخراب الاعظم واخلاق وعلى ما منيت به دمشق من قتل سكانها وسي
تيمور ونجاة فلسطين منه نسائها واولادها ، واحراق مصانعها وبهوتها ،
واستخراج أموالها وطرائفها ، أصابتها من تيمورلنك مصيبة لا تقل عن تلك في ارجاعها
القهرى واضعاف مادياتها اضعافاً لا يجبر كسره في قرون واليك ما قاله ابن عربشاه
في تفصيل هذا الهول العظيم : وبينما كان رجال تيمور يحاصرون قلعة دمشق أخذ هو
يتطلب الافاضل وأصحاب الحرف والصنائع وارباب الفضائل واستمر نهب عسكر
تيمور لدمشق ثلاثة ايام ، وارتحل وجماعته وقد أخذ من نفائس الاموال فوق طاقتهم ،
وتحملوا من ذلك ما عجزت عنه قوى استطاعتهم ، فجعلوا يطرحون ذلك في الدروب
والمنازل ، ويلقونه شيئاً فشيئاً في أوعار المراحل ، وذلك لكثرة الحمل وقلة الحوامل ،
وأصبحت القفار والبراري والجبال والصحاري من الامتعة والاقشة كأنها سوق
الدهشة ، وكأن الارض فتحت خزائنها ، وأظهرت من المعادن والنفقات كامناتها ،
وأخذ تيمور من دمشق أرباب النضل وأهل الصنائع وكل ماهرين في فن من الفنون
بارع من النساجين والحياطين والحجارين والتجارين والاقباعية والبيطرة والخيمية
والنقاشين والقواسين والبازدارية وبالجملة اهل اي فن كان ، وأخذ جملة من العلماء
وربما أخذ أناساً من الاعيان والسادة النبلاء ، وكذلك كل امير من امرائه وزعيم
من زعمائه ، اخذ من الفقهاء والعلماء وحفاظ القرآن والفضلاء واهل الحرف والصناعات
والعبيد والنساء والصبيان والبنات ما لا يسعه الضبط .

ونقل في الضوء اللامع ان تيمور كان يسلك الجد مع القريب والبعيد ولا يجب
المزاح ويحب الشطرنج وله فيها يد طولى ومهارة زائدة ، وزاد فيها جملاً وبغلاً ، وجعل
رفعته عشرة في احد عشر بحيث لم يكن بلاعبه فيه الا افراد قال : وكان ذا رأي
صائب ، ومكائد في الحروب عجيبة ، وفراسة قل ان تحطى ، عارفاً بالتواريخ لادمانه

على سماعها ، لا يخلو مجلسه عن قراءة شيء منها سراً وحضراً ، مغرى بمن له معرفة بصناعة ما اذا كان حاذقاً فيها ، أمياً لا يحسن الكتابة ، حاذقاً باللغة الفارسية والتركية والمغلية خاصة ، ويعتمد قواعد جنكيزخان ويعلمها اصلاً ، ولذلك أفنى جمع جم بكفره مع ان شعائر الاسلام في بلاده ظاهرة .

ولما رحل تيمورلنك عن دمشق ، وقد أصبحت اطلالاً لا مال ولا رجال ولا مساكن ولا حيوان ، صار من بقي فيها من عسكر السلطان ومن أهلها يجتمعون ويترافقون ويخرجون من دمشق الى الديار المصرية فيخرج عليهم العربات والعشير وينهبون ما معهم ويعرونهم ولم يتركوا لهم غير اللباس في وسطهم ، فخرى عليهم من العربات والعشير ما لم يجر عليهم من عسكر تيمورلنك ، فذهبت حرمة المملكة ولم يبق للسلطان قيمة ولا للترك حرمة ، فعزم السلطان الناصر على العود الى دمشق ثم بلغه ان تيمورلنك رحل عن دمشق وهو مريض فعدل عن حملته ، وأرسل تيمورلنك الى صاحب مصر سودون تقيب قلعة دمشق يعتذر له مما قد جرى ويطلب قرينه الذي كان أسرى في ايام الملك الظاهر برقوق وانه اذا أطلقه يطلق ما عنده من الاسرى فأطلقه وكساه السلطان وأحسن اليه ، فلما وصلوا الى تيمورلنك اكرمهم وقبل مراسيم السلطان ونفارش وبكى واعتذر مما وقع منه وقال هذا كان مقدراً . رحل تيمورلنك عن دمشق ولم يتعدّها الى فلسطين وكان علماء القدس انشدوا الشيخ محمد فولاد بن عبد الله وجهزوه بمفاتيح الصخرة الى تيمور ولما بلغهم اخذه دمشق فلما كان بالطريق بلغه رجوعه فرجع .

وكانت اكثر المدن الصغرى في أواسط الشام قد خضعت وصافت بحكم الطبيعة ومنها طرابلس أحضر له منها مال وقد اجتاحت بعلبك ونهبها ، ولما وصل الجبول في عودته لم يدخلها وامر بتخريبها واحراقها ، وحرقت حلب مرة ثانية وهدم أبراج القلعة وأسوار المدينة والمساجد والجوامع والمدارس وقتل وأسركل من وجدهم في طريقه وأخذ من كان في قلعة حلب من المعتقلين خلا القضاة فأطلق الشرف موسى الانصارى والكمال عمر بن العديم وجماعة معها واخذ بقيتهم الى بلاده فمنهم من هرب من الطريق ومنهم من وصل الى بلاده . قفل تيمور راجعاً بعد ان أذاق الشام كأس

الذبل والحمام ، وربما اذا جمعت جملة بتحر بيانه لا يتأتى وقوع مثلها في مئات من الاعوام ، عملها بجيشه الجرار في عشرات من الايام .

قال تيمور : ان ما فعله كان مقدراً فكأنه شعر بعظم تبعته على عادة الفاتحين السفاكين ، بيد انه كان مغرئ بغزو المسلمين والنجلي عن غيرهم صنع ذلك في بلاد الروم وبلاد الهند وغيرها ، ولكن ما فعله لم يكن كله عن غير علم بل أخذ بما يؤخذ به كل من تنافى في الوصول الى غرض ، ويستحيل بعد ان فتحت عليه الاقاليم وفتح ثاث آسيا نقر بيا بالقيصر والسيوف وجعل جيشه مؤلفاً كالجيش العثماني من جميع العناصر التي كانت تحت حكمه ان لا يكون على شيء من العلم وبعد النظر . وكان يحبب معه في رحلاته زمرة من العلماء المحققين . ومن جملة ما قرأته في هذا الباب وهو مما ينم عن عقله وانه كان يرمي الى ان يفتح افريقية كما فتح آسيا قوله لما اجتمع بابن خلدون في هذه المدينة على ما نقل ذلك عنه تلميذه ابن ازمركاني : اين بلدك فقال ابن خلدون : بالمغرب الجواني فقال : وما معنى الجواني في وصف المغرب فقلت : هو في عرف خطابهم معناه الداخلي اي الابد - لان المغرب كله على ساحل البحر الشامي من جنوبه فالاقرب الى هنا برقة وافر يقية ، والمغرب الاوسط لسان وبلاد زناتة ، والاقصى فاس ومُرَّاكُش . وهو معنى الجواني فقال لي : واين مكان طنجة من ملك المغرب فقلت : في الزاوية التي بين البحر المحيط والخليج المسمى بالزقاق ومنها التعدية الى الاندلس لقرب مسافته لان هناك نحو العشرين ميلاً فقال : وسجلماسة فقلت في الحد ما بين الارياف والرمال من جهة الجنوب فقال : لا يقنعني هذا وأحب ان تكتب لي بلاد المغرب كلها أقاصيها وأدانيها وجبالها وأنهارها وقراها وأمصارها فقلت له : يحصل ذلك بسعادتك قال ابن خلدون : وكتب له بعد انصرافي من المجلس ما طلب من ذلك وأوعيت الغرض فيه في مختصر وجيز يكون في ثلثي عشرة من الكراريس المنصفة القطع الى ان قال : وأثقت في كسر البيت واشتغلت بما طلب مني في وصف بلاد المغرب ، فكتبته في ايام قليلة ودفعته اليه فأخذه من يدي ، وأمر موقعه بترجمته الى اللسان المغلي . ثم هرب ابن خلدون الى مصر ناجياً بنفسه من تيمور انك مخافة ان يسقط في يده أسيراً ويحمله الى بلاده ، وكان قدم له هدية

يوم اجتماعه الاول به منها علب حاوى مصرية فتحها تيمور وأطعم منها رجاله ولم يذقها ، وأهداه سجادة صلاة فوضعها الى جانبه ، وأهداه مصحفاً شريفاً فقبله ووضعها الى جانبه . وكان تيمور يتظاهر بالتدين والتصوف ويصدر عن رأي المتصوفة لانهم اعانوه بنفوذهم في العامة على تدويخ الاقطار وعقد القلوب على محبته .

ولو قدر البلاد ان يكون فيها سلطان يحسن الانتفاع بالقوة ، ويخالف ابن عثمان صاحب الروم وغيره من امراء الشرق الذين فازوا ملك مصر والشام في امر تيمورلنك قبل انهبها - جمهرة جيوشه على بلادهم ، ونظموا قواهم وهم في أرضهم وديارهم ، واستعملوا الذين تارة والشدة أخرى ، ولم يفتحوا للفتح العظيم باباً من أبواب الحجج التي يحجبهم بها في عرف السياسة والفتح ، لكانت البلاد أمنت عادة تيمورلنك او لكان اكتفى بمعاهدة تضمن له بعض الغرامات فرحل عن البلاد بسلام ، لان تيمورلنك يعرف بان بلاده ومملكته أوسع مجالاً يثيسر بقاؤها لآله لقربها من مهد عصبته ودار ملكه .

بعد انه لم يكن في مصر ولا الشام على ذلك العهد رجل سياسي بعيد النظر والغور في السياسة كالظاهر برقوق والظاهر يهرس مثلاً فكان ما كان لان البلاد أصبحت بلا راع يرعاها ، وأصبح الحكم للماليك الطبقة الثانية من عماله ، ولمن يحمسون لأول وهلة ثم يقودون بلادهم بجهلهم الى الخراب . والغالب ان السبب في مغادرة تيمور البلاد انتشار الجراد فيها حتى اكل الناس أولادهم فأصبح من المتعذر عليه بعد ذلك تموين جيشه العظيم وبهذا الرأي قال ابن حجر فذكر ان رحيل تيمورلنك انما كان لضيق العيش على من معه فخشي ان يهلكوا جوعاً .

وقيل ان تيمورلنك أراد ان يفتح مصر فأرسل جماعة من قواده يكشفون له الطرق ، فلما عادوا قصوا عليه مارأوه وهو ساكت حتى أتوا على حديثهم فقال لهم : ان مصر لا تنتج من الزبل تحتاج الى اسطول لفتح من البحر وبذلك صرف النظر عن فتحها ، وكهذا نجت مدن الجنوب في الشام من تخريبه وكذلك مصر وما اليها من بلاد افر بقية ففتحت الدولة الشركسية من عادية جيوشه .



عهد المماليك الاخير

٨٠٣ الى ٩٢٢



البلاد بعد الفتنه التيمورية } خرجت حلب وحماة ودمشق خصوصاً من بين مدن
ومخامرة العمال . } الشام بعد فتنه تيمور كالهيكل العظمي للاحم ولا دم
وأصابت بنقص في الانفس وخراب في العمران ، يبكي لها كل من عرف ما كانت عليه قبل تلك
الحقبة المشؤومة من العمران وكثرة السكان ، ولم يقيض للبلاد سلطان عاقل قوي يداوي
جراحاتها فبقيت نافرة نفارة . ولما رحل تيمورلنك عن دمشق نصب صاحب مصر
المقر السيفي تغري بردي في نيابة دمشق ورسم له ان يخرج الى الشام من يومه ليعمر
ما افسده تيمورلنك من عاصمة البلاد ، ونصب نواباً آخرين على نيابات الشام ممن كانوا
في أسر تيمورلنك فاطلقهم ، مثل نائب الكرك ونائب طرابلس ونائب حماة ونائب بعلبك
ونائب صفد وغيرهم ، وامرهم ان يعمروا البلاد المخربة وهيئات ان يعمر في قرب
ما خربه تيمورلنك في ثلاثة اشهر . بيد ان الضعف المتأصل في جسم المملكة ابقى تلك
الاوامر اللطيفة خبراً على ورق وطمع النواب في البلاد .

رجم اهل دمشق (٨٠٤) نائب الشام تغري بردي وارادوا قتله فهرب الى نائب
حلب فلما بلغ سلطان مصر ذلك ارسل تقليداً الى المقر السيفي اقبيننا الجمالي باب
يسنقر نائب الشام . وخامراً امير غزة وخرج عن الطاعة واسمه الامير صرق
الظاهري فادفع الامير جرم وعرباب نابلس مع صرق ، فانكسر صرق ، وقتل

في المعركة ، وخرج ايضاً عن الطاعة نائب طرابلس شيخ المحمودي وامسك حاجب طرابلس جماعة من امرائها سجنهم بسجن المرقب واستخدم جماعة كثيرة من التركمان والعشير وعمل له برك عظيم . وخرج دمرداش نائب حلب الى الامير دقماق الحمدي الذي خلفه في نيابتها ووقع معه واقعة قوية فانكسر دمرداش ونهب بركة وهرب الى ملطية . وفي سنة ٨٠٦ نازل الفرنج طرابلس فأقاموا عليها ثلاثة ايام فبلغ ذلك نائب الشام فنهض اليهم مسرعاً فانهزموا فأوقع بهم وكان ذلك مبدءاً لسعادته . ثم توجه الفرنج الى بيروت وكانوا في نحو من اربعين مركباً فواقعهم دمرداش ومن معه من الجنود والمطوعة وقتل بعض الناس من الفريقين وجرح الكثير ، وكان نائب الشام بعلبك فجاءه الخبر فتوجه من وقته وارسل الى العسكر يستنجده ومضى على طريق صعبة الى ان وصل الى طرابلس ثم توجه من فوره الى بيروت فوجدهم قد نهبوا ما فيها وأحرقوها وكان أهلها قد هربوا الى الجبال الا المقاتلة منهم ، فوقع بين الفريقين مقتلة عظيمة فأمر النائب باحراق قتلى الفرنج ثم توجه الى صيدا ومعه العساكر فوصل اليها وقد أخذ الفرنج من البهار الذي للكتلان شيئاً كثيراً فوصل النائب بالعسكر فوجدهم في القتال مع أهل صيدا ولم يتقدمه احد بل كان معه عشرة انفس فحمل على الفرنج فكسروهم وفروا في مراكبهم راجعين الى ناحية بيروت ثم نزلوا لأخذ الماء فتبعهم بعض اصحاب النائب فغلبوه على الماء واخذوا حاجتهم وتوجهوا الى جهة طرابلس — نقلته من ابن حجر .

ودامت الفوضى في البلاد حتى خامر النواب الا قليلاً في الشام (٨٠٦) واصبح الناس فرقتين فرقة مع الملك الناصر وفرقة عليه الى ان خلع سنة ٨٠٨ وفي سنة ٨٠٦ اوقع نائب الشام بعرب آل فضل وكان كبيرهم علي بن فضل قد قسم بلاد الشام سنة ثلاث وثمان مائة فطمع ان يفعل ذلك هذه السنة فبلغ هذا النائب فقبض عليه ونهب بيوته وفيها وقع بين نعيم امير عرب آل فضل وبين حجا بن سالم الدوكاري التركماني واقعة عظيمة قتل فيها ابن سالم وانكسر عسكره وغلب نعيم وارسل برأس ابن سالم الى القاهرة . وكان عسكر حجا طاف في اعمال حلب وافسد فيها الفساد الفاحش وذلك في بلاد عزاز وغيرها وكان وقع بينه وبين نعيم قتال بين جعفر

وابلستين واستمر اياماً الى ان قتل حجا . وفي هذه السنة وقع بين دمرداش والتركان وقعة عظيمة فانكسر دمرداش . وفي ايام الملك الناصر فرج بن برفوق نصب الامير نوروز الحافظي على دمشق والامير جكم العوضي نائباً على حلب فلما توجهها الى عملها اظهر كل منها العصيان والمخامرة على السلطان فقام جكم العوضي بحلب وتبيل الامراء الارض بين يديه وتلقب بالملك العادل ووضع يده على البلاد الحلبية وكتب الى نواب الشامات فأطاعوه الا القليل منهم واخرج اوقاف الناس وجعلها اقطاعات وفرقها مثالات على عسكر حلب وصار يحكم من الشام الى الفرات فانتزعت يد الملك الناصر من البلاد الشامية والحلبية وصار حكمه لا يجاوز غزة .

وفارق جكم حلب (٨٠٧) فثار بها عدة من امراءها ورفعوا لواء السلطان بالقلعة فاجتمع اليهم العسكر وتحالفوا على طاعة السلطان وقام بتدبير امور حلب الامير بونس الحافظي وامتدت ايدي عرب ابن نعير والتركان الى معاملة حلب فقسموها ولم يدعوا لاحد من الامراء والاجناد شيئاً . ومدح المؤرخون جكم بانه كان يتحرى العدل ويحب الانصاف ولا يتمكن احد معه من الفساد .

وفي سنة ٨٠٧ حاصر دمرداش نائب حلب انطاكية وبها فارس بن صاحب الباز التركاني فأقام مدة ولم يظفر بها بطائل وكان جكم مع فارس فتوجه جكم بعده الى طرابلس فغلب عليها وطرد عنها وهو شيخ السليمانى ثم توجه الى حلب فنازلها وبها دمرداش فالتقيا وجرى بينهما قتال كثير فانكسر دمرداش وخرج من حلب فركب البحر الى القاهرة وملكها جكم ثانية ثم خرج الى جهة البيرة وغزا التركمان وأسروا منهم جمعا كبيرا .

والثالث الامير نوروز الحافظي على الامير شيخ الحمودي نائب طرابلس واظهرا العصيان والنف عليها جماعة من النواب وصاروا يأكلون البلاد الشامية والحلبية من غزة الى الفرات وليس بيد الملك الناصر سوى مصر وأعمالها . وخربت صفد واعمالها خراباً شديداً وذلك لان شيخ الحمودي ومن معه من النواب والتركان حاصروها مدة لان واليها بكتمر جلقى لم يوافقهم على رغائبهم من جهة سلطان مصر . وخرج نعير بن مهنا الحيارى البدوي (٨٠٨) على أعمال دمشق فأخرج يلبغا

العساكر وتواقعوا بالقرب من قرية عذراء خارج دمشق فانهمزمت عساكر الشام وامراء غريب بيروت واستولت العرب على دمشق وزادوا في الجور والضرب . واستولى التركمان على كثير من البلاد الشمالية وكان رأسهم اياس ووصلوا الى حماة فغلبوا عليها ثم ردوا عنها .

وفى سنة ٨٠٨ كانت الواقعة العظمى بين جكم نائب حلب والتركمان ورئيسهم فارس ويدعى اياس بن صاحب الباز صاحب انطاكية وغيرها وكان قد غلب على اكثر البلاد الشمالية ودخل حماة وملكها وكان عسكره يزيد على ثلاثة آلاف فارس غير الرجال فواقعه جكم بمن معه فكسره كسرة فاحشة وعظم قدر جكم بذلك وطار صيته ووقع رعبه في قلوب التركمان وغيرهم ، ثم انه واقع نعيم ومن معه من العرب فكسره ، ثم توجه جكم الى انطاكية وأوقع بالتركمان فسألوه الامان وان يمكنهم من الخروج الى الجبال والى مواطنهم القديمة ويسلموا اليه جميع القلاع التي بأيديهم فنقزر الحال على ذلك وأرسل الى كل قلعة واحداً من جهته ودخل الى حلب مؤيداً منصوراً ، فسلم فارس بن صاحب الباز لغازي بن اوزر التركماني وكان بينهما عداوة فقتله وقتل ولده وجملة من جماعته وكان اميراً كبيراً شجاعاً بطلاً اسجد بانطاكية مدرسة بجوار تربة حبيب النجار . وكان قد استولى على معظم معامل حلب ومعاملة طرابلس فصار في حكمه انطاكية والقصير والشعر وبغراس وحارم وصهيون واللاذقية وجبله وغير ذلك ، فلما أحيط به تسلم جكم البلاد ورجعت معاملته كل بلد اليها على ما كانت اولاً .

وبرز جكم الى دمشق فالتقى مع ابن صاحب الباز وجمعهم من التركمان فكسروهم كسرة ثانية وضرب أعناق كثير منهم صبراً وقتل نعيماً وأرسل برأسه الى القاهرة واستعد نائب الشام لقتاله ووصل توقيع دمرداش بنيابة حلب عوضاً عن جكم من القاهرة فتجهز صحبة نائب الشام ثم وصل اليهم المجل بن نعيم طالباً ثار ابيه وكذلك ابن صاحب الباز طالباً ثار ابيه وأخيه ، وكان معهم من العرب والتركمان خلق كثير ،

ووصل توقيع المعجل بن نعيم بأمره ووصل نائب الشام ومن معه الى حمص وتكاتبوا مع جكم في الصلح ووقعت الواقعة بينهم فانكسر عسكر اهل دمشق ، ووصل شيخ ودمرداش الى دمشق منهزمين ، وكانت الواقعة في الرستن ثم رحل نائب دمشق الى مصر ، ودخل جكم الى دمشق وبالغ في الزجر عن الظلم وعاقب على شرب الخمر فأفحش حتي لم يتظاهر بها احد وكانت قد فشت بين الناس .

ذكر هذا ابن حجر وقال في وفيات سنة ٨٠٨ ان فارس صاحب الباز التركماني كان ابوه من امراء التركمان فلما وقعت الفتنه اللنكية جمع ولده هذا فاستولى على انطاكية ثم قوي امره فاستولى على القصير ثم وقع بينه وبين دمرداش في سنة ست وثمان مائة فانكسر دمرداش ثم جمع دمرداش لعياله بانطاكية فحاصره وكان جكم مع فارس ثم رجع عنه بغير طائل فاستولى فارس على البلاد الغربية كلها وعظم شأنه فبنى في انطاكية مدرسة حسنة واستولى على صهيون وغيرها من عمل طرابلس وصارت نواب حلب كالمحصورين معه لما استولى على اعمالهم ، فلما ولي جكم نيابة حلب تجرد له وواقعه فيزمه ونهب ما معه واستمر جكم وراءه الى ان حاصره بانطاكية سنة ثمان وثمان مائة ولم تزل الحروب بينهما الى ان طلب فارس الامان فأمنه ونزل اليه وسلمه لغازي بن اورت وكان عدوه فقتله وقتل معه ابنه وجماعة منهم في شوال واستنقذ جكم البلاد كلها من ايدي ابن صاحب الباز وهي انطاكية والقصير والشعر وحارم وغير ذلك وانكسرت بقتل فارس شوكة التركمان .

وفي سنة ٨٠٩ بعث شيخ الى نابلس جيشاً قبضوا على عبد الرحمن بن المhtar وأحضروه له الى صفد فقتل بحضرته وكان المذكور قد عصى بأخرة على الناصر وانفق شيخ ونوروز فأرسله الى نابلس فصادر أهلها وبالغ في ظلمهم فكانت تلك عاقبته . ووقعت وقعة بين شيخ والحمزاوي عند حلبين فقتل في المعركة أناس من الامراء وقبض على الحمزاوي . واستولى تمرغا المشطوب على حلب وذلك انه لما هرب من الوقعة التي كانت بين جكم وبين قرابلك جاء مع طائفة من المغل الى جهة حلب فوجد ابن دلغادر قد جمع التركمان وحاصرها فأوقع بهم وكسرهم ودخل البلد وعصت عليه

القلعة ولما بلغهم قتل جكم سلموها له فاستولى على ما بها من الخواصل وعلى ما يجلب ايضاً من الخيول والماليك المخلفة عن جكم .

ثم قدم الملك الناصر من مصر فانهزمت العرب ودخل السلطان دمشق وبني ما كان هدم وامر الناس بالرجوع . وفي سنة ٨٠٩ ثارت طائفة من الماليك ومعهم عامة حلب على شر كس المصارع . وهكذا كثرت الفتن في الشام في العقد الاول من القرن التاسع وكما قوي امير قتل رجال الامير الذي كان قبله ، وشأن الظلم في الرعايا عجيب والمصادرات قائمة على ساق وقدم ، وبالجملة فقد كانت الدولة التي تولت امر مصر والشام على حالة سيئة وكثير من ملوكها لم يتم لهم في الملك أشير معدودة ، وناهيك بهذا التبديل قال ابن تغري بردي : وكثرت المصادرات بدمشق وغيرها في ايام هذه الفتن (٨١٠) وأخرجت الاوقاف عن اربابها وخربت بلاد كثيرة بمصر والشام لكثرة التجاريد وسرعة انتقال الامراء من إقطاع الى إقطاع .

قال ابن حجر : : وفيها كملت عمارة قلعة دمشق وكانت ابتداءها في العام الماضي وصرف على عمارتها مال كثير جداً وظلم بسببه اكثر الخلق من الشاميين وغيرهم . وبسط نوره زيده في المصادرات بدمشق فبالغ في ذلك حتى ان بعض التجار كانوا يترحمون على تيمورلوك وفرض على جميع الجهات مثليها وثناول حتى الخانات والحمائم وارباب المعاش حتى الذين يبيعون الخزف تحت القلعة حتى باعة الشرطين حتى الباعة في الطبالي حتى انقطعت الاسباب وتعطلت المعاش .

ونازل التركمان حلب (٨١٠) فحصرها علي بك بن خليل بن قراجا بن دلفادر ومعه عدة من امراء التركمان وعدة من امراء العرب ونازلوا حلب اياماً وقاتلهم العوام ومن بها ، وكان بها يومئذ قربغا المشطوب فدخلوا ولم يظفروا بطائل ، وكان لعلي بك ولد محبوب بقلعة حلب فصانع اهل حلب اياه بارساله مكرماً فما افاد ذلك وجد في الحصار ونازل المعجل بن نعيم حماة وحاصرها ، ونهب علي بك ومن معه القرى التي حول حلب وجدوا في الحصار وبالق اهل حلب بالذبح عن انفسهم واشتدوا للقتال وهان عليهم الامر خشية على اموالهم وحريمهم بنحيت انهم كانوا كل يوم لا يرجعون

الا وقد انكروا في التركمان نكاية كبيرة ، واوقع نوروز بالمعجل ومن معه من العرب على حماة وكسرهم فرحلوا .

وجرت في هذه السنة وقعة في وادي عقبة من كروم بعلبك بين انصار السلطان وبعض امراء المماليك الفارين من القاهرة فكأثرهم نوروز ومن معه ثلاثة وقتل منهم وحملت رؤوسهم الى مصر . وتضافي شيخ ونوروز بعد الخلاف وتوجها بعسكرهما الى بلاد ابن بشارة فآوسعوها نهباً وهرب ابن بشارة . وقصد قمر بغا المشطوب نائب حلب النزول على التركمان فبيتوه وكسروه ورجع منهزماً ، ونهب نوروز للعرب ابلاداً كثيرة فكبسوا عليها واستنقذوها وحاصر شاهين دويدار شيخ صهيون فغلب عليها فضربت البشائر بدمشق .

وقال ابن اياس : ومن الوقائع الغربية . جاءت الاخبار (٨١١) بان جاليش (اعلام) الامير شيخ المحمودي والامير نوروز قد جاء من غزة وهم في عساكر لا تحصى فلما سمع الملك الناصر بذلك خرج هو والامراء على الهجن فتلاقى العسكران على السعيدية وكان بينهما واقعة عظيمة فانكسر الملك الناصر ورجع الى القاهرة وهو مهزوم فتبعه شيخ ونوروز ودخلا الى القاهرة فقوي حال الملك الناصر على شيخ ونوروز فكسرهما كسرة قوية فرجعا الى الشام منهزمين وانصر عليهما الملك الناصر ولكن قتل في هذه الحركة جماعة كثيرة من الامراء والمماليك . وفيها تعين نوروز لنيابة الشام ثم نفى نوروز عن نيابة الشام وأرسل السلطان نقليداً الى شيخ بنيابة الشام ونقليداً الى دمرداش بنيابة حلب ، ثم عين نوروز الى القدس بطالاً ثم كتب الى دمرداش نائب حلب بالحضور الى مصر ورسم لشيخ بنيابة طرابلس مع نيابة حلب وهذا من العجائب ثم ان شيخ بعد ذلك خامر على السلطان فجرد اليه ورجع عن غير طائل اه .

وذكر ابن حجر ان نوروز برز الى صفد ثم انثني الى سعسم ثم انثني الى بكثر جلق ومعه محمد وحسن وحسين بنو بشارة فاقتلوا فقتل منهم جماعة وحرقت الزروع وخربت القرى وكسرهم وأقام بالرملة ، ثم قصد صفد ليحاصرها فقدم عليه الخبر بحركة شيخ الى دمشق وكان قد جمع من التركمان والعرب والترك جمعاً وسار من حلب فرجع

نوروز فسبقة الى دمشق ، فتراسل شيخ ونوروز في الكف عن القتال ولم ينظم لها
 امر وصمم شيخ على اخذ دمشق وباتا على ان يباكرا القتال فأمر شيخ بوقيد النيران
 في معسكره واستكثر من ذلك ، ورحل جريدة الى سمسع فنزلها ، وأصبح نوروز
 فعرف برحيله وسار نوروز الى سمسع فلقى بها شيخ وهو في نفر قليل نحو الالف
 فالتقيا فانكسر نوروز ، ويقال انه كان معه اربعة آلاف نفس ولم يكن مع شيخ سوى
 ثلاثمائة نفس ، وركب شيخ أقفيتهم فدخل نوروز دمشق ورحل نوروز الى ماطية
 وأرسل شيخ عسكرياً الى حلب لمحاصرتها ثم لحق عسكري شيخ بالتركان بانطاكية
 وأوقعوا بهم واستنقذوها منهم . وفيها أُلزم النائب اهل دمشق بعمارة مساكنهم
 والاقواف التي داخل البلد وضرب فلوساً جديداً ثم نودي عليها كل مائة واربعين
 بدرهم . وكتب الناصر الى الشام باسقاط ما على الناس من البواقي من سنة ثمان
 وتسعين الى سنة ثنتي عشرة وفي السنة التالية ألزم الناس في دمشق بعمارة ما خرب
 من المدارس . وفيها توجه الدو يدار الى البقاع للاستعداد لبرديك لما طرق الشام
 فوصلت كشافة برديك الى عقبة سمجورا ثم نزل هو شقحب فتأهب من بالقلعة بدمشق
 وخرج العسكر مع سودون بقمجه وحمل هو على عسكر برديك فكسره ثم انهزم برديك
 على خان ذي النون فرجع الى صند ونهب من كان معه . واشتد الحصار على نوروز
 ودمرداش بجمة فقتل بينهما اكثر من كان معهما من التركمان وانضم اكثر التركمان
 الى شيخ ووصل اليه المعجل بن نعيم نجدة له بمن معه من العرب فحجم بظاهر حماة فوقع
 القتال بين الطائفتين واشتد الخطب على النوروزية فمالوا الى الخداع والحيلة ولم يكن
 لهم عادة بالقتال يوم الجمعة فبينما الشخية مطمئنين اذ النوروزية قد هجموا عليهم وقت
 صلاة الجمعة فاقتتلوا الى قبل العصر فكانت الكسرة على النوروزية وتفرق اكثر
 العساكر عن نوروز ولحق كثير منهم بشيخ وكتب الى دمشق فدقت بشاره وزينوا
 البلد وكبس اصحاب نوروز المعجل بن نعيم ليلاً فأنجده شيخ وكتب دمرdash الى
 الناصر يستجده ويحثه على المجيء الى الشام والا خرجت عنه كلها فانه لم يبق بيده
 منها الا غزاة وصفد وحماة وكل من بها من جهته في اسوأ حال .

قال ابن حجر في حوادث سنة ٨١٣ : انه وصل الفرنج الذين استأذنوا الناصر

في العام الماضي لما دخل القدس ان يجددوا عمارة بيت لحم فوصلوا في هذا العام الى بابها ومعهم عجل وصناع واخشاب فأخرجوا المرسوم فاستدعوا الصناع للعمل بالاجرة فأتاهم عدة وشرعوا في ازالة ما بطرقهم من الادغال ووسعوا الطريق بحيث تسع عشرة افراس ولم تكن تسع غير فارس واحضروا معهم دهناً اذا وضعوه على الصخر سهل قطعها فلما رجع الناصر الى دمشق عرفه نصحاءه بسوء القالة في ذلك فكتب الى ارغون كاشف الرملة بمنعهم من ذلك والقبض عليهم وعلى من معهم من الصناع والآلات والسلاح والجمال والذخن فحتم على مخازنهم وحملهم ومعهم ما رسم به الناصر اه .

وفي سنة ٨١٤ ارثع الطاعون عن دمشق وما حولها واحصي من مات من اهل دمشق خاصة فكانوا نحواً من خمسين ألفاً وخلت عدة من القرى وبقيت الزروع قائمة لا تجد من يحصدها .

* * *

الملك السكير } وبقي الامر على ذلك في الشام منقلباً لان ملك مصر على
وقتلها } هذه الصورة من السخافة والضعف وهو شارب الليل والنهار
تصدر الاعمال عنه مخلة كلها ، ويتسلى في خلواته بقتل مماليكه حتى قتل منهم زهاء
التي يملك للتسلية والتخيلية ، ولما كانت سنة ٨١٣ قطع شيخ الحمودي ونوروز
الحافظي اسم الملك الناصر من الخطبة بدمشق واعمالها ، ونفرت قلوب الممالك من
الملك الناصر وصار منهم جماعة (٨١٤) يتسحبون تحت الليل ويتوجهون الى نوروز
الحافظي وشيخ الحمودي ، يأتون الشام من العقبة الى غزة فتسحب من العسكر نحو
الثلاث ، فقويت شوكة الحافظي والحمودي والتف عليهما سائر النواب في الشام وغالب
عسكر مصر وكثير من العشير وعربان جبل نابلس ، واجتمع عندهما من الامراء
ما يزيد على اربعة وعشرين اميراً من مصر والشام . ولما تحقق الملك الناصر ذلك
جرد عليهم جيشاً فكانوا يتوجهون في كل يوم من بلد الى بلد والملك الناصر خلفهم
ليلاً ونهاراً فأتعب العسكر وانقطع منهم جماعة من شدة السوق والتعب . ووصل
الملك الناصر الى اللجون (٨١٥) فتلاقى والنواب بعد العصر وكان الملك الناصر قد
اصطحب وهو لا يعني من شدة السكر ، فاراد الكبس على النواب في تلك الساعة فمنعه

الامراء ذلك فابى ، فلما رأوا ذلك تسعّبوا من عنده مع عسكره فلم يبق معه الا القليل من العسكر ، فكبس على النواب فانكسر الملك الناصر وهرب بمن بقي معه من العسكر الى نحو دمشق ، واستولى شيخ ونوروز على اثقاله وخزائن المال وانصرفا عليه . فلما دخل شيخ ونوروز الى دمشق طلعا الى دار السعادة واجتمع هناك الامراء واحضروا القضية الاربعة ورسموا بان يكتبوا محضراً بافعال الملك الناصر بانه سفاك للدماء مدمن للخمر فكتبوا محضراً بذلك وشهد فيه جماعة كثيرة من اعيان الناس ، ثم خلعوا الملك الناصر من السلطنة واشتوروا فيمن يولونه فقال نوروز لشيخ : لا انا ولا انت نتسلطن . ولكن اجعلوا الخليفة العباسي هذا هو السلطان ، ويكون الامير شيخ اتابك العساكر ومدبر المملكة في مصر ، ويكون الامير نوروز نائب الشام ويحكم في البلاد الشامية من غزة الى الفرات ، يولي من يختار ويعزل من يختار ، فتراضوا على هذا وحلف جميع الامراء على ذلك وتعاهد الامير شيخ والامير نوروز ثم ساطنوا الخليفة واستمر الامير نوروز الحافظي نائب الشام .

واما ما كان من امر الملك الناصر فرج بعد الكسرة التي وقعت له على اللجون فانه ولي منهزماً الى نحو دمشق واقام في تربة ثم ، وارسل الى الامير شيخ يطلب منه الامان ، وكان الامير نوروز صير الملك الناصر زوج اخته ، فلو طلب منه الامان اولاً لما اصابه شيء ولكن قصد الامير شيخ فارسل اليه من قيده واحضره الى السجن بقلعة دمشق ، ثم انهم اثبتوا عليه الكفر كما قيل ودخل عليه بعد ايام جماعة من الفداوية وقتلوه بالخناجر وهو بالبرج بقلعة دمشق والقوه على مزبلة خارج البلد وهو عريان مكشوف الرأس ليس عليه غير اللباس في وسطه وصار الناس يأتون اليه افواجا ينظرون اليه ، ولو امكن ممالك ابيه ان يحرقوه لفعلوا به ذلك مما فاسوه منه فأقام على ذلك ثلاثة ايام ثم دفنوه » وكانت الدنيا على ايامه حائلة وحقوق الناس ضائعة ، وقد خربت غالب البلاد الشامية في ايامه من تيمورلنك ومن عصيان النواب وخربت اوقاف الناس في الشام ، وكم قتل من ابطال ويثم من اطفال ، وجرت في ايامه امور شتى يطول شرحها . قال المقرئ : لم تزل ايام الناصر كلها كثيرة الفتن والشرور والغلاء والوباء . طرق بلاد الشام الامير تيمورلنك فخر بها كلها وحرقها وعمها بالقتل

والنهب والاسر حتى فقد منها جميع انواع الحيوانات وتمزق اهلها في جميع اقطار الارض ثم دهمها بعد رحيله عنها جراد لم يترك بها خضراء فاشتد بها الغلاء على من تراجع اليها من اهلها وشنع موتهم واستمرت بها مع ذلك الفتن .

الخليفة السلطان | عهد الامراء الذين قضوا على سلطان الملك الناصر بالسلطنة
وسلطنة شيخ | الى الخليفة العباسي وكان المسكين اشبه بعامل محترم من
عمال الشراكة لاعصية له ولا جيش ، الا ما كان له في نفوس الرعية من حرمة
بني العباس ، والغالب ان ذلك العهد بالسلطنة اليه كان دسيسة سياسية من الاميرين
نوروز وشيخ يوم قال الاول للثاني وهما بنفراضان فيمن يوسدان اليه السلطنة « لانا
ولا انت نتسلطن » فاستولى الامير شيخ على ملك مصر بالنعول واليه قيادة الجند
واستولى الامير نوروز على الشام يحكم فيها حكم الملك وبقي الامر على ذلك الى سنة
٨١٦ وقد بلغ نوروز الحافظي امير الشام ان المؤيد شيخ خلع الخليفة العباسي في مصر
وتسلطن عوضه فعز عليه ذلك ولم يقبل الارض للملك المؤيد شيخ واظهر العصيان
واستمر نوروز يخطب باسم الخليفة العباسي على منابر دمشق واعمالها ولم يخطب باسم
الملك المؤيد شيخ ولا ضرب باسمه سكة واستمر مستأثراً بملك الشام من غزة
الى الفرات .

وفي سنة ٨١٧ خرج الملك المؤيد شيخ من مصر في العساكر قاصداً الى دمشق
للقضاء على ساطة نوروز الحافظي ، وكان نوروز قد حصن دمشق وركب على سورها
المدافع من كل جانب ، فحاصره الملك المؤيد شيخ خصاراً شديداً طويلاً ونصب حول
مدينة دمشق عدة مناجيق حتى غلب نوروز وسلم نفسه الى شيخ فقطع رأس نوروز
في قلعة دمشق ، وكان نوروز مهابة شديدة البأس سفاكاً للدماء ما كان في عسكر
الا انهزم ولا ضبط انه ظفر في وقعة قط وهو الذي عمر قلعة دمشق بعد تيمورلنك .
ومهد الملك المؤيد شيخ البلاد الشامية وعزل من عزل وولى من ولى وخلع على
قناباي المحمدي واستقر به نائب الشام وخلع على الامير اينال الصلاني واستقر به نائب
حلب ، وخلع على الامير سودون بن عبد الرحمن واستقر به نائب طرابلس ، وخلع على

الامير جاني بك الجباصي واستقر به نائب حماة ، ولم يلبث هؤلاء النواب (٨١٨) ان خامروا على الملك المؤيد شيخ وخرجوا عن الطاعة فجرد اليهم الملك المؤيد ثانياً وخرج اليهم بنفسه وأوقع معهم فالتصر عليهم ، وقبض على قانساي الحمدي نائب الشام وقطع رأسه ، ثم قبض على اينال الصلافي وقتله على صدر ابيه ثم قتل الاب بعد ذلك ثم ولي جماعة من الامراء نواباً غير هؤلاء ورجع الى الديار المصرية فلم يبق سوى مدة يسيرة حتى خامر النواب ايضاً فجرد اليهم ثالث مرة وخرج بنفسه فلما بلغ النواب مجيئه هربوا من وجهه وتوجهوا الى قرا يوسف امير التركمان فنصب الملك المؤيد نواباً غيرهم ممن يثق بهم ومهد البلاد الدمشقية والحلبية وقطم شأفة النواب الذين عصوا سلطانه . ومن الاحداث في هذا الدور دخول قرا يوسف التركماني من العراق الى حلب (٨٢١) في نحو الف فارس فجفل من كان خارج مدينة حلب باجمعهم ، واضطرب من بداخل سور حلب وألقوا بانفسهم من السور ولم تسكن الحالة الا بعد رحيله .

هالك الملك المؤيد شيخ سنة ٨٢٤ وكان ملكاً جليلاً
كفوّاً للسلطنة وافر العقل مقداماً في الحرب عارفاً
بمكايدها وحيلها وقت اللقاء الجيوش حتى ضرب به المثل
فكان يقال : نعوذ بالله من ثبات شيخ ومن حطمة نوروز الحافظي . هذه رواية ابن
اياس بيد ان المتر يزي يقول : انه حدث في ايام هذا الملك اكبر خراب مصر والشام
لكثرة ما كان يثيره من الشرور والفن ايام نيابته بطرابلس ودمشق ، ثم ما افسده في
ايام ملكه من كثرة المظالم ونهب البلاد وتسليط اتباعه على الناس ، يسومونهم الذلة
ويأخذون ما قدروا عليه من غير وازع ولا عقل ولا ناه من دين . وتولى بعد الملك
المؤيد شيخ ابنه الملك المظفر ابو السعادات احمد وهو في القماط فخامر نائب دمشق
جقمق الارغوني ونائب حلب يشيك المؤيدي وكذلك بقية النواب في الشام ، وكان
الاتاكي الطنبغا القرشي لما توجه في العسكر المصري أوقع معهم بمن معه من الامراء
فهربوا الي نحو صرخد ثم ان الاتاكي الطنبغا لما توجه الى صرخد جمع العربات

هالك المؤيد شيخ
وسلطنة ابنه في
القماط

والعشير ورجع الى دمشق وأوقع مع نائب الشام جقمق فانكسر جقمق وهرب منه الى نحو حلب ، فملك الاتابكي الطنبغا دمشق وقلعتها ، فلما بلغه وفاة الملك المؤيد وسلطنة ابنه أظير العصيات وأقام بدمشق وحصنها ونصب على سورها المكاحل بالمدافع ، والنف عليه العربان والعشير ، فلما بلغ الامراء بمصر ذلك خلعوا على ططر واستقروا به اتابك العسكر عوضاً عن الطنبغا القرشي . ثم اتفق الحال على ان الاتابكي ططر يأخذ السلطان معه في محفة ويتوجه هو والعسكر الى دمشق بسبب الطنبغا القرشي والنواب فخرج ططر من القاهرة وصحبته الملك المظفر احمد في محفة والمرضة معه وكانت امه خوند سعادات صحبة ابنها في المحفة لما خرج الى الشام لتأمين عليه من القتل فدخل الملك المظفر الى دمشق وألقى الرعب في قلب الطنبغا وجقمق فحضر الطنبغا وفي رقبته منديل فقبل الارض قدام الملك المظفر وهو في المحفة فلما وقعت عليه عين الاتابكي ططر قبض عليه وسجنه بقلعة دمشق ثم قبض على جقمق وامر بخنق جقمق والطنبغا ثم قبض على جماعة من النواب وقتل منهم البجاسي نائب دمشق وقبض على اربعين اميراً من الامراء المؤيديه وسجنهم بقلعة دمشق وقبض على جماعة من الممالك المؤيديه نحو ثلاثمائة مملوك وجسهم . ثم خلع الملك المظفر احمد من السلطنة وتسلطن عوضه بدمشق وخطب باسمه على المنابر وكان معه الخليفة المعتض بالله داود ، فكان مثل ططر في هذه الحيلة مثل اكثر عمال هذه السلطنة الشركسية متي اشتد ساعدهم استأثروا بالملك والسلطان .

وفاة ططر وسلطنة ابنه) هلك ططر بعد ان ملك ثلاثة اشهر واياماً وخلفه
ثم تولى الاشرف برسبائي) في السلطنة ابنه الملك الصالح محمد وله من العمر نحو
من احدى عشرة سنة وجعل جاني بك الصوفي اتابكه ومدير مملكته ، فعز ذلك على
بقية الامراء فوثب الامير برسبائي الدقافي امير دوا دار كبير على جاني بك وقيده
وسجنه فاجتمعت السكينة على برسبائي وصار صاحب الحل والعقد فتعصب له جماعة من
الامراء وخلعوا الملك الصالح وسلطنوا برسبائي (٨٢٥) فكانت مدة سلطنة الملك

الصالح ثلاثة اشهر واربعة عشر يوماً . وخلع برسباي على المقر السيفي جاني بك الجباصي واستقر به نائب الشام واستقامت احواله في السلطنة وراق له الوقت .

وفي سنة ٨٣٦ سار الملك الاشرف في حملة من مصر قيل انه غرّم عليها خمسمائة الف دينار وقصد الشام وسار منها الى آمد فحاصرها وكانت لابن قرا بك فلم ينل منها طائلاً ، فمضى بعض الامراء بالصلح على ان لا يتعدى على بلاد السلطان فغلب صاحب آمد على ذلك ولما عاد الجيش المصري ادراجه عاد صاحبها الى العصيان قال ابن اياس : والملك الاشرف هو آخر من جرد من الملوك وخرج بنفسه الى البلاد الشامية .

توفي الملك الاشرف برسباي سنة ٨٤١ قال السخاوي : انه ساس الملك ونالته السعادة ودانت له البلاد واهلها وخدمته السعود حتى مات وفتحت في ايامه بلاد كثيرة من ايدي الباغين من غير قتال ، وكذا فتحت في ايامه قبرص وأسر ملكها . قال المقرئزي : وكانت ايامه ايام هدوء وسكون الا انه كان له في الشخ والبخل والطمع مع الجبن والحذر وسوء الظن ومقت الرعية وكثرة التلون وسرعة التقلب في الامور وقلة الثبات أخبار لم نسمع بمثليها ، وشمل بلاد مصر والشام في ايامه الخراب وقلت الاموال بها وافقر الناس وساءت سيرة الحكام والولاة مع بلوغ آماله ونيل اغراضه وقهر اعدائه وقتلهم بيد غيره . وقد عقد برسباي معاهدة مع فرسان رودس وقهر صاحب مملكة ذي القدرية في آسيا الصغرى وكان الذي يثير عليه الفتن في الشام شاه رخ بن تيمورلنك لان سفراءه أهينوا في مصر كما أهين تجاره في جدة وابى عليه صاحب مصر ان يكسو الكعبة المشرفة . وقال ابن اياس : ان الملك الاشرف كان منقاداً الى الشريعة ، وكانت معاملته أحسن المعاملات من أجود الذهب والفضة ولا سيما الاشرفية البرسبية فانها من خالص الذهب ، وكان عنده معرفة باحوال السلطنة ، كنبوءا الملك ، كثير البر والصدقات ، وله معروف وآثار ، لكنه كان عنده طمع زائد في تحصيل الاموال محباً لجمعها من المباشرين وغيرهم نال وكان من خيار ملوك الشراكسة اه .

وكان تولي رجل عظيم مثل برسباي زمام السلطنة بعد سخافة فرج وابنه الطفل

وسخافة ططر وابنه اليافع من أجل الموافقات للبلاد أعاد الى السلطنة عزها الذي
اولاها اياه مؤسسها برقوق . و برسباي لا يقل عنه تدبيراً وحكمة وربما امتاز
عنه بامور :

اذا تصفحت امور الناس لم تلت امرأً حاز الكمال فاكتفى
عول على الصبر الجميل انه امنع ما لا ذ به اولو الحجبى
وعطف النفس على سبل الاسى اذا استنفز القلب تبريح الجوى
والدهر يكدو بالفتى وتارة ينهض من عثرة اذا كبا

الملك العزيز يوسف } تولى الملك بعد الاشرف برسباي ابنه يوسف وسمي
والملك الظاهر جقمق } الملك العزيز وله من العمر اربع عشرة سنة وجعل
الانابكي جقمق العلائي نظام المملكة ثم خلع (٨٤٢) وجعل جقمق سلطاناً ولم يملك
الملك العزيز سوى ثلاثة أشهر وخمسة ايام ولقب جقمق بالملك الظاهر . وفي سنة ٨٤٣
٨٣٧ ندب السلطان العساكر الى بلاد الارمن فملكوا مدينة اياس . وفي سنة ٨٤٣
خرج اينال الجكمي نائب دمشق عن الطاعة وظهر العصيان على السلطان وكذلك
تغري برمش نائب حلب فعين السلطان لها تجريدة من مصر وخلق على المقر السيفي
اقبغا التمرازي واستقر به نائب دمشق عوضاً عن اينال الجكمي وخلق على المقر السيفي
يشبك السودوني واستقر به انابك العساكر عوضاً عن اقبغا التمرازي فأوقعا مع
النائبين العاصمين واسراهما وقطعا رأسيهما وارسلهما الى القاهرة . وفي سنة ٨٥٢
حصل بين نائب حمص تراز المصارع وناظره الاميني عبد الرحمن بن الديري قتال
عظيم بآلة الحرب بسبب ابي طبر الساوري امير جرم .

وفي سنة ٨٥٥ طرق صور زهاء عشرين مركباً للفرنج ونهبوا من بها فادر كههم بجموعه
ابن بشارة مقدم العشير بالبلاد الشامية وقاتلهم قتالاً شديداً حتى اراحهم عن البلد بعد ان
قتل من الفريقين جماعة وامسك من الفرنج جماعة وقطع رؤوسهم . وفي سنة ٨٥٦ ركب
طوغان نائب الكرك بماليكه فكبس بعض عرب الطاعة وقاتلهم حتى ظفر بجماعة منهم
فاسرف في قتلهم ثم نزل بمكان هناك فكثرت عليه جماعة منهم فقاتلهم ثانياً فكسروه

وقتلوه أسوأ قتلة — قال هذا وما قبله السخاوي . وهدأت البلاد من الفتن والتجاريـد
على عهد الملك الظاهر جقمق المتوفى سنة ٨٥٧ وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد
الشامية وما مع ذلك أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وكانت ملكاً جليلاً ديناً خيراً
فتواضعاً كريماً ويفعل الخير وقد كانت علاقته حسنة مع سلطات العثمانيين وملوك
آسيا الصغرى .

<p>وخلف الملك الظاهر جقمق الملك المنصور فخر الدين عثمان فخلع بعد ثلاثة وأربعين يوماً وتسلمت بعده الملك الأشرف ابنال العلائي وكانت أيامه أيام</p>	}	<p>المنصور والأشرف والمؤيد والظاهر خشقدم والظاهر بلياي والأشرف قايتباي</p>
--	---	--

لهو وإنشراح وقيل انه لم يسفك دمًا بغير وجه شرعي فعـد ذلك من النوادر وتوفى
سنة ٨٦٥ وخلفه الملك المؤيد أحمد وكانت حسن السياسة بصيراً بمصالح الرعية قمع
ممالك أبيه عما كانوا يفعلونه من الأفعال الشنيعة إلا ان مدته لم تطـل سوى أربعة
أشهر وثلاثة أيام وخلفه الظاهر خشقدم أبو سعيد سيف الدين وكانت اهل الدولة
يريدون سلطنة الأمير جانم نائب الشام فلما ابطأ عليهم سلطانوا الظاهر خشقدم (٨٦٥)
وسار جانم إلى مصر فأرجعه الملك الجديد إلى الشام ، ولما بلغها أرسل السلطان إلى نائب
قلعة الشام مراسيم في الدس بان يقبض على جانم نائب الشام فرمي عليه بالمدافع وهو
جالس في دار السعادة فهرب إلى الرها ، واستمر في هياج وعصيان وأرسل عليه سلطان
مصر تجريدة بقيادة الأمير جاني بك وعين المقر السهني ثم المؤيدي نائب الشام .

وفي سنة ٨٧٢ تحرك شاه سوار صاحب مملكة ذي القدرية على بلاد حلب فرمى
السلطان خشقدم للأمير برديك الجمقदार نائب حلب أن يخرج إليه فخرج ثم التف عليه
وأظهر العصيان على السلطان وقصداً التوجه إلى الشام فأرسل سلطان مصر عليها
تجريدة وانهمزم الجند الذين أرسلتهم مصر لقتال شاه سوار ودخلوا حلب وهم في أسوأ
حال ثم أرسل السلطان تجريدة أخرى فهزمها سوار أيضاً ، فاحتال عليهم حتى ادخلهم
في مواضع ضيقة بين أشجار فخرج عليهم السواد الأعظم من التركمان بالقسي والنبش
والسيوف والأطهار فقتلوا من العسكر عدداً كبيراً وقتل من مشايخ جبل نابلس

وعربانه والعشير والتركمان والغلمان عدد كبير جداً واشرف سوار انت يأخذ حلب ثم خمدت نائزته . توفي الظاهر خشقدم ومملكه نحو ست سنين ونصف وخلفه الظاهر بلباي وخلع بعد سلطنة ستة وخمسين يوماً وبه زالت الدولة المؤيدية وخلفه الاتابكي قمر بغا ودامت سلطنته ثمانية وخمسين يوماً وخلفه الملك الاشرف قابتباي .

مصائب القطر الطبيعية) بعد ان نجت البلاد من فتن المثار وتيمورلنك خاصة
ثم السياسية) ووقائع الصليبيين عاودتها الاوبئة والمجاعات والزلازل
فقد زلزلت حلب مرات سنة ٨٠٦ تخرب كثير من اماكنها ومساجدها وكانت
كثيرة جداً وفي سنة ٨٢٠ كان بحلب غلاء عقبه طاعون مات فيه سبعون الفا وخلا البلد
من السكان وفي سنة ٨٦٣ وقع الطاعون بحلب فاربي من هلك فيها وفي ضواحيها على
مائتي الف انسان وفي سنة ٨٧٤ اشتد الغلاء والفناء بحلب وكانت الحال في البلاد
كلها على ذلك فحارت عليها الطبيعة وكانت من قبل يحجور عليها امرأوها . وقال الدويهي
في حوادث سنة ٨٧٥ : ومن اخبار هذا العصر يستدل على انه في دولة المقدمين
واحكامهم العادلة توفرت الراحة لاهل لبنان وكثرت عندهم المدارس والكنائس .
وبينا كانت الشام تدافع الخارجين على المماليك او تشترك معهم احياناً وقد غضب
عليها جبار الارض وجبار السماء ظهر لها بل لدولة المماليك الشر كسية في مصر والشام
عدوان لدودان او حكومتان مسلمتان نجت من شر الاولى ووقعت في شر الثانية ونعني
بهما دولة حسن الطويل ودولة ابن عثمان . ودولة حسن الطويل هي المعروفة بدولة
الحمل الابيض (آق قويونلي) استولى حسن الطويل على ديار بكر سنة ٨٧١ وقتل في
السنة التالية جهانشاه ومرزا حاكم دولة الحمل الاسود (قره قويونلي) وابا سعيد حفيد
تيمورلنك فاصبح ملك العراقين العربي والعجمي وفارس وكرمان وتلك الانحاء وانشأ
دولة كبرى جعل تبريز عاصمتها . اما دولة ابن عثمان في الروم اي الاناضول
فقد قويت على ذلك العهد ولاسيما بعد ان غلب السلطان محمد الثاني حسن الطويل
(اوزون حسن) سنة ٨٧٧ .

ففي سنة ٨٧٢ ارسل سلطان مصر والشام عسكرياً على شاه سوارفانكسر كسرة

شذيمة وقتل وجرح كثير من امراء الممالك ونهب اثقال الامراء والعسكر قاطبة وعاد الذي سلم الى حلب في اسواق حال من العربي والمشي ، وقد قوي امر سوار وتوجه الى عينتاب وحاصر قلعتها ومالك البلد ثم قوي عسكر سوار بما نهبه من عسكر الشام ومصر وكان جيشاً جراراً فقوي عزمه على مداومة حلب ، فجرد سلطات مصر تجريدة ثانية فكسرها عسكر سوار وفي هذه السنين كثرت تبديل نواب حلب فقال ابن الوردي :

هذه امور عظام من بعضها القلب ذائب
ما حال قطر يليه في كل شهر بن نائب

وفي سنة ٨٧٥ تحرك حسن الطويل على اخذ البلاد الحلبية واظهر العداوة لسلطان الشام ومصر وقد طمع - في عسكر مصر لما رأى من هزيمتهم وهزيمة الشاميين مرتين امام شاه سوار لما فعله سوار معهم ، واستظهر عليهم فتار السلطان لهذا الخبر وقصد ان يخرج الى حلب بنفسه خصوصاً لما بلغه ان سواراً استولى على سبيس وقلعتها فان فزعه زاد ، وارسل السلطان هذه السنة الى شاه سوار الامير يشبك الدوادار الكبير وفوض اليه السلطان امور البلاد الشامية والحلبية وغير ذلك من البلاد وجعل له التصرف في جميع النواب والامراء ما خلا نائب حلب ونائب دمشق فقط ، فقل يشبك عسكر شاه سوار على نهر جيحان ، فانكسر عسكر شاه سوار وقتل منهم جمهور كبير ، وارسل سوار يطلب الصلح من الامير يشبك وان يكون نائباً عن السلطان في قلعة درنده وانه يرسل ولده بمناجيع القلعة فما وافق السلطان ذلك الا ان يحضر سوار بنفسه ويقابل السلطان ، ثم قبض عليه في قلعة زمنوطو وحمل الى مصر فقتله سلطان مصر هو واخوته واقاربه .

قال ابن اياس : وخذت فتنه سوار كأنها لم تكن بعد ما ذهبت عليها اموال وارواح وقتل جماعة كثيرة من الامراء وكسر الامراء ثلاث مرات ونهب بركةهم وقد انتهكت حرمة سلطان مصر عند ملوك الشرق وغيرهم حتى ان الفلاحين طمعوا في التمرك و«تهبدلوا» عندهم بسبب ما جرى عليهم من سوار وكادت تخرج المملكة عن

الشرا كسة وقد اشرف سوار على اخذ حلب وخطب له في الابلستن وضربت هناك السكة باسمه .

وفي هذه السنة (٨٧٧) جمع حسن الطويل ملك العراقيين جنداً جراراً وزحف على بلاد الشام واستولى في طريقه على كحيا وكركر فانتدب ملك مصر الامير يشبك الدوادار لقتاله كما كان انتدب لقتال سوار في السنة الفاتية . اما المعسكر فما صدقوا ان خمدت عنهم فئنة سوار حتى انتشبت فئنة حسن الطويل .

وقبض نائب حلب (٨٧٧) على بعض رجال حسن الطويل في حلب وجماعة آخرين نسبوا الى المواطاة مع حسن الطويل وكانوا يكتبونه باخبار المملكة ، فامر نائب حلب بصلبهم وارسل في هذه السنة الامير يشبك نائب حلب جيشاً الى البيرة لقتال حسن الطويل فخذل عسكره بعد ما عدوا الفرات وطرقوا البلاد الحلبية من اطرافها وتلاشى امر حسن الطويل فارسل يكتب الفرنج ليعينوه على قتال عسكر مصر ، وارسل ابن عثمان ملك الترك قاصده الى الامير يشبك بان يكون عوناً له على قتال حسن الطويل وكان حسن الطويل استعان بالفرنج ليقاتلوا صاحب مصر والشام وصاحب الروم ابن عثمان بجرأ وهو بقائهم برأ ولكنه عاد في سنة ٨٧٩ يرسل الى سلطان مصر معتذراً عما كان منه حتى عفا السلطان عما بدر منه . وفي سنة ٨٨٠ صدرت من برهان الدين النابلسي وكيل السلطان قايتباي قبائح عظيمة باهل دمشق فرجموه ورموا عليه بالسهام واحرقوا داره بالنار وارادوا قتله فركب نائب قلعة دمشق وتلطف بالعوام حتى سكنت هذه الائمة قليلاً وقد كادت ان تخرب دمشق في هذه الحركة بسبب ظلم النابلسي وكان قد طغى على الناس وتجرر .

قال البخاري : وكان النابلسي يخرب البلاد الشامية بنفسه وبولده احمد وقد وصفه حسن بن احمد عربشاه في كتابه ابضاح الظلم والعدوان في تاريخ النابلسي الخارجي الخوان ووصف مظالم ابنه بما نقشه من الابدان وكان طالع النابلسي احمد الخراب ، صادر اهل طرابلس وهتك ستر نائبيها وصادر كثيرين في دمشق ، وأراد ان يعرج على حلب فمنعه صاحبها من ان يان ما عمل في دمشق . اما ابنه فاحتكر الاقوات وطغى الكيل وغش الجيوب وأدار باسمه الطواحين والافران

تسبب في الجزية على المدارس وأتقص معالم الطلبة وجمع من الاموال مالا يحصيه العد وكثير تظلم الناس من ظلمه حتى أرسل ملك مصر قاصداً حاسبه على الاموال فظهر اختلاسه فنكل به وأقام الناس عليه الشكاوي كما نكل بابه في مصر لما اتى من المساويء هناك وقبض عليهما في وقت واحد .

وذهب في هذه السنة نائب حلب تمرباي في العسكر الى التركمان وانكسر عسكر حلب كسرة لم تسبق مثلاً من التركمان فعظم شأنهم . وفيها بعث ابن حسن الطويل يستنجد بنائب حلب على ابيه فجهز نائب حلب معه جماعة من عساكر حلب فقاتلوا عسكر الطويل فانكسر عسكر حلب وقتل منهم جماعة .

وفي سنة ٨٨٣ خرج سيف بن نعيم الغاوي وقرابته عن الطاعة فقاتله نائب حماة فكسر النائب وقتل من عسكره كثير ثم خرج اليه نائب حلب وأوقع معه ففر منه فتبعه وقد اضطربت أحوال حماة بسبب ذلك .

مات حين الطويل ملك العراقيين (٨٨٣) وانقرضت دولة بني أيوب على يده وكان تحرش بابن عثمان ملك الروم بان يأخذ من ملكه شيئاً فما قدر عليه ، ثم تحرش بسلطان مصر وجري له مع الاشرف قايتباي امور وكان الاشرف يخشى من سطوته لانه كان ملكاً جليلاً عاقلاً سائساً كثير الخيل والخياد . وفي سنة ٨٨٥ كبس عمرو بن غانم البدرى ومن معه من العرب الامير ناصر الدين محمد بن أيوب نائب القدس باريحاء الغور وحصلت فتنة قتل فيها جماعة .

وقعة مشؤومة () وكانت سنة ٨٨٥ من أشأم السنين على دولة الاشرف وأحداث () قايتباي فان الامير يشبك الدوادار كان قد ندب ايضاً من مصر لقتال الامير سيف امير آل فضل فسار ومعه جيش من مصر وكان في صحبته نواب دمشق وحلب وطرابلس وحماة مع العسكر الشامي والمصري وغير ذلك من العساكر فتوجه الى الرها واجتمع معه نحو عشرة آلاف انسان وكان المتولي امر الرها شخص يقال له بابندر احد نواب يعقوب بك بن حسن الطويل فحصر الامير يشبك مدينة الرها أشد المحاصرة وكان يريد بعد أخذها ان يسير لفتح العراق فعاد

عليه بابندر وكسر جيش يشبك وأسره مع النواب الذين في جملته وشتت شمل جيشه وأخذ يشبك وقتله وقتل من امراء الشام عدد كبير جداً وكذلك من العسكر حتى كانت حوافر الخيل لا تظأ الا على جثث القتلى من العسكر . قال ابن اياس : وكانت هذه الكسرة على عسكر مصر من الوقائع الغربية وكانت مصيبة عظيمة هائلة . وقال : وكان الامير يشبك باغياً على بابندر فانه قصد محاربتة من غير سبب ولا موجب لذلك فكان كما قيل :

من لاعب الثعبان في وكره يوماً فلا يأمن من لسعته

اضطربت الشام ومصر من مهاجمة عسكر يعقوب بن حسن الطويل بلاد حلب ودمشق فان النواب قاطبة كانوا في أسره وسحق جيش سلطان مصر والشام فأعد السلطان له جيشاً آخر قال ابن اياس : ولولا فعله ذلك لخرجت من بده غالب جهات حلب . وفي هذه السنة ثار عامة حلب بمحمد بن حسن بن الصوا الحلبي نائب قلعة حلب بسبب مظالم أحدثها بحلب فقتلوه وقتلوا حاجب الحجاب بحلب . وفي سنة ٨٧٨ هـ وقعت فتنة بين طائفة الداربية وطائفة الاكراد بالقدس فحصل بينهما تشاجر فقتل من الفريقين ثمانية عشر نفرًا واستنفر كل من الطائفتين من ينضر لها من العشير فدخلوا المدينة ونهبوا ما فيها عن آخره الا القليل منها وخربت أماكن وكان الامر عظيماً لم يسمع بمثله في هذه الازمنة .

اول مناوشة مع الاتراك العثمانيين } وفي سنة ٨٨٩ قتل كثير من امراء حلب والشام في
الوقعة التي جرت بين المصري والتركان ، وفيها خرج
نائب حلب في جمع من العساكر وقاتل مع علي دولات أخى سوار وأمدته ابن عثمان
بجمع كثير من عساكره فلما التقى الفريقان وقعت بينهما وقعة هائلة انهزم فيها العسكر
الحلبي وقتل نائب حلب وجماعة من العسكر الحلبي والمصري . وكانت هذه الوقعة
اول فتنة تحرش فيها ابن عثمان بملك الشام ومصر . ولما حصلت هذه الكسرة لعسكر
حلب ركب الامير تمرارز هو والامير ازدمر والعسكر المصري وتوجهوا الى علي دولات
فقتلوا معه فانكسر علي دولات وعسكره وعسكر ابن عثمان ونهبوا جميع بركهم

وأخذوا سناجق ابن عثمان ودخلوا بها الى حلب وهي منكسة واستمرت الفتن يومئذ
بين السلطان وابن عثمان .

والشر مبدأوه في الاصل اصغره وليس يصلح بحرب جانيتها
والحرب يلحق فيها الكارهون كما تذنو الصحاح الى الجربى فتعديها
وفي سنة ٨٩٠ استولى جند ابن عثمان على قلعة كورك من مملكة حلب وفي
السنين التالية استولى على سيس وطرسوس وغيرهما من البلاد الحلبية وطمع في أخذ
سائر البلاد فأخذت حكومة مصر ترسل بالتجريدة إثر التجريدة فساءت حال الشام
وخربت الاصقاع الشمالية منها . ولكن الجند المصري او جيش المماليك الشرکسي
وقع له مصاف سنة ٨٩١ في أرض حلب مع عسكر ابن عثمان وانصر عليه وقتل منهم
جماعة كثيرة قدروهم بأربعين ألفاً وأسرا احمد بك هرسك قائد جند ابن عثمان ومن
أجل امرائه وصفه دوا عدة من امرائه في الحديد . وفي هذه الاثناء (٨٩٢) فحش
امر خضر بك نائب القدس وتزايد ظلمه وسفكه الدماء وأخذ أموال الناس . وفي
سنة ٨٩٣ استقر الامير دقماق في نظر الحرمين ونيابة القدس والخليل ببذل عشرة
آلاف دينار للخزائن الشريفة غير ما تكلفه لاركان الدولة قال ابن ابي عذبة : وكان
ذلك من أفجح الامور وأبشعها فان ناظر الحرمين الامير ناصر الدين بن النشاشيبي كان
من أهل الخير والصلاح فأبدل بظالم فاجر .

وفي سنة ٨٩٣ استولى عسكر ابن عثمان على قلعة ايباس من غير قتال وبعث ستين
مركباً من البحر مشحونة بالسلاح والعسكر الى جهة باب الملك ليقاطع بها على العسكر
المصري فما تم له ما أراد . واستخلص جيش السلطان باب الملك من ابن عثمان
فجاءت العاصفة وأغرقت غالب المراكب ومن طلع الى البر من العسكر العثماني قتله
العسكر المصري . قال ابن ايباس : وكانت لهم النصرة على الجنود العثمانية وكانت
على غير القياس .

ووقعت (٨٩٣) معركة عظمى بين عسكر مصر وعسكر ابن عثمان في اطراف الولاية
الحلبية قتل فيها من الفريقين الف وانهزم العثمانيون وشرع العسكر المصري في حصار
الجند العثماني في اذنة ودام حصارها ثلاثة اشهر قتل فيها من الفريقين خلق كثير حتى

استولى عليها عسكر المماليك ثم رجع في السنة التالية فقطع عسكر ابن عثمان سيفه اخذ البلاد الحلبية فارسل سلطان مصر تجريدة في الحال لحفظ مدينة حلب ثم مجرد تجاريد اخرى على ابن عثمان . قال ابن اياس : وطال الامر بين السلطان وبين ابن عثمان في امر هذه الفتن فزحف العسكر المصري والعسكر الشامي على اطراف بلاد ابن عثمان ووصلوا الى قيسارية واحرقوها وفتكوا باهلها وكذلك فعلوا في كثير من بلاد ابن عثمان وفي سنة ٨٩٤ كان الفناء العظيم والغلاء الشديد في الديار المصرية والشامية ومات خلق لا يحصى ومات في يوم واحد بدمشق ١٤٢٠ انساناً على ما ورد في سجل الاموات واشتد ظلم نائب القدس على من اتهم بالتقصير في المهم الشريف ببلاد الروم وقبض على بني اسمعيل مشايخ جبل نابلس ومن الناس من تسحب وقبض على من يكون منسوباً اليه من اقاربه واصحابه وجيرانه وباع بعض بناتهم بيع الرقيق ونفاحش الامر . وفي سنة ٨٩٦ حدثت في حلب فتنه كبيرة بين نائبيها وجماعة من اهلها فقتل سبعة عشر من ممالك النائب وخمسون من اهل حلب ثم اجرق جماعة من حاشية النائب بالنار وكادت حلب ان تحرق عن آخرها فاخمد هذه الفتنه قانصوه الغوري حاجب الحجاب بحلب اذذاك وخاف الامر بالناس لان المماليك او سلاطينهم كانوا كلما ارادوا ارسال تجريدة على عدوهم يضربون الضرائب الماحضة على الناس ويسلبون اموال التجار ومساكن البلاد .

وفي سنة ٨٩٧ اشتد الوباء بالقدس ودمشق وحلب وبلغ عدد الهالكين بدمشق كل يوم ثلاثة آلاف وبحلب في كل يوم الف وخمسمائة وبنزلة في كل يوم اربعمئة وبالرملة مئة . وفي سنة ٨٩٨ ثارت فتنه كبيرة بدمشق ورجم اهلها قانصوه الجيياوي . وفي سنة ٨٩٩ تغلب العربان على الكرك والشوبك وحدثت فتن هائلة وكان في (٩٠٠) وقعة بين اهل داريا وغوطة الشام فخرج العسكر وقتل ما يربو على مئة قتيل وتوفي نائب دمشق وخلت من الحكم وكثر النهب والنسق ووقع الاختلاف بين القيسية واليمينية ، ولما بلغ السلطان قانصوه خرج بالعساكر المصرية فالتقى الجمعان عند جب يوسف فكانت الهزيمة على المصريين .

وفاته الاشرف قايتباي ونولي / وفي سنة ٩٠١ توفي الملك الاشرف قايتباي
 ابنه ناصر الدين محمد / الحمودي وخليفة الوقت بمصر الامام المتوكل
 على الله ابو العز عبد العزيز العباي وكانت مدة سلطنة الاشرف بالديار المصرية
 والبلاد الشامية تسعاً وعشرين سنة واربعة اشهر واحد عشر يوماً وهو الحادي
 والاربعون من ملوك الترك واولادهم في العد والخامس عشر من ملوك الشراكسة
 واولادهم بالديار المصرية ، وكان كفوءاً للسلطنة وافر العقل سديد الرأي ، عارفاً باحوال
 المملكة يضع الاشياء في محلها ، ولم يكن عجولاً في الامور بطيء العزل لارباب
 الوظائف يتروى في الامور قبل وقوعها ، وكان لا يخرج اقطاع احد من الجند الا بحكم
 وفاته ، ولا من ابناء الناس المقطعين الا بحكم وفاته . قال ابن اياس : بعد ان اراد ما تقدم
 ولكنه كان محباً لجمع الاموال ناظراً لما في ايدي الناس ولولا ذلك لكان يعد من
 خيار ملوك الشراكسة على الاطلاق ، ولكنه كان معذوراً في ذلك ، تحرك عليه في
 ايام سلطنته شاه سوار وحسن الطويل وابن عثمان وغيرهم من ملوك الشرق وتوجد
 عليهم تجاريد وهو ثابت على سرير ملكه ولم يتزعزع ، حتى قيل ضبط ما صرفه على
 نفقات التجاريد التي جردها في ايام سلطنته الى ان مات فكانت نحواً من سبعة آلاف
 الف دينار وخمسة وستين الف دينار خارجاً عما كان ينفقه عند عودهم من التجاريد .
 وهذا من العجائب التي لم يسمع بمثالها ، وكان مغرمًا بشراء الممالك حتى قيل لولا
 الطواعين التي وقعت في ايامه لكان تكامل عنده ثمانية آلاف مملوك . وكان مولعاً
 بالبنيان الفاخر خلف آثاراً كثيرة في ارجاء مملكته وصادر اليهود والنصارى مرتين
 في ايامه ، وخلفه ابنه ناصر الدين محمد ، وبدأت امارات الضعف في اعصاب المملكة
 لصغر سنه وكان ابوه لا يريد سلطنته بعده ولكن عاجله النزاع فعمل الامراء من عند
 انفسهم ، وكان الفساد مستشرياً في مصر منذ نولي ، وكثيراً ما كان السلطان يخوف
 على نفسه من الامراء فيحضر لهم المصحف العثماني ويحلفهم وقد حلفهم اربع مرات وكانت
 ايمانهم كاذبة فاجرة :

ولا خير في امر يكون خسيكة ولا في يمين ليس فيها مخارم
 وكان هذا الضعف ينال منه الشام قسط عظيم حتى خرب ولا سيما شماله لكثرة

غارة اعداء البلاد عليها . قال ابن طولون في حوادث سنة ٩٠٦ وقفت حال الناس وقطعت الطرق من كثرة العرب المفارجة وبني رام خارج دمشق واطرافها وكثر الظلم والاختلاف والناس مرتقبون الفتن :

واذا تأملت البلاد رأيتها ثري كما تُثري الرجال وتُعدم

وفي هذه السنة وقع قتال بين الامير علي الشهابي في جماعة من وادي التيم ورجال الشوف وبين الامير بكر الشهابي عمه في مرج الشميسة فنال ابن الاخ من عمه وقتله بيده مع ثلاثين من اصحابه وسار الى حاصبيا فالتقاء بقية اهالي البلاد والامراء وساس الرعاية احسن سياسة فصيح فيه قول الشاعر :

من الناس من يغشى الابداء نفعه ويشقى به حتى الممات افاربه
فان يك خير فالبعيد يناله وان يك شر فابن عمك صاحبه

الملوك المتأخرون } توفي السلطان الناصر محمد وكانت مدة سلطنته نحواً من
واآخرهم النوري } سنين وثلاثة اشهر وتسعة عشر يوماً وكانت ايامه كلها
فذاً وشروراً وتسلطن بعده الملك الظاهر ابوسعيد قانصوه ولم تطل مدته اكثر من سنة
وثمانية اشهر وثلاثة عشر يوماً وكان ملكاً هيناً مسلوب الارادة مع الامراء وتسلطن
بعده الملك الاشرف ابوالنصر جان بلاط بن يشبك الاشرفي وكانت مدة سلطنته ستة
اشهر وثمانية عشر يوماً وثب عليه الامير طومان باي وخلعه من السلطنة وتسلطن
عوضه وسمي بالملك العادل طومان باي بن قانصوه ابي النصر الاشرفي قايتباي وفي
سنة ٩٠٦ تولى السلطنة الملك الاشرف قانصوه الغوري .

وفي سنة ٩٠٣ عصا اقبردي الدوادار وذهب الى الشام فاستولى على غزة ثم جاء
دمشق وحاصرها فلم يتدر عليها فنهب الضياع التي حولها وخرب غالبها وحاصر حماة
واخذ منها اموالاً لها صورة وحاصر حلب شيرين واحرق من قراها وكان اينال
السلحدار يومئذ نائب حلب وكان من عصبة اقبردي ، فقصد ان يسلمه المدينة فرجه
الحلبيون وطرده من بلدهم وحصنوها بالمدافع على الاسوار ، ثم هرب اقبردي الى علي
دولات . وفي هذه السنة زحف ابن عثمان على بلاد المماليك في الشام فساءت حالها

وكثير تبديل النواب مخافة ان يتأصل نفوذهم وتسمو بهم الهمم الى شق عصا الطاعة عليهم . ولما بلغ عسكر ابن عثمان رجوع العسكر المصري ظمعو في اخذ البلاد الحلبية فارسل سلطان مصر تجريدة لحفظ حلب ، فسادت احوال البلاد وآلت الى الخراب وبطلت التجارة بين مصر والشام . ثم تفاوض صاحب الروم وصاحب مصر والشام في الصلح وحمل ابن عثمان الى صاحب مصر مع قاصد مفاتيح القلاع التي كان ابن عثمان قد استولى عليها فسلمها الى السلطان في القاهرة . وفي سنة ٩٠٤ اغار كرتباي الشرکسي نائب دمشق على عرب هتيم بارض الزرقاء وكان كرتباي على رواية الغزي حسن السيرة بالنسبة الى غيره من الامراء . وقتل الناصر محمد بعد سنين وثلاثة اشهر من توليه السلطنة وكان سبي التدبير خالفاً ما جئنا وخلفه خاله المقر السيفي قانصودا الدوادار الكبير ولقب بالظاهر ، وعاد في اول امره اقبردي الدوادار وحاصر حلب حصاراً شديداً واحرق ما حولها من الضياع واشرف على اخذها والتف عليه كثير من العربان والتركمان وحصل منه غاية الضرر ، فجرد السلطان لقتاله حملة . وزحف (٩٠٤) عسكر ابن عثمان على ارض الشام وآل الامر الى انه ارسل يقول لنائب حلب : اعزل ابن طرغل فاجابه نائب حلب الى ذلك وعزله وفي هذه السنة جرى الصلح بين الامراء المصريين وبين اقبردي الدوادار وكانوا اتدبوا لقتاله فوجه عليه السلطان نيابة طرابلس بعد ان ساءت حال البلاد بفننته .

وفي سنة ٩٠٥ خرج قصره نائب الشام عن الطاعة واذهر العصيان جملة واحدة واستولى على قلعة دمشق واموالها وطرابلس وقلعتها وكان السلطان حارل ان يولي قصره الشام فاخفى السلطان في الفتنة وخلصه في المملك الاشرف ابو النصر جان بلاط فلما تسلط السلطان ارسل الى قصره في الشام بالبشارة فلم يزد الا عصياناً . وفي هذه السنة ولي نيابة الشام قانصوه المحمدي فآتي الى البقاع فهرب منه مقدمها ناصر الدين بن محمد بن حنش ، وجرت بينهما امور كثيرة . ثم وقعت الفتنة بين اهل دمشق ونائبها فأحرق حي الشاغور وجرت بينهم حروب كثيرة ثم وقع الصلح عن يد ابن الكبيح شيخ الاسلام بدمشق .

سلطنة طومان / وانندب السلطان احد المقدمين الى الكرك لقتال بني لام
 باي / واجتمع السلطان بالامراء وضربوا مشورة سيفي امر قاصروه
 نائب الشام فأشاروا عليه بان يرسل قاصداً وكان قاصروه قد استولى على غزنة واعمالها
 والقدس وغير ذلك من النواحي فعزم السلطان على ارسال تجريدة لنائب الشام ،
 وكان دولات باي نائب حلب معه سيفي شق عصا الطاعة ، ولكن لم تنفع التجريدة
 وأعان طومان باي سلطنته بالشام وتلقب بالملك العادل وكان العسكر المصري نزل
 بسامع بالقرب من دمشق فركب قاصروه نائب الشام في نفر قليل من عسكره
 واطهر انه طائع فاطمان له العساكر وكان غالب الامراء من ندمائه ولما حضر اليهم
 دخل معهم الى دمشق واجتمعوا في القصر الابق ثم ثارت فتنه كبيرة بالقلعة ، وامر
 قاصروه والامير طومان باي بالقبض على جماعة من الامراء وسجنهم بالقلعة .

وحضر الى دمشق دولات باي بن اركاس نائب حلب الشهير باخي العادل فلما
 حضر تعصب للامير طومان باي وتكلم في سلطنته فأحضر قضاة الشام وكتب
 صورة محضر في خلع الاشرف جان بلاط من السلطنة وبايعوا طومان باي من غير
 خليفة وتلقب بالملك العادل ابي النصر وأحضر له شعار الملك فأفيض عليه . فلما تم
 امره عين لاناكية مصر قاصروه نائب الشام وعين لنيابة الشام دولات باي نائب
 حلب وعين لنيابة حلب اركاس بن ولي الدين وهكذا عين سائر نواب الشام وخطب
 باسمه على منابر دمشق . ثم ذهب الى مصر ومن أطمعهم بالمنصب من الامراء وكان
 تقدم الى من في مصر من الامراء فخلع عليهم ونصبهم قبل حضوره وتسلطن فيها .

وفي سنة ٩٠٨ حدثت فتنه بالشاغور بدمشق حرقت فيها المحلة وقتل أناس
 وضرب النائب على أهل دمشق مالا لاجل مشاة تخرج معه الى حلب تجريدة حرمة
 للبلاد لما قيل من امر الخارجي حيدر الصوفي وذلك مع وقوف حال الناس من الظلم
 وكثرته — قاله ابن طولون . وفي سنة ٩٠٩ جيز الامير ناصر الدين بن حنش مقدم
 البقاع خمسة آلاف مقاتل على عبد الساتر بن إشارة في قرية شيجين فقتل من جماعة
 ابن حنش نحو مائتين .

ومن الاحداث في هذه الايام نجميز نائب دمشق العسكر على جوان بك الفرنجي

البدوادار سنة ٩١٠ الى البقاع فقتل البدوادر عند جسر كامد اللوز وقتل معه نحو ثلاثمائة شخص وكانت الوقعة بينهم وبين الامير نحر الدين بن عثمان بن معن امير الشوف . وكثرت بعد سنة ٩١١ الرميات والغرامات على حارات دمشق فهاج الناس وصعد أهل القبيبات الى مأذنة الجامع الاموي وكبروا على المتسلم حتى أفرج عن المحبوسين . واشتد الجور سنة ٩١٦ في لبنان فهجر اكثر الناس موطنهم الى البلدان البعيدة ومن اللبنانيين من هاجر الى قبرص ثم عادوا منها بعد ثلاث سنين للضييق العظيم الذي حصل فيها بسبب الجراد وكثرة الضرائب التي فرضها الحكام على الرعية .

القضاء على مملكة ذي القدرية
وطبيعة دولتي الممالك البحرية
والممالك البرجية

وأهم ما وقع من الحوادث التي عجلت في سقوط الشام بعد ذلك في أيدي العثمانيين استيلاء السلطان سليم سنة ٩٢١ على مملكة ذي القدرية التركمانية وكانت عاصمتها مرعش تارة والبستان تارة أخرى واستولت على بهسني وملاطية وخربوت ، قامت هذه الدولة سنة ٧٨٠ وتولاهما عشر دامراء أولهم زين الدين قرهجه وآخرهم علاء الدولة بن سليمان الذي قتله سناب باشا وأخاه وبعض اولاده في المعركة واستولى على بلادهم باسم سلطان العثمانيين ، فبذلك سقطت الانحاء الشمالية من الشام في يد عدوة الدولة الشركسية ، وكان امراء ذي القدرية ينزون الشام حتى استولوا مرة على مملكة حماة فردهم الظاهر برقوق مدحورين .

ومنها ذهب سلطان مصر الى دمشق سنة ٩٢٢ فنثر على رأسه بعض تجار الفرنج ذهباً وفضة ، وفرش برسبياي تحت حافر فرسه الشقق الحرير وخرج الى المصطبة التي يقال لها مصطبة القابون في القابون الفوناني ورسم لبعض حجاب دمشق بعمارتها وأقام بها تسعة أيام . وكان ذلك الذهب المنشور شؤماً على السلطان ومملكته انتثر بعدها سالك مملكه .

هذه أهم الاحداث التي حدثت قبيل دخول العثمانيين الى الشام وخروجها من ملوك الشراكسة بعد ان ملكوها بسلطنة الاتابك برقوق ١٣٩ سنة وكان المماليك

البحرية ملكوها منذ سنة ٦٥١ هـ والاختلاف لا يكاد يذكر بين روح دولة المماليك البحرية ودولة الشراكسة فكلاهما أعجميتان ولكن القائمين بهما لا يخرجون في الخطاب والتكاتب والاصول عن اللغة العربية والشريعة الاسلامية ، وقد كانت من تينك الدولتين المماليك والشراكسة رجال عظام مثل الظاهر بيبرس وقلاوون وابن قلاوون وبيبرس الجاشنكير وقايتباي وبرزباي ولكن جاء بعدهم ملوك قونمخروصبيان آل اليهم الامر فأفسدوه او من كفلوهم فلم يحسنوا كفالتهم من رجال الدولة الفاسدين وقد ظفرت هذه الدولة اي المماليك البحرية والبرجية باخراج بقايا الصليبيين من الساحل واستعملت الشدة فيهم فنجحت في التكيل بهم حتى دثرت بقاياهم ، ولكنها لم تقو على انقاذ البلاد من غارات المنار والمغول فقاست الشام منها ألوان العذاب والخراب .

وكان سلطان مصر والشام متى دهم الشام مداهم عظيم يعتصم بمصر وينعم ويلذ في قصوره ويكتفي بارسال تجريدة قد تكون ضعيفة او يصدر أمره لنائب حلب ان ينجذ دمشق ولنائب دمشق ان ينجذ حلب مثلاً . ولا يخرج الاعداء من البلاد الا اذا أرادوا ، وأتوا على الناطق والصامت وألحقوا العامر منها بالعامر ، وباتت امور السلطنة العوبة في كثير من الادوار بايدي ضعاف الاحلام من أسرة ذاك المملوك فتميات السبل لقيام دولة أخرى وهي الدولة العثمانية .

اما قانصوه الغوري آخر ملوك الشراكسة الذين حكموا الشام ومن حكمه انتقلت الى العثمانيين فلم يكن بالذي ترجح حسناته على سيئاته ومع ذلك بذل جهده لدفع عادية العثمانيين فلم يفلح وطال عهده نحو ست عشرة سنة فكانت ايامه فتنًا وغوائل ومخاوف ، حتى قضى الله في دولته بامرہ واستطال عليها سلطان أقوى .



الدولة العثمانية

من سنة ٩٢٢ هـ الى ١٠٠٠ هـ



حالة الشام قبيل الفتح العثماني | كانت الشام اخت . مصر في آخر الدولة الشركسية تقاسمها شقاءها شق الأبله ، فيستبد المتغلبة من الممالك بالاحكام بحسب ضعف صاحب . مصر وقوته ، والصالح في نواحيها وملوكها قليل . ولم تسعد البلاد بعد فئنة تيمورلنك بسultan عادل يطول عهده ليعرف مواقع الضعف فيسدخلها ، ويزيح بحسن الادارة علمها . وشغل ملوك الشراكسة بالتجاريد على حسن الطويل وشاه سوار وابن عثمان من الملوك في شمالي المملكة وشرقها . يجر دونها فيجر دونها الرجال والاموال ، وقد خرج الناس بعد وقائع الصليبيين والمغول وما اعقبها من الوبئة والزلازل والمجاعات اعمرى من مغزل . وازمنت الفوضى في ارجائها وساءت حالتها الاقتصادية والاجتماعية .

احسَّ اكثر الناس بما عرض للدولة من الضعف فأخذوا يتطلعون الى الدولة العثمانية ، وكانت الى الشام ومصر اقرب الدول الاسلامية الكبرى هذا والدولة العثمانية اذ ذاك في اiban شبابها وقوتها ، وقد وقّرت في النفوس منذ أسس بنيانها السلطان عثمان التركي سنة ٦٩٩ على انقراض دولة السلجوقيين ، ولا سيما بما قام به محمد الثاني فاتح القسطنطينية من الغزوات والفتوحات ، وتوفّق له من فتح عاصمة الروم البيزنطيين ، بعد ان حاول كثير من ملوك العرب وغيرهم ذلك فلم يفلحوا لبعدها عن مواطن قوتهم ، ولقوة سلطان القسطنطينية في تلك العصور والامور مرهونة باوقاتها .

هذا والناس لا فرق عندهم اذا استولى عليهم الترك الاعاجم ، بعد ان حكمهم المماليك المتنوعون في اجناسهم زمناً طويلاً ، ماداموا كلهم غرباء عن البلاد يستعبدونهم وينالهم من ضعفهم ضعف وشقاء ، ومن قوتهم بعض راحة وسعادة ، ولا فرق في الاسلام بين عربي واعجمي في الحقوق والواجبات ، واقصى ما يتطلبه الناس سلطان عادل عاقل في الجملة ، لان الامة كانت تنفى باسرها في سلطانها خلال القرون الوسطى ، وساطان غشوم خير من فئنة تدوم .

مقاتل الغوري } كان السلطان قانصوه الغوري آخر من ملكوا الشام من
ومقدمات الفتح } الشراكسة على شيء من الدهاء ، لا يخلو من حسنات ولكن
سيئاته اكثر ، اعدّ للايام عدتها من الماديات وادرك ما يحيق بمملكته من خطر ابن
عثمان ولكن ما ينفع التدبير اذا كانت المعنويات في حكومته مريضة ضئيلة ، والقوى
في جيشه غير موحدة ، وداء الهرم قد استحكم منه ومن دولته . وكان في الثمانين من عمره
يوم صحت اية السلطان سليم العثماني ، رجل الارادة القوية والجيش الجرار ، على اخذ
الشام ومصر ، والقضاء على دولة المماليك . وكان الغوري على رواية كامل باشا
لا يعرف على من يعتمد عليه من رجاله وامرائه غريب الاطوار في ذاته ، فكان ذلك
من دواعي خروج الامر عنه ووقوع الخلل في جيشه ، وكان يعتقد بعلم الجفر ، وقد
ذكر احد ادعياء هذا العلم ان الشر يأتيه من رجل يبدأ اسمه بحرف السين ، فصار يتطير
من كل من يبدأ اسمه بذلك الحرف ومنهم الامير سيبيي كافل الشام . ودون الغيب
اقفال لا يفتحها الزجر والقال .

ترجم للغوري احد المعاصرين من الفرنج بقوله : « انه من مماليك الغوري في افغانستان
كان حاجب الحجاب في حلب سنة ٨٩٣ (١٤٩٠) ورأس محكمة عسكرية ووفق الى
قمع ثورة فيها فابان عن كفاءة وكان وزيراً لما حنق المماليك على طومانباي واختاروه
للملك فتردد كثيراً في قبوله لانه كان تجاوز الستين من عمره واخذ مكوساً وضرائب
من كل انسان حتى من البوابين وضرب تقوداً زائفة اضرت بالتجارة الداخلية والخارجية
فاستلزم عمله حنق الناس وانتقاد معاصريه فمجل بخراب مالية البلاد وذلك لوضعه

رسومًا فاحشة على البضائع ، وعلى البضائع التي تمر ببلاده وانه استعمل جزءاً من هذه الضرائب في إقامة القلاع ولا سيما في حلب وانشأ طرقاً وآباراً في الحجاز . وكانت المكوس التي تجبى في المواني ورسوم البضائع الآتية من بلاد الهند المارة بالبلاد الى اوربا من طريق مصر آتية من عدن وجدة والسويس واسكندرية او من طريق الشام ذاهبة من البصرة وحلب من أهم واردات المملكة . ونفادياً من اداء هذه الرسوم الفادحة اجتهد البرنقاليون ان يكشفوا طريقاً في البحر الى الهند مما ظفر به ملاحهم فاسكودي غاماً وتوفقوا على التدرج الى النزول على شاطئ بلاد الهند وبعثوا الى اوربا توماً بسفنهم النقلة الكبرى عن طريق البحر وذلك بقطع طريق رأس الرجاء الصالح فتحاموا اداء المكوس الفاحشة التي كانت تؤخذ في المواني المصرية عن البضائع التي ينقلونها وعن نفقات النقل في البر فاستنفاد البرنقاليون من ذلك ، ولم يسع الغوري ان يسكت عما يلحق المسلمين من مظالم البرنقاليين فخارب الاسطول البرنقالي غير مرة في بحري الهند والاحمر ونال منهم ونالوا منه قليلاً . قال وساءت حالة الغوري حتى لم يستطع ان يدفع رواتب المالك في اوقاتها بحيث فقدت حكومته كل معاونة قوية ، وكانت سياسته الخارجية تعسة لانه اضطر ان يحالف عدوه اللدود اسماعيل شاه خوفاً من السلطان سليم العثماني ولم يخف ذلك عن السلطان سليم وعرفه بواسطة جواسيسه .

وبينا كان قانصوه الغوري يغوص في احلامه واورهامه ، كان السلطان سليم الاول وهو التاسع من آل عثمان الملقب بباؤز اي الشديد الجبار بجيش الجيوش وبعده الزجوف ويستجد السلاح فبدأ بقتل الشيعة في تخوم الاناضول وكانوا اربعين الفاً ثم زحف سنة ٩٢٠ على بلاد الشام اسماعيل الصفوي صاحب شروان واذر بايجان وتبريز والعراق العجمي وفارس وكرمان وديار بكر وبغداد وباكو ودر بند وخراسان وانصر في وقعة جالديران المشهورة وانهزم عسكر الشام اسماعيل شرهزيمة وجرح الشام في المعركة وفتح السلطان سليم ديار بكر وبلاد الاكراد فهب قانصوه الغوري من مصر لانجاده فيما قيل والارجح انه هب للدفاع عن بلاده . وكان نائب سلطان مصر على البيرة رجلاً اسمه علاء الدولة بن سليمان (وهو صاحب مرعش والبستان) فلما اجتاز السلطان

سليم بالبيرة يريد قصد الشاه الصفوي امر علاء الدولة اهل مرعش ان لا يبيعوا شيئاً لعسكر السلطان سليم فهلك كثير من رجالهم ودوابهم جوعاً ، فشق ذلك على السلطان سليم كما قال بعض المؤرخين وشكاً ما وقع له الى الغوري فقال : ان علاء الدولة لم يصدر عن امره وانه عاص عليه وانه اذا قتله يكون له شاكراً ، وكتب الغوري الى علاء الدولة بحملة على متابعة عمله فأحس السلطان سليم بان الغوري يكيد له وزاد علاء الدولة بان سرق بعض احمال من ذخائر عسكر السلطان سليم فلما عاد هذا من غزاته قتل علاء الدولة واولاده وارسل رؤوسهم الى الغوري . بمعنى ان سنان باشا استولى سنة ٩٢١ باسم السلطان سليم على مملكة ذي القدرية التي كانت في مرعش والبستان وملتية وبهسني وخربوت وما اليها ، وكانت الدولة العثمانية جعلت حكومة ابناء رمضات التركمانية التي نشأت سنة ٧٨٠ هـ في جهات أذنة وطرسوس وشيس تحت ظلها ، بعد ان كانت علائق امراءها الثلاثة الاول مع دولة المماليك الشراكسية اصحاب الشام ومصر مسترخية ، ففتحت السبل والمنافذ الى الشام وصارت الجيوش العثمانية تأمن على مقدمتها وعلى خط رجعتها .

ولما اضعف السلطان سليم مملكة كبرى وهي مملكة الصفوي ، وقضى على مملكة صفري وهي مملكة ذي القدرية ، طمحت نفسه الى فتح الشام ومصر وبنزعها من دولة المماليك ليضمها الى مملكته فتدخل في طور العظمة وتكون ممالك في مملكة ، وكان ابوه وجده من قبله يقاوتلان بعض حاميات الشام بتعرفان بذلك مبلغ قوة المماليك ، ويدفعان امراء الاطراف امثال امراء ذي القدرية وغيرهم الى مجاذبة ملوك الشراكسية حبل السلطة على التخوم . وكان اولئك الامراء كثيراً ما يسرون مع المماليك سيرة الصغير مع الكبير ، لعلمهم بان اثاره العثمانيين لهم على المماليك لا خيرهم بل لينقموا بهم ثم ينقموا منهم ويضعفونهم ويضعفوا بهم .

لا بد للمصدر ان ينقش والذي في الصدر ان يبعثا

صلات العثمانيين مع المماليك
وذكر مؤرخو الترك ان الصلات السياسية بين
ملوك الشراكسية اصحاب مصر والشام وبين
ورقة مرج دابق

سلاطين آل عثمان كانت مسترخية منذ عهد محمد الفاتح . ولما سميت مهمة السلطان سليم الى فتح الشام ومصر (٩٢٢) ارسل جيشاً الى ديار بكر يوري بانه يريد قصد ايران ، ولادفي سبب اخذ الجيش يتوجه صوب الجنوب ، فبعث قانصوه الغوري بعض رجاله يتوسطه في الصلح فقتل السلطان سليم رجال السفير واراد ان يقتل السفير نفسه فوقع وزيره على قدميه وشفع فيه ، وقال له : ان ذلك مخالف لحقوق الدول فالسفراء لا يقتلون ، فاكتفى السلطان بخلق شعر السفير ولحيته ، واركبه على حمير اعرج اجرب واعاده الى صاحبه الغوري جزاء ما قدمت يداه فيما يقال من اتهان الغوري رسل السلطان العثماني .

وترددت الرسل بين السلطانين في مرج دابق اولاً ، وكان ابن عثمان فوض الى رساله ان يتظاهروا بطلب سيدهم للصلح ليثني بذلك عزم الغوري عن القتال ، وقد احضر سلطان العثمانيين فتاوى من علماء بلاده يجيزون له قتل الشاه اسمعيل الهنوي ، وارسل يقول للغوري انت والدي واسألك الدعاء لكن لا تدخل بيني وبين الصفوي — بينا الامر على ذلك وقد خلع الغوري على قصاد ابن عثمان الخلع السنية ، وارسل اليه ابن عثمان يطلب منه سكرأ وجلوى فارسل له منها مائة قنطار في علب كبار عدا الهدايا والتحف ، هجم سلطان العثمانيين على ملك الشراكسة وكسره شر كسرة في وقعة دامت من طلوع الشمس الى ما بعد الظهر ، فقتل من عسكر ابن عثمان ومن عسكر الغوري خلق كثير ، فلما تحقق الغوري انه غلب اصابه للحمال فالج ابطل شقه وارخى حنكه ، واستعد للركوب فمشى خطوتين وانقلب عن الفرس الى الارض وباضت روحه من شدة تهره ، واكثر المؤرخين على انه لم تظهر جثته في المعركة . ويقول بعض مؤرخي الترك : ان جاویشاً من الجيش العثماني أمر بان يجث عن جثة قانصوه الغوري فقطع رأسه وقدمه الى السلطان سليم ، فامتعض منه السلطان وامر ان يضرب عنقه ، لتزلفه الى مولاه بقطع رأس الملك المقتول ولولا ان الوزراء توسطوا له لما صرف السلطان النظر عن قتل الجاویش مكثفياً بعزله .

وذكروا ان الغوري قد خانه لاول الامر ثلاثة عشر الفاً من جيشه ، امنعوا عن الحرب عند الصدمة الاولى واهوا قتال الاتراك ، ومن الامراء الذين كانوا موالسين

على الغوري وخصامهم مع السلطان سليم خير بك نائب حلب وجان بردي الغزالي نائب حماة فان السلطان سليماً كان فاضحاً سرّاً ليوليها الشام ومصر على ما قيل اذا ساعدها على فتح هذا القطر ، فلما انهزمت ميمنة الغوري وقتل الاتابكي سودون النجمي وملك الامراء سيبيائي نائب الشام ، انهزم جانب كبير من العسكر وانهزم خير بك وهرب فانكسرت الميسرة ، وكان ابن معن وامراء الساحل صحبة خير بك والغزالي فقتل الامير ابن معن ابن معن من رجاله وقومه : دعونا نفرد لننظر لمن تكون النصرة فنقاتل معه . ولما اضطربت نار الحرب فر الغزالي وخير بك الى ناحية عسكر السلطان سليم بن معهم من امراء الديار الشامية وبقي الغوري بعسكر المصربين اي عسكر الشام والمعول عليهم من امرائها من الشراكسة والوطنيين قد استسلم السلطان سليم فقاتلوا في صفوفه بدلاً من ان يقاتلوه ، ونائب الشام سيبيائي الذي كان بتطير منه الغوري لانتقامه ببداً بحرف السين قد هلك دونه في المعركة بدافع عن ملك سيده لا كما كان هذا يتوهم :

بفر جبان القوم عن أم رأسه ويحمي شجاع القوم من لا يناسبه
ويرزق معروف الجواد عدوه ويحرم معروف الجليل اناربه
ومن لا يكف الجهل عن يوده فسوف يكف الجهل عن بوائبه

قوة الغالب والمغلوب وغنائم } ولقد اختلف تقدير المؤرخين لقوة العثمانيين
الغالبين واضطراب البلاد } والممالك فاعلمهم على ان ابن عثمان كان في اربعين
الف مقاتل مجهزين بمدافع حسنة ، وروى نامق كمال ان العثمانيين كانوا في ثمانين الفاً
وثمانمائة مدفع ، وان الغوري كان في خمسين الفاً لا بمدافع لهم . وذكر الغزي ان الغوري
اتى من حلب الى دابق في ثلاثين الفاً . وذكر بعض المؤرخين ان السلطان سليم امر ان
تعد القنلى من الفريقين في مرج دابق فكان قتلى الشراكسة الف نفس وقتلى الروم
اي الترك اربعة آلاف . وكان فقدان المدافع من جيش الغوري وخيانة ربع جيشه
وعدم ثقته باحد ، من دواعي القضاء عليه وعلى سلطانه ، وأهم ذلك خيانة بعض
قواده ، وامتناع امراء البلاد عن الدفاع في صفوفه او يظنير لهم الغالب .

ولقد قويت نفس السلطان سليم بما أصاب جماعته من الانتصار الباهر ، وما قتل من رجال الغوري ، ثم تحول من مرج دابق ودخل حلب من غير ممانع ، ونزل في الميدان الذي كان السلطان الغوري نزل ، وانتشر خبر الهزيمة وقتل الغوري في أنحاء الشام فوثب الناس بعضهم على بعض ونهبوا الزروع وأخذوا الأموال ، واضطربت البلاد أيما اضطراب ، ووثب أهل دمشق بعضهم على بعض ونهبوا حارة السمرة وقتلوا جماعة وأخذوا أموالهم ، وكذلك فعلوا بتجار الفرنج ونهبوا أموالهم ، وكانت فئنة هائلة ونهبوا يهوت أعيان الناس بدمشق من القضاة والتجار ، نخرج غالب الصدور منها بسبب ذلك وبسبب فئنة ابن عثمان وفساد الأحوال بمصر والبلاد الشامية وتوجه امراء الغوري وعسكره الميزوم الى حلب ، فوثب عليهم أهل حلب قاطبة ، وقتلوا جماعة من العسكر ونهبوا سلاحهم وخيولهم وأثقالهم ، ووضعوا أيديهم على ودائعهم التي كانت بحلب ، وجرى عليهم من أهل حلب ما لم يجر عليهم من عسكر ابن عثمان كما قال ابن اياس . وكانت بين أهل حلب والمماليك السلطانية إحنة منذ توجهوا قبل خروج السلطان من القاهرة الى حلب فقتلوا في يهوت أهل حلب غصباً وفسقوا في نساءهم وأولادهم ، وآذوا الحلبيين كل الأيذاء ، فما صدق أهل حلب ان وقعت لهم هذه الكسرة حتى يأخذوا بثأرهم .

وعلى الجملة فإن ما نال البلاد وأهلها في اواخر حكم المماليك مما عجل بالقضاء على الدولة المماليكة وفتح القلوب للسلطان سليم الاول ، وخدمه كثير من أهل الشام في البلاد قبل مجيئه فكانوا يوافونه بالآخبار تترى عن مقاتل الغوري ومواطن الضعف من دولته ، وقد بدأوا يتجسسون للعثمانيين منذ اواخر القرن الماضي فكان ذلك من العوامل القوية في الفت في عضد الجيش الشرقي وامالة القوة الى الجيش التركي ففتحت الشام في وقعة واحدة ولم يبك على دولة المماليك الا من كانوا باسمها يتمتعون بالخيرات وينالون مظاهرها ويسلبون نعمة الامة . « وما قرعت عصا على عصا ، لا حزن لها قوم وسر آخرون » .

دخول السلطان سليم } وافى السلطان سليم مدينة حلب فاستقبله اهلها
حلب ودمشق } بالمصاحف والاعلام يجيرون بالتسبيح والتكبير
ويقراون « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى » وطلبوا منه الامان فامنهم وانعم
عليهم ثم أخذ يجمع مالا من التجار سماه « مال الامان » ورأى خلفاء ارباب الطرق
الصوفية فسأل عنهم وهم يحملون اعلامهم ويرحلون الى الشام وأشار عليه خير بك
بان يقتلهم وكانوا نحو الف نفس ، واستسلم نائب قلعتها فأرسل السلطان اليه شخصاً
من جماعته أعور أعرج وفي يده دبوس خشب ليقول بلسان الحال انه اخذ حلب
بضعف جنده . وطلع السلطان سليم الى القلعة فرأى فيها ما دهشه من مال وسلاح
وتحف وكان بها على رواية ابن اياس نحو مائة الف دينار وثمانمائة الف دينار .
وقال مؤرخو الترك انه كان فيها مليون دوكا . ورأى السلطان سليم من انواع
الاسلحة والخزينة ما جمعه الغوري من الاموال من وجوه الظلم والجور والتحف التي
اخرجها من الخزائن من ذخائر الملوك السالفين من عهد ملوك الترك حكام مصر والشام
بعد الايوبيين وذلك عدا ما كان في بيوت الامراء وغيرهم من رجال الدولة .

ووجه ابن عثمان الجيش الى مرعش ففتحها وملك معها ثلاثة عشرة قلعة من بلاد
الغوري واحتوى على ما فيها من مال وسلاح . وذكروا ان العثمانيين عثروا في خيمة
الغوري في مرج دابق على مئتي قنطار من الفضة ومئة قنطار من الذهب وفي رواية
ان هذه الخزينة كان فيها ما قيمته مليون ليرة وقيل انه وجد في قلعة حلب ثلاثمائة
الف ثوب كامل .

واقام السلطان في حلب ثمانية عشر يوماً وبايعه اهلها بحضور واليها خير بك ،
وتوجه اليه امير المؤمنين المتوكل على الله العباسي وكان جاء مع الغوري من مصر
ومعه القضاة الثلاثة فأجلس السلطان الخليفة وجلس بين يديه وخلع عليه وانعم عليه
بمال وردّه الى حلب ، ووكل به ان لا يهرب اي انه امره بأسلوب لطيف ، وصلى
صلاة الجمعة في الجامع الكبير فأطلق الخطيب على السلطان العثماني لقب خدام الحرمين
الشريفين فكان ذلك كما قال راسم في تاريخه : فأل خير بان السلطان سليماً سيكون
صاحب دولة اسلامية كبرى . قال : وكان خيره باي (خير بك) احد امراء

الغوري استأمن السلطان العثماني لما تقهر جيش مصر فأخذ نفسه . وولى السلطان على حلب قراجا باشا .

سار السلطان في جيشه الى حماة وحمص ففتحت له ابوابها ، وباعه اهلها على الطاعة كما بايعه اهل طرابلس والقدس . وجاء دمشق فاستقبله اهلها ورضوا به سلطاناً عليهم فكأنه بدخوله دمشق عاج ببعض بلاده القديمة . قال ابن طولون : « وفي يوم الخميس ثامن عشرين (شعبان ٩٢٢) وصل متسلم ملك الروم (الاتراك) الى القابون الفوقاني واسمه مصلح ميزان ، ثم وجه اثنين من الخاصكية ومعها السمرية ويونس العادلي وابن عطية الناجر الى دمشق ، ليكشفوا هل يسلون أم يقاتلون ، وقد كانت انفتحت اكابر دمشق ومشايخ الحارات على تسليم البلاد فقلقت الخلق لهذين الخاصكين ومن معها وسلموهم دمشق . وفي يوم الجمعة تاسع عشرين دخل نائب الشام الجديد من قبل ملك الروم واسمه يونس باشا ، وخطب في هذا اليوم في الجامع الأموي المولوي ابن فرفور باسم ملك الروم وكذلك في سائر الجوامع ، ثم تابع دخول العسكر وفي يوم السبت مستهل رمضان منها وصل ملك الروم الى المصطبة السلطانية بارض برزة في عساكر عظيمة يقال ان عددها مائة الف وثلاثون الفا وعزل ملك الروم بدمشق عن نيابة دمشق يونس باشا وولى مكانه الامير شهاب الدين احمد بن يخشي . وفي يوم الاثنين العشرين من ذي القعدة وهو خامس شهر كانون الاول ورابع الاربعينيات الشتوية اسافر ملك الروم من دمشق الى مصر لاختها من يد الشراكسة » .

مقابلة امراء البلاد	قابل امراء البلاد السلطان سليماً ومنهم الامير نحر الدين
سلطانهم الجديد	المعني الاول امير الشوف فخطب امامه بالنيابة عن
وتغير الاحكام	امراء البر خطبة جميلة استمال بها قلب الفاتح ، فأحسن

اليه وخلع عليه فسماه سلطان البر وأفضل عليه وعلى رفاقه من الامراء مثل الامير جمال الدين الارسلاني اليمني الذي جعله والياً على بلاد الغرب والامير عساف التركاني امير بلاد كسروان وبلاد جهيل ، وامرهم ان يحسنوا السياسة لقومهم وان

يسعوا بكل ما يؤول الى عمران بلادهم ، وقدمت اليه الناس من كل جانب الا الامراء
 النيوخيين القيسيين فانهم لم يأتوا لانهم كانوا من حزب الدولة الشركسية . وقال
 كامل باشا : ان امير العرب ناصر الدين (ابن الحنش) وكان عهد اليه الدفاع عن
 دمشق من قبل الشراكسة قبل بالصلح الذي اقترحه عليه خير باي وخضع للسلطان
 سليم ، فزل هذا في القصر الابلق فجاءه محافظو قلاع سورية وامراء العرب والدروز
 براضون الطاعة له . ويقول ابن اياس : ان الامير ناصر الدين بن الحنش امير عربان
 حماة لما بلغه ان ابن عثمان ارسل طلائع عسكره وقد وصلت الى القابون بالقرب من
 دمشق لقيهم ابن الحنش وحصل بينه وبين عسكر ابن عثمان مقتلة عظيمة مهولة وقتل
 منهم جماعة واطلق عليهم الماء من انهر دمشق حتى صار كل من دخل في تلك المياه
 بفرسه يوحل فلا يقدر على الخلاص فهلك من عسكر ابن عثمان جماعة كثيرة .

ولما استقرت الحال بالشام ضرب السلطان سليم المكوس على الناس وعلى الاحكام
 الشرعية فتعطلت الحدود . قال الغزي : ولما بلغ الامام علي بن محمد المقدسي ان
 العثمانيين ضربوا الجزية حتى على المومسات فنغم الدم من كبده وتمنى الموت ، للقهر
 الذي اصابه وللغيرة على دين الاسلام وتغير الاحكام وقال في دخول السلطان سليم
 دمشق هذه الابيات :

ليت شعري من على الشام دعا	بدعك خالص قد سمعا
فكساه ظمة مع وحشة	فهي تبكيننا ونبكينا معا
قد دعا من مسه الضر من ال	ظلم والجور اللذين اجتمعا
فعلا الحجب دعا فانبعثت	غارة الله بما قد وقعا
فأصاب الشام ما حل بها	سنة الله التي قد ابدعا

هذا ما رواه مؤرخ ذاك العصر ، وربما كان فيما بلغه مبالغة نشأت من تعصب
 للدولة الشركسية او رجاء أخفق وكان يظن انه يتم على يد ابن عثمان من اقامة
 الحدود ورفع المظالم شي كثير في مدة قصيرة ، وما خلت دولة مها بلغ من سخطها
 وسخط القائمين بها من انصارها على الحق والباطل : وكثير من الامور اذا نظرت

اليها من وجهها الحسن راقتك ، واذا ملت فيها الى الوجه القبيح احصيت عليها
بعض العيوب .

السلطان في دمشق وفي [] جهاز السلطان سليم جيشه في دمشق وقضى فصل
الطريق لفتح مصر [] الشتاء فيها يعمر بعض المباني . وقال صولاق زاده :
ان السلطان سليماً كان مدة اقامته في دمشق يختلف في الاوقات الخمسة (كذا) الى
الشيخ محمد بدخشي في جوار جامع بني أمية وان السلطان سليماً لما كان يعتقد بالاستمداد من
ارواح الانبياء العظام الطاهرة وارباب المقامات الشريفة لم يغفل هذا المقصد مدة
اقامته في دمشق ، ولما رأى قبر العارف بالله محيي الدين بن عربي قد تداعى وخرت تربته
امر بتعميره على ما يجب وانشأ بجواره جامعاً على اجمل طرز وعمر زاوية بقربه ووقف
على ذلك عدة قرى ومزارع . وقال ايضاً ان السلطان سليماً صرف الامراء والجند
فاخذوا دستوراً الى بلادهم ليقضوا فيها فصل الشتاء ، وجاء دمشق بعدان استراح اثني
عشر يوماً في المحل المسمى المصطبة .

وذكر ابن طولون ان النائب بدمشق الشهاب بن يخشى نادى في ٢ ذي الحجة
٩٢٢ بالامان والاطمئنان ، وان لا ظلم ولا عدوان ، ولا يحمل احد سلاحاً ، وان
لا يتكلم احد فيما لا يعنيه .

سار السلطان عن طريق البر الى غزة فعصت عليه ففتحها حرباً والنقي جيش
العثمانيين مع جيش المصريين في خاب يونس بين غزة والعريش ، فشنت الجيش
العثماني الجيش المصري ، ثم عصت غزة والرملة فقمع ثائر الغزاة فيها ، وكانت الواقعة
المهمة بين عسكر مصر وعسكر ابن عثمان على الشريعة بالقرب من بيسان اندحر فيها
المصريون وقائد جندهم الغزالي . قال ابن طولون وفي ١٦ ذي الحجة ٩٢٢ التقى
سنان باشا الوزير الاعظم للملك الروم مع جاب بردي الغزالي فكسر الغزالي فدقت
البشائر بقلعة دمشق وسيب بها فقط كثير ثم نادى النائب بالزينة واستمرت
مدة اسبوع .

ذهب السلطان سليم في جيشه الى مصر وقتل الملك الذي كان بايع له المصريون

بعد هلاك السلطان الغوري واسمه طومانباي ، وشتت شمله ففتح القطر المصري على
ايسر سبب . قال ابن طولون : ولما وردت البشائر بفتح مصر زينت دمشق سبعة ايام
وزارت مبشرو الاروام على بيوت الاكابر والحدارات بالطبول والنايات ثم اتبعوها
بزينة سبعة ايام لما ورد الخبر بان السلطان سليماً افني الشراكسة .

وعاد السلطان عن طريق البر الى الشام بعد تغيبه ثمانية اشهر ودخل دمشق (١١
رجب ٩٢٣) وفي يوم ٢٢ منه طلبت العساكر النزول في البيوت فهجموا على النساء
وتضرر الخلق بذلك ضرراً زائداً وتحقق ان السلطان عزم على الاقامة بدمشق فغلت
الاسعار وعند ذلك شرع بعمارة تربة ابن عربي وصرف عليها عشرة آلاف دينار
ومن غريب التوفيق ان السلطان سليماً كان اعد في ذهابه الى مصر خمسين الف رجل
لحمل المياه في الصحراء التي تفصل الشام عن مصر فامطرت السماء مطراً غزيراً اغنى
جيشه عن ماء الروايا ، وسهل عليه قطع صحراء التيه على ايسر وجه :

واذا السعادة لاحظتكم عيونها نيم فالخاوف كلث امان
وبينا كان السلطان سليم سائراً الى مصر تأخر من جماعته بعض اناس في الرملة ،
فشاع الخبر ان اهل المدينة قتلوه ، وبلغ ذلك السلطان فامر بقتل اهل البلد فقتلوا
عن آخرهم ولم يبق فيها ديار ولا نافخ نار . ويقول القرماني ان السلطان امر بقتل عامة
اهل الرملة عند عودته من مصر وقد بلغه الثقات ان اهلها قتلوا من كان عندهم من العسكر
المجروحين . وقال ابن اياس : ان الغزالي لما تلاقي مع سنان باشا على الشريعة اشيع
في غزة ان الغزالي قد انتصر على عسكر ابن عثمان وقتل سنان باشا وعسكر ابن عثمان ،
فبادر علي باي دوادار نائب غزة واجناده فنهبوا وطاق العثمانيين واحرقوا خيامهم
وقتلوا من كان في الوطاق والمدينة من العثمانية فحوار بعائة انسان ما بين شيوخ وصبيان
ومن كان بها مربضاً ، فلما ظهروا ان الكسرة على عسكر مصر وقتل من قتل من
الامراء رجع سنان باشا الى غزة فوجد من كان بها قد قتل ونهب الوطاق ، فجمع
اهل غزة قاطبة وقال لهم : من فعل ذلك بنا قالوا : علي باي دوادار نائب غزة ،
واجناد غزة ، ولم تفعل نحن شيئاً من ذلك ، فامر سنان باشا بكبس بيوت غزة فوجدوا
فيها قماش العثمانية وخيولهم وخيامهم ، فقال لهم سنان باشا : نحن لما دخلنا غزة هل

شوشنا على احد منكم قالوا : لا . فقال لهم : كيف فعلتم بعسكرنا ذلك ، فلم يأتوا بجواب ولا عذر ولا حجة ، فعند ذلك امر عسكره ان يلعبوا فيهم بالسيف فقتلوا منهم ما لا يحصى عدده وراح الصالح بالطالح .

ونصب السلطان والياً على مصر خير باي نائب حلب ووالياً على دمشق جان بردي الغزالي نائب حماة و اضاف الى هذا القدس وغزة وصفد والكرك ، واما حص و طرابلس والمدن البحرية فجعلها بأيدي عماله من الاثراك ، وبقي الحال على ذلك مدة طويلة .

قال شمس الدين سامي : ان جانبردي الغزالي كان قائداً عاماً للجيش الذي ارسله طومانباي لقتال السلطان سليم فغلب في الوقعة التي جرت في غزة وفر ثم رأى ان يستأمن السلطان سليماً ويخدمه ، فاعانه على قهر طومانباي وفتح مصر ثم كان سبباً لقتل طومانباي . ومكافأة لخدمته نصبه السلطان والياً على الشام . اما حلب فقد نصب عليها السلطان قرهجه احمد باشا بن جعفر لمكانتها ، ودام فيها والياً ثلاث عشرة سنة اغناؤه وكفايته في خدمة دولته .

فتوق وغارات
وتأذي النكان
ولما مهد السلطان سليم الاقطار الشامية والمصرية ورجع الى الشام عصى عليه الامير ناصر الدين محمد بن الحنش صاحب صيدا والبقاعين وشيخ الاعراب (٩٢٤) ثم هرب واتهم الامير زين الدين والامير قرماز والامير علم الدين سليمان انهم من حزبه فقبض عليهم الغزالي وبعث برأس ابن الحنش ورأس ابن الحرفوش الى السلطان سليم في حلب واطلق سراح هؤلاء المعتقلين وكان الامير ناصر الدين كثير العصيان على نواب حلب بل وعلى سلاطين مصر .

ولما ملك ابن عثمان دمشق امنع من مقابله فأخذه الغزالي وقتله وحز رأسه هو وابن الحرفوش وقبض على اربعة من مشايخ عربان جبل نابلس منهم قراجا بن طراباي شيخ عربان جبل نابلس وكان انفق على هذا عربان بني عطاء وبني عطية والسوالم وكسروه ، فارسل الغزالي رؤوسهم الى السلطان ، فلما جرى ذلك اضطربت احوال جبل نابلس وصار العربان ينهبون الضياع التي حول حاضرتها ويقتلون اهلها . وفي مدة اقامة السلطان سليم في حلب لدن عودته من فتح الشام ومصر قتل بعض اشرار حارة بانقوسا ، ولما بلغه

ان الشاه اسماعيل الصفوي يريد ان يهاجم حلب اخذ بطيب خاطر الحلبين ورفع عنهم ما كان اثقل كواهلهم به من الضرائب والمكوس واخذ بعثني بتحصين حلب .

ومن اعمال الغزالي استيلاء العربان (٩٢٥) على الحاج الشامي فخرج اليهم ومعه نائب غزة بعساكر غزة ونائب الكرك ، فاقتتل مع العربان وقتل منهم جماعة كثيرة وغنم اموالهم . وفي السنة التالية اتى الفرنج (ولا نعلم ان كانوا من البنادقة او البرنقاليين) الى ساحل بيروت وحاصروا من بها فكسروهم وملكوا مدينة بيروت وظلوا فيها ثلاثة ايام ، فلما بلغ ملك الامراء نائب الشام جان بردي الغزالي ذلك عين دواداره ^(١) ومعه الجمل الكثير من العساكر فتوجهوا الى بيروت واقتتلوا مع الفرنج . وكان بين الفريقين واقعة هائلة قتل فيها كثير من الفرنج وأسروا منهم ثلاثمائة انسان وغنموا منهم اشياء كثيرة من سلاح وقماش وغير ذلك ، وقيل اسروا جماعة من اولاد ملوك الفرنج وملكوا ثلاثة من كبار مراكبهم .

وفي ذهاب السلطان الى مصر وعودته الى الشام قاسى اهل البلاد من اعتداء جنده كثيراً ، فقطع الاجناد الاشجار ورعوا الزروع واخرجوا الناس من بيوتهم في البلاد التي احتلوها وتعبدوا على اعراض الناس ، فتضرر الناس بذلك وعرفوا انهم اخطأوا في نفوذ ايديهم من ايدي الشر اكساة لاول ما بدا لهم من قوة العثمانيين ، وخاب رجائهم في ان تغيير الدول قد يكون منه رحمة ، والغالب ان فيه تقمة لا نعمة ، خابت الظنون لما جاء دور العمليات وغلط في الحساب من كانوا يتوقعون من الدولة الجديدة كل الخير وان الحظ يحظهم متى خفقت اعلامها عليهم وكانوا يرقبون طاعة العثمانيين منذ سنين رتبة هلال العيد ، للاستمتاع بحكمهم الرشيد وعهدهم السعيد ، ولطالما ساء حال من يهتمون للامر الجديد ويفتحون له قلوبهم وصدورهم بادي الرأي مع علمهم احياناً بتهورهم ، واي فشل أعظم لمن كانوا يطلعون الدولة الخالفة على عورات الدولة السالفة ، حياء بان يكون لهم او للبلاد شيء من الراحة والهناء اذا تغيرت الدولة .

محاسن السلطان سليم } صرف السلطان سليم سنة وشهراً في فتح الشام ومصر
ومساويه ومهلكه } وهلك بعد مغادرته البلاد بنحو ثلاث سنين (٩٢٦)
وقد بالغ مؤرخو الترك في وصف فضائله خصوصاً من كتبوا بلسان الرسمية . وكثيراً
ما يكون في الروايات الرسمية نظر كبير اذا وضعت على محك النقد التاريخي . وكان
مؤرخو العرب أقرب الى الانصاف والثقة في وصف هذا الناتج الذي هو بلا مرأى
نابغة العثمانيين او من نوابغهم بعد محمد الفاتح . ترجمه النجم الغزي في الكواكب
السائرة بقوله : كان السلطان سليم سلطاناً قهاراً ، وملكاً جباراً ، قوي البطش ،
كثير السفك ، شديد التوجه الى أهل النجدة والبأس ، عظيم التجسس عن اخبار
الملوك والناس ، وربما غير لباسة وتجسس ليلاً ونهاراً ، وكانت شديد اليقظة
والتحفظ ، يحب مطالعة التواريخ وأخبار الملوك ، وله نظم بالفارسية والرومية
(التركية) والعربية .

وترجمه ابن اياس بقوله : انه لم يجاس بقلعة الجبل (بضر) على سرير المالك
جلوساً عاماً ولا رآه أحد ، ولا أنصف ظالماً من مظلوم ، بل كان مشغولاً بالذنه
وسكره ، واقامته في المقياس بين الصبيان المرد ، ويجعل الحكم لوزرائه بما يختارونه ،
فكان ابن عثمان لا يظهر الا عند سفك دماء الشراكسة ، وما كان له امان اذا
أعطاه لاحد من الناس ، وليس له قول ولا فعل ، وكلامه ناقض ومنقوض ، لا يثبت
على قول واحد كقول الملوك وعادتهم في أفعالم . وقال ايضاً : ان السلطان سليماً
قتل يونس باشا الصدر الاعظم وكان مقرباً جداً عنده ولكن ابن عثمان ليس له صاحب
ولا صديق ولا أمان منه لاحد من وزرائه ولا من عسكره ومن طبعه الرجح (الشغب
والهنة) والخفة ، ويجب سفك الدماء ولو كان لولده ، ويقال انه قتل أباه واخوته ،
لاجل مملكة الروم ، وآخر الامر انه قتل يونس باشا لكونه صار له عليه يد قديمة .
وفي الواقع ان السلطان سليماً قتل وزيره حسن باشا في رحيله الى مصر لان
هذا لاحظ ان في قطع الصحراء هلاك الجيش فضرب السلطان عنقه ، ولما غادر
السلطان مصر والف حمل تحمل امامه الى الاستانة ما غنمه من مصر من الذهب
والفضة قتل وزيره الآخر يونس باشا في صحراء قطية والسبب في ذلك ان السلطان

اقترب من الصدر الاعظم وهو سائر معه وقال له : أرأيت كيف أصبحت مصر الآن وراءنا وغداً نبلغ غزوة . فلم يتالك الصدر ان أجاب السلطان : نعم ولكن اي ثمرة حصلت من هذا التعب والمشقة ، ان لم يكن هلاك نصف الجيش السلطاني في الحروب ووسط الرمال ، وبقيت حكومة مصر بعد هذا في أيدي الخونة . فلما قال الصدر ذلك استشاط السلطان غضباً فضرب عنق الوزير في الحال ودفن في الخان الذي كان أنشأه بين مصر والشام يونس بن عبدالله التركي الدوادار بالقرب من غزوة فدفن يونس باشا في خان سمي يونس الدوادار وعهد السلطان بالصدارة الى بيري باشا .

وقال الشرفاوي : ان خير بك لما دفع الى السلطان سليم مفااتيح مصر ردها عليه وولاه عليها الى ان يموت فشاوره على ان ابناء الشراكسة يريدون الدخول في جملة الاجناد فأجازه بذلك ، وشاوره على ابقاء أوقاف الشراكسة وهي نحو عشرة قراريط من ارض مصر فأجازه بابقائها على ما كانت عليه ، فتشوش وزيره وقال فني مالنا وعساكرنا ، وتبقى لهم أوقافهم يستعينون علينا بها ، فقال السلطان سليم : أين الجلال وكانت احدى رجله في الركاب فضرب عنق الوزير ووضع رجله الثانية في الركاب . وقال : عاهدناهم على انهم ان مكنونا من بلادهم أبقيناهم عليها وجعلناهم امراءها ، فهل يجوز لنا ان نخون العهد ونغدر ، واذا أدخلنا أبناءهم في جندنا فهم اولاد مسلمين ويغارون على ديارهم ، وأما اراضيهم فأصلها ملك القائمين ومنهم من وقف معهم من قامت ذريته عليه من بعده ، فهل يجوز ان ننازع الملاك في املاكهم ، وانا أزلت الوزير كراهة ان يغير عليّ اعتقادي بتكرار كلامه اهـ .

كان القتل عند السلطان سليم أسهل أمر وألطفه ، وكان شديداً جداً على وزرائه قتل منهم سبعة لاسباب تافهة . وقال القرمانلي : انه خنق أخوته وغيرهم من أهل بيته وعددهم سبعة عشر نفرأ وذلك حين توليه الملك وجرى عند الاتراك في حكم الامثال قولهم : من أراد الموت فليكن وزيراً للسلطان سليم ، لان لقب وزير كان شهادة على الموت العاجل . وقال صولاق زاده : في عصر سليم كان الوزراء ابداً عرضةً للنفي ثم للقتل بعد شهر من انصبيهم ، ولذلك اعتادوا ان يحملوا معهم صكوك وصاياهم ، وكما كانوا يخرجون من مجلس السلطان يعتقدون انهم عادوا الى

الحياة بعد الموت . وقد وصفه فوسكولو المؤرخ البندقي بأنه أفسى البشر قلباً لا يحلم بغير الفتوح والحرب اه . ولم يكن السلطان سليم يراعي من جميع رجاله الا المفتي الاعظم زينبالي علي افندي ، وكان هذا قولاً بالحق وكثيراً ما كان يرده عن مظالمه ، ويجول بينه وبين ازهاق النفوس بلا حق ، وقد انقذ بعمله من القتل مئات من البشر ، وهذا المفتي العظيم تولى مشيخة الاسلام ستاً وعشرين سنة على عهد ثلاثة سلاطين وهم بايزيد الثاني وسليم الاول وسليمان الاول .

لم يطل عهد هذا الفاتح الجبار اكثر من ثمان سنين وثمانية اشهر ، ولم يعمل في الشام الا ان اُقرَّ القسديم على قدمه في أسلوب الاحكام ، وغنم ما تيسر من ثروة المالكين وأغنياء البلاد ، وزاد في الضرائب والمكوس ، ونصب حكماً ممن استأمنوا اليه او خانوا الدولة الاولى واقربوا اليه من أهل البلاد ومن الحكام ، ووضع قيد الاسر منذ دخل حلب الخليفة امير المؤمنين المتوكل على الله محمد بن امير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب آخر خلفاء بني العباس بمصر ، وأخذه معه لما انصرف الى الاستانة ، ثم التى الاختلاف بينه وبين أولاد عمه ابي بكر واحمد . وقال ابن اياس : ان السلطان سليماً تغير خاطره على الخليفة المتوكل على الله وأرسله الى مكات عسر ببعد سبعة ايام عن الاستانة يقال له السبع قلابات . والمظنون انه كان هناك آخر العهد به فقتله وأشاع بين الملائكة انه مات ، ولا يستكثر ذلك من ملك قتل اباه لاجل الملك فضلاً عن اخوته وآله . ويقول « نامق كمال » : ان الخليفة العباسي قد تملى لآل عثمان عن حقه في الخلافة في جامع أياصوفيا علناً .

وروى المؤرخون ان السلطان سليماً كان يريد ان يعمل عملاً نافعا للامة باسرها . كان ينوي ان يجعل اللغة العربية لغة الدولة الرسمية بدلاً من التركية فعاجلته المنية قبل اتمام هذا العمل الجليل . والغالب انه نشأ له هذا الفكر يوم افتتح مصر والشام وخطب له في الحرمين الشريفين فسمي فاتح ممالك العرب ، فرأى ان العرب في مملكته أصبحوا قوة لا يستهان بها ، وان الترك وهم عنصر الدولة الاصيل لا يشق عليهم ان يستعربوا دع سائر العناصر من البشناق والارناؤد والكرد واللاز والشركس والكرج . ولو وفق السلطان سليم الى انقاذ هذه الامنية خلصت الدولة العثمانية في

القرون التالية من مشاكل عظيمة ، ودخلت في جملة العرب عناصر كثيرة مهمة ولا رنقت اللغة العربية فأصبحت الاستانة موطنًا لها كما كانت بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وغرناطة .

خارجي خان) أصبحت الشام بالفتح العثماني آمنة غزوات الشمال والشرق
اولاً وثانياً) والجنوب ، اذ أصبحت بين أملاك الدولة الفاتحة فأمنت من
هذه الوجهة ولكن أصبح أعداؤها في داخلها من نفسها ومن دولتها ذاتها . كانت
البلاد يوم كانت فيها قوى هائلة خاضعة للقوة . وقد فتحت الشام ومصر في الحقيقة
في وقتين مهمتين وما عداهما فناوشات لا يؤبه لها . فلما رحلت القوة وخلا الجو
لجان بردي الغزالي نائب الشام حدثته نفسه بالخروج عن الطاعة وصعب على طبعه
الا ان يخون سيده الثاني كما خان سيده الاول :

ومن يتعود عادة ينجذب لها على الكره منه والعوائد املك

ففاوض بعض امراء لبنان والعربان فوعده ان يمالؤه على عمله ، ودعا لنفسه
بالسلطنة في دمشق وبابعه الناس على ذلك طوعاً او كرهاً ، ووافقه على عصيانه جميع
العربان ومقدمي الماليك ولقب نفسه بالملك الاشرف صاحب الفتوحات ، وزينت له
دمشق ثلاثة ايام واوقدت له الشموع على الدكاكين ، وقبل له الامراء الارض وقد
جمع العسكر الكثير ، وخطب باسمه على منابر دمشق وضربت السكة باسمه على الذهب
والفضة . وارسل الى امير الامراء بمصر ليقوم معه قومة واحدة وينزع حكم العثمانيين عن
مصر والشام فتم عليه للسلطان ، فقام الغزالي وحده مدفوعاً بتنشيط أهل البلاد
والماليك والعربان والاكراد اتباع كل ناعق للنهب والغنيمة ، وكثر الملتفون عليه
حتى تسحب الماليك اليه من مصر وكثروا سواده . وذكروا ان من اجتمع عليه من
الجند كان خمسة عشر الفا من الماليك والتركمان وثمانية آلاف ممن يضربون البنادق .
ولما بلغ قراجة باشا والي حلب موت السلطان سليم كان بعسكره في حيلان فرجع
الى حلب وحصنها واستخدم خلقاً كل انسان بثلاثمائة درهم ، وأنفق عليهم من مال
السلطان شهرين ، واعطى الانكشارية كل واحد الفين والاصهبانية كل واحد الفا

زيادة على الجامةكية ، وخرج الى قرية سرمين وقرية دارنج ونهبهما فخرج اليه في الطريق امير شيزر من جهة نائب الشام الغزالي فأخذ منه جميع المكسب وغنم منه جماعة وجيز رؤوسهم الى دمشق ، ودخل نائب حلب اليها مكسوراً ووصل عسكر الغزالي الى الانصاري وخرج اليه عسكر حلب . فأرسلت الدولة على الغزالي فرهاد باشا في ثمانية آلاف انكشاري عدا من انضم اليه من قوى الاناضول وكانت معهم ثمانية عشر مدفعاً كبيراً .

سار الغزالي الى حلب ليستولي عليها فحاصرها مدة ولم يقدر عليها لصدق أهلها في قتاله ، وداهمه الجيش العثماني بما أتاه من المدد فانكسر ، وجاء الى حماة فتبعه العسكر العثماني واقتتلوا معه فيهرب منهم ، وقصد التوجه الى دمشق وخرب في طريقه قناطر الرستن على العاصي فتبعوه فكانت بين الفريقين معركة عظيمة خارج دمشق قتل فيها نحو عشرة آلاف انسان وقيل اكثر من ذلك ، بينهم عربات ومماليك وجماعة من عوام دمشق وفيهم أطفال وصغار من أهل الضياع وغيرهم ممن حضر الواقعة . قال ابن اياس : وكانت هذه الواقعة تقرب من وقعة تيمورلنك لما ملك الشام وجرى منه ما جرى من قتل ونهب وسبي وحرق ضياع وما أبقوا في ذلك ممكناً وليس الخبر كالعيان . ثم نودي في دمشق بالامان سنة ٩٢٧ وخرب في وقائع الغزالي نحو ثلث دمشق من ضياع وحارات وأسواق وبهوت ، وأصاب حلب وحماة وحمص من خراب القرى وهلاك الانفس وذهاب الاموال شيء كثير .

وكان الغزالي لما جاء دمشق مهزوماً من الجيش العثماني قتل خمسة آلاف انكشاري كان السلطان سليم جعلهم حامية لدمشق عندما فتحها ، وذلك مخافة ان يلتحقوا بجيش فرهاد باشا فأولم لهم وليمة وقتلهم على بكرة أبيهم شر قتلة . ثم دارت الدائرة عليه وتشت جيشه فقتله خازن أمواله وجاء برأسه الى القائد التركي ، فذهب ودولته الموهومة لم ينل الشام منه الا الضغط والشدة بعدها :

فما هو الا خائض الوحل كلما تحرك منه ناهضاً راح راسخاً

قال المقار : ان الغزالي استولى على دمشق وطرابلس وحمص وحماة وحلب وخطب له الجامع الأموي بأنه سلطان الحرمين الشريفين ولقب بالاشرف ، وان الدولة أرسلت

عليه جيشاً مؤلفاً من ثلاثين ألفاً وأربعة آلاف انكشاري ومعهم مائة وثمانون عربية ،
فالتقى عسكره وعسكرها عند قرية الدوير شرقي قرية برزة ، وتواصل العسكر الرومي
وركب السلطان من المصطبة ببقية عسكره فما كان لحظة حتى انكسر وقطع رأسه ،
ثم تلاحق العسكر الرومي ببقية العسكر الهاربين الى الصالحية ونواحي دمشق وارتجف
الناس رجفة عظيمة وقتل من شباب الصالحية نحو الخمسين ومن كل حارة نحو المائة
وكذا من القرى وقيل ان عدد القتلى ٧٠٧٠ ، وهجم العسكر على الصالحية وجميع
الحارات والقرى فكسروا الابواب وحواصلها وبهوتها وذكا كينها وغير ذلك وأذوا
النساء فضلاً عن الرجال فلم يحترموا صوفياً ولا فقيهاً ولا كبيراً وكانت النساء قد
اجتمعن بجامع الحنابلة ومدرسة ابي عمر وغيرهما فهجموا عليهن وعروهن وأخذوا
بعض نساء وجوار وعبيد وصبيان ، وجبز الباشا رأس الغزالي ومعه نحو الف اذن
من المقتولين الى السلطان سليمان .

وبعد هذه الواقعة الهائلة اقتسم العثمانيون نيابات الشام فجعل آياس باشا في دمشق
وفرنحات بك في طرابلس وقره موسى في غزة . اما فرهاد باشا فاتح الشام ثانية
ومنقذها من الغزالي فقد ضج الناس من شدته وبأسه وتمثيله بالبري والمجرم
على السواء .

طبيعة الدولة } وقد بقي ارباب المقاطعات في الدولة العثمانية كما كانوا في
العثمانية } دولة المالك بضمنون الخراج مقابل أموال يتعهدون بها ،
ويعرقون اللحم والعظم بعد ذلك لحسابهم ، مثل امير عرب الشام مدح بن ظاهر من
آل جبار وكانت منازل قومه في سلمية وعانة والحديثة والامير نحر الدين المعني الاول
حاكم الشوف والامير جمال الدين الارسلاني حاكم الغرب وبني شهاب في وادي التيم
وبني الحرفوش في بعلبك وبني ساعد امراء البر وهوران وعجلون وغيرهم في غيرها
وكلهم أشبه بامراء صغار يخضعون الخضوع التام لحكام المدن ، والمقتدر منهم الذي
كان على صلات حسنة مع الوالي التركي القريب من عمله ، ومن يجعل له وكيلاً
يرجع اليه في اعماله في دار السلطنة ، واذا غضب الوالي على الامير المتغلب يرسل

عليه جيشاً من الانكشارية كما فعل والي دمشق سنة ٩٣٠ مع امير الشوف ، فيخرب
العسكر قراه ويستعني امواله ويأسر اهله ورجاله ويسبي نساءه ، فعلوا ذلك مرات
في لبنان والبتاع وبعليك ووادي التيم وغيرها من البلاد وينشأ هذا الغضب من
تأخيرهم عن تأدية الخراج . اما المظالم التي تنزل بالناس فحدث ما شئت ان
تحدث عنها .

كان من قواعد الدولة العثمانية اذا فتحت البلاد ان تولي امورها الكبرى لولايتها
وقضايتها والصغرى لاهلها ، وتلقى حبلها على غاربها لاثبتهم لتنظيمها اهتمامها لتقج
بلاد جديدة ، واذا كان الولاة يتساعون مناصبهم على الاغلب بالمزاد في دار الملك ،
كان المزايدون في الاكثر من الساقطين في اخلاقهم ، لا يتأخرون عن ارتكاب
كل محرم ليسلبوا الرعية ما امكن فيملاً واخزائنهم وخزائن من حملهم على رقاب الامة .
وساعد على ايغال العمال في الفساد قلة المواصلات وبعد دار السلطنة عن اكثر الولايات
فبين دمشق والاستانة مثلاً ١١٠٠ كيلومتر و٣٨٦ ساعة من المسافة ، وان قدر
لارباب الظلامات فوصلوا العاصمة رغم هذه المصاعب وتعذر الاسفار في تلك
الامصار ، لبث شكواهم الى السلطان كان بعض اصحاب الشأن يحولون دون ذلك ،
فكانت ديار الشام كله يستأثر بها وال او واليان يحكمان فيها بحسب مزاجهما بدون
مراقب الا من ذمتها ، فاذا كانا ممن تجردا منها فهناك البؤس والنفس ، وضياع
الحقوق وفساد النظام .

قال جودت في تاريخه : ان الدولة العلية لما انتقلت من دور البداوة الى دور
الحضارة لم يتخذ رجالها الاسباب اللازمة لهذا الانتقال ، وحصروا اوقاتهم في حفظ
انفسهم وشهواتهم ، بقيموت في العاصمة القصور الفخمة ويفرشونها بانواع الاثاث
والرياش مما لا يتناسب مع رواتبهم ، فاضطروا الى الارتشاء وبيع المناصب بالمال
وتلزم البلاد واقطاعها بالاثمان الفاحشة ، فضاق ذرع الاهلين ، واضطر كثير من
اهل النمة ان يهجروا الارض العثمانية الى البلاد الخارجية ، وترك غيرهم القرى
وجاء الاستانة فراراً من الظلم فلم يبق مكان في الاستانة ، وتلاصقت الدور وتضايقت
انفاس الناس وكثر الحريق والابوثة ، وصعب تدارك ما يلزم هذه المدينة الفخمة .

من الحبوب فأصبحت الحكومة تأتي بها من القاصية ، والتجارة ليست من شأن الحكومة اه .

من امثال الترك السمكة تفسد من رأسها ، وحقيقة ان فساد الولايات كان ينبعث من العاصمة ايام كان يقبض فيها على زمام الاحكام غالباً جهلاء ظلام وصموا بسبب الناس بكل حيلة ، حتى ينعموا بما يجمعون في قصورهم ومصايفهم على خفاف الخليج والمضيقي في فروق . واذا صادفت العناية ان تولى الصدارة رجال عظام على شيء من حسن الادارة وقوة الارادة وبعد النظر ، فات رئاسة النظار كثيراً ما تولاهما في السلطنة العثمانية الندماء والسخفاء بل الطباقون والطبالون والمزينون والبسانة وغيرهم من المقربين من نساء القصر الملوكي ، او الزوج الخريصان الذين كانوا يولون ويعزلون كما يشاؤون ويشاء ضيق عقولهم .

ولا عجب في حكومة هذا شأن نصب الرئيس فيها اذا كان الوزراء والعمال على هذا النحو ، فلطالما ولي المشيخة الاسلامية في الترك اغبياء ادنياء في منشايم ومساكنهم ممن ليس لهم من العلم الديني الا قشوره وشارة اهله من جبة وعمامة ، وعلى نسبة وسائط بعضهم وكثرة ما يعرف من المقربين من السلاطين كان ارتقاء احدهم الى المناصب العليا ، فكانت الوالي الذي يحكم الشام على الغالب اشبه بالقاضي . وهذه الطبقة لا تقرب من اهل البلاد الا من كانوا على شاكلتها من الجهل والفساد بالطبع . ومثل هؤلاء الرجال اذا كان لهم قوة يستندون اليها وهي جيش الانكشارية فهناك الخراب بلفظه ومعناه . فان هذا الجيش الذي خدم الدولة لاول امره خدمات جلي وفتحت به الفتوحات ووصلت الى فينا وحاصرتها عاد فمحق باختلاله واعتدائه على الرعايا كل حسنة سلفت ودمر كل بلد فتحت .

ولئن خلف السلطان سليماً ابنه السلطان سليمان القانوني وهو العاشر من ملوك آل عثمان سنة ٩٢٦ وكان على جانب من العقل وحب القانون ، الا ان الشام اصبحت في ايامه الطويلة التي دامت ٤٨ سنة في معزل لان السلطان مشغول بفتوحاته حارب اثنتي عشرة مرة وخرج في اكثرها ظافراً ، فلا بهمهم كائناً كثر اجداده واحفاده من كل بلاد مفتوحة الا ان تضرب البكة ونظام الخطبة باسمه ، فكانت الشام جزءاً

صغيراً بالنسبة لضخامة ملكه ، فلم ينلها منه شيء من العدل والاشراف ينسبها ، لا لاقته في القرن السالف من التردد والانحلال .

وكان السلطان سليمان بطاشاً كآبئه ولكن لم يشتهر شهرته ، هاج مرة اهل حلب في اوائل حكمه وقتلوا في الجامع القاخي والمفتي فصدرت ارادته السنية بقتل جميع اهل حلب لولا ان كان في الصدارة اذ ذاك رجل عاقل اسمه ابراهيم باشا ، فألغى هذا الامر البربري واكتفى بقتل زعماء الثورة . وابراهيم باشا كان على جانب من الاخلاق الحسنة والذكاء تولى الصدارة من سنة ٩٢٩ — ٩٤٢ اي ١٧ سنة وقام باصلاحات مهمة ثم قتله السلطان وندم على قتله ، ولا عجب اذا استسهل سليمان القتل فقد قتل ابنه الاكبر مصطفى وحفيده وابنه بايزيد واولاده الخمسة على افظع صورة .

كوائن داخلية } ومن الاحداث في الشام بعد فتنه الغزالي ما وقع في سنة
وامراء المقاطعات } ٩٢٧ من ثورة جماعة من عربان دمشق على نائب الشام
اياس باشا ، فلما خرج اليهم ووقع معهم انكسر وجرح ورد الى دمشق وهو مكسور
وقتل من عساكر الشام كثير ومن عربان جبل نابلس ايضاً ، وكانت فتنه هائلة
بدمشق . وفي سنة ٩٢٨ كان مقتل حسن وحسين اولاد الامير عساف في بيروت ،
وذلك لما كان من الاختلاف بينهما وبين اخيهما الامير قائد به على الحكم فتوسط
بينهما حتى طلبا الصلح ونزلا على اخيهما قائد به فغدر بهما وقتلها فحكم قائد به بلاد
كسروان حتى مات سنة ٩٣٠ وخلفه الامير منصور ابن اخي الامير حسن وامتد حكمه
الى بلاد عكار . وكانت طرابلس بيد النواب يستأجرها محمد اغا شعيب من اهل
عرقه ويستأجر الامير منصور بلاد جبيل والبترون وجبة بشرة والكورة والزاوية
والضنية . وفي سنة ٩٣٠ جهز والي دمشق خرم باشا حملة لقتال الدروز في الشوف
فانصر عليهم واحرق قرية البساروك وثلاثاً واربعين قرية ، وارسل الى دمشق
اربعة اجمال من رؤوسهم فعلقت على القلعة ورجع ومعه مجلدات من كتب الدروز ،
ثم ارسل اربعة اجمال من رؤوسهم واحرق نحو ثلاثين قرية ونهب قرية البرج وسبي نحو ٣٦٠
من النساء والاطفال وغنم ما لا يحصى من البقر والجمال والغنم وغير ذلك .

وفي سنة ٩٣٥ وقع قتال بين اولاد شعيب واولاد سيفنا امير التركمان وقتل علي الشعبي في عرقة ونولى اولاد سيفنا عكار ثم قتلوا محمد اغا شعيب حاكم طرابلس قدام القاضي فاعطاهم القاضي فتوى بانهم ابرياء من دمه وانه هو الزمهم بذلك . وفي سنة ٩٤٠ وقعت فئنة اهلية في جهات العاقورة وجبة المنيطرة في لبنان نشأت من خصام بين مالك اليميني وهاشم العجمي من مشايخ العاقورة ، وكثرت الدسائس بين بني الحرفوش امراء بعلبك وآل سيفنا حكام طرابلس ، واخذوا ببناء العم يقتلون اولاد عمهم للاستئثار بالامارة ، وخربت بعض تلك الديار واحرقت ، ومنها ما نزع سكانه عنه . قال الشهابي : وكبر قدر بني حبيش عند ابن سيفنا وصاروا متصرفين في تدبير حكمه وبقيت العاقورة خراباً سبع سنين لم يقطن فيها احد . ثم ان القيسية سكنوا في بلاد طرابلس واستحصل اليمينية امراً من نائب دمشق ورجعوا فبنوا العاقورة ثانية وفي سنة ٩٥١ توفي الامير نجر الدين بن عثمان بن معن الذي حكم من حدود يافا الى طرابلس وبني بنايات وقلاعاً عظيمة واستراح الناس في حكمه واطاعته العرب وخطه ولده الامير قرقماز وبعد وفاة الامير نجر الدين امتد حكم الامير منصور بن عساف من نهر الكلب ببيروت الى حدود حمص وحماة وقوي بماله ورجاله .

مهالك السلطان سليمان } توفي السلطان سليمان القانوني سنة ٩٧٤ ولا شأن
وتولي سليم السكير } للشام في عهده الا ان تظهر شعورها باخبار انتصاراته
وغاراته ، وفتح قلاعهم ومعاقلة التي كان يملأوها بجند الانكشارية ويفرق قوى الدولة ،
ولاجل ان يكون له جيش دائم على استعداد للحرب كل ساعة كان يقضي له من
النفقات الباهظة ما انمو به قوة ابناء البلاد ، وكانت اهل الاسلام يودون بعد
تكبير رقعة الملك في آسيا ان تصح ارادة الدولة على فتح فارس وقد بدت امارات الهرم
فيها فتصل بالهند ، وذلك خير من ان تفتح الحجر وتجارب امبراطور المانيا وتؤلب عليها
دول اوربا . ذكر ضيا باشا ان الاتراك بددوا شملهم في الحروب والقلاع والبلاد
البعيدة وجعلوا انفسهم في اوربا وراء سور من المرابطين يقلي عكهم وتربيتهم يوماً
فيوماً ، وفيه ام من الخرواتبين والبغاير والروم من لم يقبلوا الاسلام ، وفي آسيا العرب

والاكراد والزيدية والشيعة الذين نشأوا وكبروا يبذر الفساد الذي بذره الشاه اسمعيل ، فكان الاولون خصماءً للاسلام والآخرين خصوم الاتراك ، وما كانت مناداتهم بنصر السلطان الا من الالسن لامن القلوب اه .

خلف السلطان سليمان ابنه السلطان سليم الثاني ، وهذا لم يذكر اسمه في الشام الا على منابرهما فقط لانه كان شريباً خميراً حتى لقب بسليم السكير (مست سليم) وله من اعمال الخلاعة ما ينجبل منه ، ولم يخرج من الاستانة للغزاة وهو اول ملك من آل عثمان تخلى عن الحرب بنفسه ، ومات على سريرته في قصره ، على حين كان اجداده كلهم يموتون في الحرب وفي طريق الغزو والفتح . وفي ايام السلطان سليم الثاني فتحت قبرص وكانت للبنادقة وهالك واسر من اهلها نحو ثلاثمائة الف انسان في بعض الروايات .

هالك السلطان سليم الثاني سنة ٩٨٢ بعد ان حكم ثمان سنين وستة اشهر وخنقوا اولاده الخمسة يوم دفنه على ما جرت بذلك عوائدهم القبيحة . وفي ايامه جاء امثال محمد باشا الصقلي من الصدور العظام ، الذي تدارك بعمله الدولة من السقوط بما قام به من الاصلاحات ، واهمها اثخانها في العصاة وارباب الدعارة ، وجاء غيره من الرجال الذين يعدهم الاتراك من العظام بحسب عرفهم . ولكن الشام لم تر طلعة هذا الملك كما انها لم تشهد من والده من قبل شيئاً من خطط الاصلاح ولا من القوانين النافعة ، ولا شاهدتهم او وكلاءهم يشرفون على البلاد ليرفعوا الضيم عن الناس ، وفي عهده (٩٨٠) وزع القشلق (اي العساكر المشتية) على بلاد الشام ونهب عسكر الدولة بلاد لبنان وما اليها وسلبوا سائمتها واسرفوا في الظلم ، حتى كادت الناس تسأل الموت لنفوسها ، واقفرت في لبنان قرى كثيرة وفي الدر المنظوم انه قتل من الموارنة في تلك المعمعة نحو ثلاثين الفا (؟) عدا الذين قتلوا في ليماسول من بلاد قبرص حين حاصرها الاتراك سنة ١٥٣٨ م وفتحت ٩٧٨ .

عهد السلطان مراد الثالث (وفي سنة ٩٨٢ تولى الملك السلطان مراد الثالث وحملات على ارباب الدعارة) خقتل اخوته الاربعة وكانت همته مصروفة الى توسيع حدود مملكته ايضاً وفي ايامه (٩٩١) وجه عسكراً الى لبنان للحرب الموارنة

وذلك لانه قدمت اليه شكاوى من طائفة الروم القاطنين في سواحل مدينة طرابلس بانهم اخربوا تلك الكور . وفي سنة ٩٩٣ ولى السلطان خسرو باشا ايالة الشام وجاء دمشق وتخاصم مع محمد علي باشا الوند الوالي السابق مدة شهر ، ووقع بينهما الجدل واستقرت الحال على تولية علي باشا وانفصل خسرو باشا ، وكانت مدة ولايته سبعة اشهر فعزل ثم خلفه جامورجي محمد باشا وبقي في الولاية اربعة اشهر ثم خلفه علي باشا مرة ثانية وبقي والياً اربعة اشهر . وفيها سرقت الخزينة السلطانية بينا كانت محمولة من مصر الى الاستانة في جون عكار فوجهت الدولة ابراهيم باشا وضربت على ايدي المعتدين وسار جعفر باشا حاكم طرابلس واحرق بلاد عكار ، وتقدمت الشكايات من حاكم طرابلس ضد الامير محمد بن عساف وضد امراء الدروز بانهم هم الذين سلبوا الخزينة ، فسار اليهم ابراهيم باشا ولما وصل الى عين صوفر حضر اليه عقاب بلاد الدروز فغدر بهم وقتل منهم نحو ستمائة رجل . ويقول كامل باشا : ان ابراهيم باشا لما جاء من مصر الى الشام كان في عشرين الف جندي ودعا امراء الدروز الى المعسكر فأبى ابن معن ان يجيب الدعوة لان والي دمشق مصطفى باشا كان استدعى اياه وغدر به وقتله فأقسم هو ان لا يجيب دعوة احد من رجال العثمانيين ، فأحرق الجيش العثماني ٢٤ قرية من قرى ابن معن وقتل الدروز القائد اويس باشا مع خمسمائة من جنده ، وطلب ابراهيم باشا ترحيلة فأرسل اليه ابن معن مئة الف دوكة و ٤٨٠ بندقية وخيلاً واشياء ثمينة ، وبعد ان تسلمها الوزير العثماني امر باحراق ١٩ قرية من قرى ابن معن وأعدم ثلاثمائة من رجاله ، وفي خلال ذلك كان الاسطول العثماني اخرج الى صيدا اربعة آلاف جندي وضرب جميع الساحل واخذ ثلاثة آلاف اسير . وقال البوريني : ان ابراهيم باشا لما خرج من مصر خرج باموال عظيمة وتحف كثيرة منها انه جعل للسلطان مراد تحفاً من الذهب مرصعاً بالجواهر العظيمة ورجع معه عساكر مصر ، وجمع عساكر الشام وحاكمها اذ ذاك اويس باشا وكبس جهل الشوف فقتل ونهب وحرق واخذ منهم اموالاً جمّة وحاصرهم محاصرة عظيمة حتى ان اميرهم قرقماز بن معن مات قهراً .

وفي سنة ٩٩٤ اراد جماعة من اقارب الامير علي الحرفوش صاحب بعلبك ان

ينزعوا حكومتها من يد ابي علي الشهير بالاقرع بن قنبر لانه ليس من اولاد الامراء ،
 وحكومة بعلبك موروثة لبني الحرفوش ، فعرف ابن الاقرع ما دبر له فجاءه الفسا
 رجل جمعهم بنوا حرفوش من كسروان والشوف وعين داره وارادوه على ان يخرج
 بعياله وبمن يلوذ به حيث شاء فابي الا قتالهم ، واستنجد بالامير قرقماز بن الفريخ امير
 بلاد البقاع وبغيره من التركمان والعرب فاجابه من طلبه فخرج اليهم ، فلما التقى بهم
 انتصر عليهم وولى الدروز هاربين فتبعهم اهل بعلبك يقتلونهم ، وقتلوا منهم الفأوشمانين
 قتيلاً في لحظة واحدة ولم يقتل من جماعته سوى شخص واحدة — البور بني . قال :
 وكان اصليح له وجماعته طعاماً قبل المعركة فقاتل اعداءه ورجع والطعام لم يبرد وارسلت
 الرؤوس لدمشق لتعرض فيها . ثم قتل الامير علي بن الحرفوش ابن الاقرع وندم على قتله
 واخذت الدولة بعد ذلك الامير علياً الى دمشق بالامان وغدرت به وقتلته وقتلت معه
 عسافاً الكذاب الذي ادعى انه ابن الامير طرباي امير بلاد اللجون .

بنو عساف وبنو سيفا وابن فرنج وخراب البلاد } وفي سنة ٩٩٩ جمع الامير محمد بن عساف الرجال
 وسار لطررد يوسف باشا بن سيفا من بلاد عكار
 فلما بلغ يوسف باشا ذلك جمع رجاله وكن له في العقبة بين البترون والمسيحة وقتله
 هناك ولم يكن له ولد فانقطع نسله وكان لبني عساف في كسروان ٢٣٢ سنة فانقرضت
 دولتهم تلك السنة . ذكر المؤرخون في حوادث سنة ٩٩٩ : ان منصور بن فرنج أعيد
 الى لواء صفد واعطى قرقماز لواء نابلس وصاحبه الدالي على لواء عجلون ، وذلك بالتزام
 مال لجهة السلطنة قدره ثمان كرات كل كرة مائة الف دينار غير ما ينوبها من
 الكلف . وقد خرب ابن فرنج هذا بلاداً كثيرة وقتل خلقاً كثيراً وكان في اول
 امره بدوياً من خدام ابن الخنق فترقى به الحال الى ان التزم مالاً عظيماً على لواء
 صفد ولواء نابلس وامارة الحج وعمر عمارات عظيمة بالبقاع بقرية قب الباس وشرع
 في عمارة دار عظيمة خارج دمشق واستعمل فيها العملة بالسخرة وقد خنق في قلعة
 دمشق لظلمه وتخريبه البلاد التي استولى عليها خصوصاً بلاد البقاع وبلاد صفد
 وبلاد جبل نابلس .

وفي سنة ١٠٠٠ امر قاضي الشام مصطفى بن سنان بقيام النواب كلهم من المحاكم واغلاق ابوابها كلها فاغلقت ثم اغلقت اسواق البلد كلها ، وسبب ذلك ان الدفتردار محمود ارتشى من ابن الاقرع بخمسة عشر الف دينار وولاه على بعلبك بدل ابن الحرفوش فادى ذلك الى خراب بعلبك ظاهرها وباطنها ، ورحل اكثر اهلها حتى تعطلت الاحكام الشرعية بها وعتا بها ابن الاقرع واتباعه وصار الناس مصادرة عظيمة ليوفي بها المال الذي التزم به لجهة السلطنة .

وكان المكس في هذه الحقبة حتى على الخمر والخمارات يتقاضاه كل من كان باشا الشام يلتزمه صاحب الشحنة وهو من كبراء الانكشارية بمال كبير يدفعه للبasha ويحرق الاخضرين في جبايته وكان من الولاة في ذلك الدور ببلاد الشام الصالح والطالح مثل سليمان بن قباد باشا الذي تولى نيابة القدس وقطع دابر المفسدين ثم تولى محافظة دمشق (٩٩٠) وكان ينوع العذاب للسراق وقطاع الطريق .

ومنهم من خلفوا آثاراً مثل خسرو باشا وعادلي محمد باشا وبهرام باشا من ولاة حلب فانهم بنوا مدارس وجوامع نخمة في الشهباء ومنهم لالا مصطفى باشا الذي ولي دمشق سنة ٩٨١ خمس سنين وقد مدحه ابن بدير والمقار ووصفه هذا بانه صاحب الخيرات والحسنات وانه عمر تحت القلعة بدمشق الخان والحمام اللذين لانظير لهما واثني ايضاً على مراد باشا الذي تولى دمشق سنة ٩٧٦ وعمر جامعاً في السويقة المحروقة وهو صاحب خيرات وحسنات ايضاً .

وأثنى المؤرخون ايضاً على الامير احمد بن الامير قانصوه الغزاوي الساعدي الذي تولى امانة عجلون وما والاها من بلاد الكرك والشوبك بعد وفاة ابيه الامير قانصوه وياشر الامارة في هاتيك النواحي في زمن سلطنة المرحوم السلطان مراد بن السلطان سليم وقالوا : انه كان قليل الاذى للراعياء وهو من قوم لم قدم في الامارة في هاتيك البلاد كانوا في زمن الشراكسة امراءها وكان من اجداده الامير محمد بن ساعد اميراً في جبل عجلون . ومنهم درويش باشا نائب دمشق وصاحب الجامع المنسوب اليه وخان الحرير (٩٨٧) ومن ظلمتهم والي حلب حسين باشا المتوفى (٩٤٩) كان كثير القتل بغير سجل شرعي سفاكاً للدماء على صورة قبيحة من تكسير الاطراف والاحراق

بالنار والمحرق حي وغير ذلك منساولاً للرشي لا نفع له سوى مضرة اللصوص ، ومن سفاكيهم العظام سنان باشا فاتح اليمن وصاحب الجامع المنسوب اليه بدمشق تم انشاؤه سنة ٩٩٩ وقد ذكر ابن المقار جريدة مخلفاته التي أرسلت الى الاستانة بعد موته فاذا هي تساوي مئات الالوف من الدنانير لما حوت من الاعلاق والنفائس ، فمن أين لسنان هذا المال ؟ . وقد قال مؤرخو الترك ان الخيرات التي قام بها سنان باشا في ممالك مختلفة من جوامع ومدارس وتكايا وخانات تقدر نفقاتها بمليون ليرة ذهب بسكة زماننا ، وان ما عمره من المعاهد والمباني الفخمة في الاقطار التي نزلها نناهن المئة . لاجرم انه من العتاة الطغاة الذين يجيزون خراب البلاد ليعمر واجيويهم وخزائنيهم . وأعمالهم الخيرية قد تأتي بالعرض اولحب الشهرة . وأقبح بصدقة او عمل خير يكون أصل ما أنفق عليه من السحت وقتل الانفس وتخریب البلاد لاستصفاء أموال أهلها .

لا تظلمن لتعطي فالشحيح على ما فيه اعذر ممن خان او ظلما

حالة البلاد في حكم الشام في هذه الحقبة من الزمن اي مدة ٧٨ سنة اربعة الحکم العثماني من ملوك آل عثمان وهم السلطان سليم خان الاول والسلطان سليمان خان القانوني والسلطان سليم خان الثاني والسلطان مراد خان الثالث ، وبقيت روح الدولة في البلاد واحدة لم تتغير . ولئن جاء فيهم واضع القوانين السلطان سليمان القانوني وطال عهده على ما لم يقع له مثال في تاريخ هذه الدولة ، وكان معروفاً يجب القوانين في الجملة وضع بعضها حتى أطلق عليه اسم القانوني ، فان الشام كانت حاله بعد الفتح العثماني ثقل من سيء الى اسوأ والوالي او الولاية في هذه الديار هم الكل في الكل ويكونون على الاغلب ممن لا ذم لهم ولا قدرة الا على جلب المغنم لانفسهم وازهاق الارواح في ذاك العصر من الامور الهينة التي لا تستغرب .

بعد الفتح العثماني واندحار المماليك في مرج دابق والضرب على أيدي العصاة في فلسطين ، كان الرجاء معقوداً ان تخلد البلاد الى الراحة ويرفرف عليها طير السعد والرجد ، فزادت المكوس والضرائب على وجه قاسٍ ، وكثر فساد جيش الدولة من

الانكشارية والسباهية ، فكان يأتي على الاخضر واليابس في المدن والقرى ،
 خصوصاً اذا جاء البلاد منهم فوق حاميتها كتائب أخرى لتشتي فيها ، وهناك يزيد
 الاعتداء على بيوت الناس وأموالهم وأعراضهم ، وربما تخطفوا النساء والاولاد في
 الازقة رابعة النهار ، وفي اول حكم السلطان سليمان اي بعد اربع سنين من الفتح
 كان ما كان من عصيان الغزالي فهلك كثير من الابرياء في دمشق وحلب ، وارتكب
 الوزير فرهاد باشا لتسكين الفتنة والضرب على يد الثائر من الشدة ما ضاقت به
 الارض بما رحبت .

ويمكن حصر مصائب هذا الدور في مصادر ثلاثة ، وهي ظلم الوالي اذا كان عاتياً
 مرتشياً ، وظلم الجند في حلهم وترحالهم ، وشقاء البلاد بصغار الامراء من اهلها ،
 في الجبال والسهول وكبار ارباب النفوذ في المدن . وهذه الطبقة تطورت تطوراً
 جديداً في عهد العثمانيين فكانت من اكبر الاسباب في فساد البلاد ، ولو صلحت
 وسلمت من ظلم بعضها بعضاً لما استطاع الوالي التركي والقاضي التركي والقائد التركي
 ان يعملوا مباشرة في هذا القطر عملاً مضرراً . واهم من هذا وذلك ان الدولة العثمانية
 على عهد عمرها لم تفكر الا في الفتوح وفي حرب من يجاورها من صغار الامراء والملوك
 حتى اذا كانت ايام اِدبارها وهي تبدأ من اواخر سلطنة سليمان القانوني ، كانت هممتها
 مصروفة الى قمع الفتن الاهلية ، ورد عادية اعدائها عن بلادها الواسعة .

ان ابن الشام لا يهتم كثيراً اذا بلغت جيوش الدولة العثمانية اواسط اوربا في
 فتوحها وفتحت فينا وبودابست ، واذا فتح السلطان سليمان زهاء ثلاثمائة حصن وقلعة ،
 واصبح اسمه في الغرب مضرب الامثال في الرهبة ، فكانت بعض الامهات يخوفن
 ابناءهن باسمه اذا ارادوهن على الرقود والكف عن البكاء . ولا يهتم ابن الشام
 ابصاراً اذا كثرت الخيرات على العاصمة بما يصرف فيها من اموال المغانم والمغارم ،
 ما دامت طرق الجباية في بلاده مختلة منهكة لقواه ، وما دام الولاة يسبون لان
 يأخذوا المكوس لانفسهم من الخانات ومن المسكرات ، وما دامت الضرائب تستوفي
 حتى من المغنيات والمومسات ، وما دامت المناصب الكبيرة دع الصغيرة يتوصل اليها
 بطرق دنيئة على سبيل الضمان والايحار ، وما دام الامن مخنل النظام وأهل البادية

والصوص الاعراب على عاداتهم في السلب والنهب ، ومن المتعذر ان ينصف المظلوم من الظالم وان تعمل الدولة في باب العمران جزءاً مما تأتي في تحريمه .

وضع السلطان سليمان قوانينه وما ندري اذا كانت وصلت الى هذه الديار ، وهب انها اثبتت اليها فهي في السجلات محفوظة على الاغلب لم يطبق منها الا ما لا ينفع العلم به ولا يضر الجبل بمضامينه . وما دام القانون السماوي الذي عملت الشام به منذ الفتح الاسلامي غير نافذ على ما يجب فما الحال بقانون عمله رجال قد يغيرون من الغد اجتهادهم وهو غير مطبق المفصل او يتعذر تطبيقه وانفاذه .

بدأت الدولة منذ دور سليمان بالرسميات وأخذت تلقي الشغب بين العلماء ، وذلك برتب اخترعتها لهم وجرايات أدرتها عليهم ، فزادت لأجل هذه النفقات الضرائب والخراج على الأمة وكثر التنافس بينهم ، وقلّ القوالون بالحق من رجال العلم ، وانشأ معظمهم يدلسون ويوالسون ويتمدحون السلطان مهما ضل وغوى ، وارتكب اغلاطاً في ادارته وسياسته . وسهل بعد ربط العلماء بروابط الرتب والرواتب ان يستصدر السلاطين كما قال ضيا باشا فتاوى بقتل الابرياء ممن تغضب عليهم الدولة ، وكان الذين يقتلون كل سنة على هذه الصورة عدداً من الناس لا يستهان به وفيهم العاقل والدراكة ، وكل من سب في قتله راحة للدولة او مصلحة يتوهمها السلطان وبعض الزبانية الطغاة في الولايات . وقد تعاقب على دمشق خلال القرن العاشر اي مدة ٧٨ — خمسة واربعون والياً وعلى حلب سبعة عشر ولم يحس الناس بتبدل نافع في حكم العثمانيين عن عهد المالك حتى بعد ثمانية عقود من السنين .

العهد العثماني

من سنة ١٠٠٠ الى ١١٠٠



عهد محمد الثالث وامراء
الاقطاعات وفتن
دخل القرن الجديد والبلاد في حالة شدة تسير من
بؤس الى بؤس ، وتعاقب تبدل الولاة على الشام
والسعيد منهم من كان يحول عليه الحول ، واكثرهم يقيمون فيها اشيراً ثم يصرفون
ويستبدل غيرهم بهم ، ومنهم من كان يقيم اياماً ومنهم سبعة ايام ومنهم ثلاثة ، وتعاقب
على دمشق خلال هذا القرن واحد وثمانون والياً وعلى حلب تسعة واربعون والياً ،
فكان الوالي من ثم لا يتمكن من الاصلاح ان اراده وقلبه متعلق ابداً بثبات منصبه
والغالب انه لا يتوفر على غير جمع المال بالطرق المتنوعة ليوفي ما عليه من المقرر لجماعة
الاستانة من الاموال وكان الولاة يتساعون الولاية ابتغاءاً والمزايد الاكبر هو الذي
توسد اليه قال راعم في تاريخه : امر السلطان مراد ان يكتب الى احمد باشا
كوجك والي الشام بان يدفع الى السلحدار باشا عشرين الف ليرة ويبقي في منصبه
فاضطر الوالي ان يؤدي المبلغ .

ومن اعم ادوات التخريب في هذا القرن خروج جند الانكشارية عن حد
الاعتدال وكثرة اعتدائهم على الزعيرة ، يستطيلون على اموالها واعراضها ويثلمون
شرفها ويذلون اعزتها ، وهم القوة القاهرة في البلاد لا ينالهم من الناس اذى وكل
اذاهم لاحق بالكبير والصغير . وكثيراً ما حاول الولاة ان يخففوا من غلوائهم ليستأثروا
بالقوة دونهم او يرفعوا عن عاتق الامة التبعة بعض شرورهم ، فيسفر قتالهم عن زيادة

ايصال الشرور الى رؤوس الناس على ما يأتي تفصيله في هذا الفصل المغموسة
حوادثه بالدماء .

كان المتغلبون على اكثر البر في اوائل القرن ، الامير شديد بن الامير احمد حاكم
العرب من آل جبار وكان كلقبه واسمه ظالماً جباراً عنيداً . قال كاتب جلبي : وما
زال آل عثمان يعطون لواء سلمية لامراء العرب وامراءهم هم عرب آل جبار وهم
قبيلتان آل حمد وآل محمد يمتد حكمهم الى جهات حلب والرقه . وكان الامير قرقرماز
المعني في لبنان ، والامير احمد بن رضوان في غزوة بعد الامير قانصوه امير عجلاون
وما والاها من بلاد الكرك ، والامراء بنو الحرفوش في بعلبك ، والامراء بنو شهاب
في وادي التيم والامير احمد بن طرباي الحارثي امير اللجون في نابلس ، والامير
منصور بن فريخ البدوي على البقاع تغلب عليه بعد ابن الخنش وحكم نابلس وصفد
وعجلاون وانحاز اليه جماعة من جند دمشق واشتهر واخاف الدروز ثم شن الغارة وقتل
منهم مقتلة عظيمة وقد خرب بلاداً كثيرة وقتل خلقاً حتى اخذه وزير دمشق وقتله
سنة ١٠٠٢ . قال البوريني في سنة ١٠٠٢ ذهب على حصار قلعة الشقيف النفوس
النفيسة والاموال العظيمة ، حاصرها والي دمشق ونازل قلعتي الشقيف وقلعة بانياس ،
وكانتا مغلقتين على جماعة ابن معن من السكبان وغيرهم من الاشقياء .

وفي سنة ١٠٠٣ توفي السلطان مراد الثالث وخلفه ابنه محمد خان الثالث فقتل
يوم جلوسه تسعة عشر اخاً له وعشر جوار حاملات من ابيه ثم ابنيين له وكان مع
ذلك على رواية المحبي صالحاً عابداً ساعياً في اقامة الشعائر الدينية واوصافه كلها احسنة
وهو مظفر في وقائعه عالي الهمة . لم ينل الشام شيء من تدين محمد الثالث وطالبت
الحكومة الاهلين باموال سنين فلقوا شدة وعناء .

ذكر المقدسي في حوادث سنة ١٠٠٤ انه جاء ساع من الباب العالي يأمر بان
يجتمع العلماء والصلحاء والمشايخ والفقراء واولاد المكاتب في الجامع الأموي ، ويقرأوا
القرآن ويدعوا لعساكر الاسلام بالنصر ، وما اعجبها من قضية جمع فيها بين ظلم
المذكورين وطلب الدعاء منهم ، فليت شعري باي لسان يدعون وقد اشتهر انهم
يطالبون الرعايا بعوارض سنين جديدة وعتيقة وطالبوا اليهود بمال عظيم اه .

وقال ايضاً في حوادث سنة ١٠٠٥ انه استقر في دمشق كيوان بلك باشي (رئيس سرية) منشي الظلم بالشام سرداراً (قائداً) بباب صاحب الشحنة ، فشرع يصادر الناس ويسلبهم باطناً وظاهراً ، وكثرت القتل في ازقة دمشق والطرق والاسواق ، وكان الانسان يمشي فلا يسمع الا من يقول غرموني اربعين قرشاً ومن يقول سبعين قرشاً وثلاثين وعشرين واكثر واقل . واصطلم الناس من كثرة الظلم وبقي من يخشى الفضيحة يحمل الجريمة الى كيوان المذكور قبل ان يرسل اليه . هذا ما كان يجري في عاصمة الشام على مرأى ومسمع من القريب والغريب ، فما بالك بما كان يجري في انحاء البلاد حيث ثقل المراقبة وتضعف قوة المقاومة ، ولكن تهيأ لاجبارها هنا من دونها او بعضها حتى وصلت اليها وهناك ضاعت اخبارها كما ضاع كثير من الكوائن في هذه الديار على عهدها الحديث . وظهر في ايام احمد مطاف باشا كافل حلب (١٠٠٥ — ١٠٠٨) فساد كثير من العربات في انحاء حلب فأرسل عليهم ابنه درويش بك فاقتلوا فانهزم عسكر حلب مع انهم كانوا الف فارس واخذ عرار امير العرب يتبعهم ويقتل منهم ويغير .

وفي سنة ١٠٠٧ كانت الواقعة في نهر الكلب بين ابن معن وابن سيفا بسبب بلاد كسروان فانكسر ابن سيفا وقتل ابن اخيه علي وتشتت جيوشه وتولى الامر نحر الدين المعني على بلاد كسروان وبهروت . ويوسف باشا سيفا كردي الاصل استولى على جهات طرابلس لما اهلك رؤساء عصاة ابن جانبولاذ التركماني ، واستقل بها واخرج بواسطة عسكر السكك بان جند الانكشارية من بلاده ونكل بهم وصار له بذلك نفوذ وسلطان .

وقال نعيما في حوادث سنة ١٠٠٨ ان عسكر الانكشارية في دمشق جاؤا حلب بحجة جباية اموال الدولة ، وتسلبوا على فقرائها وعملتها وتجاوزوا الحدود في الاعتداء ، واساءوا استعمال سلطانهم في الرعية ، فقطع والي حلب رأس سبعة عشر رجلاً منهم ، ودام الشقاق بين الاهالي والانكشارية مدة طويلة ادى الى سفك دماء كثيرة بغير حق اه . ومن ذلك اعتداء خداويردي سردار حلب على الناس وفتكه ونهبه وتبعديه حتى ضجر منه اهاليها وحكامها حين قامت الحرب بينه وبين نصوح باشا وبينه وبين

ابن جانبولاذ ، وكان هو واحفاده قد عاثوا في البلاد وفسدوها ومنه نشأ طغيان
العسكر الشامي .

ومن فتن هذه الايام خروج عبد الحلیم اليازجي رأس جماعة الامير درويش
الرومي حاكم صفد ، وارسال خسرو باشا نائب الشام عسكرياً الى الامير درويش
ليسلم الولاية الى آخره ، فقاتل عبد الحلیم اليازجي عن مخدمه بالسيف فاخذ الامير
درويش الى دمشق وصلب بامر السلطان . اما عبد الحلیم وجماعة درويش فساروا
على ساحل البحر الى طرابلس ثم الى جانب حلب ثم دخلوا مدينة كاز فثبته لهم نائب
حلب وارسل جيشاً لمحاربتهم ، فقتلوا من اصحاب عبد الحلیم مقتلة عظيمة ، وخرج
عبد الحلیم بمن بقي معه من اصحابه المفلولين ، وما زال يحارب جيوش السلطنة في
الاناضول حتي ملك سنة ١٠١٠

وفي سنة ١٠١١ باغت الامير يونس بن الحرفوش جبة بشري ، فلما بلغ ذلك
ذلك يوسف باشا بن سيفا جمع السكبان الذين عنده واهل البلاد وهاجم مدينة بعلبك
فاجتمع بيت الحرفوش في القلعة ، ونهب بنو سيفا بلاد بعلبك وحاصروا قلعة حدث
بعلبك خمسين يوماً وملكوها وبعد ان قتلوا بعضهم ثم نادوا بالامان . وفي سنة ١٠١٤ كانت
وقعة جونية بين يوسف باشا سيفا وبين الامير نحر الدين المعني فانكسر عسكر ابن سيفا .

عهد احمد الاول وفئته } وفي سنة ١٠١٢ توفي السلطان محمد الثالث وخلفه
ابن جانبولاذ وغيرها } السلطان احمد الاول ولم يتغير شيء من حالة البلاد
وغاية الامر ان الخوارج في ايام السلطان الجديد اشتدت شوكتهم فنال الامة
منهم كل حيف ودخلت في هرج ومرج من ذلك ، وفي ايامه ظهرت الخوارج
في جهات حلب وما زالت الامور في تخبیط حتي خرج جانبلاط وادعى السلطنة واضطربت
الاحوال على ما سيبي . قال القرماني : وفي ايام هذا السلطان قام الطغاة والبغاة ،
وانجحت من الوجود امهات الامصار وشمها البوار ، اما القرى والقصبات والرساتيق
والمزدرعات فاكثرت من ان تحصر .

قال العرضي : كان من قديم الزمان في دولة بني عثمان يرسلون شزيمة من عساكر

دمشق وعليهم شور بجي بحوالات اموال السلطنة فيحصل لهم الانتفاع ويخدمون عند الدفتردار وفي دار الوكالة وفي باب القنصل الفرنجي وفي كل مدة يرسلون غيرهم وعليهم شور بجي ، حتى قطن بحلب اعداد كثيرة منهم واتسعت اموالهم وكبر جاههم ، واستولوا على اغلب قرى السلطنة يعطون مال السلطنة عن القرية يأخذون من اهليها أضعافاً مضاعفة ، وتبقى أهل القرية جميعاً خدمة لهم جميع ما يجمعونه لغيرهم لا لانفسهم .

ومن الكوائن ان خارجياً من السكبانية اسمه رستم جاء الى كلز ومعه من البغاة أجناد كثيرة ، وكان ضابط كلز عزيز كئندا من جماعة حسين باشا بن جانبولاذ الكردي امير الامراء بحلب ، فبعث واستنجد بعسكر حلب ومنهم العسكر الجديد فخرجوا لنصرته ، فلقابلت الاجناد وقامت بينهم سوق الحرب والضرب فأنصر رستم على عسكر كلز وحلب وقتل عزيز كئندا وقتل من العسكرين كثير وولوا منهزمين فنهب الخارجي كلز وصادر اعيان القرى .

ولما ولي نصوح باشا نيابة حلب — وكان متغلباً في حكمه عسوفاً قوي النفس شديد البأس كما قال المحي — كان لجند دمشق اي الانكشارية الغلبة والعتو فيذهب منهم في كل سنة طائفة الى حلب وينصب عليهم قائد من كبارهم وكانت بعض كبار الجند قد تقووا في حلب وفتكوا وجاروا خصوصاً طواغيتهم خدا ويردي وكنعان الكبير وحمزة الكردي وأمثالهم ، حتى رهبهم أهلها وصاهرتهم كبراؤها ، واستولوا على اكثر قراها ، فلما رأى نصوح باشا ما فعلوه بجيئ قتل اموال السلطنة ، وصارت أهالي القرى كالأرقاء لهم رفع أيديهم عن قراها ، وجالهم عن تلك البلاد ووقعت بينه وبينهم فتنه بل فتن وعجز عن اخراجهم فاستعان بحسين بن جانبولاذ فبعث هذا ابن اخيه الامير علي بعسكر عظيم ، فاستولى نصوح باشا على قلعة حلب ووضع متاريس تحتها واستعد للقتال ، فأخذ العسكر الدمشقي باب بانقوسا واستعدوا وجمعوا جموعهم ، وهم لا يعلمون ان حسين باشا جانبولاذ بعث عسكره ، ودخل الامير علي في اليوم التالي بالعساكر المتكاثرة فتبعهم نصوح باشا ومعه الامير علي الى قرية كفرطاب فوقع بينهم حرب فانهزم الدمشقيون بعدما قتل منهم جم غفير . ثم خرج

نصوح باشا في عسكره الى كلز فقابل حسين باشا بعسكره والنقت الفئتان فانكسر
نصوح باشا وقتل اكثر عسكره ودخل حلب منهزماً وأخذ في جمع الاجناد وبذل
الاموال لتكثير العدد والاعتاد . وبينما هو على ذلك جاء الامر بان حسين باشا عين
كافلاً للمالك الحلبية وعزل نصوح باشا ، فلبس نصوح باشا جلد الثمر وامنع من
تسليم حلب لحسين باشا ، وأقبلت بعد اسبوع عساكر الوالي الجديد حسين باشا الى
قرية حيلان فاستقبلهم نصوح باشا بالحرب ثانياً فانكسر ايضاً ، ونزل حسين باشا
بعساكره في احياء حلب خارج السور وأغلق نصوح باشا أبواب المدينة وسدها
بالاحجار ، وفتح باب قنسرين وحرسه ، وقطع حسين باشا الماء عن حلب ومنع الميرة
والطعام عن المدينة ، ونصب نصوح باشا المتاريس على الاسوار وصف عسكره عليها
مع النكاحل ، وقامت بين الوالدين حرب شعواء ، وأخذ حسين باشا في حفر اللغوم
والاحتيايل على اخذ البلدة ، وانشأ نصوح باشا يحفر السرايب لدفع اللغوم ، وعم
الحلبين البلاء من المبيت على الاسوار وحفر السرايب ، ومصادرة الفقراء والاغنياء
كل يوم وليلة لطعام عسكر السكبان وعلوفاتهم ، وأغلقت الدكاكين وتعطلت
الصناعات ، وحرقت الاخشاب للطعام والقهوة ، واشتد غلاء الحاجيات وعدم القوات
للحيوان والانسان ، واستمر الحصار نحو أربعة أشهر واياماً ، ثم تصالح نصوح باشا
وحسين باشا فخرج الاول واستولى حسين باشا على الديار الحلبية ، وشحنها بالسكبان
وصادر الاغنياء والفقراء لاجل علوفة السكبان .

ولما قتل حسين باشا خرج ابن اخيه الامير علي عن طاعة السلطنة ، وجمع جمعاً
عظيماً من السكبانية حتى صار عنده منهم ما يزيد على عشرة آلاف ، ومنع المال
المرتب عليه وقتل ونهب في تلك الاطراف ، الى ان تعهد الامير يوسف بن سيف
صاحب عكار للسلطنة بازالة الامير علي عن حلب فجمع له الجند من دمشق وطرابلس
والنقى بابن جانبولاذ (جانبلاط) قرب حماة فكانت الغلبة على ابن سيف ، فاستولى
ابن جانبولاذ على مخيمه ومخيم عسكر دمشق ، وبعث ابن جانبولاذ فاستولى على
طرابلس ، واستخرج الاموال من أهلها وأخذ دفائن كثيرة لهم ، ولم يستطع فتح قلعتها
ثم سار مع حليفه ابن معني صاحب لبنان وكان هو وابن شهاب صاحب وادي التيم

وابن الحرفوش صاحب بعلبك خرب بعلبك وأحرق قراها ، وخرب ابن جانبولاذ البقاع ووصل الى دمشق ، واقتتل ابن جانبولاذ مع العسكر الشامي فانقل العسكر الدمشقي ، وأرضوا ابن جانبولاذ بمال حتى فرج عن دمشق ، واستمر النهب في أطرافها ثلاثة ايام ، ثم سار الى حلب وجاءته الرسل من السلطنة تقيح عليه فعله في دمشق ، فكان تارة ينكر فعلته ، وطوراً يحيل الامر على عسكر دمشق ، ويشرع بسد الطرق ويقتل من يعرف انه سائر الى أطراف السلطنة لا بلاغ ما صدر منه ، حتى أخاف الخلق ونفذ حكمه من أدنة الى نواحي غزة ، وصاهر ابن سيفاً فامثل هذا امره ، وانقطعت أحكام السلطنة عن هذه الديار نحو سنين ، وكان ابن سيفاً بعد ان غلبه ابن جانبولاذ على دمشق ونهب ولايته التجأ الى الامير احمد بن الامير طرباي بن الامير علي الحارثي امير لواء اللجون .

وقال القرماني : ان ابن جانبولاذ لما ولي حلب جمع كل شقي من القبائل والعشائر ، لياخذ ثأره من جماعة الانكشارية فاللقوه في مدينة حماة ومعهم محمد باشا الطواشي نائب الشام وعامة الجيوش من الحكمة ، فانهزم عسكر الدولة واستمر ابن جانبولاذ في أثرهم الى حدود دمشق فاستقبله الامير نحر الدين بن معن بن معه من الدروز وطائفة السكمانية ، ثم التقى ابن جانبولاذ مع العساكر الشامية فاستولى على أموالهم .

ولما حدث ما حدث في البلاد من الفتن والغوائل عهد السلطان الى مراد باشا ان يعيد الشام الى حكم الدولة اذ قد ثبت انه خرج عن حكمه ، فجاء في عشرين الف فارس وعشرين الف راجل وقيل في اكثر من ذلك ، فبرز اليه ابن جانبولاذ في أربعين الفاً فغلب ابن جانبولاذ وهرب الى الاستانة وأقنع السلطان بحسن حاله ، وجاء مراد باشا بعد ان كسر ابن جانبولاذ في سهل الراج قرب المعرة وقتل من جماعته احد وعشرين الفاً وتسلم قلعتها بالامان ، وبالغ في قطع شأفة الاشقياء والسكمانية . وكان علي باشا جانبولاذ لما انكسر مع مراد باشا حصن قلعة حلب ورفع اليها عياله واسبابه وولى عليها اظلي طوماش باشا وأمره بحفظها لمدة ثلاثة اشهر ريثما يرجع اليه بالنجدة من سلطان العجم ، ثم تجهز للسفر وحال خروجه من اراضي حلب وصل مراد باشا الوزير ومعه احمد باشا حافظ الشام ويوسف باشا ابن سيفاً

وشددوا الحصار على حلب وافتتحوها ، بعد ان نصب مراد باشا المنجنيقات على قلعتها ،
ووعدا طلي طوماش بالنيابة على حلب فاطمان وسلم القلعة ثم قبض عليه وقتله وضبط
القلعة ، وباع عيال علي باشا جانبولاذ بيد الدلال فبيعت والدته بثلاثين قرشاً ، ثم
وقعت المناداة على المحافظين وكان عددهم فيما قيل نحو ثمانين ألفاً ، فقتلهم في اماكن
مختلفة واتوا برؤوسهم الى الوزير ولم ينج منهم الا القليل ، وكان الرجل يقتل العشرة
منهم ، ومهد الوزير امور حلب وخدمته جميع امراء العرب . وقالوا ان الامير
نغر الدين المعني فرّ الى البادية في جماعة الدروز والعربان بعد تلك الوقائع : لانه
أعان الخوارج على السلطنة . وللقيم محفوظ الدمشقي مرتجلاً ومؤرخاً واقعة دخول
السكبانبة مع ابن جانبولاذ الى دمشق في اوائل سنة ست عشرة بعد الالف نقلها
في التذكرة السكالية .

دخل الشام جيوش	كجمال قد رغوا
كل كردي غبي	بهم الناس لغوا
ودروز ولشام	لقال ما صفوا
نهبوا الشام وآذوا	وعلى الناس بغوا
نهبوا في جمادى	أخشوا أرخ طغوا

(١٠١٦)

ولم تقتصر فتنة ابن جانبولاذ على دمشق وحلب بل تساولت بعلبك والبقاع
وطرابلس وغيرها من البلاد . قال النجم الغزي : ان كافلي الشام وطرابلس دخلا
على أهل حماة وحمص وأمرأ اهلها باخلاء المدينين وكان ابن جانبولاذ في أثرهما ،
فدخل هو وعساكره حماة وحمص ونهبوهما ونهبوا قراهما ، وانفق كيوان رئيس
سرية دمشق مع ابن معن على العصيان وعلى مساعدة ابن جانبولاذ ، فذهبا اليه واجتمعا
به في الجوف بالقرب من نهر البارد من معاملة طرابلس ، فاستولوا على بلاد حماة
وحمص وعكار وجبلة واللاذقية والحصن وطرابلس وغزير وبيروت ، ثم اجتمع ابن
جانبولاذ وابن معن وكيوان وحاضروا دمشق على ما تقدم قال : وكان الامر مهولاً
واجتمع اكثر الناس بدمشق .

وقال ابن المقار في حوادث ١٠١٦ : انه ظهرت طائفة من الخوارج يقال لهم
السيمانية تناول ضررهم البلاد والعباد ، وأظهروا في الارض أنواع الفساد ، وحدث
بين امراء الشام حروب وقتن عظيمة عم فيها النهب وخربت اكثر البلاد .
ومن الاحداث في تلك الايام ما رواه مؤرخو لبنان في حوادث سنة ١٠١٦ من
ان الجند المشقى « وقيشلق » السلطاني تفرق على البلدان من حلب الى بلاد الشوف ،
وكان عدده نحو اربع كرات والكرة مئة الف . كذا قالوا وهو عدد مبالغ فيه جداً ،
وما نخال عدده بلغ الاربعين ألفاً ، قالوا : وكانت الناس في ضيق عظيم من الغلاء ومن
الضرائب التي كانت على الضياع والاديار . ووقع في زمن تولية كوجك سنان باشا
كفالة دمشق وكان يتولاها سنة ١٠١٧ ان فرقة من عرب آل جبار المعروفين باولاد
ابي ريشه نفروا من العراق فوصلوا الى تدمر ، وانضم اليهم قوم من طائفة السكبانية
الذين هربوا من وقعة الامير علي بن جانبولاذ . فعماثوا في تلك البلاد وقطعوا الطريق ،
ولما ورد من حلب العسكر المصري الذي كان قد طلب لقتال كبير السكبانية محمد بن
قلندر والاسود سعيد ، التقى جيش السلطان مع جيش البغاة فغلب عسكر السلطان
وهرب منهم جمع ، ومن جملة الهاربين الجماعة المذكورون وكانوا نحو اربعمائة سكباني ،
فلما انضموا الى العرب المذكورين كان السكبان يضربون بالبنندق والعرب يضربون
بالرماح والسيوف ، واخذوا قلعة القسطل وقلعة القطيفة ونهبوا المعصرة وقتلوا من بها
من الرجال والنساء . فلما بالغوا بالقتل والنهب والغارة والعدوان قصدهم سنان باشا
ومعه العسكر الدمشقي ، وانضم اليهم عرب المفارجة وكبيرهم عمرو بن جبير فادركوا
العرب والسكبان في نواحي قلعة القطرانة ، فقتلوا من السكبان نحو ثلاثمائة رجل
وامسكوا منهم نحو خمسين رجلاً ، ودخلوا بهم الى دمشق على متون الجمال وعلى كتف
كل واحد منهم خشبة طويلة وهي وتد (خازوق) وفي اليوم الثاني اتلفوهم وفرقوا
اجسادهم على احياء دمشق .

* * *

تخوفت الدولة من الامير نجر الدين المعني الثاني	} الامير نجر الدين المعني
لتحصينه القلاع وامتداد سلطته في اصقاع الشام ،	
	وآل شهاب وفتن

فارسلت عليه في سنة ١٠٢٠ الحافظ احمد باشا كافل دمشق في جيوش دمشق وكافل حلب وكافل ديار بكر وكافل طرابلس وامراء الاكراد في جيوشهم ونحو النصف من الفرسان في جيش مؤلف من ثلاثين الفا ، وحاصر ابن معن تسعة اشهر فلم يقدر ان يأخذ قلعة من القلاع ، فلما اعيته الحيلة ارسل رجلاً من جماعته لمن في القلاع يقول : أنا مالي عندكم غرض بل ان للوزير الاعظم شأنًا مع الامير فقولوا له ان ينزل الى خيامنا وعليه امان الله وتأخذ منه دراهم للسلطان وللوزير وتقره في اماكنه فقالوا : الامير ذهب في المركب الى بلاد الفرنج فلما تحقق ذلك رضي بنزول ام نحر الدين فقالت : نحن ما ضبطنا بلدًا بغير اذن السلطان ، ولا انكسر عندنا مال ، فعند ذلك اعطت السلطان مائة الف قرش واعطت الوزير خمسين الفا والحافظ احمد باشا مثلها وانفصل الامر على ذلك .

هرب الامير نحر الدين الى ايطاليا تاركًا الحكم في لبنان وما اليه لابنه الامير علي واقام فيها خمس سنين وشهرين تعرف خلالها الى ملوك طشقانه من أسرة ميديسيس المشهورة في فلورنسة ، واطلع على طرف من المدنية الاوربية ثم عاد الى بلاده بعد مهلك خصمه والى دمشق فاستلم زمام الاحكام ولا سيما المسائل الحربية ، بقوة اعظم وتدبير احكم ، مستصحبًا معه كثيرًا من المهندسين لبناء القلاع وعمل الذخائر الحربية كما صرح كثير من المؤرخين ، وكان ابنه الحاكم في الظاهر وهو الحاكم في الحقيقة ، واخذ يحصن بلاده ويكثر الصلات الحسنة مع الفرنج ولا سيما مع الطليان ، وعقد معاهدة دفاعية هجومية مع اصحاب طشقانه كأنه ملك مستقل ، تخافت الدولة منه وكانت تعده من قبل عاصيًا قوي الشكيلة ، واخذت تحاذره ونظرت اليه نظرها المعاص عارف بمقاتلتها ، وانه لا بد له يومًا ان يقلب لها ظهير الجن ويستقل كل الاستقلال عنهما ببلاد الشام ، اذ بلغ اتباعه الى نحو مائة الف من الدروز والسكبان ولم يستول فقط على الشوف وجبل عاملة بل تعداهما الى عجلون والجولان وحواران وتندصر والحصن والمرقب وسلمية ، وسرى حكمة من صفد الى انطاكية وملك نحو ثلاثين حصنًا مثل صفد ونيعا وشقيف تيرون وعجلون وقب الياس وبعليك والمرقب والبترون .

وفي سنة ١٠٢١ خرج احمد باشا بالعساكر من دمشق الى وادي التيم ونزل في

خان حاصبيا وهرب بيت شهاب اصحاب وادي التيم منها فهدم دورهم واتلف املاكهم ونهب حاصبيا (١٠٢٢) وفي سنة ١٠٢٣ خرج الحافظ احمد باشا من دمشق الى قب الياس واجتمع اليه حكام صند وصيدا وبيروت وغزة وحماة وعشائرهم وامراء الغرب وبلبك ووادي التيم ، فوقع بين اهل الجرد والغرب والمتن واهل الشوف قتال بقرب نهر الباروك انكسر فيه اهل الغرب والجرد والمتن وعسكر الدولة كسرة عظيمة ، فاحرق احمد باشا قصر بيت معن في دير القمر وكان رئيسهم اذ ذاك الامير يونس وقرية عبيه . ثم جرت وقعة بين جماعته وجماعة من حزب المعنيين على قلعة الشقيف فانكسر جماعة احمد باشا وقتل منهم نحو خمسمائة قتيل واكثرهم من السكيان وكان عسكر الدولة نيفاً وعشرين الفا ثم امتنع (١٠٢٤) يوسف اغا من ان يتسلم حصن الشقيف وحصن ارنون الى ان يخرج منها اولاد معن اولاد العرب وبتصرف بهما الاتراك تمام التصرف فشقى ذلك على الامير يونس واخذ في هدمها ، ولما انتهى الخبر الى الوزير فرح جداً وامر بخرابها ولبث المسلمون في تخريبها اربعين يوماً . وجرت (١٠٢٥) وقائع بين اولاد ابن معن واصحاب المقاطعات في لبنان وشرق الشوف والجرد والغرب والمتن وهلك كثيرون وكانت النصر للقيسية خربت بيت معن وكان بنو انوخ امراء الغرب منذ سنة ٥٤٢ ميلون الى بني معن ، فلما حاربتهم الدولة انتهر علي بن علم الدين اليمني والي الشوف الفرصة وقبض على اعيان المعنيين وقتلهم واستصفي اموالهم ، ثم سار الى قرية عبيه فدعاه الامراء النوخيون الى مأدبة في سرايتهم فاغتالهم وقتلهم كلهم صغاراً وكباراً فانقرض النوخيون بموتهم .

عهد مصطفى الاول } وفي سنة ١٠٢٦ توفي السلطان احمد الاول وخلفه
وعثمان الثاني } السلطان مصطفى الاول المعروف بالابله فخلع بعد
ثلاثة اشهر وخلفه السلطان عثمان الثاني ولم يجر في ايامه ما يستحق ان يدون في الشام
الاهم الا ما كان من حرب بين ابن معن وابن سيفا (١٠٢٨) فغرب ابن معن قرية عكار
وسرايا بيت سيفا في طرابلس وخرّب هذه كما خرب قلعة جبيل . ثم عاد السلطان
مصطفى الاول سنة ١٠٣١ فتولى الملك اربعة عشر شهراً وخلع بعدها اذ لم يعد في

الامكان ستر نقصه الذي كان يتولاه العلماء ليحكموا باسمه فأبرزوه في صورة ولي من الاولياء وما هو الا ابلة من البلهاء . فزادت الدولة خلال هذه الحقبة تغاضياً عن الشام حتى قويت شوكة المتغلبين وارباب النفوذ في المدن والقرى والسهول والجبال ، واصبحت البلاد بلا راعٍ خصوصاً بعد الضعف الذي ظير من الدولة في العقد الثاني من هذا القرن في فتنه ابن جانبولاذ وحصار الدولة لحصون ابن معن ، وتجلي لاذكياء المتغلبة موقف الدولة معهم ، فأصبحوا يزدادون في ارهاق الرعية بالظلم ، والولاة الكبار ليسوا دونهم في العنت والتخريب والقتل والنهب .

وكان نائب حلب محمد باشا (١٠٣١) ظلوماً غشوماً اخذ اموالاً كثيرة من كل قرية من غير سبب ، وفضى ان لا تباع البضائع كلها الا لمن عينه من جماعته ثم تباع من السوق بعد ذلك ، فكان ظلمه مزدوجاً على المدني والقروي ، وفي هذه السنة خرب صاحب الشرطة جميع قرى القنيطرة وفي السنة التالية (١٠٣٢) خرب الامير نحر الدين ابن معن كرك نوح وسرعين نكاية ببني الحرفوش .

عداء على الفرنج } وبيننا كان ابن معن يهيئ السبل للفرنج حتى تزيد متاجرهم
وفتن داخلية } مع اهل الساحل ويكثر سوادهم في مدنها ولا سيما في
موانئها ويرخص لهم بتأسيس قنصليات ويدخل رجال الدين في ايامه الى لبنان ،
ارتكب ابن سيف حاكم طرابلس سنة ١٠٣٢ امراً عظيماً نقر الفرنج من غشيات
المواني لاستبضاع القطن والحبوب ، فضبط مركبين فرنساوين كانت معهما ثمانون
الف قرش لا بتياع بضائع ، فأرسل ابن سيف وامسك ولدين صغيرين من المراكب
وعلمها ان يقولوا ان المركبين للقرصان ، وانها اخذا في طريقهما مركب تجارية
للمسلمين ، وزعم انه وجد في المركبين اسباباً للمداخلة المسلمين ، ولم يكن ذلك صحيحاً
ولكن جعل ذلك طريقة لضبط جميع ما في المركبين من البضائع والاموال ، وامسك
جميع من فيها من التجار والنوتية وقتلهم جميعاً . وبعد ذلك باع المركبين بثلاثة
آلاف قرش . قال الشهابي : ومن حين حدوث هذه الفعلة لم يدخل ميناء

طرابلس من تجار الفرنج احد ، وتوجه اناس من الفرنج الى الباب العالي للشكوى على ابن سيف ، ولكن لكثرة اختلاف الاحكام وعزل الوزراء لم يلتفت احد اليهم وراحت على من راح .

ومن الفتن الاهلية ما حدث سنة ١٠٣٢ من دخول الامير احمد الشهابي والشيخ حسن الطويل بلاد عجلون ومقابلة أهل القرى لهما وتجمع أهالي بلاد نابلس وعريبا ، وحرقت من القرى قرية فارا وقرية الخربة وقرية حلاوى وكانت من اكبر قرى عجلون ، وحرق الامير علي الشهابي قرية سرعين في البقاع وجميع قرى بعلبك وتحصن أهل بعلبك في القلعة . وجرت فتنه بين عساكر دمشق والامير يونس الحرفوش — وكان هذا ظالماً متجاهراً بالظلم — وكرد حمزة سنة ١٠٣٣ فاغنم الانكشارية الفرصة وأغاروا على المستضعفين من الاهلين وتعاقب تغيير الولاة وانحاز بعض الخوارج اليهم ونقل الناس أمتعتهم وأثقالهم من خارج مدينة دمشق الى داخلها مراراً ، وحارب العسكر الدمشقي اولاد الحرفوش لاجراجهم من بعلبك .

وكان كيوان أحد كبراء الاجناد في دمشق خلال هذه المدة ينزع الى التعدي ولا شكية ترد جماعه ولا وازع يكف من غريبه ، فأخذ الناس بالتهمة وتطاول الى أخذ أملاكهم حتى استولى على اكثر بساتين الربوة والمزة من ضواحي دمشق وضم بعضها الى بعض ، وكان اذا أخذ حصته في مكان احتال على الشركاء فيه حتى يأخذ حصصهم طوعاً او كرهاً ، وكان نواب محكمة الباب وأعيان شهودها يساءدونهم على عدوانه حتى أهلك الحرث والنسل . وذكر الغزي ان كيوان الطاغية أعبأ أهل الشام ظالماً وفتنه ، وكانت بداية كيوان نهاية اويس ثم تجاوز عنه بمراتب ، فطمع هو وقائد الصالحية اولاً في املاك الفلاحين واستخلاص مملكوه بالشراء او بالمغارسة فكان يعمل الحيلة لاحدثهم حتى يوقعه في مخالاب صاحب الشحنة ولو بالتهمة والاستنباع . وقد اقترف يوسف السقا من الاجناد الدمشقيين ضروب المظالم ، وصادر الناس في أموالهم وعقارهم ، وقبض على غالب أعيان دمشق وشيوخها وهرب بعضهم ، واغتصب من تجارها المشاهير وبعض أهلها الضعفاء مالا جزيلاً أناف على مائتي الف دينار ومن التحف والاقمشة ما لا يحصى . ومثل هذه الشؤون كانت تجري على مشهد من

الولاية في عاصمة الشام ويتفاوضون عنها لانها قد تكون بايعازهم وهم لا محالة شركاء اولئك الزعماء .

حملات على الامير }
نحر الدين المعني }
وغیره }
أدرکت الدولة ان خطر الامير نحر الدين المعني على حياته في هذه الديار زاد عن سنة ١٠٢٠ وانه تأصلت أحكامه بعد عودته من ايطاليا ، وما كانت في حملتها الاولى والثانية لتغضي عن تخريب بلاده الا اضطراراً ، فساق هذه المرة مصطفى باشا والي دمشق (١٠٣٣) جيشاً على الامير نحر الدين فاستظهر هذا بالامير محمد الشهابي حاكم وادي التيم كما استظهر حاكم الشام باين سيف حاكم طرابلس وابن الحرفوش صاحب بعلبك فهلك جمهور من عسكر الشام قدر بمائتي قتيل ولم يقتل سوى رجال قلائل من جماعة ابن معن ، وكانت الواقعة في عين الجر (عنجر) من عمل البقاع . وقبض جماعة ابن معن على والي دمشق فجاء الامير نحر الدين وقبل ذيله ، وقيل شنع بالوالي علماء دمشق وكبرائها لدى ابن معن ، ورجع عسكر دمشق مغلولين وفي رواية انهم خامروا على الوالي وأطلق الامير نحر الدين والي دمشق مكرماً ، فعاد الى الفيحاء ينتقم ممن كان السبب في غزو ابن معن . وهذه الواقعة زادت في مكانة امير لبنان في نظر الدولة والامة ، ودلت على انه كان مع قوته عاقلاً بعيد النظر ، وانها عاجزة عن أخذه الا بتجهيز جيش عظيم لانها حاولت غير مرة ذلك فرجعت بالخيبة خصوصاً وقد علمت مخالفته لكوسموس الثاني كبير دوجات طسقانه ، وان نحر الدين لما استظهر باسطول فرديناند الطسقاني استولى على ساحل الشام وغلب جيش الدولة غير مرة .

وفي سنة ١٠٣٣ ايضاً جلس جماعة الوالي بدمشق على الطرق ومعهم الريش يضعونه على رأس كل من يرونه وينادون عليه « مستاهل لم يقدر ان يرفعها من شدة الخوف » قال المقار : فلما كلوا أرسلوهم الى اليمن فقتلوا كلهم هناك . ومعنى ذلك ان الدولة كانت تريد تجنيد أناس ليرسلهم من الشام الى اليمن فلم تر أظرف ولا عدل من هذه الطريقة في التجنيد . وفي سنة ١٠٣٨ عين والي دمشق شرذمة من

العسكر لمنازلة بني شهاب الذين يسكنون وادي تيم الله بن ثعلبة فنهبوا بلادهم وأحرقوا قراها .

وقد وزعت الدولة عسكرها على بلاد الشام ليشقي فيها سنة ١٠٤١ وكان جيشاً كبيراً فخص دمشق منهم اثنا عشر ألف جندي ماعدا اتباعهم ، وكان ما كلهم ومشر بهم من اهل دمشق أقاموا بها اربعة اشهر ، فلما عزموا على السفر أخذوا ترحيلة من اهل دمشق خمسين قرشاً من كل دار فاضطرب اهل دمشق اضطراباً عظيماً . وقال شيخ الادب في عصره ابو بكر العمري من قصيدة وصف بها سنة « القشلق » :

قوم من الاتراك عاثوا بها	على خيول ضمر سبق
من جهة الشرق لقد اقبلوا	والشر قد يأتي من المشرق
في رقعة الشام غدت خيلهم	وذلت الارياخ للبيدق
اجلوا اهالي الدور عن دورهم	بالسيف والدبوس والبندق
واتخذوها مسكناً دونهم	بالفرش من خز واستبرق
وحملهم كلفاً أعجزت	غنيهم جهداً فكيف الفقي

قال المحيي : ان القشلق من عسكر السلطان مراد بن احمد كانوا عينوا المحاربة شاه عباس فدهمهم الشتاء دون الوصول الى خطة العجم فأمرؤا ان يشتوا في دمشق وأطرافها من القرى وضيقوا على الناس امر المعيشة وبالغوا في التعدي ونهب أموال الناس . وكانت ناضي القضاة بدمشق احمد بن عوض العينابي تولى هذا المنصب سنة ١٠٤١ فسعى بجمعهم وكف شرهم .

وفي سنة ١٠٤٣ جاء السردار الاعظم محمد باشا الى حلب يحمل مرسوماً سلطانياً بقتل نوغاي باشا لانه تهامل في قتل من يجب قتالهم من الاشقياء واكتفى منهم بمصادرة أموالهم ، فقتل وأرسل رأسه بلحيته البيضاء الى جانب السلطنة . قال نعيما : وهذا الوزير ممن سبقت لهم خدم جلي للدين والدولة وهو من أقدر الوزراء . وفي هذه السنة تجمع نحو خمسمائة من أرباب الفساد من الانكشارية وثاروا بوالي حلب فقتل منهم خمسون وجرح كثيرون ، ثم جاء رؤسائهم معتذرين للوالي بما صدر من أوباشهم فتأثر جميع النافخين في بوق الذنبنة وقتل الجرحى والهاربين منهم فسكنت

النائرة . وفي هذه السنة خرجت عساكر كثيرة من دمشق وباغتوا بلاد ابن شهاب امير وادي التيم فنهبوها وأحرقوا قراها وباغت صاحبها العسكر الدمشقي فظفر بهم ورجعوا عن بلادهم .

القضاء على الامير () وفي سنة ١٠٤٣ قوبت كلمة الامير نحر الدين بن معن نحر الدين المعني () الثاني وكانت الدولة منذ ثلاث وعشرين سنة تنظر اليه نظر الخارج عن طاعتها ، حاولت غير مرة أخذه فلم تستطع لانه كان بجيشه أقوى من الجيوش التي تساق عليه ، وبلادهم حصينة بطبيعتها وحصونه كثيرة ممنعة ، ولولا ان كانت الدولة مرتبكة بفوائيل خارجية لضممت قوى كثيرة من قوتها وأخذته اخذ عزيز مقتدر ، فلما استراح بالها من مشاكلها أرسلت عليه جيشاً من الاناضول بقيادة احمد باشا الارناؤدي كافل دمشق فانصر عليه الامير نحر الدين في وقعتين قرب صفد ثم انتصر عليه القائد العثماني في وادي التيم وقتل ابنه علياً وتوفي أخوه متأثراً من جراحاته ، وكانت أرسلت الدولة عليه اسطولاً من البحر فغلب على اكثر سواحله وعاون بنو سيف وأصحاب الاحزاب بعسكر وافر الجيوش العثمانية ومشوا مقابل المراكب على طريق البر فتشتت المعنيون ، وكانت الدولة تحاذر من معاونة اسطول البنادقة او الطسقانيين له ، ولجأ الامير الى شقيف تيرون فضاقت نفسه وفي رواية انه هام على وجهه في الجبال سنة ودل جماعته عليه ، ثم عمد الى مغارة في جزين فاضطر ان يسلم نفسه الى الوزير العثماني فدخل به الى دمشق بموكب حافل وهو مقيد على الفرس خلفه ، ثم حمل الى الاستانة فقابله السلطان بمقابلة لا بأس بها ولامه على افعاله فقدم اعذاره ، واحتج بانه جمع الرجال لامور مختصة بالوزراء والنواب وما قتل غير العصاة على السلطنة ، وان القلاع التي استولى عليها وفتحها كانت بيد العصاة وسلمها للسلطنة فاقنع السلطان من كلامه وعفا عنه ولكنه ابقاه مخفوراً . ولما قام حفيده الامير ملحم وكسر جيش والي دمشق ونهب صور وبيروت وعكا صدر امر السلطان بقطع رأس الامير نحر الدين وخنق ابنه الاكبر .

وذكر الشهابي ان الامير علي بن علم الدين اليميني الذي وسد اليه حكم لبنان بعد

اسر الامير فخر الدين قد ضبط جميع ارزاق بيت معن وقبض على تابعيهم وقتل بعضاً منهم ، ثم باغت الامراء بيت نذوخ وكانوا في الحمام في السراي التي تحت القرية فقتلهم وردم البرج على اولادهم الصغار ، ولم يترك من بني نذوخ ذكراً يخلفهم ، فلما بلغ ذلك الامير ملحم بن معن جمع من كان معه من القيسية وركب على اليمينية فقتل منهم كثيراً وقدر من قتل من الفريقيين بنحو اربعمائة نفس ، وقتل مدير كوجك احمد باشا وانهزم الامير علي بن علم الدين الى دمشق وخرج بعسكر من دمشق نحو خمسمائة رجل وعندما وصل تحت قب الياس نزل سعيد احمد ابو عذرا الى مقاتلتهم برجال العرقوب في نحو اربعمائة رجل ، فأخلت له الدولة الخيام حتى دخل بالرجال ثم اطبقوا عليه فما سلم منهم الا القليل ، فرجع الامير ملحم واختبأ في الشوف وتجددت عند ذلك الشكايات على الامير فخر الدين وعندها امر السلطان بقتله . قال المرادي : ان املاك الامير فخر الدين وهبها السلطان مراد الى احمد باشا الكوجك ، وكانت عمر التكية خارج باب الله بالقرب من مسجد القدم بدمشق فوقف عليها ذلك من متعلقاته في بعلبك وصيدا ورشيا وحاصبيا وكانت املاكاً لفخر الدين .

وبهلاك الامير فخر الدين وضعف سلطة الامراء المعنبيين استراح الامراء المجاورون لبلده امثال بني سيفا في طرابلس والامير احمد بن طرباي الحارثي امير اللجون في بلاد نابلس ، وقد وقعت بين هذا وبين الامير فخر الدين حروب كثيرة ، وكان ابن معن توجه الى بلاده ثلاث مرات لقتاله ورحل ابن طرباي الى الرملة وكان في كل مرة يكسر عسكر ابن معن ويدحره ، واشهر وقعاته معه وقعة يافا وكان هو وحسن باشا حاكم غزة والامير محمد بن فروخ امير نابلس فقتل من جماعة ابن معن مقتلة عظيمة وغنم غنيمة وافرة . وحارب مرة بدو الساحل على نهر العوجا قرب يافا وبدد جموعهم ولكن اهل بلاد حارثة من عمل جينين حاصروه في قلعة جينين واخرجوه منها . هلك ابن معن بعد ان كاد يستولي على البلاد كلها بأخذه اولاً املاك بني سيفا وبني الحرفوش في طرابلس وبعلبك ، وقد كانت واسع الصدر بعيد الغور والنظر متسامحاً يسير مع المدنية سير تعقل ، واخذ في آخر امره بعمر في بيروت حديقة للوحوش نقليداً للملك ايطاليا ، وعمر قلعة صرخد وقلعة شميميس على كتف الروج من عمل

حلب وقلعة فوق انطاكية وجنيزها بالعساكر . فشكته حكومة حلب للباب العالي . قال المجبي : ان ابن معن بلغ مبلغاً لم يبق وراءه الا دعوى السلطنة . وعلل البور بني سبب اخذ الدولة الامير نحر الدين المعني انه اخذ يحصن قلعة الشقيف عدة اعوام واخذ لواء صفد ، فعظم شأنه وارفع مكانه وبعد صيته ، وكثرت امواله لانه تصرف في بلاد ما خطر في بال احد من الامراء التصرف فيها ، وكان متصرفاً في بلاد كفر كنه وبلاد عكا والساحل وصفد وبلاد ابن بشارة والشقيف وبيروت وصيدا وجبل كسروان وجبة المنيطرة وجبيل وانطلياس والبثرون والجرد والغرب والمتمن والشوف والمقيطع والشحار والبقاع وبعبك وصور والمعشوقة ، وما كفاه ذلك حتى انه جاء الى قلعة الشقيف وحصنها وجدها وشحنها بالارزاق الكثيرة وجعل بها من آلات الحصار ما لا يعد ولا يحصى واستمر في ذلك التحصين نحو عشرة اعوام فنظن له الامراء والوزراء .

وقال نعيما : ان قلاع الشقيف وبانياس ودير القمر كانت محصنة في عهد ابن معن فصعب استيلاء الجند العثماني عليها لما عصى على الدولة ، وان من قتلوا في برهة قليلة من عمارة الدروز بلغ نحو ثلاثة آلاف وأحرقت بيوتهم وقراهم وان عهده وما بعده في الجبل مضى مع الدولة تارة في حرب وطوراً في سلم وصلاح . ومن الحصون التي رُمها وانشأها قلعة قب الياس وبانياس وبرج الكشاف في بيروت وبرج الجصاص في طرابلس ورأس بعلبك واللبوة وحدث بعلبك والصلت وحيفا ونوله وسمر جبيل وطرابلس وصافيتا والمرقب وحصن الاكراد .

وكانت له في باب قوة الارادة آيات منها انه لما حدث اختلاف بينه وبين بيت سيفاصحاب طرابلس ، اتى بنو سيفوا واحرقوا ونهبوا الشوف فاقسم كما قيل هكذا : « وحق زمزم والنبي المختار لعمر ك (لا عمر ك) يا دير يحجر عكار » . وهكذا كان فانه لما فاز على بني سيفوا وحاصر قلعة الحصن واخذها وهدمها ، جعل الجبال بالالوف تجلب الحجارة من قلع عكار الى دير القمر وبني جميع الدور القديمة في الديرووزع في جدرانها من حجارة عكار الصفراء .

كان ابن معن يجمع الى الحسنات سيئات فمن حسناته انه كان يميل الى عمران

بلاده ، ويتسامح مع الاجانب حتي تكثر صلات الشاميين بهم للتجارة ، وكان عنده على الدوام عشرة آلاف جندي تحت السلاح ويستطيع ان يجند مثلها وقيل انه كان يستطيع ان يجند اربعين الفاً . وقد سئل لما كان في ايطاليا كم يقدر ان يجهز من العسكر فقال : كنت اجمع نيفاً وعشرين الفاً ماعدا الذين يتأخرون في البلاد للمحافظة ، وكان يفضل على الادباء والعلماء وكذلك كان يفعل خصومه بنو سيفاً . اما سيئاته فكان مفرطاً باخذ الاموال من الناس ولا سيما بعد ان زار ايطاليا وتعلم منها البذخ حتى اشمازت منه رعيته وقد بلغت جبايته تسعمائة الف ليرة يعطي الدولة نحو ثلثها ويتمتع بالباقي . وكان نزوعاً الى العلي محافظاً على صلواته مع الجماعة وعلى عادته الاسلامية حتى في ايطاليا ، وبني جامعاً ومأذنة في البلدة التي نزلها ولما كان في الغرب عرض عليه ملك اسبانيا ان يدين بالنصرانية ويتولى مملكة عظيمة اعظم من مملكته فاعتذر بلطف . ذكر هذا مؤرخه الخالدي الا ان « المعلمة الاسلامية » تقول : ان الامير فخر الدين لما فر الى ليفورنا (١٠٢٢) واستقبله كوسموس الثاني الدوق العظيم باحتفال حافل لم يتحقق الامل الذي كان عقده من العودة في الحال بجيش معاون من المسيحيين للقضاء على السلطة التركية في الشام . وعبثاً حاول ان يظهر ان الدروز من نسل مسيحي اسمه الكونت دي درو وانه هو ايضاً من ابناء كودفري دي بوليون من امراء الصليبيين ولم يوفق ان يحمل المسيحيين على اعلان حرب صليبية جديدة . وربما كانت قواه اذا قيست بقوى ابن سيفا صاحب طرابلس متكافئة لان الدولة كانت تعضد سرّاً ابن سيفا حتى لا يتعاضم نفوذ ابن معن ، ولكن شتان بين الرجلين في الغناء وبعد النظر .

وفي سنة ١٠٤٤ حارب الامير عساف بن يوسف
 باشا سيفا الامير علي بن عساف واحرق بلاد جبيل
 فتن في الساحل } والمنيطرة ثم قتل من جماعة عساف كثيرون ، وكثرت الحكام والاحزاب في لبنان وظلموا الرعايا واخذوا المال الاميري مرتين ، وقبضوا على رؤساء القرى وشددوا عليهم لينهبوا عن ارزاق بيت معن وبيت الخازن ، وفي السنة التالية باغت الامير علي بن

سيفا قرية أميون ونهبها واحرقها ، فجمع خاله الامير عساف الرجال ودارت الحرب بينهما في ارض عريقة في طرف الزاوية فانكسرت جماعة الامير علي ثم اعاد هذا الكرة على خاله في عناز من بلاد الحصن فظفر به الامير عساف وقتل من جماعته مقتلة كبيرة واشتد الضيق بالناس .

وفي سنة ١٠٤٦ قصد احمد الشمالي اغا الانكشارية مقاتلة الامير علي بن علم الدين لتأخره في اداء المال السلطاني ومعه متولي صفد وبيروت وطرابلس فانهمز قدامهم ، ورحل معه يمنية بلاد الغرب والجرد والمثن والشحار والشويقات بعيالهم ومواشيهم وكانوا نحو سبعة آلاف نفس فدخلوا بلاد كسروان ، وانهمز من قدامهم القيسية وكسروهم في مرحاتا في ظهور الشوير ثم طردوهم من كسروان فساروا الى عكار وسار عسكر الدولة على طريق الساحل ودخلوا طرابلس وخرجوا الى نهر البارد فانهمزوا من امامهم ولحقوهم بارض الجوف فكسروهم وسبوا حريمهم واخذوا مواشيهم ثم ان طروبه البدوي تداخل بالصلح بين الامير عساف وابن اخته الامير علي فرجع ابن علم الدين الى بيروت . ولما حدث ذلك الاختلال في بلاد الساحل ظهر الامير ملحم بن معن وحكم الشوف وجمع بيت الحرفوش سكانهم وعربانهم لاسترجاع بعلبك فخرج اليهم نائب الشام بعسكره ووقع بينهم الحرب فظفر النائب ببيت الحرفوش وقتل منهم مقتلة عظيمة . اي ان الحال لم تستتب في لبنان بهلاك الامير فخر الدين المعني وقد جرت شؤون كثيرة من خراب وقتل وشنق في السنين التي اعقبت قتله حتى آخر عهد السلطان مراد الرابع .

وكان الوالي بدمشق سنة ١٠٤٦ درويش محمد باشا الشركسي ففتك باهلها وتجاوز في ظلمهم الحد وفي آخر ايام (١٠٤٧) اجتمع العامة على القاضي واشتكوا من الظلم وبالفوا في التوسل فلما بلغه ركب وكان في الوادي الاخضر بدمشق فنجماً واتى مغضباً وسفك دم بعضهم ثم عزل وصار امير الامراء بطرابلس . وهذه القسادة مما كانت تسير عليه الدولة في نقل الولاة فمن ترضيه ويوافق مصلحتها ننقله الى مكان آخر اذا قامت عليه الشكايات مهما عظمت وثبتت لديها ، كأن الولاية الاخرى ليست من ملكها ولا يهمها امر اهلها ، او ان الوالي بمجرد نقله يغير أخلاقه .

ابراهيم الاول وسفاهته } توفي السلطان مراد الرابع سنة ١٠٤٩ بعد ان
حكم سبع عشرة سنة وكانت من الشدة على جانب
عظيم منهمكاً في شهواته ولذاته ، قيل انه قتل مائة الف انسان منهم خمسة وعشرون
الفاً بنفسه او امام عينيه ولكنه أمن على حدود البلاد الشرقية باستيلائه على بغداد ، وهو
الذي قضى على الامير نحر الدين المعني الثاني ولولا ذلك لاستقل هذا بالشام لا محالة
وربما امتد حكمه الى أبعد من ذلك من الاقطار والممالك ، ولم ترتح البلاد بعد مراد
الرابع ، كما انها لم ترتح على عهده فخلفه السلطان ابراهيم وكان خالعاً ماجناً فسدت
المملكة في ايامه باخلاقيها ومثخصاتها ، وكان أبداً في شاغل عن الامة الا بما كان فيه
تحقيق شهواته ، وكان غريباً فيها . وقد عقد مراد بك في تاريخه «ابوالفاروق» فصلاً
في سلطنة النساء استغرق جزءاً برمته تلخصه هنا ليتبين للقاريء كيف يكون حال
مملكة سلطانها سخيف ضعيف .

ومما ذكر فيه استرسال السلطان احمد في الشهوات حتى قضى في الثامنة
والعشرين شهيد الغواني والكؤوس ، اما السلطان ابراهيم هذا فهو أعظم زير ابتلي
بحب النساء حتى كان كل اسبوع يبني بيكر ويجري له عرس ونقام الافراح في
قصره ، وكان كلما سمع هو او والدته «كوسم والدة» او أحد حاشيته وحملة غاشيته
ووزرائه وعماله بغانية حسناء يقدمونها لسلطانهم ، حتى عجز السلطان عن ملامسة
النساء لكثرة افراطه فجاء «جنجي خواجه» وكتب نسخ الادوية والعقاقير النافعة
في القوة حتى أصبحت المملكة تفاخر بان سلطانها يستطيع ان يقترب من اربع وعشرين
بكرًا في الاربع والعشرين ساعة ! وأصبح القول الفصل في القصر السلطاني للجواري
والسراري ، وكان على نسبة اشتداد أعصاب السلطان يضعف عقله وهو لا عمل له
الا الافراح والنساء والغناء والخلاعة ودخول الحمام واقتناء الجواري والحلي والزهور
والاموال والطرائف ، واصدار الاوامر بقتل الانفس بمعنى وبلا معنى ، واخذ يستريح
الى رؤية المناظر الفظيعة من القتل شأن قياصرة رومية في أواخر أيامهم .

وكان نقرر جعل النساء الرسميات اربعاً ثم أبلغت والدة السلطان عددهن الى
ثمان نساء ، لان نسل بني عثمان كاد ينقرض ، واحبت كوسم والده تكثير نسلهم

على هذه الصورة ، واكل واحدة من تلك الجواري من الخدم والخاديات والوصيفات والندماء والتدنيات والخازنات والملبسات الخ عشرات وربما مئات ، تجي وارادات الولايات العظيمة لتعطي الى المقربين والمقربات ، والوظائف تباع بيع السلع بالمزاد ولا سيما على عهد الاغوات بكتاش اغا ومراد اغا ومصلى الدين اغا وأمثالهم ، ولم يبق احد لا يرتشي من الصدر الاعظم فنازلاً ، لان السلطان يطلب من كل عامل عنده شيئاً يليق بشأن سلطانه ، حتى تعدت الحال في طلب الاموال الى كبار التجار في الاستانة ، واخذ رجال القصر ونسائه يسلبون من الامة ما يقدرون عليه ، واضطر كثير من التجار الى الاختفاء واغلاق حوانيتهم تخلصاً من مطالب جماعة السلطان ، ولا تسبل عن رواج سوق الحلي والجواهر والعربات المرصعة والطبوس المحلاة والنعال المزينة بالاحجار الكريمة والاسراف في استعمال الذهب والمولود والزبرجد وسائر المعادن النفيسة في الآنية والزينة والنقش فانه مما لا ننصوره العقول .

وكانت وارادات لواء (سنجاق) تعطي من قبل نفقة لنساء القصر فأصبحت أباله الشام على طولها وعرضها يخصص ريعها وجبايتها للمرأة السابعة بحسب الاصول الحديثة على العهد الابراهيمى . ولم يرض النساء ان تجبي لمن الولاة وبكوات الالوية الاموال ، بل كنَّ يعين جباة مخصوصين من قبلهن يجبون باسمهن ريع الولاية او اللواء . وقد كان الذي عهدت اليه جباية وارادات الشام محمد اغا الذي اشتهر فيما بعد في التاريخ العثماني باسم محمد باشا الكوبرلي الكبير ، وهو ممن منعوا بتدبيرهم الدولة العثمانية من السقوط . قال ابو الفاروق : ولا غرو فقد توجد الدرة النفيسة بين الكناسات والقمامات .

ولم يكتف السلطان بما كان يقدم له من النساء بل كان يطوف العاصمة وضواحيها ، فاذا رأى من أعجبه وتروى وليها في ارسالها يلقى جزاءه في الحال ، وبلغ السلطان مرة ان امرأة ابيشر مصطفى باشا في جهات سيواس على غاية من الجمال ، فأرسل الى وادار علي باشا ثلاثين الف ليرة ليعت اليه بزوجته مصطفى باشا فففر علي باشا من اقتراح سلطانه وأجاب بالرفض ، فقرر السلطان اهلاكه ولكن علي باشا رفع راية العصيان وجعل علي الاناضول ساقطاً ، وقرر السلطان ان يأتي بزوجته ابيشر مصطفى باشا

ويعربها ويجعلها في أحد الشوارع المهمة بين عمودين يربط اليها رجالها ويدها
ويطلق للعامة والعسكر ان يمسوها حتى تموت ، فلم يقنع السلطان أصحابه بالرجوع
عن هذا العمل البشع الا بعد اللتيا والتي .

المرء يصرع ثم يشفى دأؤه والحق داء ليس منه شفاء

والحق طبع لا يحول مركب ما ان لاحق فاعلم دواء

وقرر هذا السلطان الاخرق يوماً ان يقتل عامة المسيحيين في مملكته فاحتال عليه
شيخ الاسلام قائلاً ان في قتلهم نقص وارادات السلطنة ، وان مئتي الف انسان اذا
قتلوا في العاصمة تحف الجبابرة لا محالة ، وبهذا استرجعوا من هذا المعتوه الفاجر
ارادته المختلة وهكذا حتى خلع وقتل سنة ١٠٥٨ بعد سلطنة ثمان سنين وتسعة اشهر .
وقد قتل عدة من رجاله وقتل الصدر الاعظم مرة لانه بعث في طلبه لتدارك حطب
للقصر فقال له الوزير : ان هذا الطلب ليس من الامور المهمة التي يفكر فيها من يفكر
في امور السلطنة فمثل به في الحال ولم يجرأ بعدها على تولي الصدارة الا من كان
على جانب من الرياء والنفاق ليرضي السلطان .

وذكر مؤرخو الترك ان سلطان زاده محمد باشا الذي تولى الصدارة على عهد
السلطان ابراهيم ثلاث سنين خرب خلالها في جسم الدولة ما لا يقع مثله في ثلاثة
قرون ، وبلغ من ريائه مع سلطانه ما لم يوفق اليه أحد ، جاء امر من السلطان
ذات يوم يقول فيه : ان الخزينة نصبت أموالها ولا بد ان يسترجع ما اهداه اجداده
السلاطين الى حرمي مكة والمدينة من المجوهرات ليسد النجس فقال الصدر الاعظم
على ذهائه وريائه وهو يقرأ هذه الارادة السلطانية : لقد سقطت الدولة الى هذه
الحالة بفيلق من الجواري الناقصات من بنات الروس وبولونيا والمجر وفرنسا .

ومما ذكره في باب اسراف ذلك الدور انه كان عند فتردار محمد باشا ٤٧ طاهياً و٧
رؤساء طهاة وكل طاهٍ خدامه وخيامه واشياؤه وبغاله وجماله حاضرة على الدوام
وفي بيت مؤننه من الاواني المرصعة والمذهبة والمنفضة وغيرها ما يبلغ مجموع ثمنه ثروة
كبيرة للغاية ، فانظر الى هذا الاسراف . وهكذا بالغ السلطان ورجاله في
الاسراف بكل شيء وفسدت الاخلاق واي فساد ولا من يجسر ان يأمر بمعروف

او ينهي عن منكر حتى قال ابو الفاروق : ان معظم كبراء الامة ومن كان لهم علاقة بقصر السلطان ابراهيم كانوا يتقربون اليه بتقديم الالبكار الحسان قرأوا القيادة والديانة احسن شافع لهم عنده للترقي والاغنياء .

فاذا كان على هذا النحو حال دار الملك وحال قدوة رجال الامة فيها ، فما الحال بالولايات ولا سيما البعيدة كهذا القطر ، وكان ولايته كولاية غيره من جماعة القصر ينصب اكثرهم بشفاعة النساء والقوادين والقوادات . على هذا المثال كان اغوات القصر الاغنياء ينصبون الولاة ولا يتركون لهم مجالاً ليقفوا على حال البلد الذي يقضى عليهم ادارته بل يبدلونهم بغيرهم بعد مدة وجيزة وبعثون باخر من هذا الطراز . كل ذلك من مقتضيات الجهل والطمع والشفاعة ، فاقضى ان يكون الوالي من صنائع بعض العظماء او العظماء ، وكثيراً ما يكون ما جمعه من المال في ولايته داعياً الى توجيه النظر اليه فيقتل لتصادر امواله ، ولطالما كان قتل العمال مما يروق السلطان لانه يتقبض على اكثر موجودهم ، وكم من مرة كانت امرأة احدهم او قصره البديع في المضيق في فروق سبباً الى الغضب عليه والحسد له ، حتى يورده الوزير الاكبر او غيره حثفه ليتمتع بعده بزوجته او ليسكن قصره او ينال غير ذلك .

وذكر ابو الفاروق عند كلامه على مصطفى سلطان وكيف تجرد في قصره عن العالم وحصر وكده في شهوانه ان آل عثمان من القديم نفردوا بغلبة شهواتهم عليهم ، وقد وقع عارض لمراد الثالث فأخذ اهل القصر السلطاني يتعلمون ادوية الباه من الشرق والغرب وهو اخذ يسي استعمالها .

فئنة وال اخرق { ومن الاحداث في ايام السلطان ابراهيم فئنة نار وقدها في حلب } بين الانكشارية ورؤسائهم في حلب كان السبب فيها ان الانكشارية طلبوا من رؤسائهم ان يعطوهم غروشاً بدلاً من الاقچيات ، وطلبوا عزل وكيل رئيسهم وكاتبه ، فقتل منهم جملة ثم وقعت بينهم وبين رجال الصدر الاعظم فئنة قتل فيها نحو خمسين رجلاً من الطرفين وانتهت القضية بقتل آغتهم ووكيله وكاتبه . ومنها ما رواه نعيم في حوادث سنة ١٠٥٤ قال : انه كان في بر

حلب رجل اسمه الامير عساف يتولى امانة البادية ، وقد اخذ يسلب ارباب القرى اموالهم وسلط اشقياء العربان عليهم ، فأنشأوا يقطعون السابلة حتى عم شرهم وصعب استئصال شأفتهم ، فدبر والي حلب ابراهيم باشا تدبيراً اخرق وذلك بان دعاه الى مأدبة ليقتله في خلعتها ، وعلم والي ان الرجل لا يوافي حلب فارتأى ان يأدب المأدبة على خمس ساعات من المدينة ، فخرج والي في جنده وخرج عامة اهل البلد لابسين احسن بزة ، راكبين الخيول الطهمة ، حتى وافوا محل الضيافة التي اقامها والي لامير الزر ، وكان والي اوعز الى جنده ان يطلقوا النار على الامير عندما يقترب منه لتقبيل الركاب على العادة فأتمروا بامرهم ، ولكن الامير كان يلبس ثلاث دروع فلم يؤثر فيه سلاحهم وركب فرسه من ساعته ، وكان معه زهاء ستة آلاف فارس مدججين بالرمح ، فحملوا على جند والي حملة منكرة وقتلوا منهم جماعة ، واحاطوا بالاهالي فسلبواهم ثيابهم وخيولهم ، ولم يكونوا اقل من خمسة آلاف وقد جرح اكثرهم ، ورجع والي الى حلب لم يظفر بمبتغاه فأثرت هذه الحادثة في بلاد حلب ، واخذ الامير عساف يعادي الدولة العثمانية علناً وطمعت البادية فأخذوا يطيلون ايدي اعتدائهم اكثر من قبل فاضطرت الدولة الى نفخية واليها الفاسد الرأي السيء التدبير ، وبذل والي اللاحق وجماعته انواع اللطف مع الامير عساف حتى اعادوه الى حظيرة الطاعة للسلطنة في الجملة ، وطفق يهادي عمال السلطان بالخيول ويرسل الى الحكومة جزءاً من الجباية . وما كان يألفه بعض العمال من اعطاء الامان للخوارج او غيرهم ثم اغتيالهم في مائدة او ادخال السم عليهم او صلبهم علناً قد ادى الى رفع ثقة الناس من عهودهم ومواثيقهم . وغالطة واحدة ارتكبها والي حلب الاحمق اخربت العمران واهلكت الانسان .

قال الشهابي في حوادث ١٠٥٤ انه عزل محمد باشا الارناؤوط عن ايالة طرابلس وتولاها حسن باشا وكان مدبره الشدياق رزق البشعلاني وقدمت الشكايات الى الباب العالي ضده فحضر كاتب ليعمد الاشجار والرجال والبهوت والمنازل وبعد ما سافر المحرر ابطال الباشا جميع ذلك واعاد الاحوال الى ما كانت عليه وكانت الناس لكثرة المظالم تبغ كل ثلاثة سنابل قمح بقرش ، ثم اعيد الى طرابلس محمد باشا الارناؤوط واجرى المظالم على الرعايا حتى خربت قرى كثيرة ورحل اهلها .

محمد الرابع وصدارة } بويغ السلطان محمد الرابع بالسلطنة سنة ١٠٥٨ بعد
كوبرلي } السلطان ابراهيم فطال عهده الى سنة ١٠٩٩ اي احدى
واربعين سنة ، واذ كان طفلاً عهدت والدته بعد تغيير كثير من الصدور ، بالصدارة
العظمى الى رجل عاقل من رجال الدولة وهو محمد باشا كوبرلي كان امياً الا انه اتى باعمال
وطدت دعائم الملك بعد تزعمه في عهد السلطان السابق بسلطة النساء ، واشترط في تولي
الصدارة ان يكون حراً في عمله لا ينازعه منازع ، ولا تقبل فيه وشاية ولا يعين للمناصب
الا من يريد ، وقتل ستة وثلاثين الف انسان حتى اتى الرهبة في النفوس ، وامن قيام
الخوارج والنزاع الى الثورة من الزعماء وارباب الدعارة والجند والعصاة ، وخلفه ابنه
احمد باشا كوبرلي الذي كان حاكم دمشق وقاتل البروز وانصر عليهم . وكان على
غاية من العلم والعمل . ثم خلفه في الصدارة قره مصطفى باشا فأخرج الصدارة عن طورها
لانه كان جماعاً للمال مستحلاً له من اي الطرق اتى وكان عنده الوف من الخيل وكلاب
الصيد والبزاة و ١٥٠٠ حصان و ١٥٠٠ سرية و ٧٠٠ خصي .

وخلفه مصطفى زاده من اسرة كوبرلي ايضاً وكان من المضاء والشجاعة وحسن
الادارة والاستقامة على جانب عظيم ، واشتد على المزورين والمرتشين وقضاة سوء
وملاً خزانة الدولة باهلاك اللصوص . وكان يُقتل من يتناول التبغ من قبل فجعل
تجارته حرة على ان توضع عليه رسوم فاحشة ، وقضى ان لا يؤخذ من الرعايا مسلمين
كانوا ام مسيحيين غير المقرر من الجزى والخراج ، وقسم المكلفين الى ثلاثة اقسام
يدفع الاول منهم دوكاً واحدة والثاني دوكاً اثنين والثالث اربع دوكات وهذا هو
النظام الجديد الذي بقي بعد هذا الوزير زمناً وخلفه صدر آخر كان ابن اخت الكوبرلي
الاول اسمه حسين عموجه زاده وكان على قدم اجداه بعد نظر وحسن ادارة فصيح في
هذه الأسرة ما قاله احد مؤرخي الفرنجة من ان الوزير الاول منهم لقب بالكبير
او القاسي والثاني بالسيامي والثالث بالصالح والرابع بالحكيم .

ولكن تأثيرات هؤلاء العظماء من الصدور لم تكن الا ضئيلة في الشام لبعدها المسافة
عن العاصمة ، ولان طريق الالتزام في جباية الاموال كانت سقيمة تدعو الى اضعاف
المملكة ، ولان الوالي كانت له لامر كربة واسعة يعمل بقر بجهته على الاغلب .

وفي تاريخ فلسطين ان حكومة سورية في القرن الثامن عشر كانت حكومة لامركزية اي اقطاعات او حكومة امراء ومشايخ يقوم كل منهم بحكم منطقته فكان مشايخ ابو غوش او البراغنة يحكمون بني مالك وبني حسن وبني زيد وبني مرة وبني سالم ، فاذا اختلف اثنان كانا يتقاضيان عند الشيخ ويقبلان حكمه لامحالة ، ومن خالف عادات البلاد او اخل بنقائدهم يسجن في سجنهم وكان الشيخ او الامير يجبي الضرائب ويقدم المقطوع عليه للوالي و يأخذ الزيادة ، واذا حدثت فتنه او خيف من وقوعها كان يطلب الوالي المعاونة من امراء منطقته فيخرجون بانفسهم ومن ورائهم رجالهم وفرسانهم . وكثيراً ما كانت يستبد هؤلاء المشايخ بالفلاحين ابتغاء مرضاة الامراء والولاء فادى هذا النظام الى انتشار الفوضى واختلال الامن وسبب للحكومة خسراناً كبيراً في الاموال والرجال .

ولقد حاول السلطان محمد الرابع لما كبر وترعرع ان يقتل شقيقه سليمان واحمد فتمنعه والدته من قتلها وحال بينه وبين القتل المتني الاعظم ، مورداً له كلام الله مخوفاً له من عذابه ، وبذلك انقضى دور قتل ابناء ملوك آل عثمان وتسلطن شقيقا محمد الرابع بعده . ووقعت في سلطنة احمد الرابع في الشام كوائن كثيرة منها الواقعة التي حدثت سنة ١٦٠٠ م في وادي القرن من عمل لبنان الشرقي ، وذلك ان ابن علم الدين اغرى ابشير باشا والي ايلة الشام بالزحف على ابن معن حاكم لبنان فالتقت عساكر الشام والمعنية عند وادي القرن وكانت الدائرة على عسكر الشام . ويقول مؤرخو الترك بل كانت على عسكر ابن معن وكان اسم ابن معن الامير ملحم ولي كما قال المحبي بلاد عمه اي الشوف والغرب والجرد والمتن وكسروان وكان حازم الرأي عاقلاً له حسن تصرف وانقياد تام الى جانب السلطنة فلمذا بقي مدة تزيد على عشرين سنة لم ينفص له فيها عيش الا مرة واحدة لما قصده ابشير باشا وكان ذلك باغراء بعض المفسدين من غير داعية حصلت من قبله وانصر في تلك الواقعة . وفي خلال ذلك كان الامير درويش الشركسي المعروف بالمجنون والياً على تدمر فكان يغير على العربان ويذهبهم و بأسر منهم ويدخل الى دمشق بالموكب الحافلة ثم ولي لواء عجلون فثار بينه وبين اهلها حروب كثيرة وكسروه .

وروى نعيما في حوادث سنة ١٠٦٥ عند كلامه على والي حلب ابازة حسن باشا أنه كان من أبناء الجند بلغ المناصب بصور غريبة وهوشقي يميل الى الفساد والمظالم واذا أريد تسطير ما اتاه من الجور على الرعايا في البلاد لاستلاب اموال اهلها اقتضى ذكر مجملته كتاباً خفياً . وانحكام البلاد كانوا يجنون الجباية ضعفين فيأخذون ممن يقضي عليه اداة عشرة آلاف عشرين الفاً ، ومن يغرم الخمسين مئة أو مئتين ، ولم يكن لتعديهم غاية ولا لظلمهم حد يقف عنده ، فتهلك القرى والدساكر بمظالم الجند الذين يرسلهم الولاة والقضاة ممن كانوا يبتاعون بالرشاوى مناصبهم فيغضي عنهم الكبراء لانهم شركاؤهم فكان من يرفعون ظلاماتهم الى الاستانة لا يجدون اذناً صاغية وربما انعكس الامر عليهم وصدق رجالها الوالي الظالم وسفه احلام المنظمين فيزيد الظالمون في ظلمهم . قال : وكان الفقراء يرتحلون عن البلاد فاصبحت القرى المعمورة والقصبات المشهورة مروجاً ينعق فيها غراب الخراب ، واذا كان من يحاولون الجلاء عن أرضهم أغنياء يسوق الوالي عليهم الاربعائة والخمسمائة من جنده ينهبهم ويسبيهم اه . ومن الغريب أن يكون حسن أبازة باشا والياً على حلب على عهد صدارة الكوبرلي الذي يقدسه العثمانيون بادارته ولعلمهم يحكمون على الرجل من رجالهم بحسن الادارة والاصلاح بمجرد بطشه بالعصاة واجهازه على من لا تروقه اعمالهم أو ينازعونه في سلطانه ، أما نقاضي الجباية مرتين من الرعايا والقاء الفتن الدائمة بينهم فليس من المسائل الجوهرية في قائمة اعمالهم .

وحسن أبازة باشا خرج عن طاعة الدولة في حلب وفتك في تلك النواحي وانضم اليه السكبان وخمسمائة جندي كانوا مع نائب الشام احمد باشا الطيار فعينت الدولة لقتاله الوزير مرتضى باشا مع عدة امراء وعساكر فنقابل الجيشان وانكسر مرتضى ثم اخذ بالحيلة وقتل هو وأعيان جماعته ونفرك عسكره وكانت ذلك سنة ١٠٦٩ .

وفي سنة ١٠٧١ قدم والياً على دمشق احمد باشا كوبرلي ابن الصدر الاعظم محمد باشا وكان في الخامسة والعشرين من عمره . قال المحبي : وكانت الشام مخلة فاصلمها وركب على اولاد معن وبني شهاب فازالهم عن بلادهم وقمع اهل الفتن ، وذكر

المؤرخون ان هذا الوالي لما كان بسعسع كاتبه بنو شهاب وعرضوا عليه جانباً من المال فمقابل فصار الى وادي التيم فهدم سرايات بيت شهاب في حاصبيا وراشيا وبيوت مدبريهم وقطعوا نحو خمسين الف شجرة من توتهم في مرج عيون والبقاع واعطى ولاية وادي التيم لاولاد علم الدين مع التقدم زين الدين وابن اخيه عبد الله . فزال بذلك حكم الشهابيين عن وادي التيم . وما استخف هذه الطريقة في التأديب التي هي عبارة عن تخريب العمران هذا وابن الكوبرلي من خير من ولي الشام ومن رجال الاصلاح والعلم . وأقام ابن الكوبرلي على صيدا باشا وجعلت باشاوية من ذلك الوقت حتى يرفع حكم اولاد العرب واعطاها علي باشا النفقردار . ولما بلغه ما صار من والي طرابلس واليمنيه من حرق دور بيت ابي الملع وبيت الخازن وبيت حمادة وقطع ارزاقهم وما وقع من الخراب في وادي علمات واتلاف حراج شمش ولحفد وارض جبيل والبترون وجبة المنيطرة والعاقورة ، لما بلغه ذلك وان الرعايا ضاقت به وخربت بلادها امر بصرف العساكر ورجع الى الشام ، وعلي باشا هو الذي طلب مالاً من ناظر كنيسة مار جرجس في بيروت واذ لم يقبل النصارى امر ان تصير الكنيسة جامعاً وبني لها مأذنة وسميت مقام الخضر . وفي سنة ١٠٧١ قدم علي باشا الى صيدا وهو أول من تولاها من الباشاوات وكانت فذة عظيمة بينه وبين مشايخ المتأولة فأوقع بالقيسية ونهب بلادهم فارتحلوا عنها وبعد سنتين نصر الوالي القيسية .

وفي سنة ١٠٧٣ قتلت الدولة الامير منصور بن شهاب أمير وادي التيم والامير علي ابن عمه لموافقتها رؤساء جنود الشام في وقعة مرتضى باشا لما ولي نيابة دمشق وقارب ان يدخلها فأرسل جنوداً من وادي التيم تجمع في دمشق وانضم الى من قام فيها من رؤساء الاجناد والاولباش والنقوا مرتضى باشا في القطيفة فهرب منهم . ولما كتب النصر للدولة نزلت العقوبة بالثائرين وفي مقدمتهم الامير منصور وأخوه والشهابيون على ما قاله المحيي في وصف ادارتهم وسيرتهم على عهده : « وجورهم بالنسبة الى امراء بلاد الشام كالدروز بني معن والرافضة بني الحرفوش وبني سرحان مقصور على انفسهم من حيث المعتقد فحسب ، وما لم في القديم والحديث كثرة اذية للمسلمين » . ومن مساوي حكومة الاقطاعات ان صغار امراءها من أهل البلاد كانوا

يضطرون كل الاضطرار الى المصانعة فتراهم أبداً مع القوي الذي تدوم سعادته فاذا ولت عنه لووا وجوههم ، وفي هذا السبيل كانوا يقتلون رجالهم بل يقتل أبناء الأسرة الواحدة بعضهم بعضاً وتخرب بيوتهم وبيوت شملهم وحاشيتهم . والولاة يشدون مع هذا ويرخون لذلك شأنهم مع كل صاحب سلطة وقوة . وهكذا كانوا في معاملتهم لليمنية والقيسية فتارة يقوى هؤلاء وطوراً أولئك فقد وقعت سنة ١٠٧٥ في الغاغول عند برج بيروت وقعة بين القيسية واليمينية قتل فيها عبد الله بن قائد به ابن الصواف وانكسرت اليمنية وانهمزوا الى بلاد دمشق . واشتدت الحالة على بلاد الشام في هذه السنة بسبب الطاعون المنتشر في أرجائها الذي أقتلت به بيوت كثيرة لموت جميع سكانها حتى ان قاضي حلب ضبط الاموات في حلب فبلغوا ١٤٠ ألفاً وكانت القحط عم البلاد قبل اربع سنين فجئ بالقح من مصر وبيعت غرارة الحنطة بثمانين قرشاً . ولم تفتقر الحكومة مع ذلك عن حرق الدور والقرى فقد استنجد (١٠٨٢) بنو حيمور امراء البقاع بحكومة دمشق فأنجدهم بعسكر فدا سوا وادي التيم وحرقوا دور بني شهاب وقراهم . واشتد ظلم بني حمادة في عمل طرابلس وظلموا الرعايا . تخربت القرى من الظلم وكان في خلال ذلك (١٠٨١) والياً في حلب حسين باشا المعروف بصاري حسن اي الاصفر يتلطف بالرعايا وينتقم من ذوي الكبر والمناصب . كما ان ظلم والي دمشق ومتسلمه اشتد سنة ١٠٨٣ فأغلقت المدينة مرتين احتجاجاً على عمله .

وفي سنة ١٠٨٦ — ١٠٨٧ حرقت قرى البترون وفي السنة التالية حرقت بلاد جبيل وبلاد البترون أيضاً وخت بلاد جبيل من سكانها . وفي سنة ١٠٨٧ امر والي طرابلس بجريق وادي علمات وهي فرحة وعلمات وعشاق وطورزيا والحصون واهميج وجاج وقرى جبة المنيطرة وهي كفر جال والمغيرة ولاسا والمنيطرة وأفقاً ولما رجع العسكر جاء مشايخ بيت حمادة وأحرقوا قصوبا وتولا وعبد الله وبسبينا وصغار وشبطن . وفي سنة ١٠٩٠ تولى خليل بن كيوان على صيدا فظلم الرعية كثيراً . وفيها كانت التجريدة على الامراء آل شهاب من والي صيدا ووالي دمشق وكان النصر للباشاوات . وفي السنة التالية باغت الامير عمر الحرفوش مع آل حمادة جماعة الامير فارس شهاب في نيجا قرب الفرزل فقتله وقتل خمسين رجلاً من شيوخ وادي

التيم فجمعت أسرة شهاب العساكر وساروا الى بلاد بعلبك فتدخل الامير احمد بن معن بالصلح وجعل جزية على آل الحرفوش كل سنة خمسة آلاف فرس ورأسين من أطايب الخيل . وفي سنة ١٠٩٦ تولى الامير احمد بن معن صاحب الشوف جميع مقاطعات بيت حمادة فأحرق ابلج ولاسا وأنقا والمنيرة وقطع أملا كههم . وفي سنة ١٠٩٨ لما فر الامير شهيد الى بلاد جبيل نزل الى العاقورة فأحرق من ضياع بيت المشايخ بيت حمادة نحو اربعين ضيعة وقطع أشجارها .

وكانت مصيبة البلاد في هذا الدور واحدة في الظلم ، فكان الوالي في حماة مثلاً اذا غضب على رجل يضعه على «الخازوق» ، واذا غضب على امرأة وضعها في خيش مع شيء من الكلس وألقاها في العاصي ، وأصبح الناس لكثرة المصادرات يكتمون أموالهم ويدفنونها في الارض للنجو من المصادرات والسرفات ويتظاهرون بالفقر وربما مات أحدهم فجأة ولا يعلم أولاده بدفينته في جدار البيت او الحائط فيقع المال بعد مدة في يد من تثقل اليهم الدار . قال الحبي : وكثرة جور الحكام في حماة على الاهلين في القرن الحادي عشر هاجر أغلب سكانها الى دمشق .

اما في جهات لبنان الغربي والشرقي فان الوالي أو المتسلم أو المستبد اذا غضب على رجل أحرق قريته كلها أو عاقبه بقطع شجرة ، ولذلك كان من الداء على الرجل في لبنان « الله يقطع رزقه » أي أشجاره او « يخرب رزقه » أي بيته والزوق البيت وبعض القرى في كسروان تبدأ بزوق كما تبدأ في أقليم دمشق عدة قرى باسم بيت . وفي سنة ١٠٩٨ ورد الامر لعللي باشا النكدلي متولي أيلة طرابلس ان يقتص من الامير شديد الحرفوش تخريبه قرية رأس بعلبك وهدمه حصنها فكتب الى الامير احمد بن معن ان يوافيه بالرجال فلجأ الامير شديد الى المشايخ الحمادية فأحرق علي باشا قرية العاقورة وأربعين قرية من قرى بني حمادة ، ثم نزل عسكر الباشا على عين الباطية فباغته ليلاً آل حمادة والحرافشة وقتلوا منهم خمسة واربعين رجلاً وانهزم العسكر .

عهد سليمان الثاني والحكم
على الخوارج
نوفي السلطان محمد الرابع سنة ١٠٩٩ وتولى
السلطان سليمان الثاني والاحوال في عهده الطويل

لم يتبدل ومرض البلاد واحد وهو سوء الادارة وخراب العمران وهلاك المال والاعراض والكراع والرجال . وتم القرن والشام غرض الرماة تصيبها مطامع الولاة والامراء وأرباب الاقطاعات والالوية وأهم ما كانت فيه مظالم بني سيفا وبني معن وثورة ابن جانبولاذ ، والولاة نسق واحد لانهم نسخة من عصرهم ، واذا كانت أحوال القصر السلطاني ومن فيه مختلفة كانت الولايات حقيقة بان تباع فيها الارواح بيع السماح ، تساوى في ذلك البوادي والخواضر ، والناس في أمر مريخ لا يستقرون في بلد ويتنقلون في الارحاء لان آمالم كسفت وخاب منهم الرجاء ، واذا اشتد الظلم في مكان هجروه الى موطن يتوهمونه أقل مظالم ومغارم ، وأنى لم مكان يسكنون اليه ويأمن فيه سربهم . واذا امتاز هذا القرن بنبوغ آل الكويرلي الذين تولوا الصدارة فان ما أصاب الشام من عنابتهم جزء صغير جداً لا يكاد يشعر به ، وعهد اولئك السلاطين كإبراهيم الفاجر ومصطفى الابله ينسب عهد محمد الرابع ومراد الرابع .

ولم يؤثر عن هذا القرن انه انشيء فيه غير قليل من الجوامع والمعاهد مثل جامع ابشير باشا وخان الوزير بحلب وكان بعض الولاة في القرن الذي قبله يرهقون الرعية ويقيمون شيئاً باسم العمران اما هذا القرن فغاية ما يقال فيه انه تخريب الموجود . ومن حمدت سيرته من الولاة حسين باشا الباجي امير بلاد صفد ثم بلاد طرابلس (١٠٠٢) فقد كان من انصف الحكم على ما قال المؤرخون ، واذا كتب لاحدهم ان كان على شيء من الاخلاق ينازعه المنازعون على ولايته في الاستانة فلا ينقلد زمامها الا بمقدار ما يتعرف الى اهله ويدررس طبائعهم ويستقري بلادهم ثم يشخص الى العاصمة ويستبدل غيره به وهكذا دواليك .

هذا وأهم ما كان من حوادث هذا القرن فتنة ابن جانبولاذ التركماني التي زال بها حكم الدولة عن البلاد سنين وذلك من اذنة الى غرة ولم يطل امد هذا الاستيلاء كثيراً اذ كانت دعامة القوة الموقفة ، وهو ابن ساعته لم تعد له الاسباب بمجملتها . اما الامير نغرد الدين بن معن الثاني فانه كاد يستولي بالفعل على البلاد كلها لتنظيم جيشه وتحصينه لبلاده وتعزيز قلاعه وبسط يده بالعطاء حتى استمال رجال الاستانة انفسهم ، وعنايته بادخال روح التجدد في بلاده ودعي سلطان البر كجده الامير نغرد الدين الاول

ولو كان لحلفائه دوجات طسقانه اذ ذاك شيء من القوة وانجذوه بقليل من رجالهم وذخائرهم ولو لم يشتغل بال البابا وملك اسبانيا وكبير دوجات فلورنسة بحرب الثلاثين سنة لكانوا انجذوه على نيل امانيه في الاستقلال خصوصاً وهم الذين كانوا يزينون له من قبل الاستيلاء على انطاكية ، فلو قدر لهم ان يعاونوه لسهل عليه الاستقلال بالشام من عريشه الى فراته بعد ان تمت له كل معداته ، وكان العقل رائده والحزم قائده ، خصوصاً وكان معوله في قوته على الدروز وهم في هذه الديار على التحقيق منذ القديم من اشجع العناصر التي عرفت بمتانتها ومضائها في الحروب . وكان كثير من مدبريه ورجاله من المسيحيين ولحبة قومه له ادعته اهل المذاهب الثلاثة في بلاده ، فالموارنة يقولون انه كان مارونياً والدروز درزياً والحقيقة انه مسلم سني — خلافاً للحمبي والمرادي — يحسن السياسة والادارة وينظر الى رعيته نظر المساواة ويأخذ لخدمته الكفاية من كل طائفة . فهو بلامرء مثال الابطال في عصره ، وكان على أتم الاستعداد للحرب ومعرفة بالادارة وطبائع البلاد ، ولو لم تصرف الدولة العثمانية قوتها كلها في قتاله لعمل في الشام في القرن الحادي عشر ما عمله محمد علي الكبير في مصر في القرن الثالث عشر ولم يكن دونه ذكاء ومضاءً ودهاءاً .



العهد العثماني

من سنة ١١٠٠ الى ١٢٠٠



حال الشام اول } تلج فجر القرن الثاني عشر للهجرة والدولة لا تفكر في غير
القرن الثاني عشر } مصائبها الخارجية ، والمملكة التي كانت تمتد من اسوار فينا
الى جنوب بلاد العرب ، ومن فارس الى الغرب الاقصى لا وحدة فيها ، ولا جامعة تجمعها ،
وليست متجانسة ولا متماثلة ، تكافحها الثورات الداخلية ، وتساورها الحروب الخارجية ،
فلا تهم للاولى اهتمامها الثانية ، وتنفى في سلطانها ويستعبد هار باب الاقطاعات ويستبد بها
الجند والولاة ، وسكان هذا القطر كسائر الاقطار العثمانية كالارقاء لا عمل لهم
الا ارضاء شهوات حكامهم من وطنيين وغرباء ، ولم يكن اختلاف العناصر اقل
ضرراً عليها من اختلاف الطبقات العسكرية (اوجاقات) من الانكشارية واللوند
والسكبان والقبوقول ، والنزاع بين هؤلاء الجند وبين رجال الادارة على اتم حالاته
في اغلب السنين ، بل بين كل صنف من اصنافهم ورؤسائه ، والارواح في هذا
السبيل تباع بالبحان ، فلم يحدث شيء مما يقال له الاصلاح لان رجال الدولة لم يفكروا
فيه حتى يتوسلوا باسبابه ، واذا توسلوا فلا يحسنون طريقه ، وقد اعتادوا الاخذ ولم يعتادوا
العطاء بتحسين الحالة ، ليزيد الاخذ والعطاء معاً .

وندر ان يجي من الاستانة رجل صالح في اخلاقه ، معروف باستقامته وكبر
عقله وسعة معرفته ، يحسن ادارة الناس ويكف الظالم عن ظلمه ، وهل يفارق فروق
الا من أكره ، وهناك النعيم والهناء وضروب الشهوات البشرية ، واذا جاء هذه الديار
وال كبير من العال فلا ملاء هميانه على الاكثر باموال الامة ليعود الى العاصمة

سريعاً ، يعيش عيشاً طيباً و ينعم في قصورها بامواله و طرائفه ، و يجني في سنة ثروة كبرى تكفيه و اولاده و احفاده على غابر الدهر .

لم يكن ابن الشام يتبرم بنظام الدولة لزيادة في الجباية ، بل لان الجباية كانت على غير قاعدة مطردة ، قد تجي جباية سنين أو ثلاث في غير أوقاتها في آن واحد ، ولا تراعى في الجبايات اعوام القحوط والجذوب والمصائب ، و اذا ضاقت الحال باحد العقلاء او ببعض الجماعات فرفع صوته بالشكوى عدوه خارجياً وقاتلوه وحرّفوا دعوته على ولاية الامر في الاستانة ، ولبّسوا على العامة في امره ، حتى يسكتوا نأتمته و يزينوا دعوته ، والا فلا يعقل ان يسكت جميع الناس عما ينال الامة من هذه الطريقة المعوجة في الادارة ، فالخير في الناس ما انقطع ولن ينقطع ، ومهما بلغ شعب من الانحطاط لا يخلو من نهباء يجاهرون بالحق ، ولو كان في الجماهرة حتفهم احياناً .

وقد دهر رجال هذا الدور في تزبين الباطل والباسه ثوب الحق ، وقليل عدد المالكين والشاكين والثائرين والناقمين ، اذا نشبت ثورة او حدثت فتنه او تألف جماعة لمقصد وطني ، وكثيراً ما يصورون العذاب الاليم في صورة نعيم مقيم ، ولا يعرضون على السلطان الا المسائل الكبرى ، كأن ثنقد ثورة في الشام لا يمكن تلافيها الا بارسال جيش كبير من آسيا الصغرى ، وتحتاج الى مال لا بد من استصدار ارادة سنية بادائه من خراج الولاية الفلانية . وغدا قتل الانسان وسبي النساء والصبيان وخراب العمران ، من الامور المألوفة في تلك الازمان .

وفي هذا القرن بدأ الحكم وارباب المقاطعات ينوعون اسماء الجباية كأن يقولوا الشاشية والبزيرة ، لسد عوزهم والقيام بواجب الضمانات للدولة ، وكثير من الفتن كان الداعي اليها تأخر المقطعين عن تأدية ما عليهم من الجباية للدولة في اوقاتها ، فتعدهم عصاة عليها وتسوق عليهم قوة تكون عاقبتها نكالاً على صاحب الاقطاع او المتسلم ، وخراباً على البلاد واهلها من كل وجه .

والدولة قلما سعت الى استئصال شأفة الشر من اساسه ، وما بحثت قط في اسبابه فتلافتها قبل وقوعها ، وقلما اهتمت للفتن الا اذا التهب شرارها وخشي منها على سلطانها ،

وندر ان اعدت المستعدين ، ورفعت ظلامة المظلومين ، ولماذا تهتم وكل قطر نشز عليها
تضربه بعسكر من اهل القطر الاقرب اليه ، ان لم تستطع ضربه بابناء بلده انفسهم ،
واذا خافت من والي أو صاحب اقطاع قوة تسلط عليه خصمه او جاره ، فالداس ابداً
متعادون متشاكسون ، والإلانة ارفعت من بين أهل البلد الواحد فكيف تأتلف
العناصر ، وما ذلك الا لتنفيذ رغائب السلطان الذي لا يرى لمملكته بقاء الا اذا
تباغض الناس ، وتربص كل فريق بالفريق الآخر الدوائر .

بدأ القرن وعبدون باشا والي صيدا يهين البلاد بمظالمه ، وجعفر باشا والي دمشق
ليس دونه في انشاء المظالم ، اما الامراء المتغلبة من ابناء البلاد فكان اكثرهم من
احفاد الذين سبقوهم في غزاة ونابلس وعكار ولبنان ووادي التيم وبعليك وهوران
والكرك وسلمية . قال راشد : ان بعض اعيان دمشق اغراهم المال والاقبال فارادوا
الخروج عن الطاعة ومناقرة الجماعة ، فكادوا لواليتهم حمزة باشا وطردها عسكره الى
خارج دمشق وقاموا بافعال شنيعة رافعين علم الثورة ، فنقل حمزة باشا الى ايالة طرابلس
واخذ الاهلون عند رحيله يطالبونه بما كانوا اهدوه اليه من الكراع والبسط وغيرها
ونهبوا اتباعه . ثم عين احمد باشا مكانه فلم يساعده الوقت على التنكيل بهم وخلفه
مصطفى باشا مكانه فاضطر ايضاً لالقاء جبلهم على غاربهم . ولما عين كورجي محمد باشا
أجريت عليه التذبيات اللازمة ليظير البلاد من هزلء الاعيان فدعا الوالي
تسعة منهم كما دعا العصاين محمد اغا صدقة ومحمد اغا قوشجي وبطش بهم وارهب
غيرهم من الخوارج .

هذا ما قاله راشد في هذه السنة ، ولم يقل ان والي دمشق ارتشى من الناس
وظلمهم حتى ثاروا عليه بل قال : انهم اهدوا اليه ايام ولايته وظالبوه بهداياهم لما رحل
عنهم فابانوا عن صغر نفوسهم ، وهذا مما يظير ذهنية الدولة في تلك الايام ، وان الوالي
يجب ان تهدي اليه الخيول والطنافس والاعلاق وربما الدنانير والدراهم من غير نكير .
وما ندري كيف تكون الرشوة ان لم تكن هذه الهدايا هي الرشوة بعينها .

وفي تقرير لاجد قناصل البندقية أن منصب الوالي كان في الاستانة يكلف من
٨٠ الى ١٠٠ الف دوكا ومنصب الدفتردار يساع من ٤٠ الى ٥٠ الف دوكا

ومنصب القاضي يساوي أقل من هذه القيمة ، وكلهم اذا جاؤا البلد الذي عينوا له
يسابون النعمة ويعرقون اللحم ويكسرون العظم

دور احمد الثاني ١ توفي السلطان سليمان الثاني سنة ١١٠٢ فتولى السلطنة
وقتن كر اخوه السلطان احمد الثاني وهو الحادي والعشرون من
ملوك آل عثمان والسادس عشر منهم في القسطنطينية . وفي أيامه (١١٠٣) عاقبت
الدولة أعيان دمشق على ما بدا منهم في معاملة حمزة باشا على ما تقدم ، وأرسلت جملة
على أبناء سرحان حمادة (١١٠٣) النازلين في الجبال الصعبة المرتقى القريبة من
طرابلس كما قال راشد وكان لهم قبائل وعشائر ، فاتفقوا مع أبناء معن حكام صيدا
وبيروت ، فصاروا يلتزمون أموال الحكومة ولكن لا يؤدون اليها مطالبيها في آخر
السنة ، حتى قلت واردات الدولة فأوعزت الى محافظ الايالة المذكورة الوزير علي باشا
بجمع ما تيسر له من الاجناد وذهب الى جبالهم التي امتنعوا فيها فقتل منهم كثيرين
وأخذ زعماءهم وجعلهم طعاماً لسيوف رجاله ، وطلب أبناء معن الايمان فأجيبوا اليه
وتخلصت المقاطعات من تعديهم وظلمهم . ونزع الحكم من آل حمادة وكانوا في بعلبك
والهرمل وعكار وجبيل والبترون والضنية والزاوية والجبة وانهمزموا على طريق العاقورة
فلحقهم العساكر ومات منهم ومن عيالهم نحو مائة وخمسين نفساً من الثلج ، ولما وصلوا
الى قرية الفرزل انتهبهم العساكر وأبادتهم ولولم يعف عنهم المشايخ الخوازنة ما سلم أحد
منهم وحُرقت القرى وقتلوا منهم وقرضوهم على بكرة أبيهم . ونوجه (١١٠٣)
الامير يونس شهاب ودخل بلاد بشارة بعسكر عظيم فقتل ونهب ورجع الى وادي
التيم ، ثم أرسل والي طرابلس الى الامير احمد بن معن يعرض عليه القطائع التي كانت
لال حمادة فلم يقبل ابن معن ذلك وأجاب انه لا يمكنه قبولها بسبب خراب البلاد ،
وأخذ والي طرابلس يتأثر من بقي من بني حمادة في السهل والجبل حتى أفناهم
واستعان بولاية دمشق وصيدا وحلب وغزة على قتال ابن معن فساقوا عليه ثلاثة
عشر ألفاً فهرب ووُسد الامر الى الامير موسى اليميني بن علم الدين .
وفي سنة ١١٠٥ علي رواية راشد رأيت الحكومة اب أبناء سرحان حمادة

عادوا فنجم ناجم شرورهم وأخذوا ينقوون بمعاوضة ابن معن لهم ، فأقامت الدولة الوزير طورسون باشا قائداً عاماً عليهم ، فجمع من أطراف سورية الف مقاتل من العرب والاكراذ ثم جمع ما قدر عليه من الجند هو وحكام سورية فالتقى عشرون الف مقاتل في بعلبك والبقاع ، فلما علم العصاة بذلك أوجسوا خيفة وتأثرتهم العسكر فقبضت عليهم وأوردتهم حنفهم وطهرت تلك البلاد منهم اه .

وفي سنة ١١٠٦ عيّنت الدولة متسلماً على حماة اسمه سعد بن مزيد فأكثر التعدي والظلم فقام الحمويون وأخرجوه من البلد قهراً ، فذهب الى المعرة وأرسل شكاية الى الدولة ينسب فيها التعدي للحمويين وان حسناً الدقيري المشهور بابن قنبيق هو مثير الفتنه فجاء الامر بقتله فقتل في داره سنة ١١٠٦ . وكان لسان حال الدولة أيها الرعايا المستعبدون اخضعوا لعمالي . هما كانت سيرتهم والا قاتلتكم ، ومن فتح فاد بالشكوى أنقم منه بما يستحقه ، فهذه خطتي ، وبالرضى عنها نبالون حظوتي .

دور مصطفى الثاني وانقراض دولة بني معن } توفي السلطان احمد الثاني سنة ١١٠٦ وكانت مدة حكمه اربع سنين وثمانية اشهر ، فنقلد السلطنة بعده السلطان مصطفى الثاني فكتب مصطفى باشا والي صيدا الى السلطان الجديد يقول انه لا يمكن ان يحكم بلاد الدروز سوى بيت معن وأظير استعداد الامير احمد بن معن لذلك ودفع مائتي كيس للطبخ فورد العفو لابن معن مع أوامر الولاية على البلاد . وزاد إرسال باشا والي طرابلس (١١٠٨) في طلب المال فقتلت كثير من الرعايا عن مواظمتهم من شدة الغلاء والظلم وركب والي دمشق على حاصبيا وقطع توتها . وفي سنة ١١٠٩ توفي الامير احمد بن معن فانقرضت بموته الدولة المعنية لانه لم يكن له ولد ذكر فاجتمع المشايخ من السبع المقاطعات وهي الشوف والمناصف والعرقوب والجرد والمتن والشحار والغرب من عمل لبنان ، واختاروا الامير بشير بن شهاب من أمراء وادي التيم حاكماً على لبنان فتولاهما وأحبته الناس وأطاعوه لعدله وكرمه قال الامير حيدر : كانت البلاد يومئذ حزيين احدهما بنو قيس والاخر بنو يمن

وكانت القيسية أكثر وأقوى وكانوا راخين بولاية الأمير بشير، وأما اليمنية فلم يرتضوا به ولكن لم يكنهم التظاهر بالتعصب عليه لضعفهم وقلةهم .

وفي سنة ١١١٠ تولى إيالة طرابلس أرسلان باشا وإيالة صيدا أخوه قبلان باشا ، وكان الشيخ مشرف بن علي الصغير حاكم بلاد بشارة قد قتل أناساً من رجال الدولة وقصد العصيان فاستنجد قبلان باشا بالأمير بشير الشهابي ، فجمع الأمير بشير ثمانية آلاف رجل وكبسوا مشرفاً في مكان يقال له المزريعة ، فقبض عليه الأمير بشير وعلى أخيه الحاج محمد وعلى حسين المرجي وسلمهم إلى الباشا فأمر بشنق حسين المرجي واعطى الأمير بشيراً إيالة صيدا من بلاد صفد إلى جسر المعاملتين ، وأجر قبلان باشا بلاد آل علي الصغير للأمير بشير فأقام عليها مسلماً الشيخ محموداً أباهرموش . وفي هذه السنة أطالت بعزة وبنو صخر أيديها على الحجاج ، وكان يعهد إلى هاتين القبيلتين بتفسير الحاج ولهما رواتب مقررة عليه ، وقتل منها خمسون رجلاً في القيود فانتقموا من الحجاج وأخذوا أموالهم وعروضهم ، ودخل محمد باشا أبو قاق إلى دمشق بصعوبة . وحوادث البادية تكرر في العقد الواحد مرة أو مراراً فيهلك فيها من العربان وأبناء المدن خلأق : لأن عيش البادية منذ القديم من الغزو والدولة لم تفتح لهم موارد ليعيشوا منها ويكفوا أذاهم عن الحاج والتجارة . ولقد اتنى الأجانب على والٍ من ولاية حلب اسمه يوسف باشا جاء في أوائل المئة السابعة عشرة للميلاد وقالوا انه كان يحكم بدون ان يظلم ويسلب ، وان استقامته جلبت الخير والبركة على البلاد ، وقد جاء حلب في تلك الحقبة واليان اسم احدهما قائم مقام يوسف باشا تولاهما سنة ١١١٢ ثلاث سنين والآخر اسمه طوبال يوسف باشا تولاهما سنة ١١٢٥ ولا نعلم ايها اتنى عليه الفرنج .

وفي سنة ١١١٥ خلع السلطان مصطفى الثاني بعد ان حكم ثمان سنين وتسعة اشهر وعشرة ايام وتولى السلطان احمد الثالث وهو الثالث

عهد احمد الثالث وسياسة الدولة مع من ينكر الظلم ووقعة عين دارة

والعشرون من آل عثمان . وفي تاريخ راشد ابن محمد تقي أشرف القدس تغلب

سنة ١١١٨ على الحاكم والوالي وأخذ يبت الفساد في تلك الارحاء فأرسلت الحكومة
 الي انكشاري وثلاثمائة جبهجي ومئة مدفعي لتقوية مركزها في القدس فوقع بينه
 وبين عسكر الدولة وقائع كثيرة فركن الى الفرار واخفى في قلعة طرطوس فبلغ
 واليها امره فأرسل فقبض عليه وأرسله الى الاستانة فقتل . وما ندري معنى لقول
 المؤرخ ان نقيب القدس أخذ يبت الفساد في تلك الارحاء ، بل نعتقد ان ثورته لرفع
 فساد العمال وسوء الادارة ، يعرف ذلك من عرف ان القوم اعتادوا في كتاباتهم
 الرسمية ان يلقبوا بالمنفسدين كل من كانوا من المصلحين ، يهد انهم مفسدون لامرهم ،
 عاملون على نقض أساس مجدهم . كما وقع في هذه السنة ايضاً وقد أراد سليمان باشا
 الباطنجي كافل دمشق أخذ قرض من تجارها واحداث بعض مظالم فنعه أعيان
 دمشق ومنهم أسعد البكري وعبد الرحمن القاري وسليمان الحاسني فنظام الى صيدا
 وعرض للدولة اموراً عنهم لم يأتموها ثم أعيدوا الى بلادهم واعتذر الوالي عما عزا اليهم .
 وفي سنة ١١١٩ توفي الامير بشير الشهابي وخلفه الامير حيدر الشهابي فركب في
 السنة التالية لغزو بلاد المتاولة لان المشايخ بني علي الصغير كانوا أخذوا بعد وفاة الامير
 بشير بلاد بشارة من يد بشير باشا وبقي في يد الامير حيدر حكم بلاد الشوف
 وكسروان ، فغزاهم الامير حيدر برجاله وجمعت المتاولة في قرية النبطية
 فأوقع بهم هناك وظفر بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ، ورجع الى بلاده فعظم ذلك على
 بشير باشا فأرسل يقوي الامراء اليمنية في الغرب والجرد من بني علم الدين وغيرهم .
 وفي سنة ١١٢١ تعاظم امر اليمنية في بلاد الشوف وتظاهر الامراء بنو علم الدين
 بذلك وساعدهم الامير يونس أرسلان حاكم الشويفات ومال اليهم من القيسية الشيخ
 محمود أبوهرموش ، ثم وسد الحكم الى الامير يوسف علم الدين واخيه الامير منصور ،
 وكان زمام ولايتهما في الحقيقة بيد الشيخ محمود أبوهرموش فجاروا على القيسية وظلمهم
 ولم يبقوا لهم منزلة ولا حرمة . وفي هذه السنة أحرق الامير يوسف مع عسكر الدولة
 بلدة غزير ونهبها ، وسار والي دمشق الى جبل عجلون وباغت بلاد نابلس وقتل من
 أهلها مقتلة عظيمة وسبي عسكره نحو سبعمائة امرأة .
 وفي سنة (١١٢٢ هـ ١٧١١ م) أنفذ الامير حيدر الشهابي امراً الى قيسية

الشوف فتجمعوا في رأس المتن ، فلما بلغ اليمنية ذلك أرسلوا الى بشير باشا والي صيدا فحضر الى حرج بيروت ، وأرسلوا الى نصوح باشا والي دمشق فحضر الى البقاع ، واجتمع القيسية من الغرب والجرد والشوف الى عين زحلنا في العرقوب ، ثم انتقلوا الى عين دارة ، وجرى الاتفاق ان تطلع عساكر الدولة المجتمعة في حرج بيروت الى بيت مري في اول المتن ، وان يطلع نصوح باشا الى المغيشة في طرف المتن ، واليمنية الى حمانا في وسط المتن ، وتمشي الثلاث فرق في يوم واحد على القيسية ، فأجمع رأي القيسية مع الامير حيدر الشهابي ان يباغتوا اليمنية في الليل في عين دارة ، فباغتوهم واعملوا فيهم السيف ، وقاتلت اليمنية أشد قتال وما زالوا كذلك حتى ملكت القيسية عين دارة ، وما سلم من اليمنية غير قليل . وفي تلك الليلة قتل خمسة امراء من بني علم الدين وأمسك الشيخ محمود ابوهرموش وقطع الامير لسانه وأباهم يديه ، فقويت شوكة القيسيين وعظم أمرهم ، ونزع من كان يميناً من البلاد وخربت ديارهم وزال ذكر اليمنيين من الشوف وحكم الامير حيدر ، وأعطى الذين كانوا معه كل ما كان وعدهم به ، وكثرت مشايخ البلاد في أيامه . وتعرف هذه الواقعة بوقعة عين دارة التي قتل فيها جميع الامراء من آل علم الدين بيد الامير حيدر الشهابي فانقرضت بهوتهم سلالة آل علم الدين كما ضعفت شوكة اليمنيين واي ضعف .

فتن ومظالم مستجدة } وفي سنة ١١٢٢ ركب نصوح باشا على الكرك وعمل وظهور آل العظم } لغماً ووضع فيه البارود وأعطاها النار فانهدم جانب من السور فصاح أهلها الامان وخرجوا عن القلعة فقتلهم وأسر الاولاد وسبي النساء . وفي سنة ١١٢٣ باغت ناصيف باشا والي دمشق المتن وأسر منها أناساً كثيرين وسبي النساء والاولاد . وفي سنة ١١٢٤ عهد والي صيدا بولاية بلاد بشارة الى الامير قاسم الشهابي حاكم حاصبيا فأنشأ بها مظالم كثيرة .

وفي سنة ١١٢٩ تولى دمشق عبدالله باشا الكركجي (. كوبرلي) وكان عادلاً حكماً لكنه لم نطل مدته اكثر من سنة . وفي سنة ١١٣١ كانت وقعة القرية بين الامير حيدر الشهابي والمشايخ المتاولة وكانت النصر للامير حيدر . وفي سنة ١١٣٣

كانت الفتننة بين مشايخ المتأولة والشيخ ظاهر العمر حاكم بلاد صفد وجري بينهم قتال شديد فانهزم عسكر الصفديين وقتل منهم خلق كثير ثم خرج عثمان باشا والي دمشق بالعسكر على بلاد صفد وقتل منهم اكثر من ثلاثمائة رجل وقتل البشناق اولاد مشايخ بلاد صفد .

وفي سنة ١١٣٦ كان الظلم شديداً وكثرت العوانية حتى صارت ارض الشام مشغولة بالظلم في شرونها وكثر الظلم واستلاب الاموال . وثارت (١١٣٧) فتننة بين القبوقول والانكشارية وظلت دمشق ثلاثة ايام مقفلة وقتلت فيها جماعات من القبول والرعية وكذلك الحال في حلب .

وعرف هذا الدور بظهور آل العظم حكماً في الشام ، واختلف الباحثون في أصلهم فمن قائل انهم أتراك من قونية ، ومن زاعم انهم عرب من المعرة معرة النعمان . تولى دمشق (١١٣٧) اسماعيل باشا العظم وكان من قبل والياً على طرابلس وهو اول من تولى إيالة دمشق من بني العظم ، وقال بعض المؤرخين : ان ناصيف باشا كان والياً على دمشق وقتل في الرملة سنة ١١٣٠ وعلى هذا فيكون هو اول من تولى دمشق من هذه الأسرة . ذكر ابن نيرة ان والد اسماعيل بن ابراهيم العظم كان جندياً سكن معرة النعمان وكان لاهلها مع التركات التي ترد الى جبلها شتاء وقائم جرح في بعضها والد المترجم فتوفي وأعقب المترجم اسماعيل وسليمان وموسى ومحمداً وكلهم أعقب خلا محمداً وكانت ولادة اسماعيل قبل السبعين والـف بالمعرة وبها نشأ ، ونقلت به الاحوال الى ان صار حاكماً ببلده ثم بجماة ، وأنعمت عليه الدولة بطوخين رتبة روملي ومالكانة حماة وحمص والمعرة عليه ، وعلى اخيه سليمان ومنصب طرابلس عليه وسر عسكر الجردة فبعد عوده من الجردة سنة ١١٣٨ تولى الشام وإمرة الحساج بالوزارة وخج ست سنين وحارب في السنة السادسة عرب حرب بين الحرمين فعزل وأتمن سنة ١١٤٣ وجلس بقلعة دمشق واستأصلوا أمواله مع اموال ذويه وأفرج عنه سنة اربع واربعين وولوه خانية وأعقب السيد ابراهيم واسعد وسعد الدين ومصطفى وكلهم تولوا الوزارة خلا الاول فانه توفي بجماة سنة ١١٥٩ وهو برتبة روملي معزولاً من صيدا .

وفي سنة ١١٤٣ توفي الامير حيدر الشهابي حاكم لبنان بعد ان حكم ستاً وعشرين سنة على رواية المؤرخ الشهابي بالعدل والحلم والكرم وحسن التدبير وخلفه ابنه الامير ملحم ، والامير حيدر هو الذي أحيا ذكر القيسية والتي ابنه الفتنسة بين مشايخ البلاد فاختلفوا ، وكانت الدولة لا تقدر عليه على بغض اسعد باشا العظم والي صيدا له وسعيه به .

عهد محمود الاول } ننازل السلطان احمد الثالث عن ملكه باختياره (١١٤٣)
بعد ان حكم ثماني وعشرين سنة وتسلطن السلطان محمود الاول وهو الرابع والعشرون من آل عثمان والتاسع عشر منهم في القسطنطينية ، وكان السلطان احمد الثالث غريباً في أطواره يحب الطيور والازهار ، ويقضي أوقاته في تسلية سراريه بالافراح والزين ، ومع هذا يسجل له الفضل ورجاحة العقل في حسن اختياره صدوراً عظماً شرفوا بآعمالهم عهده فلم يكن كبعض اجداده لا يعمل ولا يترك أحداً يعمل .

وفي هذه السنة وقع بين القبوقول والانكشارية الحرب والقتال وأغلقت دمشق اربعة ايام وقتل من الفريقين شردمة . وفي سنة ١١٤٤ استأجر الامير ملحم الشهابي بلاد بشارة وقبض على الشيخ نصار بن علي الصغير وباغت اخوته فهربوا فقتل ثلاثة عشر رجلاً من قبيلتهم ونهبت الدروز تلك البلاد ، وعاد اولاد الشيخ نصار واستأجروا البلاد من الامير ملحم .

قال الشهابي في حوادث سنة ١١٤٧ انقل اسعد باشا العظم من إيالة صيدا الى إيالة دمشق وكان والياً عليها منذ سنة ١١٤٣ — وتولى إيالة صيدا اخوه سعد الدين باشا والي طرابلس وتولى طرابلس سليمان باشا العظم وقويت شوكة بني العظم في بلاد العرب وعظمت دولتهم اه . عظمت دولتهم لانهم اخلصوا في الغالب للدولة كل الاخلاص حتى أمنتهم ووسدت اليهم الاحكام في الشام وتركتم يعملون ما يشاؤون ، وجاء دور وهم حكامها من اقصاها الى اقصاها وقل جداً في هذا القرن من تولى ولاية حلب او دمشق او طرابلس او صيدا او اللاذقية او غرة بضع سنين . ومن

بني العظم من زاد زمن ولايته على عشر سنين ، فان اسماعيل باشا العظم تولى دمشق ست سنين (١١٣٧ — ١١٤٣) ، وسليمان باشا العظم تولاهما خمس سنين للمرة الاولى (١١٤٦ — ١١٥١) وثلاث سنين للمرة الثانية (١١٥٤ — ١١٥٦) واسعد باشا العظم تولاهما اربع عشرة سنة (١١٥٦ — ١١٧٠) وكان تولى صيدا اربع سنين ومحمد باشا العظم تولى دمشق مرتين اثنتي عشرة سنة ، وكان بنو العظم كسائر الأسر القديمة التي تغلبت على بعض أصقاع الشام أمثال بني معن وبني شهاب وبني الحرفوش وبني سيفا وبني طرايبه ومنهم الصالح والطالح وهل هم الا نموذج من عصرهم ، ولا شك انهم جمعوا أموالاً كثيرة لان حكوماتهم طالت ايامها والولاية بالالتزام فكان الوالي منهم كسائر الولاة يرضي الاستانة بمبلغ ويبقى له بعد كل اسراف مبلغ كبير وهو الحاكم المتحكم في ثروة البلاد والافراد . وقد صادرت الدولة سليمان باشا العظم لما توفي سنة ١١٥٦ وعذب المفوض بذلك أسرته على أشنع وجه ، وكذلك ضبطت اموال ابن اخيه اسعد باشا وأخرجت الدفائن من قصره وكان بعضها مخبوءاً في الارض والجدران والاحواض وبوت الخلاء وفعلت مثل ذلك باتباعه ورجاله . قال الشهابي : ان اسعد باشا العظم بنى أبنية عظيمة في دمشق وجمع مالاً لا يحصى وسار بالحج مرات فأُنعمت عليه الدولة العلية برتبة علامة الرضى وأمرت ان لا يشهر عليه سلاح ولا يقتل ثم أرسلت اليه فقتلته في الحمام طمعاً بكثرة امواله وضبطت ماله وأملأه وقال : انه كان جليلاً عاقلاً حسن التدبير مولعاً بالخيال الجياد حتي قيل انه كان عنده خمسمائة فرس من جياد الخيل لاجل ركوبه .

وذكر البديهي ان السلطان محموداً أنعم على عبدالرحمن افندي (١١٦٥) بمحصل حلب بالولاية فوجه في الحال متسلحاً حسن اغا الى طرابلس فأمن الخواطر ونادى بالامان وصار الفلاح ينزل الى طرابلس آمناً على نفسه وأرخص الاسعار ومهد الامور التي كانت متبلبلية من ظلم بيت العظم ، وكذلك فعلوا باسماعيل باشا في الشام وباخيه سليمان باشا والي صيدا وباسين بك بن ابراهيم باشا والي اللاذقية من قبل ابيه واسعد بك بن اسماعيل باشا والي حماة وحسن بك اخي اسماعيل باشا حاكم المعرة هؤلاء جميعاً سجنوهم وأخذوا اموالهم للسلطنة وولوا علي صيدا احمد باشا بن عثمان باشا

ابو طوق اه . وقال فولانيه الرحالة الفرنساوي : ان بني العظم كانوا من أحسن من جاء دمشق من الولاة .

وترجم ابن ميرو اسعد باشا العظم فقال : انه لما وسدت اليه الدولة مالكانة حماة سار فيها سيرة حسنة وعمر بها خانات وحمامات وبساتين ودوراً ليس لذلك كله في البلاد الشامية نظير ، ثم ولي صيدا فاستعفى منها وطلب حماة منصباً بعد ان كانت مالكانة له ولعمه فرفعت منه المالكانة ووجهت له منصباً ودخلها سنة اربع وخمسين ومائة والالف وبذل الاموال الى ان جعلها مالكانة له بعناية الوزير الكبير بكر باشا والي جدة سابقاً . وفي سنة ست وخمسين تولى دمشق وإمارة الحاج لموت عمه سليمان الوزير وحج بالحجيج اربع عشرة حجة وعزل عن دمشق وإمارة الحاج بالوزير حسين باشا مكي وولوه حلب ثم عزل عنها ونفى الى جزيرة كريت ونسبوا له ما وقع بالحجيج وقتل بمدينة انقرة . وقال في ترجمة أسعد باشا ايضاً : انه كان محموداً في ولايته وأهل الشام في زمانه في راحة وأمن وظمانينة ، وكان صبوراً صبر على زُرب الاحداث الاشقياء في الشام حتى أخذهم الله على يده ، وآذاه عرب حرب فصر على اذاهم حتى انتقم الله له منهم عن يد الوزير المرحوم عبد الله باشا جته جي ، وكان له صدقات وإدرات على بعض العلماء بالشام والحرمين .

وقال جودت في وقائع سنة ١١٩٧ وفيها توفي والي للشام وامير الحاج محمد باشا العظم بعد ان اقام في وظيفته اثنتي عشرة سنة ولما كان وزيراً مشهوراً من اهل الثروة والغنى عين مباشرون مخصوصون من الاستانة لضبط امتعته وامواله . وقد اثني المرادي على محمد باشا العظم هذا فقال : ان له من المآثر في كل ولاية وليها ولاسيما في دمشق ما يحسن ذكره وانه رفع المظالم وانشأ المعالم قال : وبالجملة فهو من احسن من ادر كناه من ولاة دمشق واكملهم رأياً وتديباً .

والغالب ان الدولة كانت مرتاحة البال من ناحية بني العظم في الشام يقاتلون الخوارج عليها ولا تحذتهم انفسهم بنزع ايديهم من يدها ويدفعون اليها الخراج في اوقاته ، ولذلك كانت ترعاهم على الجملة في حياتهم ونثر كهم يستمتعون بنعمها ، فاذا هلكوا جاءت ووضعت يدها على عروضهم واموالهم كما هي عادتها ، ولعلها استبطأت

اسعد باشا في الولاية فخشيت شره فخنقته . وبالجملة فان احوال ذاك العصر يصعب
الآن الحكم عليها اقله من نظر في المؤرخين في الحوادث نظر الاستنتاج الصحيح .

رجع الى سلسلة الحوادث . فقد توفي سنة ١٠٤٨ الامير محمد
فن ومشاغب } فروخ النابلسي وكان من شجعان الدنيا تولى حكومة القدس
ونابلس فأرهب العربان وكبر صيته وبقي في امارة الحج ثمان عشرة سنة ، وبلغت رهبته
في قلوب العربان وكانوا اذا ارادوا ان يخوفوا احداً منهم يقولون ها ابن فروخ
اقبل فنلوى قوائمه . وفي سنة ١١٥٢ . كبس وزير صيدا بلاد الشقيف وقتل الشيخ
احمد فارس واولاده ورفعت القبول واللاوط من بلاد الشام (١١٥٢) لحبث سيرتهم
وهاجم (١١٥٦) الامير ملحم الشهابي بلاد المتاوله ووصل الى قرية نصارفالتي ببساکرم
وانتشب بينهم القتال فكسرهم كسرة هائلة وقتل منهم الثمان وستائة قتيل وقبض منهم
اربعة مشايخ ونهب بلادهم واحرقها ، وباغت والي صيدا والي طرابلس والي دمشق
بلاد الامير ملحم الشهابي في لبنان لئلا يخره عن اداء المال السلطاني واحرقوا اقليم التفاح
ومرج بشرة ثم وقع الصلح وادى ما عليه . وجوز (١١٥٦) سليمان باشا العظم والي
دمشق عسكرياً على الظاهر عمر الزيداني بعد ان قبض على اخيه مصطفى وشنقه بدمشق
فلما وصل الوزير الى قرب عكا لحصارها رشا ظاهر العمر بعض اتباعه فادخل على
سليمان باشا السم في طعامه فمات وجيء به الى دمشق في اكثر الروايات وسليمان
باشا هو ابن ابراهيم ولي طرابلس وصار جردا وياً لاختيه شقيقة الوزير اسمعيل ثم ولي
صيدا ، وبها صارت له الوزارة ثم ولي صيدا ثانية ثم ولي دمشق (١١٤٦) بامارة الحج
وحج خمساً بالحجيج الشامي ثم ولي مصر وعاد الى دمشق فوليا سنين .

وفي سنة ١١٥٧ كانت الموقعة في مرج عيون بين المشايخ المتاوله واهالي وادي
التيه ومعهم دروز جبل الشوف وكانت الكسرة على الدروز وعسكر وادي التيه وقتل
منهم نحو ثلاثمائة قتيل وحرقت المتاوله جميع قرى مرج عيون .

وفي سنة ١١٥٨ ملك الدالاتية قلعة دمشق فقاتلهم الانكشارية ، وامر اسعد
باشا العظم حاكم الشام ان يقصدوا سوق ساروجا واطلقت المدافع فخرت الدور ونهبت

دار رئيس الفتنه وخربت وجرت القافية بقية الدور ولم يبق من سوق ساروجا الا القليل واعمل اسعد باشا السيف بكل عاص وقتل عسكره اناساً وسلبوا الدور واحرقوا بعضها ، ثم صلب كثيرين وبقيت المشنقة اياماً لا تخلو من مصلوب اتهم انه كان يمالئ ارباب البعارة على رغائبهم ، وتركت جثثهم اياماً امام السراي تأكلها الكلاب وسلخت رؤوسهم وجعلت اكواماً ، وصارت المدافع تطلق بكرة وعشية مدة شهرين وكثر العزف بالابواق واطلاق السهام النارية في الفضاء .

وفي سنة ١١٦٠ غزا اسعد باشا العظم والي دمشق البقاع فركب الامير ملحم الشهابي بعسكر بلاده الى المغيشة ونزل اليه عند برياليس فانكسر الباشا ووصل الامير ملحم الى سهل الجديدة ثم رجع واحرق جميع قرى البقاع ورجع الى بلاده منصوراً وهابته الدولة . والسبب في هذه الفتنه تأخر الامير ملحم في دفع الاموال الاميرية علة العلل واصل معظم الفتن ، وغضب سليمان باشا العظم (١١٦١) على الانكشارية في دمشق فأخرجهم عنها ، فحضر رئيسهم احمد آغا القلطيقي ومعه عدة اغوات الى جبل الشوف ، واجتمعوا عند المشايخ بني يزبك وكانوا ينزلون وينهبون من نواحي دمشق ويقطعون الطريق واحرق الامير ملحم ديار بني تلحوق في الغرب وديار بني عبد الملك في الجرد .

وحاصر سليمان باشا العظم الشيخ ظاهر العمر في قلعة طبرية (١١٦٠) ثلاثة اشهر فادركه ركب الحج فارفع عنها ولما خرج الباشا الى الحج ارسل الامير ملحم عسكراً الى بلاد بعلبك فطرد الامير حيدر الحرفوش وولى مكانه الامير جسيناً ، وخربت الدروز بلاد بعلبك وقطعت اشجارها . وفيها حضر خط شريف بقل اغوات الانكشارية بدمشق فقبض الوالي على بعضهم وقتل ابن الفلاقسي . وذكر ابن بدير انه بلغ متسلم دمشق سنة ١١٦٢ ان بعض الدروز من جماعة ابن تلحوق جاؤا دمشق ينهبون ويحرقون فأرسل الى الموالي والمفتي والقاضي يأمرهم بان يأخذوا معهم الاعلام وينادوا هؤلاء خوارج فمن كان يحب الله والسلطان ليخرج الى قتالهم . فخرج الناس فقتلت الحامية زمرة وكان الدروز يحتجون بان قدومهم كان لاجراج اخوان لهم كانوا مسجونين فلما موطلوا نادوا في حارة الميدان والقيبات كل من لا يخرج للقتال معنا نهب ماله وداره ، فانضم جماعة من الخازات ونزلوا الى السويقة ووقع القتال بينهم

وبين القبوقول والدالاتية ، واغلقت البلد حوانيتها وحصرت الحارات ونه المتسلم على اهلها ان لا يخرجوا الى الازقة ليحرسوا دورهم ، ثم جرت مقللة بين الفريقين قتل فيها نحو خمسين قتيلاً من جماعة المتسلم والقبوقول .

ثم فتح عسكر الباشا الدكاكين في باب الجابية ليلاً ونهبوا ما فيها من طعام وهدموا مصاطبها وصيروها متاريس ومن الغد باكروا القتال وزحفوا الى السويقة ومعهم العملة والبنائون فحرقوا الدور والقصور واطلقوا المدافع على الاشقياء فولوا الادبار ، فامر المتسلم عسكره ان يقعوا في نهب الدور والدكاكين . وروي انه اخرج فتوى وحجة وامراً قاضياً بان ينهب الجند من حد السويقة ويقتلوا ويهدموا ولا يعفوا عن انسان ، فسلبوا الاموال وسبوا الحريم ، ودام الامر الى وقت العصر فردهم الاشقياء والدروز ونصرهم اهل الميدان .

ولما هرب الدروز نودي في البلد بالامان وان تفتح الاسواق ويكف عن النهب قال ابن بدير : وقد سرت مع من سار فرأيت فضاخ الميدان ، والقنلى مجذلة ، والابواب محطمة ، والدكاكين مقفلة ، ثم اضطرب اهل القبيبات والميدان والسويقة وباب المصلى واخذوا ينقلون اثاثهم الى داخل المدينة مثل باب السريجة والقنوات وغيرهما من الحارات . وخاف الاكابر والحكام والعامّة فجعلوا يعزلون الدكاكين ويخبأون ما حوته في البيوت وبلغ عدد الدور المنهوبة في هذه الواقعة كما قيل ألفاً وتسعمائة دار واما الحوانيت فكثيرة جداً .

هذا وقد اخذ القبوقول بمسكون الناس وبأتون بهم الى الحكام ويقولون : هذا كان يقاتل مع الاشقياء فيقتلهم المتسلم من غير حجة ولا اثبات ، ولا قصد للقبوقول الا اخذ ثارات لهم مضت مع الانكشارية ، الى آخر ما اصاب دمشق الشام في ذاك العام من حرق ونهب وغلاء وفضائح وفظائع . وكان من العادة ان تغلق ارجحة الفيحاء وحوانيتها جملة عند اندلاع لسان الفتن بين القبوقول والانكشارية وبينهم وبين الدالاتية والاشراف والاكراد والدروز ، حتي ينادي منادي من قبل الحاكم بأمر بفتح الدكاكين ويطمئن الناس .

وجاء دمشق (١١٦١) أحد موالي اسعد باشا العظم وكان نقل بعد ولايته دمشق

الى حلب ، فذكر الانكشارية والعامّة ظلمه ايام كان سيده حاكماً في دمشق فقاموا
قومة رجل واحد فالتجأ الى القلعة وحماه القبولول ولما أريد على الخروج من دمشق الي
فأغلقت البلدة دكا كينها ومحالها وتجمع الانكشارية وتبعهم الناس وتعصب العنابة
والاكراد والدالاتية مع القبولول وأهل حارة العمارة وحدثت غارة في سوق الدرويشية
وأطلقت النيران على الانكشارية ثم قاموا على أهل حي العمارة فانهزم أهلها منها
وأحرقوها حتى صارت بلقماً وراح أهلها الى الجامع الأموي ودامت الفتنه اياماً
حتى قر رأي الاكابر والامراء على اخراج مولى ابن العظم من دمشق فأخرج ولم
تطفأ جذوة الفتنه لان الثائر بن مازالوا يملظون بطعم الغنائم ويزددون حلوى الغارة
وجاء الخبر بان الجالين عن دمشق نهبوا الضياع في طريقهم وقتلوا الانفس وهتكوا
الاعراض وصادفوا جماعة من طائفة الحكام فسلبوهم وقتلوا منهم فريقاً . وأخذ
القبولول يطلقون النار على الرعية وظلت الفتنه قائمة في البلد بين القبولول
والانكشارية والاشراف فقتل من هؤلاء نحو ثلاثين وبضعة اولاد وثار الحرب
في شوارع المدينة اياماً ثم عتا الانكشارية على حاكم دمشق فصاح في جنده وركب
الى الميدان فهربوا أمامه فأعمل وجنوده السيف فيهم فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ومن
لم يمت بالسيف قاده بالسلاسل والاغلال ، وعم نهب العسكر الكبير والصغير والناس
بين قتيل وأسير ، ونهبت الدور والدكاكين وانكبت الفقهاء نكبة عظيمة فعريت
النساء وخطفت الجوارى والعذارى ، وتمنى العقلاء الموت ثم نهض جماعة الحاكم الى
النهب فمنعهم وأمر بجمع ما نهبوه فما وصل الا القليل أودعه بعض الجوامع وأمر منادياً
ينادي لتأخذ الاسلاب اصحابها ، فأخذ بعضها وذهب الاكثر ، واما أتباع الوالي
فطفقوا يقتلون كل من يصادفونه ويقطعون رأسه او يحبسونه ، وتناول أذاهم من في
الدور وتعتست الحال .

ووصف ابن النجار هذه الفتنه فقال : ان السلطان ارسل والياً آخر غير الذي كان
وجرت هذه الواقعة في عهده فقتل الاشقياء من المسلمين والدروز والنصارى وخربوا
وحرقوا الدور ونهبوا الاماكن قال : وتعطلت الاسواق والمعاملات بسببهم في دمشق
قريباً من سنة لا نقام جمعة ولا يسمع اذان ولا يفتح جامع ولا يتمكن احد من الخروج

من منزله حاجة ولا لغيرها ، لفسادهم وفسادهم وتعديهم على الخاص والعام . وانما كان سبب تمكنهم من ذلك عدم وجود والٍ بدمشق فان واليها كان خرج منها الى الحج اميراً فجاء الوالي الثاني وقتل منهم من قدر عليه وفر منهم من فر وسلب دورهم ومتاعهم واثاثهم ولحق دمشق واهلها من ذلك الوالي وحاشيته وجنده كل بؤس ، وذلك بسبب قيامهم على اولئك الاشقياء ، وانتهت غالب المنازل في دمشق وقتل خلق كثير من الابرياء وتوطن هذا الجند الكثير من دور الناس واخرجوا اهلها منها عنفاً وظهر من اتباع هذا الوالي ما انسى اهل دمشق ما كانوا فيه من الضنك والشدة قبل قدوم هذا الجند اليهم وقال : ان هذه الفتن وقعت سنة ١١٧٠ وارسل عبد الله باشا الشنجي والياً ليرفع الحيف عن الدمشقيين واعادة الامن الى طريق الحج ، واشتبك القتال كما تقدم بين القبوقول والانكشارية ثم فر الانكشارية طالبين البراري والقفار فقتلهم نفر من الجند وقتلوا منهم عدداً ، ثم ان الجند اخذ في قتل من يراه كائناً من كان وشرعوا في النهب والسلب فانتهبوا غالب المنازل والخوانيت من حدود الحلقة الى باب الجابية والجند يأتون بالرؤوس الى الوزير ، فقتل من الرعايا على هذه الحال عدد كثير وانتهب المال والمتاع ، وظلم رئيسهم وحواشيه واختطفت النساء والغلمان جهاراً من غير مدافع ، والجند يقولون ان جميع الدمشقيين كفرة وانهم قوم يزيد . قال الشهابي في دخول والي دمشق الجديد الى المدينة : انه كان مع الشنجي ثلاثة عشر الف رجل فاجتمعت اهلالي دمشق الى الميدان لينعوه من الدخول فدهمهم ليلاً وقتل منهم مقلّة عظيمة .

وفي سنة ١١٦٣ حصل بين سعد الدين باشا العظم وبين اهل حلب وحشة فرحل عنها جرداويّاً « وكان عرض عليه منصب حوران فاستعفى من ذلك لانه لم يتول هذه الايالة في الدولة العثمانية احد استقلالاً لقلة دخلها ووفرة خرجها فولوه طرابلس جرداويّاً لاختيه اسجد باشا الوزير فأقام جرداويّاً فيها وفي صيدا وحلب اثنتي عشرة سنة » روى الشهابي في حوادث سنة ١١٧١ انه وقعت شرور كثيرة بين انكشارية دمشق والقبوقول وكانت دروز الجبل تعين الانكشارية في القتال فانصروا وقتل من الفريقين اربعون قتيلاً ، وحاصرت القبوقول في القلعة وجرى بينهم اربع وقائع ، والانكشارية

تنبصر بامداد الدروز ، ثم وقعت الفتن بين عسكر الباشا وعسكر الانكشارية فانكسر عسكر الوزير وخرج الانكشارية من دمشق نحو الف فارس ووقع القتال بين اهل البلد وعسكر الوزير فقتل من اهل البلد نحو مائة قتيل ثم نادى الباشا بالامان .

وعدد ابن بدير كثيراً من مظالم الدفتردار فتحي افندي ومما قال : ان الاهلين لما ضاقوا به ذرعاً استعدوا الباب العالي فاعدهم ، فأحضر الى العاصمة ليمثل بين يدي السلطان ، فاخذ ينج المناجح لارباب المظاهر حتى ادخلوا على السلطان شخصاً آخر بدلاً منه واوهموه انه هو المشتكى منه فأمر بقتله فقتل . اما فتحي فسفره اعوانه من النظار تحت جنح الدجى فأب الى دمشق يفعل الافاعيل المنكرة ، حتى اذا ضاق الخناق ورد الامر بقطع رأسه فقطع وجراً في شوارع المدينة وترك للكلاب نهبه ومثل ببعض اعوانه وصودرت امواله .

* * *

عهد عثمان الثالث ومصطفى الثالث وبعض الاحداث في ايامهما

وبينا كانت دمشق تموج بالفتن وتستل فيها الارواح بسوء ادارة الولاة وتلاعب رؤساء الجند كان لبنان وهو ربيب القوة والمقاومة لا يخلو على ذاك العهد من فتن تدك العمران ، وتفتي الانسان والحيوان ، فقد ذكر المؤرخون ان المشايخ المناكرة تطاولوا (١١٦٣) على اقليم جزين فعظم ذلك على الامير ملحم الشهابي وركب لحرب جباع الخلاوة فهربت المتأولة من وجهه وأحرق اكثر بلادهم ، وكان قد اصاب منهم جماعة في جبل الشوك فوق جباع وقتل من المتأولة نحو ثلاثمائة نفس وحرق حارة جباع وقطع الاشجار هناك ، واحرق بلاد الشقيف وبلاد بشارة ، ثم حدث بين جماعة الامير ملحم الشهابي ووالي دمشق وقائع طفيفة بسبب الظلم الواقع في البقاع على المسافرين في طريق دمشق فقتل أناس من عسكر الفريقين ، ثم وقع الصلح بين امير لبنان ووالي دمشق على ان يؤدي الاول للثاني نفقة الحملة . وفي سنة ١١٦٥ وقعت فتنه بين المشايخ بني ابي نكد فغضب الامير ملحم الشهابي عليهم وأرسل فنفسهم من البلاد فزجوا الى وادي التيم وهدم منازلهم في دير القمر ثم رضي عنهم . وكانت

للسيد احمد باشا الذي كان والياً في حلب سنة ١١٦٥ الحظوة عند رجال الاستانة قال ابو الفاروق : فعينوه والياً على قونية فسبقه اليها زوربا كورد محمد ، واثار افكار أهلها عليه لما عرف به من المظالم ، فخاربوه وهلك أناس في هذا السبيل ، ثم عينته الدولة والياً على حلب فسبقه اليها كورد محمد ايضاً ومثل الرواية التي مثلها في قونية فحاصرت حلب لذلك خمسة أشهر ، ودامت الحرب في حلب مدة وأحرقت البيوت وخربت البساتين وقطعت المياه عن البلدة .

وفي سنة ١١٦٨ توفي السلطان محمود الاول بعد سلطنة خمس وعشرين سنة وتولي السلطنة السلطان عثمان الثالث وهو الخامس والعشرون من آل عثمان ولم يعمل عملاً يذكر اللهم ما كان من تبديل وزرائه والافراط في هذا التبديل ، وكان يميل الى الطرب والصفا ويعمر الابنية في العاصمة وأسس بعض دور الكتب . وفي خلال ذلك تولى دمشق وامارة الحاج حسين باشا مكي او الفخر الغزي ولم يكن شرهاً في جمع المال ويميل الى العدل وحسن الرياسة غير انه كما قال المرادي : كان بطيئ الحركة عن شهامة الوزراء ، فبسبب ذلك حصل من البرلية (الجند الوطني) والقبوقول (الحرس) وغيرهما من طوائف الاكراد والعسكر فتن وحروب ، وحصل للاعيان والرؤساء الضيق العظيم وقامت عليهم الناس .

وفي سنة ١١٧٢ هلك السلطان عثمان بعد ان ملك ثلاث سنين وثمانية اشهر وخلفه السلطان مصطفى الثالث فافتتح العهد بالاعلان بتبديل السياسة ولكن كان عهده كما قال مؤرخو الفرنج عهد انهيار المملكة الانهيار التام وسيادة الاشمئزاز على الناس ، ووضع ثقته في وزيره رجب باشا فأحسن وكان رجب باشا ذكياً ومخلصاً .

وفي سنة ١١٧٤ كان والياً على دمشق عثمان باشا الكرجي وكان يلقب بالصادق وسبب هذا اللقب انه كان من بعض مماليك اسعد باشا العظم وهذا يحبه لنبأته . ولما قتل اسعد باشا وضبطت الدولة داره وامواله طلبوا عثمان هذا فاخبرهم بخرائن مولاه ثم وجدت قائمة بين تلك الاموال فكانت مطابقة لكلامه فانعمت عليه الدولة ولقبته بالصادق ، وتولى ولاية دمشق احدى عشرة سنة (١١٧٤-١١٨٥) ومما وقع في ايامه ركوبه لحرب محمد الجرار الى قلعة صانور من عمل عمكا ، ارسل الى الامير

يوسف فبعث بعسكره والتقى به عثمان باشا فعظم امره عنده واكرمه ، واصلح الامير اسمعيل الشهابي حاكم حاصبيا قلعة بانياس وبني ما كان قد هدم منها من زمان ابن معن واقام بها فحاصره عثمان باشا الصادق مدة وجيزة ثم سلمه القلعة ونهب عثمان باشا كل ما كان فيها وامر بدمها .

سيرة ظاهر العمر } استراحت الدولة من ناحية الشام لوجود والٍ مخلص لها في
الزبداني وسياسته } دمشق عثمان باشا الكرجي الصادق ، فتركته وشأنه يعمل
باسمها ويقا تل اعداءها ، فطالت ولايته على حين تقلبت حلب في مدة حكمه على دمشق
احدى عشرة سنة في أيدي عشرة ولاة . وكانت البلاد تمتنع في خلال ذلك
بظهور رجلين في العقدين الاخيرين من هذا القرن كما تخضت أواخر النصف الاول
منه بظهور آل العظم ، ونعني بهذين الرجلين الشيخ ظاهر المهر الزبداني واحمد باشا
الجزار . فانهما شغلا البلاد بامرهما ، واهتمت لعظم شوكتها الامة والدولة ، وجاء
الثاني على اثر الاول فبزه ظلماً وعدواناً . ولم يكن قيام امر الرجل في ذلك العهد
يتوقف على نباهة فيه وعلم مهم ، بل غاية ما يحتاجه شيء من المعرفة بطبائع من يقوم
فيهم ، وتلطف باستمالة قلوب أفراد يعول عليهم ، ورأس مال قليل يؤديه ثمن
اقطاع او نفقة الظهور ، ومهارة في البطشة الكبرى الاولى ودهاء وحيلة ، وعندها
يزيد كل يوم قوة ولا تلبث الدولة ان ترعاه ، والاهلون ان ينفئوا ظله وحماه .

في اواسط القرن الحادي عشر للهجرة جاء الى جهات فلسطين الشمالية من الحجاز
رجل بدعي زبدان وله ولد اسمه عمر والمهر ولدان اسمها ظاهر وسعد . ظعنوا عن
بلادهم لخصومة وقعت بينهم وبين عدواقوى منهم مراساً ، فجاءوا وضربوا خيمتهم في
الاطراف الشمالية من سهل البطوف في ارض يقال لها مسلخيت من عمل نابلس ولما
كانت قرية العرابة اقرب القرى اليهم جاء وجهاء القرية وزاروهم وحيوهم وسألوهم ان
يأتوا الى قريتهم بضربون خيامهم في ارضها لانهم كانوا على اربعة اميال منها . وكان
في قرية سلامة المعروفة اليوم بجزيرة سلامة الواقعة على منحدر الوادي المسمى بهذا
الاسم شيخ درزي قوي الجانب برجاله الاشداء باسط اجنحة نفوذه على ما جاوره من

البلاد . مر بعرابة ذات يوم ووقع نظره على فتاة اعجبه حسننها وطمع فيها لنفسه . ونزل بيت احد وجهاء القرية ودعا اليه الزعماء وطلب منهم الفتاة ، فشق على سكان عرابة ذلك خصوصاً وهو درزي وهم سنة . وارتبك اهل القرية فسألهم زيدان عن السبب فذكروا له ما وقع فقال لهم : اخطب سهل على ان تعاهدوني ان تعملوا ما اسألكم اياه ولا تبوحوا به فقال : اجهبوا الدرزي الى ما طلب وعينوا له وقتاً يوافقكم فيه لاخذ العروس واذا جاء مع جماعته رحبوا به فاذا استقر بهم المقام خذوا اسلحتهم ثم اتركوهم يهزجون ويرقصون الى حين الرقاد ، وكل واحد منكم يأخذ واحداً الى داره ليؤويه ولما رقد الجميع هب زيدان وافنى جماعة الدروز ، ثم اغار وجماعته على سلامة مع سكان عرابة فبطشوا بمن بقي فيها وخرّبوها فعظم قدر زيدان وانضم اليه اناس ممن يحبون الغزو والشقاوة وألف منهم جيشاً يغزو بهم فينزل بآرباب النفوذ الويل والخراب . ثم قتل زيدان بعض رجال المقادحة وكان منهم حاكماً طبرية والناصره فقتلها ، فاضحى المقادحة بلا زعماء فاحتل اهل عرابة نمرين وغيرها . ولما كبر ظاهر رزق ستة اولاد ذكور فكفله سكان عرابة لدى والي صيدا سنين طويلة فالتزم الجباية وكان بعض السنين يتلصقاً عن اداء ما تعهد به واحياناً يؤدي للدولة حقها ، حتى نمت ثروته واقام في عكا فجعل اخاه سعداً في دير حنا ، واولاده علي في صفد وعثمان في شفا عمرو ، وسعيد في الناصرة وجهات مرج ابن عامر ، وصابي في طبرية واحمد في تبنة وجبل عجلون (ملخصه من مقال في مجلة الزهرة) .

كانت جبال بيروت واعمالها بيد حكامها الامراء الشهابيين يدفعون الاموال لوالي صيدا المعين من قبل الدولة ، وكانت صور وعملها بيد المتأولة يضمّنون اموالها من والي صيدا واما جبال عكا وما اليها فكانت بيد مشايخها ومن جماعتهم بيت ابي زيدان كانوا يضمّنونها من والي صيدا ايضاً ، فما زال الامر كذلك حتى ظهر الشيخ ظاهر العمر فصادق مشايخ المتأولة وتزوج نساء كثيرات فتكاثر بنوه واقرباؤه حتى بلغوا مقدار خمسمائة نفس وعمرؤا قلعة طبرية وقلعة صفد وغيرهما وبدأوا بسطوط على عكا وصور واطيروا الشقاوة وقطع الطريق ففتجر منهم والي صيدا واضطر ان يضمّن مدينة عكا الى الشيخ ظاهر العمر وضمّن صور للمشايخ المتأولة وابتدأ الشيخ ظاهر العمر ببني عكا سرايا

عظيمة وسوراً وأبراجاً ويجمع اليه العسكر وانتشرت اعلامه في تلك البقعة واطاعته مشايخ المتأولة ودخلت عرب البادية تحت حكمه « وكان عادلاً في الرعية وسار معهم سيرة مرضية » وساعدته المتأولة في اطراف لبنان بخافه السلطان واوحمه انه يجعله نائبه في القدس ويوليه عكا والناصرية وطبرية وصفد وسائر البلدان التي في تلك الاطراف وانه امير العرب فصدق وكف عن المحاربة . وذكر شوفيه وايزامير : ان الظاهر عمر نشط الزراعة وقضى على غزو القبائل المجاورة لبلاده من العرب فوفق الى توطيد الامن في الاقاليم ، فكان المسيحيون والمسلمون يهرعون الى نزول بلاده من جميع اطراف الشام ليعموا فيها بالراحة والتساهل الديني .

وقال واصفوه انه ما زال في ظهور حتى نشبت الحرب بين الدولة العثمانية والدولة الروسية فضعفت الدولة في الاقطار الشامية ، فزاد ظاهر العمر قوة وعدا علي والي صيدا وطرده منها وتملكها وارسل لها حاكماً من عنده ، فاستمر يحارب الوزراء سبع سنين ولم يدفع مالا للدولة ، وله معهم عدة وقائع انتصر فيها على عساكر الترك وعسكر الدروز والعربان . وفي هذه الاثناء صادق دولة روسيا بمشورة وكيله الخاص ابراهيم الصباغ من اهل عكا ، وكان هذا صاحب عقل وتميز الا انه يحب المال كثيراً كما حالف الامير نجر الدين المعني الثاني في القرن الماضي امراء طشقانه في ايطاليا .

واستمر الشيخ ظاهر حاكماً على عكا نحو اربعين سنة الى سنة ١١٨٩ . والسبب في وقوع الفتن بين الشيخ ظاهر العمر وولاة الاطراف ان عثمان باشا الصادق والي دمشق لما وليها سنة ١١٧٤ وكان شديد المكر كثير الدهاء ولى اولاده الاثنين صيدا وطرابلس ، فصار يظلم رعية الشيخ ظاهر العمر ويطلب المال للسلطان ، فبدأت الحرب بينهما فانكسر عثمان باشا وخلفت خزائنه من المال فأخذ يلح على الاهالي في طلب المال ففزع الناس من ظلمه وعصاه اهل الرملة وغزة وبافا ولم يطيعوه الا بعد حروب كثيرة فوقعت البغضاء في قلوب اهل بر القدس وتمنوا حكم علي بك صاحب مصر عليهم وكان هذا قد قوي في بلاده فاطاعته البلاد المصرية .

وحاول عثمان باشا سنة ١١٨٣ ان يغزو ظاهر العمر بالاتفاق مع امراء نجبل الشوف فأرسل ظاهر يستنجد بوالي مصر علي بك وكان هذا عنزم على رفع لواء العصيان

على الدولة ، وفي قلبه حقد على عثمان باشا فهدى لافتراح الشيخ ظاهر لانه كان يريد امتلاك بلاد العرب من عريش مصر الى بغداد ، وكانت قد راسل الملكة كاترينا المسكوبية طالباً منها ان تمدّه بالمراكب والرجال وهو يملكهم المدن البحرية في الشام . ولما وصلت اليه رسالة الشيخ ظاهر جيز له ستة سناجق كبار ورأس عليهم اسماعيل بك وأصحابهم بعشرة آلاف من الغز والعربان والمغاربة وأمرهم ان يكونوا في طاعة الشيخ ظاهر العمر ثم ساروا الى اراضي المزييب في حوران وكانوا نحو عشرين ألفاً لقتال عثمان باشا فعدل اسماعيل بك عن الغزاة لما لاقى من تمرد اولاد الظاهر العمر وعشيرته فشكا الشيخ ظاهر الى الامير علي بك مالتى من اسماعيل بك فابتدأ الامير علي يجهز العساكر والجنود على نية الخروج ليملك بلاد الشام .

وفي هذه السنة قبض الامير يوسف الشهابي على عدة من مشايخ آل حماده فالتجأوا الى وزير طرابلس فأتوا بعسكر الى قرية بزيزا ووقع القتال بينهم في قرية ميون فانكسر عسكر طرابلس وحاصر بعضهم في برج في أسفل القرية وقتل عدة أشخاص ثم سلموا وساروا الى طرابلس ، وفيها بلغ الباب العالي ما فعله علي بك المنقلب اعلى مصر . فأمر والي دمشق ان يسير بخمسة وعشرين ألفاً لمنع جنود عكا من معاضدة علي بك فسار الوالي بالعساكر ، فوافاه الشيخ ظاهر العمر في ستة آلاف بين جبل النيران وبحيرة طبرية وردّه على أعقابيه .

حملة ابي الذهب } استكثر امير مصر علي بك (١١٨٤) من جمع طوائف
على الشام } العسكر وامر بسفر تجر بدة الى الشام واميرها اسماعيل بك
وكان أرسل أحد رجاله فقتل سليطاً شيخ عربان غزّة هو واخوته واولاده ، فذهبت
تجر بدة من البر وأخرى من البحر ووقعت بين جنده وحكام الشام وأولاد العظم حروب
ومناوشات . وفي سنة ١١٨٥ أخرج علي بك من مصر تجر بدة عظيمة وأميرها محمد
بك ابو الذهب في جند كثير من المغاربة والترك والهنود واليمنية والمتاوله ، وسافرت
من طريق دمياط في البحر ، فلما وصلوا الى الديار الشاميه حاصروا يافا وضيقوا عليها
حتى ملكوها ، ثم توجهوا الى باقي المدن والقري وجار بهم النواب والولاة فهزموا

وقتلوا وفروا من وجه الجيش المصري ، فاستولى على الممالك الشامية الى حدود حلب .
قال هذا الجبرتي وقال غيره : ان محمد بك ابو الذهب لما وصل الى بلاد الشام حضر
اليه اولاد ظاهر العمر وشايخ المتساولة وانضموا الى عسكره فصار جيشاً عظيماً ينيف
على الستين ألفاً ، فسار محمد بك ابي الذهب طالباً دمشق ، وكان عثمان باشا قد رجع
من الحج فجمع العساكر لقتاله ، فلما لبث عثمان باشا ان انكسر فخيم ابو الذهب حول
المدينة قاصداً حصارها ، وأرسل الى اهلها كتاباً يشير فيه الى ما اتاه عثمان باشا من
الظلم واهانة الحجاج والزوار وظلم المسافرين والتجار ، وانه يريد ان يطهر هذه الارض
منه نصرة للدين وغيره على المسلمين ، ويذكر ما فعله بعلماء غزاة في العام السابق من
دفنهم في الارض احياء ، وانه اخذ فتوى المذاهب الاربعة في قتاله ، وصرف
الاموال والعساكر ليردوا الظالم ويستردوا المظالم ، فخرج العلماء والعوام من اهل
دمشق كافة الى محمد بك ابي الذهب وطلبوا منه الامان فأمنهم واكرمهم ، ودخل
المدينة وجلس في دار الوزارة ونادى بالامان . وكانت القلعة لم تزل محاصرة فأمر
باطلاق المدافع عليها فطلب المحاصرون الامان فتسلم القلعة . وتراجع عثمان باشا الى
حمص وجهاز العساكر الكثيرة . وابتدأ اسماعيل بك يغير قلب محمد بك ابي الذهب
على الشيخ ظاهر العمر فحصل بينهما فتور وخوفه عاقبة التمرد على السلاطون فنهض
بعساكره ليلاً من دمشق وسار طالباً الديار المصرية ، وشاع رحيله من الغد فتعجب
أهل الشام كل العجب من ذلك ولم يعلموا السبب فيه ، ورجعت اولاد ظاهر العمر
والمشايخ والمتاولة كل منهم الى مكانه وقد ذهبلوا من قيامه وتأسفوا على سعيهم .

وفي رواية ان السبب في ترك العسكر المصري بزعامه محمد بك ابي الذهب حصار
دمشق ان عثمان باشا واليها لما اشرف على الهلاك بعث الى قائد الماليك بصرة ثقيلة
بالدنانير للرجوع عن محاربته فارثى منه وأمر عسكره بترك المحاصرة وتركوا حصار
قلعة دمشق ، فلما رأى ظاهر العمر خيانتهم وانهم قد فارقوه وتركوه وحده عجز عن
فتح القلعة فرجع الى دياره ، فتخلص عثمان باشا وعاد يجهز العساكر بعد مدة قليلة للخروج
لمحاربة ظاهر العمر ودخل اراضيه وحاصره في عكا وجدة في المحاصرة حتى صعب الحال
على الشيخ وكاد عثمان باشا يفتح عكا فلما نجا الشيخ في هذه المرة الا بمساعدة ولديه ،

فقد جمعا العرب وهجما على الترك ليلاً فكسروهم وشردوهم فهرب منهم عثمان باشا ، ثم جمع الشيخ ظاهر عساكره وحارب الدروز فغلبهم وتملك بلادهم التابعة لعامل صيدا . ولما بلغ السلطان خبر فثوحه وهو مشغول بحرب روسيا صعب الحال عليه فأرسل السلطان الى الشيخ يعرض عليه الصلح ، وقد عزل عثمان باشا وولديه عن ولاية دمشق وصيدا وطرابلس واما الشيخ ظاهر فقد اضمر في نفسه ان يدخل في طاعته الشام كله وهو يستند في ذلك على مساعدة علي بك امير مصر .

وذكر المرادي انه كان مع محمد بك ابي الذهب تسعة الوية وخمسة من اولاد الظاهر امير بلدة عكا ومشايخ المتأولة والصفدية ونحو ثمانين مدفعا واربعون الف مقاتل ، وعينت الدولة لقتاله والي حلب عبدالرحمن باشا والي كليس خليل باشا والي طرابلس محمد باشا ، فخرج للقائه هؤلاء الوزراء مع وزير دمشق بالعساكر الشامية والاجناد ، وصارت المعركة في سهل داريا وفي اقل من ساعة انكسر العسكر الدمشقي وفر هارباً كل من خليل باشا وعبدالرحمن باشا وعساكرهما ، وقتل منهم شرذمة قليلة وثبت كافل دمشق عثمان باشا وولده محمد باشا والعساكر الشامية وحصل القتال معهم ثلاثة ايام ، وفراعيان البلد الى حماة واستولى الفرع على الناس ، وغص الجامع الأموي باهالي القرى فانهم نزحوا جميعاً باهلهم وامتعهم ومواشيهم اليه . ولما عاد ابو الذهب عن دمشق رجع عثمان باشا وولده محمد باشا ورئيس « اليرلية » يوسف اغا جبري من جبل الدروز ومعه خمسة آلاف درزي وبعد مدة ضرب عثمان باشا عنق ابن جبري ، لانه كان السبب في تقوية الدولة المصرية على العساكر الشامية طمعاً منه في قتل عثمان باشا وصيرورته مكانه كافلاً بدمشق .

عاد ابو الذهب ادراجه الى مصر فرجع الى دمشق عثمان باشا وحضر اليه الامير يوسف الشهابي لانه كان قد ارسل اليه نائبه يوسف اغا جبري يستنجد به ، وكان الامير يوسف قد جمع عسكراً وتجهيزاً للمسير فاتفق قيام ابي الذهب عند ذلك . ولما فرغ بال عثمان باشا وقتل نائبه يوسف اغا جبري رئيس الانكشارية ونهب امواله اغام مكانه رجلاً من اهل دمشق يقال له عثمان اغا شبيب ، ثم خرج بعسكر عظيم الى ارض الحولة يريد قتال الشيخ ظاهر العمر والمتأولة الذين كانوا السبب في تلك الفتنة فجمع

ظاهر العمر رجاله واجتمعت المتأولة من تلك البلاد وكبسوا عثمان باشا في الليل فذعرت
عساكره وقتل منهم خلق كثير . وهزمهم الشيخ ظاهر وما زال في اثرهم حتى وصلوا
الى بحيرة الحولة فالتقى كثير منهم انفسهم في البحيرة وماتوا غرقاً . وهرب عثمان باشا
بنهر قليل فاستولى ظاهر العمر والمتأولة على اسبابه واسلابه . وكتب الشيخ ظاهر الى
الامير علي بك يخبره بما كان ويحقق له خيانة محمد بك ابى النذهب بعد ان ملك الاقطار
الشامية ودخل الناس كافة تحت طاعته . فخرج علي بك من مصر فالتقاء ظاهر العمر
بالاكرام ودخل به الى عكا فارسل كتباً منه (١١٨٥) ومن الشيخ ظاهر العمر الى
ملكة السكوب يسألونها الاسعاف على الدولة العثمانية ، وان ترسل اليهما المراكب
الحربية ليسالها البيار المصرية . واقام علي بك ينظر الجواب ، وقويت مشايخ المتأولة
على الدولة ، وتناولت على اطراف جبل الشوف ومرج عيون والحولة ، فانفق الامير
يوسف وخاله الامير اسمعيل حاكم وادي التيم الادنى وجمع الامير يوسف نحو عشرين
الف جندي وسار قاصداً قرية جباع الخلاوى واحرق اقليم التفاح وحرق جباعاً وقطع
اشجارها وهدم بنيانها .

وكان عسكر المتأولة مجتمعاً في النبطية نحو ثلاثة آلاف ، ولما وصل الامير يوسف
الشهابي الى كفر دمان احرقها وتوجه الى النبطية فالتقى بشرزمة من عسكر المتأولة
نحو خمسمائة خيال ووقع بينهم قتال انكسر فيه عسكر الامير يوسف كسرة هائلة ،
ومات كثير من عسكره تعباً وعطشاً ومنهم من اختلعت عقولهم ، وفقد من عسكره في هذه الواقعة
اكثر من الف وخمسمائة قتيل ، وركب الشيخ كايب نكد من حاصيها الى دير القمر
وغزا المتأولة في قرية علام فهزمهم ومنعهم من الحضور الى اقليم الخرنوب وتلك
الاطراف . وسارت عساكر الدولة مع عسكر الامير يوسف لحصار مدينة صيدا
وانقاذها من يد ظاهر العمر وكانوا في اكثر من عشرين الفاً معهم المدافع والزنبركات
فأقاموا على حصارها سبعة ايام . وجاءت المراكب الروسية الى عكا التي استنجدها
ظاهر العمر فأرسلها الى صيدا فأطلقت مدافعها على جيش الدولة وجيش لبنان ،
وساق ظاهر العمر عسكره وقدره بعشرة آلاف جندي والنقى بعسكر لبنان وجيش
الدولة في سهل الغازية ، وانتشب القتال فانكسر عسكر الدولة وقتل منه نحو

خمسمائة نفس وانتقل راجعاً الى دمشق ، واما المراكب الروسية فسارت الى بيروت وملك جانباً منها وأحرقت بعض الابراج فهربت الشهابية من المدينة وخرج اهلها الى البر ودخلت الفرنج بيروت ونهبت كل ما وجدته فيها ثم رحلت الى عكا بعد ان أعطاهما حاكم لبنان ٧٥٠٠ قرش تعويضاً ثم عادوا وأطلقوا على بيروت ستة آلاف مدفع دفعة واحدة كذا قال المؤرخ ، حتى ظن الناس ان القيامة قامت وسمع صوت المدافع على ما قيل الى قبة السيار فوق دمشق كالرعد القاصف ، وأحاطوا بالمدينة بجرأ مدة اربعة اشهر ليل نهار فتضايق المتحاصرون فيها وتقدم ما عندهم من الزاد فمكثوا يأكلون لحوم الخيل والحمير والكلاب ، وهناك اضطر الجزار الى التسليم وطلب الامان عن يد ظاهر العمر وتسلم الامير يوسف بيروت وغرم المسلمين ثلاثمائة الف قرش وسلمها للسفن المسكوبية . قال احد المؤرخين : ضرب الروس بيروت ونهبوها في القرن الثامن عشر وكانت فيها بيوت امراء الجبل ومشايخه ، وكانوا بنوا فيها خانات وقيساريات وكان الفرنسيين يدعونها « باريز الموارنة الصغرى » وكثير من الموارنة كانوا قناصل لفرنسا .

ووقعت في هذه السنة بين الشهابيين والحماديين في العاقورة واقعة . وفي سنة ١١٨٦ اخذ الامير سيد احمد من والي دمشق حكم البقاع فتوجه الى قب الياس وبنى ما كان هدم فيها من الزلازل وحصنها بالمدافع والرجال . وفي هذه السنة أحرق يوسف الشهابي بعض قرى الضنية لما بلغه من خيانة المشايخ بني رعد حكم الضنية مع المشايخ بني حمادة . وفي سنة ١١٨٧ حمل عثمان باشا والي دمشق في خمسة عشر الف جندي على الامير يوسف الشهابي حاكم لبنان في جهات البقاع . وجرت عدة وقائع بين العسكرين وانهمزم والي دمشق في الليل تاركاً المدافع والذخائر ثم انفصل الفريقان على غير نتيجة .

عبد الحميد الاول } هلك السلطان احمد الثالث (١١٨٧) وخلفه ابنه
بوثمة اخبار ابي الذهب } السلطان عبد الحميد خان الاول وفي ايامه استولى
العجم على العراق ولم يبلغه الخبر الا بعد خمس سنين ، وهو السابع والعشرون من آل

عثمان ، مضت مدة على رحيل ابي الذهب من الشام وبقي ظاهر العمر بعد اعتصامه بروسيا وكسرتة والى دمشق غير مرة واتهام ابي الذهب بالخيانة أمام والى مصر ممتعاً بولايته حتى سنة ١١٨٩ ، وفيها سافر ابو الذهب الى البلاد الشامية — رواية الجزيري — لمحاربة الظاهر عمر واستخلاص ما بيده من البلاد وكانت الدولة أذنت له بالمسير الى الظاهر عمر وخراب بلاده فوصل الى أرجاء غزة وارتجت البلاد لوروده ، ولم يقف احد في وجهه وتحصن أهل يافا بها وكذلك الظاهر عمر تحصن في عكا فلما وصل الى يافا (١١٨٨) حاصرها وضيق على أهلها وامنعوا هم ايضاً عليه وحاربوه من داخل وحاربهم من خارج ، والتقى عليهم المدافع والمكاحل والقناير عدة ايام وليال ، فكانوا يصعدون الى اعلى السور ويسبون المصريين وأميرهم سباً قبيحاً ، فلم يزلوا بالحرب عليها حتى نقبوا أسوارها وهجموا عليها من كل ناحية ومكوها عنوة ونهبوها وقبضوا على أهلها وربطوهم بالحبال والسلاسل وسبوا النساء والصبيان وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، ثم جمعوا الاسرى خارج البلد وأعملوا فيهم السيف وقتلوا عن آخرهم ولم يميزوا بين المسلم والمسيحي والاسرائيلي والعالم والجاهل والعامي والسوقي والابن الظالم والمظلوم . وبنوا من رؤوس القتلى عدة صوامع ووجوها بارزة تنسف عليها الاتربة والرياح والزوابع ، ثم ارتحل عنها طالباً عكا . ولما بلغ الظاهر عمر ما وقع به يافا اشتد خوفه وخرج من عكا هارباً فوصل اليها ابو الذهب ودخلها من غير مانع واذعنت له باقي البلاد ودخلوا تحت طاعته وهدم قلعة ديرمار يوحنا وديرمار الياس في صفد وقتل رهبايهما .

ويقول جودت : ان ابا الذهب قام من مصر في ستين الف جندي الى يافا ، وبعد ان حاصرها خمسين يوماً استولى عليها وأعمل السيف في أهلها كبيرهم وصغيرهم ، وان ظاهر العمر طلب مدداً من الامير يوسف الشهابي حاكم لبنان فأبى ان يمدّه فلم يسعه الا الحرب من عكا والتجأ الى عرب غزة ، ولما حصل ابو الذهب في عكا استولت الدهشة على الناس حتى ان بعض الأسر الكبيرة هاجرت بيروت خروفاً وعلماً ، اما الامير يوسف حاكم لبنان فقدّم هدايا الى ابي الذهب طيب بها قلبه ، وجاءه متسلم صيدا احمد اغا الدكزلي ملتصقاً رضاه . مظهر طاعته ، فأمنه على نفسه ومركزه كما جاءه مشايخ بني متوال فاكرمهم ابو الذهب ثم استدعى ان يواي

امور مصر والشام فجاءه من السلطنة المنشور بذلك ولكن كان قد قضى نحبه وتفرقت جموعه وعادوا الى مصر ، فلم نزل الدولة مأر بها من ظاهر العمر ولم تستفد البلاد سوى ان قتل من أهلها جمهور كبير ولا سيما في حصار يافا . وجرى على أثر هذه الواقعة بين المتاوله والغز الذين في صيدا قتال عظيم فانكسرت المتاوله كسرة هائلة وقتل منهم جماعة .

خاتمة ظاهر العمر } قال جودت : لما سمع ظاهر العمر بوفاة ابي الذهب عادالى
وولاية حلب } عكا وأخذ يطيل أيدي الاذى اكثر من قبل ، فأرسلت
عليه الدولة سنة ١١٨٩ قائد البحر حسن باشا الجزائري ، وكتب الى والي دمشق
اذ ذاك محمد باشا العظم والى والى إيالة صيدا والى الجزار احمد باشا الذي نصب
محافظ السواحل الشامية والى متصرف القدس ، فبعث قائد البحر اولاً يطلب من
الظاهر ما في ذمته للدولة من الاموال الاميرية (وهي خراج سبع سنين) فلم يوافق
على ذلك مستشار ظاهر العمر ابراهيم الصباغ ، وكان بيده جميع أموال الظاهر عمر ،
وقال له : ان الدولة لا يرضيها شيء ، وأراد سيده على المقاومة ولكن عسكر ظاهر العمر
استماله متسلم صيدا وقال لهم : لا يجوز مقاتلة عسكر السلطان فأبوا ان يقاتلوا . فلما
علم الظاهر عمر بالامر فرّ على وجهه لا يلوي على شيء هو وأولاده ، فضبط قائد
البحر أموال الظاهر عمر وذخائره وجيء بابراهيم الصباغ فأخذت منه أموال الظاهر
عمر ثم قتل . ويقول بعض المؤرخين ان ما وجد من أموال ظاهر العمر اثنان وثمانون
الف كيس من النقد قال جودت : سبحان الله ! بمثل هذا المال والنوال ومتسلم صيدا
احمد اغا الدكرلي يطلب عشر معشاره لارضاء الدولة فتشع نفس ابراهيم الصباغ ،
فيجلب البلاء على نفسه ويكون سبباً لخراب بيت مولاه بيت آل زيدان .

وذكر بعض من استوفوا سيرة ظاهر العمر انه في اواخر سنة ١١٨٩ حضر قائد
البحر حسن باشا الجزائري بالاسطول السلطاني ، لان السلطان عبد الحميد الاول
لما عقد الصلح مع الدولة الروسية سنة ١١٨٧ التفت لتنظيم البلاد فوجه قائد البحر الى
حيفا ، وذلك بعد موت ابي الذهب وزجوع العساكر المصرية بمدة قليلة ، وان مطالب

القائد كانت اموال سبع سنين متراكمة، فادعى الظاهر ان ليس عنده مال وانه مستعد
 لحرب قائد البحر لان عنده باروداً وكلاً وثلاثة مدافع فاطلق قائد البحر اربعة ايام
 النار على عكا وكان عدد قتلايه ٧٧٥٠ كلة ولم يحدث منها ضرر بل هدمت قليلاً من
 المحلات ، وقيل بل سقطت قنبلة على مخزن البارود فاحترق ، فخرج الشيخ ظاهر بعياله
 فقتله احد المغاربة في الطريق في محل يسمى الرقايق ، وكان قاتله عبداً من عبده
 منذ خمس عشرة سنة فقتله القائد التركي به لخيانته سيده ، وحزوا رأسه وحمل الى
 الاستانة ونهب العسكر المدينة ساعتين . وكان قائد السفينة الفرنسية التي جاءت لحماية
 تجار عكا الفرنسيين وحملتهم الى بلادهم نهب على التجار الفرنسيين بان كل من
 عنده وديعة لابراهيم الصباغ ولكل من يلوذ به ملزم بحسب اوامر السلطان ان يقدمها
 الى قائد البحر العثماني فأعطوها وكانت ٣٦ الف كيس ذهب عدا الجواهر والتحف ،
 وضبطت حواصله وكانت مشحونة باصناف البضائع وضبط مبلغ كبير ممن يلوذ بابراهيم
 الصباغ الذي اخذ وقتل في الاستانة ، وكذلك احمد اغا الدكرلي الذي خاف مولاه
 فقد صلبه قائد البحر في صاري المركب ، وسلم قائد البحر ولاية عكا الى احمد باشا
 الجزائر ، سلمه عكا وصيدا وما يليهما ، فاحتال الجزائر على اولاد الظاهر عمر واقام
 الشيخ عثمان الظاهر شيخ المشايخ ويقول مشاقة : ان حسن باشا طلب من ظاهر العمر
 خمسين الف قرش تباع باسعار ذاك الوقت خمسة وعشرين الف ريال فرنسا فأشار
 اكثر معتمدي الشيخ بالدفع الا الطبيب التاجر ابراهيم الصباغ فانه خالف رأي
 الجماعة . وقيل انه وصل من اموال ظاهر العمر واولاده وابراهيم عبود الصباغ الى
 خزينة السلطان ثلاثمائة وثمانون الف كيس تساوي خمسة ملايين ليرة وخمسة وعشرين
 مليون فرنك خلا ما اختلصه حسن باشا لنفسه .

وفي اوائل سنة ١١٩٠ رجع حسن باشا الجزائري بالاسطول الى عكا وحضر
 محمد باشا العظم والي دمشق بعسكره وابراهيم باشا والي القدس بعسكره ونصبوا
 بعسكراتهم خارج مدينة عكا وطلع معهم احمد باشا الجزائر بعساكره وساروا جميعاً
 مع امير البحر قاصدين البطش باولاد الظاهر عمر فأمنوهم وحملهم قائد البحر الى الاستانة
 وقتل في الطريق احدهم واسمه احمد لانه طعن فيه جهاراً وبقي احد اولاد الظاهر واسمه

الشيخ علي يتنقل في البراري، فبلغ الدولة خبره فارسلت الى محمد باشا العظم ان يرسل اليها رأس علي الظاهر او يقتل هو به، فأرسل والي دمشق رأس ابن الظاهر مع ثلاثة رؤوس من جماعته وانكر جماعة احمد باشا الجزار الرأس المحمول، وقالوا: انه ليس رأس الشيخ علي الظاهر فاحضرت الحكومة ولديه الحسن والحسين وكانا في الاستانة وقالت لهما هل تعرفان هذه الرؤوس المقطوعة فلما رأياها بكيا فقبل لهما: ما بكيكما فاجابا هذا رأس والدنا علي الظاهر وقد عرف من كبر عا رضيه لانه كان يدعى ابوسبعة شهابات، وبذلك انقضت دولة الظاهر واندثر ذرارها وقامت دولة الجزار احمد باشا الذي ضيق على اولاد الظاهر وذراريه وبعث احد جواسيسه الى ابنه علي وقتله في مرج عيلا الخيط.

والغالب ان الشيخ ظاهر العمر الذي حكم صيدا وعكا ويافا وحينفا والرملة وبلاد نابلس واربد وصفد وجميع المتأولة كانت تحت امره، كان الى السذاجة والفترة، استسلم لوكيله ابراهيم الصباغ وكان هذا مثلاً سائراً في الامساك وحب المال، فحاول ان يخلص سيده من دفع خمسة آلاف كيس مع ان لديه اضعاف اضعافها من الذهب، دع سائر العروض والجواهر، واغتر ظاهر العمر بقوته الضئيلة فكان في ذلك ذهاب دولته وهلاكه وهلاك وكيله، ولم يثمر جمع الاموال الثمرة المرجوة، ولو قدر له ان يعمل بما رسمه له السلطان سنة ١١٨٨ من العفو عن جميع ما تقدم من ذنوبه وذنوب غيره على شرط ان يؤدي الخراج لبق في عزه ان كانت الدولة تريد دوام العز لاحد.

كانت الشكوى قليلة من ادارة ظاهر العمر فان ما جمعه في اربعين سنة قد جمع غيره من حكام الاقاليم مثله في مدة قليلة. ذكر فولنه ان علي باشا المعروف بجه طملي الذي تولى حلب مرتين آخرها سنة ١١٩٣، وكان من معاصري الجزار، جمع في خمسة عشر شهراً زهاء أربعة ملايين ليرة (الغالب أن الليرة هي الفرنك الطلياني) وانه سلب جميع أرباب الحرف حتى انتهى سلبه الى منظفي الغلابين. وقال غيره: ان مدينة حلب التزمها ملتزم من الاستانة بثمانمائة كيس أو نحو أربعين الف جنيه وبعطي الوالي ٨٣٣٠ جنيه في السنة لتنفقات الولاية لكنه يكسر ابتزاز الاموال الطائلة من الاكراد والتركمان وسائر السكان، وقد جمع منهم عبدي باشا الذي كان والياً قبل عهد فولنه ١٦٠ الف جنيه في سنة واحدة وضرب ضريبة على كل واحد وكل صناعة.

قال بعض معاصريه وقد فر من حلب غالب تجارها ووجوه الناس ومن له شهرة
وسجن الاعيان وان الكوسح خادمه لما خرج الى قتال التركان صار يخرب القرى
ويسلب أموالها حتى قام أهالي حلب وحاصروه واخرجوه من البلدة . ونقل في اعلام
النبلاء في حوادث سنة ١١٩٤ ابن عبيد باشا والي حلب جاء في جيش عظيم الى كلز
لتأديب الاشقياء وأصدر أمره الى هذه البلدة أن يخرجوا منها أهل العرض والرعايا
الى طرف الباشا وبقى الاشقياء فأجابوه بلسان واحد ليس في بلدنا أهل عرض
صلاً بل كلنا أشقياء فزحف الوالي على البلد فحاصرها وفتحها ووقع القتل والنهب في
كلز وهتكت الاعراض وذبحت الاطفال . وأن الوالي اخذ يسلب أموال الناس في
حلب وفي سجونه من الاكابر والمشايخ والاشراف خلا الرعايا وأهل الذمة
مقدار عظيم وعسكره كثير يرتكب في حلب أنواع الرذائل وبلغ من سوء
فعل اتباعه ان كسروا غراريف بساتين حلب ودواليبها واخشاب بيوتها وطياراتها
من حدود قرية بابلا (باب الله) الى قرب بستان الدباغة وحرقوها وحرقوا اخشاب
قرى البلد باجمعها وسلبوا متاعها ونهبوا مواشيها وتركوها قاعاً صفصفاً الا ما حماه الله
من القرى البعيدة ، وجاء الوالي الجديد فنبه ان لا يحمل احد سلاحاً وكل من وجد
من اهالي المحلات خارجاً عن الطريق المستقيم فعلى جيرانه ان يخبروا عنه ليقتله ومن
شهد جيرانه بحسن حاله فلا سبيل لاحد عليه وصار يقتل كل من اخبر بسوء حاله ،
وامر الناس ان يفتحوا دكاكينهم وارباب القرى ان يتعاطوا زراعتهم وان ماضى
لا يعاد ومن لم يفتح دكانه ينهاها ويشنق صاحبها .

وروى في أخبار الحاج يوسف باشا ابن العظم الذي تولى حلب بعد عبيد باشا
انه صار يأخذ بالجهان ممالك وجواري من اصحابها قهراً ، ويحضر التجار وغيرهم
ويكرمهم ويقول لهم : « انا وزير افسعوا خاطري لا يعلم بها أحد حتى لا يمشيها
غيري » وأرسل فطلب من كل بلد حصاناً . وجاء بعده عبيد باشا وسار على اقدام
سميه الاول سيف الظلم والجور على صورة لم يسبق لها مثيل واخذ يأخذ بدل القرش
اربعة وصادر القوم وعذبهم وصارت حبوسه ملاى بالناس .

وصف فولنه ظاهر العمر بانه لم تشهد له الشام مثيلاً في الازمان الغابرة ، وكان

داهية باقعة في السياسة حكيمًا مَحْنَكًا ولكنه كان طامحًا طامعًا ومن محاسن صفاته انه لم يكن يحب الاحتيال و يجاهر بما يضمّر ولو قاسى من ذلك العنت وانه احب المسيحيين ورفع شأنهم وعدل في الناس .

وقال بعض المعاصرين : حكم الظواهرية البلاد نحو ثمانين سنة وامتد نفوذهم من حدود جبل عامل شمالاً الى أطراف جبال القدس جنوباً ومن البحر المتوسط غرباً الى جبل عجلون شرقاً ، وكانوا يرجعون في احكامهم الى اصول العشائر حسبما توحيه اليهم ضمائرهم ، وقد شادوا في البلاد أبنية ضخمة فرم الظاهر عمر بعض ما تمكّن من ترميمه مما خربتته الحروب الصليبية ورفع سورها الداخلي ، وشاد فيها جامع محلة الجرنية وبني علي في صفد القلعة الباقي شيء من آثارها الى اليوم ، وبني صليبي في طبرية السرايا المعروفة اليوم باسم الصقرية نسبة الى عرب الصقر الذين صال عليهم صليبي واكتسحهم ، وعمر الجامع الواقع جنوب السراي ، وبني عثمان قرية شفا عمرو ، وبني احمد قلعة تبنا ، وشيد سعد قلعة دير حنا . وهذه القلاع الثلاث لا تزال موجودة ، وعمر في دير حنا الجامع الموجود الى اليوم وكان بناؤه سنة ١١٤٤ هـ .

أخذ الجزائر بعد استلام ولاية صيدا سنة ١١٩١ يقوى وتشتد أولية الجزائر ثم شكيمته خصوصاً بعد أن ولي دمشق (١١٩٠) مع بقاء عكا عليه ثم استقل بولاية عكا واخذ يغزو متغلبة تلك الارحاء ف وقعت بينه وبين الامير يوسف الشهابي وقعة في سنة ١١٩١ في نقار السعديات بين صيدا وبيروت فلم يسلم من جماعة الشهابي الا القليل ، وأحرق عسكر بيروت اي الجزائر المكس والجديدة والدكوانة في لبنان وقتل اناساً من اهلها ، ثم وقعت بين عسكر الدولة وعسكر لبنان في المغيشة عدة وقائع انتصرت الدولة فيها على اهل الجبل وقتل منهم قتلى كثيرة واكثرهم من المتن وداهم عسكر الدولة بني الحرفوش في بعلبك واحرقّت الدولة زحلة . وقوي الجزائر بمجيئ ستمائة فارس من اللوند وكانت الدولة امرت بقتل جماعتهم وكانوا ستة عشر ألفاً ، فلم يسلم منهم الا الذين جاؤا الجزائر ، ولما عزم على الاقامة في عكا ابتداءً باصلاح

اسوارها وانقان بنيانها وجعل على كل قرية من تلك البلاد ان يحضر أهلها جميعاً ثلاثة ايام في الاسبوع بالسخرة لاجل العمارة .

وجرت حروب كثيرة بين الشيخ علي بن الشيخ ظاهر العمر وعساكر الجزائر حتى قتل على ما سلف وكذلك بين هذا والامير يوسف الشهابي والنقى مرة في طريق صيدا عسكر الجزائر بالنكدية وكانوا يكمنون له فقتل الجزائر اكثرهم وقبض على بعض اعيانهم فجعل الامير يوسف يعتذر للجزائر ويستشفع في اطلاقهم مقابل مئة الف قرش ولما طلب الامير المال من الجبل الى الامراء الدفع فطلب الامير من قائد عسكر الجزائر ان يتلف اشجار بيروت ففعل وقتل جماعة من رجالهم ، ثم سار الى بعلبك وعظم امره وحينئذ خرجت بيروت من يد الامير يوسف ودخلت في حكومة الجزائر ، واقتل الامير يوسف مع الجزائر فانهمزم في عدة مواقع ثم تصالح الشهابي والجزائر .

وارسل احمد باشا الجزائر (١١٩١) احدث حاله من الاكراد في جماعة منهم فاجتازوا قب الياس فعلم أهلها فحصنوها ، وردوهم عنها باطلاق المدافع فذهب الاكراد الى بعلبك وصادروا كبار المتأولة ، ولا سيما الامير محمد الحرفوش وسجنوه ثم شنوا الغارة على سعد نابل وقتلوا بعض سكانها ونهبوها ، ثم حاربوا الدروز في البقاع وقتلوا بعضهم وقتل من الاكراد اربعون رجلاً فأحرقوا قرى كثيرة في البقاع وهاجموا سغبين ثم عادوا عنها ، وقد قتل منهم نحو مائتين ثم امرهم الجزائر فعادوا اليه ، وكان سبب ارسالهم ان الامراء الملعبين لم يدفعوا الضريبة الشاشية التي فرضها الجزائر على اللبنانيين في السنة السابقة . وفي سنة ١١٩٢ او ٩٣ نقل الجزائر مركزه الى عكا لخصانتها . وزاد الجزائر (١١٩٤) المكوس والمغارم على لبنان .

وفي سنة ١١٩٥ وقعت فتن ومناوشات بين عسكر الجزائر وعسكر الامير سيد احمد وعسكر دمشق في ارض قب الياس في البقاع قتل فيها كثيرون واننصر الجزائر ووقعت وقعة في الظهر الاحمر في وادي التيم لاجل النفوذ والمال ، وفي سنة ١١٩٧ استولى الجزائر على بلاد بشارة بعد وقعة مهمة مع مشايخها من بني متوال ، وتسلم هونين وتبنين وشقيف ارنون ، اخذ هذه القلعة الاخيرة بالامان وقتل من بها وتسلم جباعاً وباد اسم بني علي الصغير وبني منكر . وفي هذه السنة توفي محمد باشا العظم وكان وزيراً عادلاً

مهابة على قول ميخائيل الدمشقي وقال المرادي : انه كان من رؤساء الوزراء عقلاً وكلاً وعدلاً ودينياً وسخاء ومروءة وشجاعة وفراسة وندبياً وكان واسع الرأي مهابة وضرب على ايدي البغاة وقطاع الطريق ، وراقت دمشق وما والاها في ايامه ، وصفا لاهلها العيش ونامت الفتن ، فعين محمد بن عثمان باشا وكان ظالماً قاسياً ثم تولى اخوه درويش باشا ثم تولى محمد بطال باشا وكان حدثاً جاهلاً ليست له خبرة بالمقاطعات . وقتل (١١٩٧) الوزير حسين مكي باشا والي غزة وصادرت الدولة امواله وكان حارب بني صخر وعرب الوحيدات بعسكره فاستأصلهم .

وفي سنة ١١٩٨ تولى احمد باشا الجزائر ولاية دمشق وفي سنة ١١٩٩ وقعت فتن ايضاً بين عسكر الدولة واللبنايين قتل فيها فريق من الطرفين . وانتهى القرب والبلاد على هذه الحالة . ومن جملة الفتن ما ذكره من عصيات يوسف الجزار وتحصنه في قلعة صانور على مقربة من عمل جينين في نابلس ، فحاصرها الجزار بنفسه فلم يظفر بطائل فطمع أهل بلاد نابلس وأخذوا يهيجون الناس ، فذهب الباشا ونهب بعض قراها وقتل أناساً كثيرين ثم حاصر صانور ثانية ، وأصبحت بلاد نابلس في فوضى والجزار كل مرة يمزوها ويحرب في قراها ويقتل من أهلها ولم ينل احمد الجزار من يوسف الجزار ما كان يتطال اليه حتى مات الجزار . قال بعضهم : ان نابلس لم تبرح بعصيانها ثقل على الادارة التركية . وكان العصاة فيها يعتصمون بقلعة صانور . هذا وقد تولى حلب في هذا القرن سبعون والياً قضى معظمهم أشهراً في الولاية واكثرهم لم يتجاوز الخمس سنين وكان ولاية دمشق في هذا القرن ستة واربعين والياً كان منها نحو خمس واربعين سنة في حكم آل العظم .

الحكم على القرن } قرن كله ذل ومسكنة ، وثقائل وتشاحن ، عرف بتغلب
الثاني عشر } القيسية على اليمنية بعد وقعة عين دارة ، ورجوع ابن معن
الى الامارة في لبنان ، وانقراض دولة المعنيين بموت الاخير منهم ، وظهور بني شهاب
حكام وادي التيم بظفر جديد خلفوا المعنيين في لبنان ، وظهور ابناء علي الصغير في
بلاد بشارة وانقراضهم كانقراض آل حمادة من شمالي لبنان ، وظهور بني العظم حكماً

في الولايات الشامية وتراجع امرهم ، ثم ظهور ظاهر العمر في عكا وما اليها و دوام حكومته اربعين سنة ، ثم ارسال والي مصر تجريدة بقيادة اسماعيل بك وأخرى بقيادة محمداني الذهب ورجوع هذا عن البلاد بعد ان فتحها الا قليلاً واعتصام الظاهر عمر بملكة روسيا وحصار اسطول الروس بعض الساحل ولا سيما بيروت ، ثم ظهور الجزائر الذي قرض بيت الظاهر عمر .

والدولة فلما جيزت جيشاً خاصاً للتضاء على سلطة احد المتغلبين الالبيين الاجيوشاً اشبه بنجدات يوم محيئ ابي الذهب لفتح الشام ، واستغاثت بابي الذهب لتتخذ البلاد من ظاهر العمر فجاء بجيش من مصر ، اي ان الدولة كانت تستعين بالجار على جاره و بابن العم على ابن عمه وتضعفهم جميعاً ، ومعظم حملاتها كانت للانتقام ممن يملك في تأدية الجباية لها ، وقلما سمع بانها نحت عاملاً كبيراً لسوء ادارته ، وكثرة نهبته في جمع ثروته والعاقلة المستقيم من ولايتها لا تطول ولايته كثيراً حتى يتمكن من اصلاح بعض الشؤون ، وكان الولاة في الحقيقة يستمتعون بلا مركزية واسعة لا يحتاجون معها الى مراجعة الاستانة في كل امر ، ولكن اين العامل النشيط فيهم الذي يعرف يدبر امور الناس ، واذا نهياً الرجل هل تحدثه نفسه بذلك فيتعلم حالاً بارادة الاستقلال ويشي فيه جيرانه والطامعون في ولايته .

اما سلاطين هذا القرن فكانوا وسطاً والوسط لا يعمل عملاً نافعاً ، ولم ينشأ للسلطنة صدور عظام عرفوا بالمضاء وحب العمل امثال ابناء كوبرلي وصوقوالي ، في القرن الماضي بيد ان اعمالهم لم يصل الى الشام منها الا الصدى ، ولم يخرج من الشام نابعة بعقله وادارته من ارباب الاقطاعات وغيرهم كما كان في القرن المنصرم ، وجل همهم مصروف الى دفع عادية خصمائهم من اقربائهم او غيرهم ، وكانوا دون من يأتي من الاستانة من الولاة عقلاً وعدلاً ، ومما ظهر في هذا القرن من النقص المحسوس في البلاد دقلة السكان فقلق العقلاء ، وكان في حلب قبل استيلاء العثمانيين ٣٢٠٠ قرية يتقاضى منها الخراج فنزل عددها الى اربعمائة قرية حتي ان ابن معن لم يقبل ان يتولى بلاد بني حمادة لانها خربت الا قليلاً ، وهام الفلاحون على وجوههم في المدن والجبال وهكذا الحال في ولاية دمشق وفلسطين . وقال فولان : ان سكان كسروان وحده ضعفوا سكان

فلسطين . وهكذا كان السكان يكثرون في المقاطعات التي نتخلص مباشرة من ادارة الباب العالي مثل لبنان ووادي التيم ونابلس وعجلون وان لم تكن حالتها مما يستحب .
 اما اعمال العمران فلم يقم فيها الا قصور لارباب الدولة امثال قصر لاسعد باشا العظم في دمشق وقصره في حماة الى غير ذلك وقامت من المدارس مدرسة اسماعيل باشا العظم ومدرسة سليمان باشا العظم في دمشق وبعض مدارس في حلب ، ولكن بدأ خراب المدارس القديمة العظيمة بمقياس واسع ، وتداعت المساجد والجوامع ، ولم يبق من المشاريع النافعة ما يستحق الذكر لان البلاد لا صاحب لها يغار عليها ، فالمتغلبة من ابناءها والقادمون من الولاة عليها ، لا يهتمون لمثل هذا الشأن ، وسلاطينها ضعاف ان افلح احدهم فعمر له جامعاً ومقبرة خاصة في دار الملك عدوه محباً للعمران ، منقرباً بعمله الصالح من الباري الديان :

ولا تغير من قوم نعيمهم الا تكدر منه الورد والصدر



— فهرس الجزء الثاني —

« من خطط الشام »

صفحة	صفحة
٣٤	٣ (الدولة النورية من سنة ٥٢٢ الى سنة ٥٦٩) — فئنة الاسماعيلية
٣٦	ووقعة دمشق
٣٩	٥ دخول آل زنكي الشام
٤٠	٦ استنجد بعض الصليبيين بالمسلمين
	واستقرار حال دمشق
٤١	٨ خيانة صاحب دمشق وقتل أمه له
٤٣	١٠ توحيد الحكم على يد زنكي وقضاؤه
٤٧	على امارة صليبية .
	١٤ الحال بعد نصف قرن من نزول الصليبيين
٤٩	١٦ صفات عماد الدين زنكي وتولي ابنه نور الدين
٥١	١٨ الحملة الصليبية الثانية وغزوها دمشق
٥٤	٢٢ تقدم نور الدين في فتوحه
٥٨	٢٤ انحلال دولة مجير الدين وتوفيق نور الدين
٦٠	٢٧ مقاصد نور الدين وفتح دمشق
٦٣	٣٠ الداعي لنور الدين على فتح دمشق
٦٦	

صفحة	صفحة
١١٦ مقتل الملك المظفر قطز وسلطنة الظاهر بيبرس واحداث	٦٨ مزايا صلاح الدين ووفاته
١١٨ حروب الظاهر وفتوحه	٧٣ (الدولة الايوبية من سنة ٥٨٩ الى سنة ٦٣٧) — ابناء صلاح الدين
١٢١ وفاة الملك الظاهر وسلطنة ابنة الملك السعيد ثم سلطنة الناصر قلاوون	٧٦ واختلافهم ودهاء عمهم الملك العادل استئثار العادل بالملك الصلاحي
١٢٦ وفاة قلاوون وسلطنة ابنه الاشرف خليل واشتخانه في فرنج الساحل	٨٠ الاحداث في عهد العادل واهتمامه بحرب الصليبيين .
١٢٨ الحملة الصليبية السابعة وانتهاء الحروب الصليبية	٨٢ الحملة الصليبية الخامسة
١٣٧ (دولة المماليك من سنة ٦٩٠ الى ٧٩٠) — فتوح ارمينية وعصيان الموارنة بعوامل صليبية	٨٦ وفاة العادل
١٣٩ وقائع النار	٨٨ فتح الصليبيين دمياط وذلتهم بعد العزة
١٤٣ غزوة الارمن والكسروانيين وتزعزع السلطنة	٨٩ اختلاف بين ابناء العادل ونقد الكامل عليهم
١٤٦ الغزوات في الشمال وظهور دعوة جديدة	٩٣ الحملة الصليبية السادسة
١٤٩ سياسة المماليك مع اكبر عمالهم ووفاة الناصر وتولي المنصور	٩٥ اختلافات جديدة بين آل العادل
١٥٠ خلع الملك المنصور ومقتل غيره واحد من اخوته الذين خلنوه	٩٨ وفاة الملك الكامل وحال الشام بعده
١٥٣ احداث وكوائن وعصيات ومخمرات	١٠١ (انقراض الايوبيين وظهور دولة المماليك البحرية وظهور التتر من سنة ٦٣٧ الى سنة ٦٩٠) — ظهور الخوارجية
	١٠٣ اختلاف بني ايوب واعتصاد بعضهم بالفرنج وعودة الخوارجية
	١٠٧ وفاة الملك الصالح ومبدأ دولة المماليك
	١١٠ هولاكو التتري

صفحة	صفحة
١٩٣ الملك السكير وقتله	١٥٦ مقتل الاشرف شعبان والاحداث بعده
١٩٥ الخليفة السلطان وسلطنة شيخ	١٥٩ سلطنة برفوق وحالة المالك
١٩٦ هلاك المؤيد شيخ وسلطنة ابنه في القماط	البحرية والشراكسة
١٩٧ وفاة ططر وسلطنة ابنه ثم تولى الاشرف برسباي	١٦١ (وقائع تيمورلنك من سنة ٧٩٠ الى ٨٠٣) — بداءة تيمورلنك ومناوشة جيشه
١٩٩ الملك العزيز يوسف والملك الظاهر جقمق	١٦٣ القتال على الملك
٢٠٠ المنصور والاشرف والمؤيد والظاهر خشدقدم والظاهر بلباي والاشرف قايتباي	١٦٤ عوامل الخراب قيس ويمين
٢٠١ مصائب القطر الطبيعية ثم السياسية	١٦٧ الخوارج على ملوك مصر
٢٠٤ وقعة مشؤومة واحداث	١٧٠ وفاة برفوق وسلطنة ابنه الناصر فرج والخوارج على الملك
٢٠٥ اول مناوشة مع الاتراك العثمانيين	١٧٢ الحرب الاولى مع تيمورلنك
٢٠٨ وفاة الاشرف قايتباي وتولي ابنه ناصر الدين محمد	١٧٣ تيمورلنك على ابواب حلب
٢٠٩ الملوك المتأخرون وآخرهم الغوري	١٧٥ تيمورلنك على حماة وسلمية وحمص
٢١١ سلطنة طومان باي	١٧٦ تيمورلنك على دمشق
٢١٢ القضاء على مملكة ذي القدرية وطبيعة دولتي المالك البحرية والمالك البرجية	١٧٧ وصف افعال تيمورلنك في دمشق
٢١٥ (الدولة العثمانية من سنة ٩٢٢ هـ الى ١٠٠٠ هـ) — حالة الشام قبل الفتح العثماني	١٨١ الخراب الاعظم واخلاق تيمور ونجاة فلسطين منه
	١٨٥ (عهد المالك الاخير من سنة ٨٠٣ الى ٩٢٢) — البلاد بعد الفتنة التيمورية ومخامرة العمال
	١٨٨ وقائع التركمان مع الناشزين على السلطان

صفحة	صفحة
٢١٦	مقائل الغوري ومقدمات الفتح
٢١٨	صلات العثمانيين مع المماليك ووقعة مرج دابق
٢٢٠	قوة الغالب والمغلوب وغنائم الغالبين واضطراب البلاد
٢٢٢	دخول السلطان سليم حلب ودمشق
٢٢٣	مقابلة امراء البلاد سلطانهم الجديد وتغير الاحكام
٢٢٥	السلطان في دمشق وفي الطريق لفتح مصر
٢٢٧	فتوق وغارات وتأذي السكان
٢٢٩	محاسن السلطان سليم ومساويه ومهلكه
٢٣٢	خارجي خان اولاً وثانياً
٢٣٤	طبيعة الدولة العثمانية
٢٣٧	كوائن داخلية وامراء المقاطعات
٢٣٨	مهلك السلطان سليمان وتولي سليم الكبير
٢٣٩	عهد السلطان مراد الثالث وحملات على ارباب الدعارة
٢٤١	بنو عساف وبنو سيفنا وابن فريخ وخراب البلاد
٢٤٣	حالة البلاد في الحكم العثماني
٢٤٧	(العهد العثماني من سنة ١٠٠٠)
٢٥٠	عهد احمد الاول وفننه ابن جانبولاذ وغيرها
٢٥٥	الامير نحر الدين المعني وآل شهاب وقتن
٢٥٧	عهد مصطفى الاول وعثمان الثاني
٢٥٨	عداء على الفرنج وقتن داخلية
٢٦٠	حملات على الامير نحر الدين المعني وغيره
٢٦٢	القضاء على الامير نحر الدين المعني
٢٦٥	فتن في الساحل
٢٦٧	ابراهيم الاول وسفاحته
٢٧٠	فتنة وال اخرق في حلب
٢٧٢	محمد الرابع وصدارة كوبرلي
٢٧٧	عهد سليمان الثاني والحكم على الخوارج
٢٨١	(العهد العثماني من سنة ١١٠٠)
٢٨٤	دور احمد الثاني وقتن
٢٨٥	دور مصطفى الثاني وانقراض دولة بني معن
٢٨٦	عهد احمد الثالث وسياسة الدولة

صفحة	صفحة
٣٠٠ سيرة ظاهر العمر الزيداني وسياسته	مع من ينكر الظلم ووقعة عين دارة
٣٠٣ حملة ابي الذهب على الشام	٢٨٨ فتن ومظالم مستجدة وظهور آل
٣٠٧ عهد عبد الحميد الاول ونعمة اخبار	العظم
ابي الذهب	٢٩٠ عهد محمود الاول
٣٠٩ خاتمة ظاهر العمر وولاة حلب	٢٩٣ فتن ومشاغب
٣١٣ اولية الجزائر	٢٩٨ عهد عثمان الثالث ومصطفى الثالث
٣١٥ الحكم على القرن الثاني عشر	وبعض الاحداث في ايامها

